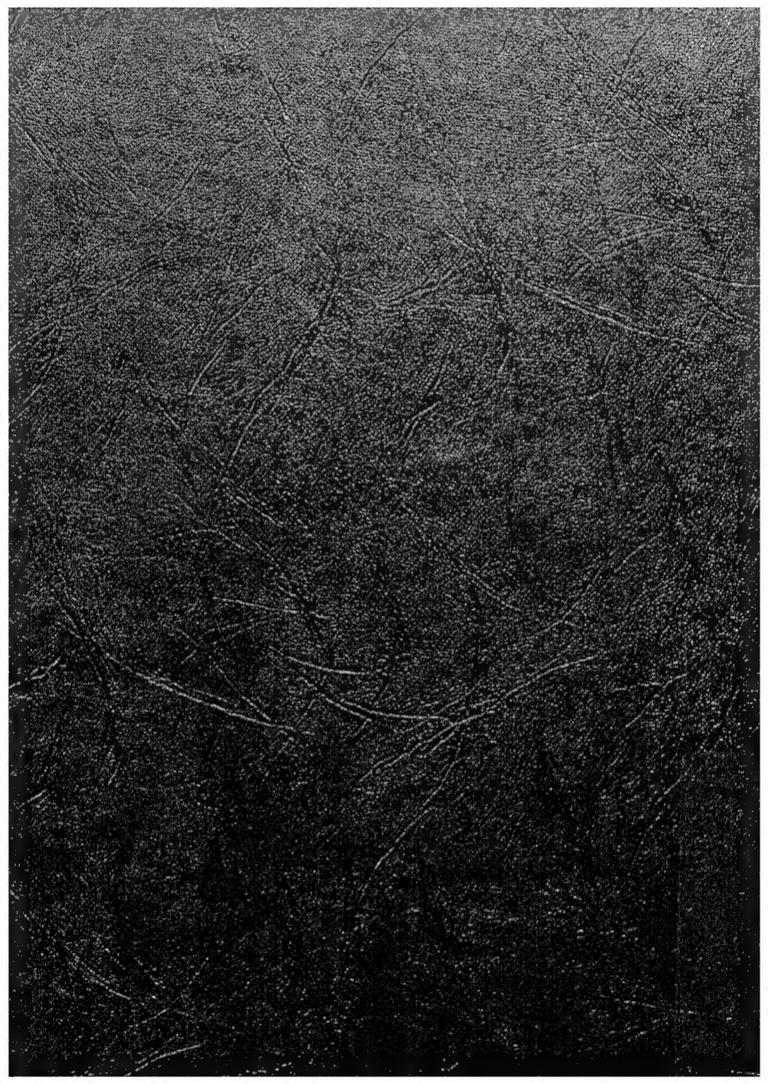


اهداءات ٢٠٠١
ربان / حمدي عبد المنعم غالي
الإسكندرية



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

الحزب السابع

الطبعة الأولى ١٣٩٤ هـ — ١٩٧٤ م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٧٤

(كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾) .

المفـردات :

(الطَّعَامِ): ما يطعم بالفم ، كالخبز ، والفاكهة . أو ما يؤدى إليه ، كالحنطة والشعير . والماء من الطعام ؛ لأنه يطعم بالفم . ولذا قال تعالى : « وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي [1] » أى : ومن لم يذق ماء النهر فإنه منى .

(حِلًّا) : أى حلالا . والمراد : الإخبار عن أكل الطعام بأنه حلال لا ذات الطعام ؛ لأن الحِل والحُرمة لا يتعلقان بذوات الأشياء ، بل بأفعال العباد المتعلقة بها . والحِل : مصدر . فيوصف به المذكر والمؤنث ، والمفرد وسواه ، بلفظ واحد .

(لِبَنِي إِسْرَائِيلَ) : إسرائيل ؛ يعقوب عليه السلام . وبنوه : ذريته .

(مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ): دين إبراهيم .

(حَنِيفًا) : مائلا عن الباطل إلى الحق .

التفسير .

٩٣- (كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) :

---

(١) البقرة : من الآية ٢٤٩

بعد أن أبطل القرآن الكريم – فى الآيات السابقة – بعض مفتريات أهل الكتاب ، شرع فى إبطال فريتين أخريين لهم : إحداهما : تتصل ببعض أحكام الطعام . والثانية : تتصل بالقبلة . وسيأتى بيان ذلك .

سبب النزول :

ذكر الواحدى فى سبب النزول ؛ أنه حين قال النبى صلى الله عليه وسلم : « أنا على ملّةِ إبراهيم » قالت اليهود : كيف وأنت تأكل لحوم الإبل وألبانها ؟ . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « كان ذلك حلالا لإبراهيم عليه السلام ، فنحن نحلله » فقالت اليهود : كل شىء نحرمه اليوم ، كان محرماً على نوح وإبراهيم ، حتّى انتهى إلينا . فأنزل الله تعالى هذه الآية تكذيبًا لهم .

والمعنى : كل الطعام كان حلالا لبنى إسرائيل ، من قبل أن يُنزل الله التوراة على موسى . فلم يحرم الله تعالى شيئًا منه ، فى شرائعه التى أنزلها على إبراهيم وابنه اسحق وحفيده إسرائيل – يعقوب – عليهم السلام ، إلا ما حرمه إسرائيل على نفسه : اختيارًا ونذرًا . ولم يحرمه الله عليه ولا على أمته : تشريعًا . وليس صحيحا ما زعموه من أن الطعام المحرم عندهم كان محرما على نوح وإبراهيم وسائر الأنبياء ، وأن ذلك ثابت فى التوراة – بل هو ابتداع منهم . أو حرّمه الله عليهم بظلمهم كما قال تعالى : « فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ »[1] .

قل لهم يا محمد : فأْتوا بالتوراة فاتلوها ، لتقيموا الدليل بذلك ، على أن تحريمها شرع قديم لمن تقدّم من الرسل ، إن كنتم صادقين فيما زعمتموه .

وبهذا التحدى ، أخزاهم الله وفضحهم ؛ إذ لم يقرءوا التوراة أمامه ، حتى لا يظهر كذبهم . وكان هذا من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم .

أما ما حرمه إسرائيل على نفسه ، فهو لحوم الإبل وألبانها . وكانت أحب الطعام إليه . وسبب ذلك على ما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس رضى الله عنهما . قال : حضرت

(١) النساء : من الآية ١٦٠ .

عصابةٌ من اليهود نبيَّ الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : حدِّثنا عن خلالٍ نسألك عنهن : لا يعلمهن إلا نبي . قال : سلونى ما شئتم . ولكن اجعلوا لى ذمةَ الله وما أخذ يعقوبُ على بنيه ، لئن أنا حدثتكم شيئًا فعرفتموه لَتُبَايِعُنِّى على الإسلام ؟ قالوا : فذلك لك . قال : فسلونى عما شئتم . قالوا : أخبرنا عن أربع خلال : أخبرنا : أى الطعام حَرَّمَ إسرائيلُ على نفسه ؟ » ثم ذكر بقية أسئلتهم . وأجاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، عن السؤال الأول : « أَنْشُدُكم بالذى أنزل التوراة على موسى : هل تعلمون أن إسرائيل مرض مرضًا شديدًا وطال سَقَمه، فنذر لله نذرًا لئن شفاه الله من سَقَمه لَيُحَرِّمَنَّ أحبَّ الأشياء إليه ، وأحب الطعام إليه . وكان أحب الطعام إليه لُحْمان الإبل، وأحبُّ الشراب إليه ألبانها فقالوا : اللهم نعم . قال : اللهم اشهد عليهم » إلى آخر الحديث .

فهذا الحديث، دل على أنهم أقروا النبي صلى الله عليه وسلم، على أن تحريم لحوم الإبل وألبانها على يعقوب عليه السلام ، لم يكن بشرع الله ، بل بنذر يعقوب . فليس من حقهم أن يدَّعوا عموم التحريم ، وأن ذلك تشريع نازل من السماء . بل هو أمر شخصى يتعلق بإسرائيل نفسه . . وفاءً بنذره .

فكل نَذْر يجب الوفاءُ به ، فى حق صاحبه دون غيره .

ولعل إسرائيل عليه السلام ، اعتبر ذلك قربة إلى الله من جهة ما فيه من قهر النفس ، وإبعادها عن أحب ما تشتهيه.

وقهرُ النفس من المقاصد الشرعية .

وبالرجوع إلى التوراة فى مظان هذا الموضوع ، لم نجد فيها أساسًا لدعواهم أن ذلك التحريم شرعه الله فى أى عهد من عهود النبوات ، ولا لدعواهم أن التحريم انتقل إليهم من الشرائع السابقة كما زعموا ، ولا لدعواهم أن الله حرمها عليهم بتحريم يعقوب لها على نفسه !

ولقد كان اليهود يدعون أن ذلك شرع قديم ، ولكن الرسول كشف الغطاء عن الحق فبهتوا ، وبان لهم – بذلك – أنهم فى ضلالهم يعمهون .

ويرى الإمام محمد عبده : أن المراد بإسرائيل فى قوله : (إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ) هو شعب بنى إسرائيل ؛ لأن هذا هو الذى كان معروفًا بينهم عند الإطلاق .

ويرى الشيخ رشيد رضا فى تفسيره : المنار : « أن هذا هو الأقرب ؛ إذ لو أريد بإسرائيل يعقوب نفسه ، لما كان هناك حاجة إلى قوله تعالى : (مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ) لأن زمن يعقوب سابق على زمن نزول التوراة ، سبقًا لا يُشتبه فيه حتى يحترز عنه .

ثم قال : والمتبادر عندى ، أن المراد بما حرمه إسرائيل على نفسه : ما امتنعوا من أكله وحرموه على أنفسهم ، بحكم العادة والتقليد لا بحكم من الله ، كما يعهد مثل ذلك فى جميع الأمم . ومنه تحريم العرب للبحائر والسوائب وغير ذلك ، مما حكاه القرآن فى سورتى : المائدة والأنعام . . انتهى كلام الشيخ رشيد .

ولكن الراجح : أن المراد بإسرائيل يعقوب نفسه ، كالرأى الأول ؛ لحديث الإمام أحمد الذى تقدم .

وفائدة قوله تعالى : (مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ) أنه لو كان الله شرع له ولبنى إسرائيل ذلك ، لذكر فى التوراة ؛ لأنه سابق على نزولها على موسى . ولمّا اتضح أنهم مفترون كاذبون بهروبهم من قراءة التوراة — عقب الله الآية الكريمة بوعيد من يفترى الكذب على الله ، وذلك فى قوله تعالى :

٩٤ — (فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) :

يعنى : فمن اختلق على الله الكذب بنسبة حكم شرعى إليه تعالى — من بعد وضوح الحجة على أنه ليس كذلك — فأُولئك هم الظالمون لأنفسهم بالكفر ، ولمن أضلوهم بالإغواء ، لأنهم يتحملون التبعة الناشئة عن اختلاقهم : منهم وممن اتبعوهم . وذلك منتهى الظلم .

وما فى الآية من تهديد ، ينتظم كل من افترى الكذب على الله بعد ما تبين له الحق . واليهود داخلون فى ذلك بالأُولى .

٩٥ — (قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) :

أى : يا محمد ، قل لليهود — بعد ظهور كذبهم فيما زعموا — ظهر صدق الله فيما أخبر به ، من أن كل الطعام كان حلاً لبنى إسرائيل إلا ماحرّم إسرائيل على نفسه ، كما ظهر — صدق الله فى كل ما أخبر به على لسان نبيه . . فاتبعُوا دين إبراهيم . فقد كان على الحنيفية السمحة . وما كان من المشركين .

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾) .

المفردات :

(أَوَّلَ بَيْتٍ) : أول موضع لعبادة الله وحده . (وُضِعَ لِلنَّاسِ) : خصص لعبادتهم .

(بَكَّةَ) : من أسماء مكة . عَلَم على البلد الحرام ، وقيل : بكّة : للبيت ، ومكة للبلد . أصله من البكّ . وهو الازدحام .

(آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ) : دلائل واضحات . وسيأتى بيانها .

(مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ): المقام هو : الحجر الذى كان يقوم عليه إبراهيم ، عند بناء البيت ، أو هو المكان الذى كان يقوم فيه للصلاة والعبادة .

(آمِناً) : أى أوجب الله الأمان لمن يأوى إليه . فلا يُعْتَدَى عليه بقتل أو بأذى .

التفسير

٩٦ ـ (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ . . .) الآية .

بعد أن كذّبَ الله اليهود فى زعمهم أن ما حرّموه من الطعام شرع قديم لجميع الرسل . وبعد ما بيّن أن كل الطعام كان حلاً لهم كغيرهم ـ كذبهم فى زعم آخر ، وهو : أن بيت المقدس أعظم من الكعبة ، فهو أولى منها بأن يكون القبلة [1] .

---

(١) ارجع إلى ماسبق بيانه فى تفسير قوله تعالى : (سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِى كَانُوا عَلَيْهَا . .) سورة البقرة : (١٤٢) وما بعدها .

سبب النزول :

روى عن مجاهد قال : تفاخر المسلمون واليهود ، فقالت اليهود : بيت المقدس أفضل وأعظم من الكعبة ؛ لأنه مهاجر الأنبياء ، وفى الأرض المقدسة . وقال المسلمون: بل الكعبة أفضل ، فأنزل الله هذه الآية .

المعنى : إن أول بيت أقيم لعبادة الله وحده ، هو البيت الحرام بمكة . فقد بناه إبراهيم عليه السلام - بأمر الله ، وعاونه فى البناء ولده إسماعيل . وأمره الله أن يؤذن فى الناس بالحج إليه . قال تعالى : « وَأَذِّن فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ »[1] .

أخرج الشيخان ، واللفظ لمسلم ، عن أبى ذر - رضى الله عنه - قال : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أَوَّل بَيْتٍ وُضِعَ فِى الْأَرْضِ ؟ قال : المسجد الحرام .

قلت : ثم أى ؟ قال : المسجد الأقصى . قلت : كم بينهما ؟

قال : أربعون عاماً[2] . ثم الأرض لك مسجد . فحيثما أدركتك الصلاة ، فَصَلِّ » .

وإذا كانت الكعبة أول بيت وضع لعبادة الناس لربهم ، فلا وجه لتفضيل بيت المقدس عليه ، وإيثاره بأن يكون هو القبلة دونها .

(مُبَارَكًا) : بركة البيت بكثرة ثواب من يعبد الله فيه بصلاة وطواف وغيرهما من أنواع الطاعات ، وبتيسير الرزق لأهله .

---

(١) الحج : آية ٢٧

(٢) قال ابن قيم الجوزية فى « زاد المعاد » تعقيبا على هذا الحديث : قد أشكل هذا الحديث على من لم يعرف المراد به فقال : معلوم إن سليمان بن داود هو الذى بنى المسجد الأقصى ، وبينه وبين إبراهيم أكثر من ألف عام . وهذا من جهل القائل ؛ فإن سليمان كان له من المسجد الأقصى تجديده لاتأسيسه ، والذى أسسه هو يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام بعد بناء جده إبراهيم الكعبة ، بهذا المقدار أى بأربعين عاما .

(وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ) : يهديهم إلى عبادة الله وحده ، بحجهم إليه ، وصلاتهم فيه ، واستقبالهم له .

٩٧ - (فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا . . .) الآية .

أى فى البيت دلالات واضحات على أنه من بناء إبراهيم عليه السلام .

منها : مقام إبراهيم . وهو الحجر الذى كان يقوم عليه عند بناء البيت . أو المكان الذى كان يقوم فيه للصلاة والعبادة .

ومنها : وجوب الأمن لداخله استجابةً لدعاء إبراهيم عليه السلام ، بقوله : « وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا ... »[1] .

ومنها : وجوب الحج إليه استجابة لنداء إبراهيم ، كما فى قوله تعالى : « وَأَذِّن فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ »[2] .

وكما ثبت هذا بالقرآن ، فهو ثابت أيضًا تاريخيًّا . ومعروف بالتواتر لدى العرب جيلا بعد جيل .

ومع دلالة هذه الآيات البينات على أولية البيت الزمنية ، فهى - كذلك - أدلة واضحة على فضله وعُلُوّ شأنه .

وقد عَرَضت الآية إلى فرضية الحج بقوله تعالى :

(وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا) :

والحج : أحد الأركان الخمسة للإسلام . فمن استطاعه لزمه ، وندب إليه تعجيله .
والاستطاعة : تكون بوجود الزاد والماء والراحلة ، والقدرة البدنية ، وأمن الطريق .

والمقصود من الزاد : ما يكفيه من الطعام مدة سفره فى حجه ، زائدًا على نفقة من تلزمه نفقته ممن يعول . والمراد من الراحلة : وسيلة الانتقال أيًّا كانت .

(وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) :

---

(١) البقرة من الآية : ١٢٦

(٢) الحج آية : ٢٧

أى ومن أنكر الفريضة أو تهاون فيها ، فوبال ذلك عائد عليه وحده ؛ لأنّ اللهَ سبحانه غني عن العالمين . فلا تنفعه طاعتهم ، ولا تضره معصيتهم . «وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ[1]» .

وفي أسلوب الآية وختامها بقوله تعالى:

(وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) : مايدل على أهمية فريضة الحج ، وعظيم منزلتها عند الله ، وأنه فريضة لايحل لأحد أن ينكرها ، وإلا كان كافرًا بشريعة الله . كما لا يجوز له أن يتكاسل عنها ، حتى لا يكون كافرًا بنعم الله عليه ، غير شاكر له على أفضاله .

(قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾) .

المفردات :

(بِآيَاتِ اللهِ): المراد بها ؛ الآيات الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ومنها آيات القرآن الكريم .

(شَهِيدٌ) : مشاهد لما تعملون ، رقيب عليه .

(تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ) : تمنعون الناس عن طريقه ، وهو الإسلام .

(١) النمل من الآية : ٤٠

(تَبْغُونَهَا عِوَجًا) : تريدونها معوجة .

(وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ) : تشهدون بأنها سبيل مستقيمة .

(يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ) : يستمسك بدينه .

التفسير

٩٨ـ (قُلْ يَآ أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ . . .) الآية .

المعنى : أمر الله نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم ، أن يوبخ كفار أهل الكتاب على كفرهم بما جاء به من الحق ، فقال تعالى :

(قُلْ يَآ أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ . . .) الآية .

وإنما دعاهم بقوله : (يَآ أَهْلَ الْكِتَابِ) ؛ للمبالغة فى تقبيح كفرهم ؛ فإن من كان على بينة من كتاب الله : تهدى إلى الحق ـ يكون كفره أشد قبحًا من غيره . فقد جاء فى كتابهم من الأمارات الواضحة ، ما يشهد بصدق محمد صلى الله عليه وسلم ، وصحة نبوته ، إذ كانوا يتحدثون بذلك قبل بعثته . فلما بُعثَ ، تفرقوا واختلفوا .

وقد ختمت الآية بقوله عزَّ وجلَّ :

(وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ) :

لتشديد التوبيخ ، وتأكيد الإنكار عليهم ، وتهديدهم على هذا الكفر القبيح .

٩٩ـ (قُلْ يَآ أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ . . .) الآية .

وهذا أمرٌ آخر من الله لنبيه ، صلى الله عليه وسلم ، بتوبيخهم على الإضلال ، إثر أمره إياه بتوبيخهم على الضلال .

وتكرير الخطاب (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ) : لتأكيد المبالغة فى التوبيخ ؛ لأن ذلك العنوان ـ كما يستدعى منهم الإيمان بما هو مصدق لما معهم ـ يستدعى منهم كذلك ، دعوة الناس إليه ، وترغيبهم فيه . فصدهم عنه ـ بعد كفرهم به ، وهم يعلمون أنه حق ـ فى أقصى مراتب القبح ، وأبعد درجات الجحود . إذ لم يكتفوا بكفرهم وضلالهم ، بل أمعنوا فى الإضلال وأوغلوا فى الفتنة ، فاحتالوا لفتنة المسلمين ، وصَدِّ من يريد الإسلام . عن الدخول فيه . وادعوا أن صفة محمد صلى الله عليه وسلم ، ليست فى كتبهم ، ولا وجدت البشارة به عندهم .

ثم أفصح عن غايتهم من جحودهم وكفرهم ، فقال سبحانه مِنْ قائل :

(تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) :

أي تريدون أن تكون سبيل الله معوجة ، وأنتم تشهدون أنها لا تحوم حولها شائبة اعوجاج .

ثم ختم الآية بقوله تعالى :

(وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) : وفى هذا من التهديد والوعيد ما لا يخفى .

ولمَّا كان كفرهم صريحًا ظاهرًا ، ختمت الآية الأُولى بشهادة الله تعالى على ما يعملون .

ولما كان صدهم للمؤمنين، بطريق السر والخفية ، ختمت الآية الثانية بما يحسم حيلتهم من إحاطة علمه ـ سبحانه وتعالى ـ بأعمالهم .

١٠٠ ـ (يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ) :

المعنى : قال ابن كثير : يحذر الله تبارك وتعالى ، عباده المؤمنين ، من أن يطيعوا طائفة من أهل الكتاب ، الذين يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله ، وما منحهم من إرسال رسوله . كما قال تعالى : « وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم . . . »[1] الآية . وهكذا قال ههنا : (إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ) :

١٠١ ـ (وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ . . .) الآية .

هذا استبعاد لوقوع الكفر منهم .

والمعنى : كيف يقع منكم الكفر ـ أيها المؤمنون ـ بسبب إغواء الكافرين لكم ، وعندكم ما يعصمكم منه ، فإن آيات الله تنزل عليكم من آن لآخر . وفيكم رسوله يبلغها إليكم ـ ويبينها لكم ـ على أتم وجه .

ومن كانوا كذلك ، فلن يتأثروا بإغواء الكافرين ، مهما كان هذا الإغواء !

(١) البقرة : من الآية ١٠٩

(وَمَن يَعْتَصِم بِاللهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) :

أى ومن يستمسك بدين الله - وهو الإسلام - فقد هُدِىَ إلى طريق مستقيم : يوصل إلى الحق . فلا تُخْدَعوا بأكاذيب أعدائكم الكافرين . فهم بعيلون عن الطريق المستقيم .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ۚ وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾) .

المفردات :

(حَقَّ تُقَاتِهِ) : أى التقوى التى تليق بربوبيته وعبوديتكم .

(بِحَبْلِ اللهِ) : بدينه . وهو الإسلام . وسماه حَبْلًا ؛ لأنه يربط المسلمين - بعضهم ببعض - رباطًا وثيقًا ، كما تربط الأشياءُ بالحبل .

التفسير

١٠٢ - (يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) :

أمر الله - سبحانه - المؤمنين بأن يتقوه حق تقواه . وذلك ببذل أقصى الجهد فى امتثال أوامره واجتناب نواهيه . بحيث يُطَاعُ ولا يُعْصَى ، وَيُذْكَرُ ولا يُنْسَى ، وَيُشْكَرُ ولا يُكْفَر به .

وكرر نداءهم بوصف الإيمان ؛ تشريفًا لهم إثر تشريف ، وحفزًا لهم على الطاعة ؛ إذ مقتضى الإيمان : أن ينصاعوا إلى الامتثال ، بحيث لا يراهم الله حيث نهاهم .

والمراد من قوله تعالى : (اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ) هو عين المراد من قوله : « فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ »[1] لأن الله لايكلف نفسًا إلا وسعها .

ثم عقب الله ذلك بنَهْيِهم عن الموت إلا على الإسلام . والمراد : أن يستمروا على إسلامهم فلا يباغتهم الموت إلا وهم على هذه الحال الكريمة .

١٠٣ - (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا . . .) الآية .

بعد أن نهى الله المؤمنين عن طاعة أهل الكتاب ، ونبّههم إلى عاقبة ذلك فى الدنيا والآخرة ، وذَكَّرَهم بما يجب لله عليهم من تقوى الله حق تقاته ، وتمسكهم بالإسلام حتى يأتيهم الموت وهم مسلمون . - بعد هذا كله - عاد فأمرهم بالاعتصام بحبله ، أى التمسك بالإسلام : مجتمعين غير متفرقين ، وأن يتذكروا نعمة الله التى أنعم بها عليهم حين كانوا أعداء : يقتل بعضهم بعضًا استجابة لعصبية الجاهلية ، فأنقذهم من هذا ونجاهم منه ، بأن هداهم للإسلام ، وألَّفَ به بين قلوبهم ، فأصبحوا يتواصلون بالألفة واجتماع الكلمة .

وبهذا ، صاروا إخوانًا متحابين ، وأعوانًا متناصرين .

فالإسلام يوجب الأخوة بين المؤمنين : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ »[2] . كما يوجب الولاء والنصرة : « وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ »[3]

(وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا) :

---

(١) التغابن من الآية : ١٦ (٢) الحجرات من الآية : ١٠ (٣) التوبة من الآية : ٧١

أى وكنتم – بسبب كفركم وما جرَّكم إليه من عداوتكم – مشرفين على الوقوع فى نار جهنم ؛ إذ لو أدرككم الموت – على هذه الحال – لوقعتم فيها . ولكن الله أنقذكم منها ، بأن هداكم للإيمان ، وزينه فى قلوبكم ، فكان رباطا موحدًا لكم .

(كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) :

أى بمثل هذا البيان الواضح ، يبين الله لكم سائر آياته ؛ لكى تثبتوا على الهدى ، وتزدادوا فيه اعتصامًا وقوة .

١٠٤ – (وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ...) الآية .

يأمر الله المؤمنين – بعد استكمال إيمانهم فى أنفسهم – أن يمتد خيرهم ، ويتجاوز برُّهم إلى غيرهم : بأن يكون منهم جماعة متفقهة فى الدين : يدعون الناس – على بصيرة – إلى الإسلام . وكله خير . فيأمرون بكل ما عُرِف حسنه عقلا وشرعًا ، وينهَوْنَ عن كل ما هو منكر كذلك .

وقد دلت الآية على أن الأمة : يجب عليها أن تخصص طائفة منها : تقوم بالدعوة إلى الله ، كما قال سبحانه : « فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ »[1] .

وهذا لا يعفى سائر أفراد الأمة من القيام بهذا الواجب : كلٌّ بحسب طاقته .

ويؤيد هذا ، ما رواه مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من رأى منكم منكرًا فليغيِّره بيده ، فإن لم يستطعْ فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعفُ الإيمان » .

وفى رواية أخرى لمسلم . « وليس وراء ذلك من الإيمان حبةُ خردل » .

---

(١) التوبة من الآية : ١٢٢

(وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) :

أى وأولئك المتصفون بتلك الصفات العالية ، هم الفائزون بخيرَى الدنيا والآخرة .

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۗ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾) .

التفسير

١٠٥ - (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) :

المعنى : (وَلَا تَكُونُوا) أيها المؤمنون (كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا): فى دينهم (مِن بَعْدِ مَاجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ): وهم اليهود والنصارى ، حيث تفرق كل منهما فرقا مختلفة يكفّر بعضها بعضا . واختلفوا باستخراج التأويلات الزائغة ، وكتم الآيات الناطقة وتحريفها ، بسبب ما أخلدوا إليه من حطام الدنيا . .

فعلوا ذلك ، من بعد ما جاءتهم البينات الواضحات ، التى تحول دون الخلاف وسوء التأويل : (وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) . أى وأولئك المختلفون لهم عذاب عظيم .

والآية وعيد للمتفرقين ، وتهديد لمن يتشبه بهم من المؤمنين .

والاختلاف المنهى عنه فى الدين المنصوص عليه فى الآية : إنما هو الاختلاف فى الأُصول . أما الاختلاف فى الفروع ، الناشىء عن الاجتهاد فى فهم النصوص ، فأمر ثبت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقره .

ومن ثَمَّ ، كان للمجتهد المخطئ أجر كما أن للمصيب أجرين ، لأن الاختلاف فى الفروع أفسح المجال للرخص . والمسلمون بحاجة إليها .

ثم زاد الله عباده المؤمنين تحذيراً من التفرق والاختلاف ، وترغيباً فى الاتحاد والائتلاف : ببيان مآل المؤتلفين والمختلفين بقوله عز وجل :

١٠٦ – (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ . . .) الآية .

أى : اذكروا يوم تَبْيَضُّ وجوه المؤمنين بما يلقَونه من مبشراتٍ ونعيم . وتسوَدُّ وجوه الكافرين بما يلقَوْن من نُذُر وعذاب أليم .

والمراد ببياض الوجوه وسوادها : بهجتها وكآبتها . قال تعالى : « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ . ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ . وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ . تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ . أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ »[1] .

(فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ) :

المعنى : أما الذين اسودت وجوههم فيقال لهم – على سبيل التوضيح – أكفرتم بعد إيمانكم ؟ فذوقوا العذاب بسبب كفركم . .

والمراد بهم : أهل الكتاب . فقد كفروا بما جاءهم من الحق ، فتفرقوا واختلفوا فى دينهم ، وكفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، بعد مبعثه ، وكانوا يؤمنون به من قبل ، ويستفتحون به على الذين كفروا .

---

(١) عبس : من الآيات ٣٨ – ٤٢

وفى هذا يقول الله تعالى : « وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ... »[1] .
إذ المراد بالكتاب : القرآن الكريم .

١٠٧ ـ (وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) :

المعنى : (وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ) فى هذا اليوم ، ممن ثبتوا على الحق فى الدنيا ، لم يتفرقوا فيه (فَفِى رَحْمَةِ اللَّهِ) أى فى جنته ونعيمها ، (هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) أى باقون فيها أبدا . « لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ »[2] .

وإنما عبَّر عن الجنة بالرحمة ؛ لأنها دارُ رحمته ، وللإشعار بأن دخولها ، إنما هو بفضل الله وبرحمته ، لا بالعمل وحده .

١٠٨ ـ (تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ) :

المعنى : تلك الآيات العظيمة المبشرة بإثابة الله للمؤمنين ، المنذرة بتعذيبه للكافرين (نَتْلُوهَا عَلَيْكَ) : يامحمد . (بِالْحَقِّ) : أى محقين عادلين فيما بيَّنَّاهُ فيها من جزاء للعباد حسب أعمالهم (وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا) ولو قليلا (لِلْعَالَمِينَ) .

أى وإذا كان لايريد ظلمًا لأحد من العالمين ولا يقصده ، فإنه لا يقع منه ، فكل عبد ينال جزاء عمله حسب الوعد والوعيد . دون أن ينقص ثوابه إن كان محسنًا ، أو يزاد عقابه إن كان مسيئًا ، أو يعاقب بغير ذنب ، ولكن العباد هم الذين يظلمون أنفسهم باختيارهم الضلالة على الهدى ، واستحقاقهم العذاب بذلك « إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ »[3] .

١٠٩ ـ (وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ . . .) الآية .

أى هما ـ وما فيهما ـ لله وحده : خلقًا وملكًا ، وتدبيرًا ومآلًا .

---

(١) البقرة من الآية : ٨٩ (٢) الحجر آية : ٤٨ (٣) يونس آية : ٤٤

(وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) :

أى وإليه - سبحانه وتعالى وحده - يؤول التصرف فى شئون الدنيا والآخرة .

ومن ذلك مجازاته لكلٍّ بحسب عمله .

(كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ۖ وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾) .

المفردات :

(أُمَّةٍ) الأُمة : الجماعة .

(الْفَاسِقُونَ) : الخارجون عن طاعة الله .

(يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ) : يعطوكم ظهورهم منهزمين .

(ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ) : أُحيطوا بالذلة كما تحيط الخيمة بمن ضربت عليه . والمراد بالذلة : الهوان والصغار ، بتسلط غيرهم عليهم .

(ثُقِفُوا) : وجدوا .

(بِحَبْلٍ): بعهد .

(بَآءُوا): رجعوا .

(الْمَسْكَنَةُ) : الضعف والحاجة الناشئة عن فطرة فيهم .

التفسير

١١٠ - (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ . . .) الآية .

هذا كلام مستأنف ، سيق لتثبيت المؤمنين على ما هم عليه من الاتفاق على الحق ، والدعوة إلى الخير .

والمعنى : كُنتُمْ أيها المؤمنون - فى علم الله القديم - خير جماعة قضى الله إخراجها وإظهارها لهداية الناس .

(تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ) :

استئناف بيَّن الله تعالى به سبب كونهم خير أمة أخرجت للناس . أى تأمرونهم بما عرف حسنه شرعًا وعقلا ، وَتَنْهَوْنَهم عما ينكره الشرع والعقل .

والمراد من الإيمان بالله : الإيمان بكل ما يجب الإيمان به من صفاته تعالى ، وملائكته وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر . . .

وإنما قدم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على الإيمان بالله - مع تقدمه عليهما وجودًا ورتبة - لأن دلالتهما على أنهم خير أمة أخرجت للناس ، أظهر من دلالته على هذه الخيرية لأن جميع الأمم تشترك فى الإيمان . وليقترن بقوله تعالى :

(وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ) :

والآية تشير إلى تقبيح اليهود وذمهم ، بتركهم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، كما سجل الله عليهم ذلك بقوله : « كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ »[1] .

(١) المائدة من الآية : ٧٩

والمعنى : ولو آمنوا جميعًا ، مثل إيمانكم بمحمد وبكل ما جاء به ، لكان ذلك خيرا لهم من البقاء على ما هم عليه ؛ حُبًّا فى الرياسة واستتباع العوام ؛ لأن إيمانهم بمحمد – وبما جاء به – يحقق لهم سعادة الدنيا والآخرة . ولكنهم اختلفوا فكان (مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ) : كعبد الله بن سلام ، وأضرابه (وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ) : أى المتمردون فى الكفر ، الخارجون عن الحدود .

١١١ – (لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى . . .) الآية .

سيقت هذه الآية ، لتطمئن المؤمنين الصادقين ؛ بأن هؤلاء الفاسقين من أهل الكتاب ، لن يستطيعوا إلحاق أى ضرر بالغ بهم ، ما داموا معتصمين بدينهم . وكل ما يستطيعون أن يلحقوه بهم ، لا يتعدى أن يكون أذى يسيرًا لا يبالَى به : كالطعن : والشتم ، والسخرية ، والتهديد ، والوعيد .

(وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ) : أى ينهزموا مدبرين متقهقرين .

(ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ): عليكم . وظهورهم على المسلمين – فى بعض الأحيان – يرجع إلى ترك المسلمين الاعتصام بدينهم ، وإهمالهم إعداد العدة ؛ كما أمر الله بقوله : « وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ[1] » .

١١٢ – (ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ . . .) الآية .

المعنى : أحيطوا بالذلة واحتوتهم ، كاحتواء الخيمة بمن فيها .

والمراد : أنهم ألزموا الذلة ، والتصقت بهم فى أنفسهم وأهليهم وأموالهم . فلا يظهر لهم أمر ، ولا يرتفع لهم شأن ، ولا يقوم لهم ملك من ذات أنفسهم .

---

(١) الأنفال : من الآية ٦٠

وقوله تعالى : (أَيْنَمَا ثُقِفُوا) : أى ؛ حيثما حلُّوا ، ووجدوا .

(إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ) : الاستثناء هنا من عموم الأحوال ، أى أن الذلة مضروبة عليهم فى جميع الأحوال ، إلا فى إحدى حالتين :

الأُولى : اعتصامهم بحبل من الله .

والثانية : اعتصامهم بحبل من الناس .

والمراد من حبل الله . إسلامهم . والمراد من حبل الناس دخولهم تحت ذمة المسلمين ، على أن يؤدوا الجزية فى مقابل حمايتهم ، بشرط أن لا يخونوا ولا يغدروا فإن فعلوا هذا أو ذاك ــ من الاعتصامين ــ كف المسلمون عن إذلالهم بالقتل والأسر .

وأجاز بعض المفسرين : أن يراد من حَبْل الناس ، لجوؤهم إلى قوة غالبة فى الأرض من غير المسلمين ، يستظلون بحمايتهم ، ويستمدون منهم العون والقوة ، كما هو شأنهم فى هذا الزمان .

(وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ) : أى رجعوا به ، مستحقين له .

(وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ) : أى : فُرضت عليهم ، وأُلصقت بهم ، فاليهودى يشعر فى نفسه ــ دائماً ــ بالفقر ، وإن كان موسرًا غنيًّا ، وبالضعف وإن كان قويًّا .

(ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ) :

أى : ما تقدم من ضرب الذلة والمسكنة عليهم ، واستحقاقهم لغضب الله ــ واقع بهم بسبب استمرارهم على الكفر بآيات الله ، وقتلهم الأنبياء ، وهم يعتقدون أنهم غير محقين فى قتلهم .

(ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ) :

أى : ذلك الكفر ، والقتل للأنبياء ، كائن بسبب عصيانهم ، واعتدائهم المستمر على حدود الله .

وتلك طبيعة اليهود دائماً : تَمَرُّدٌ على الدِّين ، واعتداءٌ على حرمات الله وحقوق عباده .

(لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾) .

المفردات :

(قَائِمَةٌ) : مستقيمة عادلة ، من أقمت العود فقام ، على معنى : استقام .

(آنَاءَ اللَّيْلِ) : ساعاته وأوقاته .

(وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ) : يبادرون إليها ، ويتنافسون فيها .

(فَلَن يُكْفَرُوهُ) : فلن يُحْرَموا ثوابه ، وحسن الجزاء عليه . والأصل فى الكفر : الستر ، أى : لن يُحْجَبَ عنهم ذلك الأجر .

التفسير

١١٣ - (لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ) :

لما بيّن الله سبحانه - فيما تقدم - أن من أهل الكتاب مؤمنين ، وأن أكثرهم فاسقون ، وفصّل قبائح الفاسقين - ناسب أن يعدد فضائل المؤمنين . ومهد لذلك بنفى المساواة بين الفريقين بقوله :

(لَيْسُوا سَوَاءً) :

أى : ليس أهل الكتاب متساوين فى هذه الأوصاف القبيحة .

ثم شرع فى تعداد فضائل المؤمنين منهم فقال :

(مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ) ، أى : جماعة مستقيمة على الحق ، وهم الذين أسلموا منهم .

(يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ) :

أى : يقرءون القرآن حال صلاتهم من الليل .

ومن تتمة تلك الفضائل ، صفات أخرى بينها بقوله تعالى :

١١٤ - (يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ . . .) الآية .

وهذه الصفات التى وصفهم الله بها ، لم تكن موجودة فى الفريق الآخر منهم . فقد انحرفوا عن الحق ، ولم يعبدوا الله فى جوف الليل ، وأشركوا به ، وألحدوا فى صفاته ، ووصفوا اليوم الآخر بخلاف وصفه . ولم يأمروا بالمعروف ولم يتناهوا عن منكر فعلوه ، ولم يسارعوا فى فعل الخيرات ، فلذلك لا يستوون - عند الله - مع من آمن منهم ، كما حكم الله بذلك .

وقد ختمت الآية بقوله تعالى :

(وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ) ، تأكيداً لاستقامة أمر تلك الجماعة المؤمنة منهم ؛ وإيذاناً بفساد الفرقة التى لم تؤمن .

١١٥ - (وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ . . .) الآية .

أى : ما يقدمونه من أفعال الخير ، لن يضيع عند الله ثوابه ، ولا ينقص جزاؤه .

(وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ) :

أى : لا يخفى عليه عمل الأتقياء ، ولا يذهب لديه أجر من أحسن عملا .

وفى ذلك بشارة لهذا الفريق ، وإشعار بأن التقوى أساس الخير وعماده .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾) .

المفردات :

(صِرٌّ) : بَرْدٌ شديد .

(حَرْثَ قَوْمٍ) : زرعهم .

التفسير

١١٦ - (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللهِ شَيْئاً . . .) الآية .

هذه الآية - والتى بعدها - فى شأن الكفار جميعًا . ويدخل فيهم أهل الكتاب دخولا أوليًّا .

والمعنى : إن الذين كفروا بما يجب الإيمان به - كيفما كان كفرهم - لن تدفع عنهم أموالهم - مهما بلغت - ولا أولادهم - مهما كانت معونتهم - من عذاب الله شيئًا : قليلا كان أو كثيرًا .

وليس المراد : خصوص الأموال والأولاد ، بل كل مايعتبره الإنسان وسيلة قوة ومنعة .

وإنما خص الأموال والأولاد بالذكر ؛ لأن الإنسان - فى الغالب - يدفع عن نفسه تارة بالفداء بالمال ، وأخرى بالاستعانة بالأولاد . .

فأخبرهم الله تعالى بأن الكافر لا ينفعه شيء من ذلك فى الآخرة ، ولا مخلص له من العذاب ولا محيص عنه .

(وَأُولَئِكَ) : المتصفون بالكفر .

(أَصْحَابُ النَّارِ) : أهلها ، الملازمون لها .

(هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) :

لا يبرحونها أبدًا ، كما قال سبحانه : « وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ [1] » .

١١٧ - (مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ . . .) الآية .

بعد ما بين - سبحانه - أن أموال الكفار لا تدفع عنهم العذاب فى الآخرة ، أتبع ذلك بيان أنهم لو أنفقوها فى وجوه الخير والبر ، لا يثابون عليها ؛ لأن الثواب على الطاعات ، مشروط بتحقق الإيمان .

والمعنى : مثل ما ينفقونه فى حياتهم الدنيا من المبرات والخيرات - فى إحباطه بالكفر وعدم انتفاعهم به - كزرع قوم ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصى ، فأرسل الله عليه ريحًا فيها برد شديد ، فصيرته حطامًا لا ينتفع به ، كما قال سبحانه : «وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا [2] » .

(وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ) : بإحباط الأجر وذهاب الثواب على ما أنفقوا .

---

(١) المائدة : ٣٧ (٢) الفرقان : ٢٣

(وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) :

أى : ولكن هم الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم ، فأضاعوا ما عملوا ، وأحبطوا ثواب ما أنفقوا.

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾) .

المفردات :

(بِطَانَةً) : بطانة الرجل ، خَاصَّتُهُ وموضع سره . مأخوذةٌ من بطانة الثوب .

(مِن دُونِكُمْ) : من غير ملتكم .

(لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا) : لا يُقَصِّرُون ولا يدخرون وسعا فى إنزال الخبال بكم .

والخبال : الشر والفساد .

(وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ) العَنَت : المشقة . والمعنى : هم تمنوا ما يشق عليكم .

(الْبَغْضَاءُ) : الحقد والكراهية .

(بِذَاتِ الصُّدُورِ) : بما انطوت عليه القلوب من الأسرار. فإنه سبحانه يعلم السر وأخفى .

التفسير

١١٨ - (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً . .) الآية .

بعد أن بين الله أحوال المؤمنين والكافرين ، حذر المؤمنين من موالاة الكافرين ، وجَعْلِهم موضع ثقتهم ، باطلاعهم على بواطن أمورهم . فقال :

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً) :

أى : لا تتخذوا من غير المسلمين أصفياء : تجعلونهم مواضع سِرِّكم ومشورتكم ؛ لأنهم لا يدخرون وسعاً فى إلحاق الشرِّ والفساد بكم .

(وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ) :

أى : أحبوا أن يقع بكم مايشق عليكم من أنواع المحن والبلاء فى شئون دينكم ودنياكم .

(قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ) :

أى : قد ظهرت الكراهية من أفواههم ، على فلتات ألسنتهم .

(وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ) :

وَمَا تنطوى عليه صدورهم من الحقد والكراهية لكم أكبر مما ظهر على أفواههم .

(قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْآيَاتِ إِنْ كُنتُمْ تَعْقِلُونَ) :

قد أوضحنا لكم الآيات الدالة على شديد بغضهم لكم . فلا توالوهم إن كنتم من ذوى العقول الواعية ؛ فإن مقتضى العقل السليم : ألا يتخذ الإنسان أحدًا من غير ملته صفيًّا له ومحل ثقه .

وفى هذا البيان ما يقطع عذرهم ، إذا ماخالفوا عن أمر ربهم ، واتخذوا أولياءهم من أعدائهم .

١١٩ - (هَآأَنتُمْ أُولَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَابِ كُلِّهِ . . .) الآية .

لما نهى الله المؤمنين عن موالاة الكافرين ، وبيَّن أنهم يبغضونهم ولا يدخرون وسعًا فى خبالهم ، عقب ذلك بما يؤكد وجوب الانتهاء عن موالاتهم . فقال :

(هَآ أَنتُمْ أُولَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ) :

أى : أنكم تخلصون لهم ، وتوادونهم ، وترجون لهم الخير . ولكنهم لا يحبونكم ، ولا يرغبون إلا فى خبالكم وفسادكم ، ثم إنكم – إلى جانب حبكم لهم – تؤمنون بكل ما أُنزل من الكتب السماوية ، وبالرسل الذين أُنزلت عليهم .

(وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا) : نفاقًا لكم وخداعًا حتى تستبطنوهم وتخبروهم بأسراركم ، فيستغلوا مودتكم فيما ينفعهم ، وفيما يَجْلِب الخبال فيكم .

(وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ) :

أى : إذا فارقوكم ، وخلصوا إلى أنفسهم ، عضوا أناملهم من الغيظ حسرة وأسفاً ، حيث لم يجدوا إلى التشفى والنيل منكم سبيلا .

وعض الأنامل فى الآية ، كناية عن شدة الغيظ .

(قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ) :

أى : قل لهم يا محمد : موتوا بغيظكم من بقائنا على الإسلام ؛ فإن الله مُتِمٌّ نعمته ومكمل دينه ، وَمُعْلٍ كلمته ، ولو كره الكافرون .

(إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) : فيعلم ما تنطوى عليه ضمائرهم ، وَتُكِنُّهُ سرائركم من البغضاء والحسد . ويكفى المسلمين شره ، ويجازيكم عليه .

١٢٠ – (إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا . . .) الآية .

المعنى : إن نالكم خير – ولو كان قليلا – أحزنهم ، وإن نزلت بكم مصيبة فادحة يفرحوا بها ويشمتوا بكم .

(وَإِن تَصْبِرُوا) : على عداوتهم وكيدهم (وَتَتَّقُوا) : الله فى كل أموركم : بفعل الواجبات وترك المنهيات . ومن ذلك ترك محبتهم واطلاعهم على أسراركم .

(لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا) : أى لا ينال منكم مكرهم وحيلهم التى يدبرونها لكم شيئًا قليلا من الضرر ، بحفظ الله الذى وعد به ، مادمتم تتقون الله وتخشون عقابه .

(إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ) : من الكيد لكم ، ومحاولة إلحاق الأذى بكم .

(مُحِيطٌ) : لا يعْزُبُ عنه من ذلك شىء .

ومقتضى علمه تعالى بما يعملون : أن يحاسبهم ويجزيهم عليه .

وقرئ بتاء الخطاب (تَعْمَلُونَ) : والخطاب للمؤمنين .

والمعنى : إن الله محيط بما تعملونه ، أيها المؤمنون ، من الصبر والتقوى وسائر الطاعات . والإذعان لما نهاكم عنه من مَودَّةٍ من ليس على دينكم ، وإطلاعهم على أسراركم .

وفيه إشارة إلى أن الامتثال مدعاة للغلب والفوز والانتصار ، وأن المخالفة عن أوامر الله ، سبيل الندامة والهلاك .

(وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ ۚ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾) .

المفردات :

(غَدَوْتَ) : أصل الغدوّ الذهاب أول النهار ، ثم استعمل فى مطلق الخروج .

(تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ) : تنزلهم الأماكن المناسبة للقتال .

(هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أن تَفْشَلَا) : أشرفتا على الهزيمة .

(بِبَدْرٍ): بَدْر . اسم لمكان بين مكة والمدينة كانت به الغزوة المعروفة باسمه .

(وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ) : قليلو العَدَد والعُدَّة .

(مِن فَوْرِهِمْ) : أى من ساعتهم .

(مُسَوِّمِينَ): مسوِّمين بكسر الواو المشددة ؛ متخذين سمة ، أى علامة تميزهم ، وبفتحها ، بمعنى معلَّمين من الله تعالى .

التفسير

١٢١ – (وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ . . .) الآية .

سيقت الآية للاستشهاد على أن مصير الأتقياء الصابرين، النجاة من كيد الأعداء ،وأن عدم الصبر والتقوى ، لا يورث إلا الأذى والضرر .

والمعنى : اذكر يا محمد – وذكِّر من معك – يوم خرجت من بيتك تنظم المؤمنين ، وتنزلهم مواقفهم من القتال ؛ وأماكنهم من الصفوف لخوض المعركة : ترشدهم بما ترى ، وتحذرهم المخالفة ، وتعاهدهم وتوصيهم ألا يغادروا أماكنهم ، مهما رأوا من أمارات الانتصار. وكان ذلك فى غزوة أُحد .

وجاء الخطاب – هنا – خاصًّا بالنبى صلى الله عليه وسلم ، مع عموم الخطاب – فيما قبله وفيما بعده – له وللمؤمنين ، لاختصاص مضمون الكلام هنا به عليه الصلاة والسلام .

وأَمْرُهُ بتذكر الوقت – مع أن المراد تذكر الأحداث الواقعة – فيه مبالغة فى استحضار ما وقع فيه .

(وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) : أى سميع لأقوالكم ، عليم بنياتكم وأعمالكم . فيجازى كلا على قوله ونيته وعمله .

روى المفسرون وأصحاب السير : أن المشركين نزلوا بأُحد ، قبيل منتصف شوال من السنة الثالثة للهجرة ، يريدون القتال . فاستشار النبى صلى الله عليه وسلم ،

أصحابه ، فقال عبد الله بن أبى بن سلول وفريق من الأنصار : يا رسول الله ، أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم ؛ فوالله ، ما خرجنا منها إلى عدوّ قط إلّا أصاب منّا ، ولا دخلها علينا عدوّ إلّا أصبنا منه . فكيف وأنت فينا ؟ فإن أقاموا أقاموا بشر محبس . وإن دخلوا علينا قاتلهم الرجال . ورماهم النساءُ والصبيان بالحجارة من فوقهم ، - وإن رجعوا - رجعوا خائبين .

وأشار آخرون بالخروج . فقال عليه الصلاة والسلام :

« رأيت فى منامى بقرةً مذبوحة حولى فأوَّلْتها خيرًا ، ورأيت فى ذباب سيفى ثُلَمًا ، فأوَّلته هزيمة ، ورأيت كأنّى أدخلت يدى فى درع حصينة فأوَّلتها المدينة ؛ فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم ؟ » .

فقال رجال - فاتتهم بدر وأكرمهم الله بالشهادة يوم أحد - اخْرُجْ بنا إلى أعدائنا ، وبالغوا ، حتى دخل فلبس لأمته[1] فلما رأوا ذلك ندموا على مبالغتهم ، وقالوا : اصنع يا رسول الله ما رأيت . فقال عليه السلام :

« ما ينبغى لنبيٍّ أن يضع أداته - بعد ما لبسها - حتى يحكم الله بينه وبين عدوه.[2] » .

فخرج بعد صلاة الجمعة ، وأصبح بشعب أحد يوم السبت . ونزل فى عدوة الوادى ، وجعل ظهره وعسكره إلى أحد ، وسوى صفهم . وأمَّر عبدَ الله بن جُبَير على الرماة ، وقال لهم :

« انضحوا عنا بالنَّبل : لا يأتونا من ورائنا » .

وكان عدد المسلمين ألفًا ، وعدد المشركين ثلاثة آلاف : جاءوا ليأخذوا بثأرهم يوم بدر.

١٢٢ - (إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا . . .) الآية .

والمعنى : اذكر يا محمد ، حين همت طائفتان - وهما بنو حارثة من الأوس وبنو سلمة من الخزرج - أن تفشلا أى تجبنا وتضعفا . وكانت هاتان الطائفتان جناحَىْ عسكر المسلمين يوم أحد .

---

(١) لأمته : درعه .

(٢) رواه الترمذى والبيهقى وابن ماجه .

وقد روى المفسرون أيضا : أنه عليه الصلاة والسلام ، خرج فى زهاء ألف رجل ، ووعدهم النصر إن صبروا واتقوا . فلما بلغوا الشوط - بستان بين المدينة وأحد - انخذل عبد الله بن أبى رأس المنافقين ، فى ثلاثمائة رجل . وقال : عَلَامَ نقتل أنفسنا وأولادنا ؟ ! فتبعهم عَمْرُو بن حزم الأنصارى وقال : أنشدكم الله فى نبيكم وأنفسكم[1] ، فقال ابن أبى : لو نعلم قتالا لاتَّبعناكم . فَهَمَّ الحيَّانِ باتِّباعه ، فعصمهم الله ، فمضَوْا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والظاهر أن الهمَّ لم يكن عزيمة ، وإنما هو حديث نفسى ، وخاطرة خطرت ، مما لا يسلم منه إنسان غالبًا ؛ لقوله تعالى :

(وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا) : أىْ عاصمهما عن اتباع هذا الخاطر .

ولذلك مضيا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) :

المراد بالتوكل : الاعتماد على الله - سبحانه - مع الأخذ بالأسباب . وإلا كان تواكلا .

والمعنى : وعلى الله فليعتمد المؤمنون ، ولا يفكروا فى الفشل . فإنه سبحانه ، ينصر أهل العزم والثبات من عباده المؤمنين المتوكلين . كما قال تعالى ، تذكيرا ببعض ما أفادهم التوكل .

١٢٣ - (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ . . .) الآية .

أى : ولقد نصركم الله على قريش ببدرٍ وأنتم قليلو العدد والعدة ، فقد كان المسلمون يومئذٍ ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا أو أربعة عشر ، فى قلة من السلاح أو المطايا . وكان عدُوُّهم ما بين التسعمائة والألف ، فى كثرة من السلاح والزاد والعتاد . ولو أن غزوة بدر جرت على مقاييس القوة والاستعداد - دون التوكل على الله - لكان النصر لقريش دون المسلمين . ولكن النصر جرى على سنة الله : من نصر المتقين الصابرين المتوكلين على الله ، الممتثلين لأمر قائدهم .

(١) وقيل إن الذى تبعهم وقال هذه المقالة ، هو عبد الله بن عمرو - والد جابر بن عبد الله .

(فَاتَّقُوا اللَّهَ) : فى الثبات ، والصبر ، وامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه .

(لَعَلَّكُم تَشْكُرُونَ) :

أى : لعل الله ينعم عليكم بالنصر فتشكروه عليه .

١٢٤ـ (إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ) :

المعنى: اذكر يامحمد ، إذ تقول للمؤمنين يوم أحد : ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم المتفضل عليكم ، بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين من الله؛ لتثبيتكم وتقوية قلوبكم على أعدائكم ، إن أنتم توكلتم عليه وصبرتم ! ولذا ، عقب هذه الآية بقوله :

١٢٥ـ (بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ) :

(بلى) : أى نعم ، يكفيكم الإمداد بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين من الله. وعقّب إقراره لكفاية هذا العدد ، بأن وعدهم بأنهم ـ إن صبروا واتقوا وعاجلهم المشركون بالقتال فى الحال ـ يُمِدهم بخمسة آلاف من الملائكة ، فور إتيان الأعداء بلا تأخير ..ولكنهم لمّا لم يصبروا وخالفوا أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ـ لم تنزل الملائكة ، ولذا لم يحصل النصر كما حصل فى غزوة بدر . كما سيأتى بيانه فى سورة الأنفال .

ومعنى : (مُسَوِّمِينَ) : مميزين أنفسهم بعلامات يُعْرَفون بها : أو مغيرين على الأعداء . من : سَوَّم على القوم : إذا أغار عليهم ، ففتك بهم.

وقرئ :(مُسَوَّمِينَ) ـ بفتح الواو المشددة ـ بمعنى معلَّمين بعلامات من الله يعرفونها. أو مرسلين من قِبَله. من سوّمه بمعنى : أرسله .

وسياق ما تقدم من الآيات ، ظاهر فى أن الحديث هنا فى غزوة أحد.

وأما ذكر غزوة بدر فى قوله : (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ . . .) الآية .

فهو متوسط بين طرفى قصة أحد ؛ لتذكيرهم بنصر الله لهم فيها ، حين صبروا .

وهناك قول ثان . وهو أن الظرف فى قوله : (إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ) متعلق بقوله : (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ) .

وعلى هذا ، يكون وعد الرسول للمؤمنين بالإمداد بثلاثة آلاف وخمسة آلاف ـ إنما ذلك فى غزوة بدر ، بعد ما أمدهم بألف ؛ ليزدادوا ثباتًا .

وهذا الرأى ارتضاه ابن جرير ، وهو مرویٌّ عن الحسن البصرى ، وعامر الشعبى ، والربيع بن أنس وغيرهم .

والظاهر هو الرأى الأول ؛ كما قلنا .

(وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾) .

المفـردات :

(لِيَقْطَعَ طَرَفًا) : لينقص فريقًا من الكافرين بالقتل والأسر .

(يَكْبِتَهُمْ) الكبت : شدة الغيظ ، أَوْ وَهْنٌ يقع فى القلب .

(فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ) : فيرتدوا منقطعى الآمال .

التفسير

١٢٦ - (وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ . . .) الآية .

أى وما جعل الله الإمداد بالملائكة ولا الوعدَ به ، إلا بشارة لكم بالنصر ، وتطميناً لقلوبكم ، حتى تثبتوا أمام عدوكم .

(وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) : فهو الميسر لأسبابه .

(الْعَزِيزِ) : الذى يَغلِبُ ولا يُغلَبُ .

(الْحَكِيمِ) : الذى يضع الأمور فى مواضعها . فينصر من يشاء ، ويخذل من يشاء على مقتضى حكمته .

١٢٧ - (لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ) :

(لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا) : متعلق بقوله تعالى فيما تقدم : « وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ »[1] وما بينهما . تحقيق له ، وبيان لكيفيته . أى نصركم ببدر ؛ لينتقص بذلك منهم بقتل فريق ، وأسر آخر . وهو ما كان من قتل سبعين وأسر سبعين من صناديدهم - أو ليغيظهم أشد الغيظ بعُلوّ شأن المسلمين وظهورهم عليهم ، فيرجعوا منهزمين منقطعى الآمال فى الفوز .

١٢٨ - (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ . . .) الآية .

جملة متوسطة : بين المعطوف : (أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ) والمعطوف عليه : (يَكْبِتَهُمْ) لتحقيق أن لا تأثير للمنصورين فى النصر ، إثر بيان أن لا تأثير للناصرين ، ببيان أن مردَّ الأمر إلى الله لا لغيره . وتخصيص النبى بالرسول صلى الله عليه وسلم ، للدلالة على الانتفاء من غيره بالطريق الأولى .

والمعنى : أن مالِكَ أمرهم على الإطلاق ؛ هو الله عز وجل : نصركم عليهم ، ليهلكهم أو يكبتهم (أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ) إن أسلموا (أَوْ يُعَذِّبَهُمْ) إن أصرُّوا . وليس لك من أمرهم شىء ، إنما أنت عبد مأمور بإنذارهم وجهادهم .

والمراد بتعذيبهم : التعذيب الأُخروى الشديد .

---

(١) ويجوز أن يكون متعلقا بقوله : « وما النصر إلا من عند الله » والمعنى عليه واضح .

(فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ) : تعليل لقوله تعالى :

(يُعَذِّبَهُمْ) : أى يعذبهم ؛ لظلمهم بمعاداة الإسلام والمسلمين وقتالهم .

١٢٩ ـ (وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

سيقت هذه الآية ؛ لتأكيد ما تقدم ، من أن الأمر كله بيد الله وحده .

والمعنى : (وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ) خلقًا وملكًا وتصرفًا ، لا معقب لحكمه ، ولا يُسأل عما يفعل .

(يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ) المغفرة له بواسع رحمته ، المبنية على بديع حكمته .

(وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ) : تعذيبه بكمال عدله . والتعبير بلفظ (ما) فى قوله : (وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ) تغليب لغير العقلاء؛ لكثرتهم ؛ لأن الموجودات من غير العقلاء أكثر .

والتعبير بلفظ (مَن) فى قوله : (يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ) لأن الحساب والثواب والعقاب ، لا يكون إلا للعقلاء .

(وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) : شأنه أن يستر ذنوب عباده ، ويعفو عمن أساء، ويتجاوز لهم عما اقترفوا : رحمة منه وفضلا .

وتقديم المغفرة على العذاب ؛ للإيذان بأن رحمته ـ دائمًا ـ سابقةٌ غضبَه .

وختم الآية بصفتى الغفران والرحمة ـ دون مقابلهما ـ لمزيد الاعتناء بشأن المغفرة والرحمة ؛ لأنه تعالى ، كتب على نفسه الرحمة « كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ »[1] .

---

(١) الأنعام ، من الآية : ٥٤

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾) .

المفـردات :

(أَضْعَافًا) : الأضعاف ؛ الأمثال . وضعف الشيء : مثله الذى يصير به اثنين .

(مُضَاعَفَةً) : فيه إشارة إلى تكرار التضعيف مرة بعد مرة .

التفسـير

١٣٠ - (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) :

كان يهود المدينة أشهر المتعاملين بالربا ، فنهى الله سبحانه المؤمنين أن يرتكبوا هذه الفعلة النكراء ؛ فإن الربا : يجتث مال الفقير ويضيع جهده فى رزق عياله ، ويزيد فى ثراء الأغنياء مع الدعة والراحة .. وهو الذى يقطع أواصر المودة والتعاطف بين الناس .

وهذه هى الآية الثالثة فى شأن الربا .

أما الأولى والثانية ، فقد سبقتا فى سورة البقرة[1] .

وهذه الآية فى تحريم ربا النسيئة ، أى التأجيل . فهو الذى كان يزيد بالتأجيل أضعافا مضاعفة ، وكان مشهورا فى الجاهلية .

وقد سبق فى سورة البقرة ما يدل على تحريم قليل الربا وكثيره : عاجله وآجله ، وأن ليس للدائن سوى رأس ماله .

وَقَدْ حَرَّمَتْهُ السنة بقوله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) آيتا ٢٧٥ ، ٢٧٦

« لَعَنَ اللهُ آكل الربا وموكله ، وشاهده وكاتبه . والْمُحَلِّلَ له »[1] .

والمراد بالأكل هنا : أخذ مال الربا للانتفاع به فى أى وجه ، وإنما عبر بالأكل ؛ لأنه المقصود الأعظم من كسب المال ، وللتشنيع على آكل الربا ، بأنه يدخل جوفه السحت بدلا من الطيبات .

والربا حرام مطلقًا ... وإن لم يُضَعَّف كما تقدم .

وليس قوله تعالى : (أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً) قيدا فى التحريم . وإنما جاء لبيان ما كان عليه الحال فى ربا الجاهلية .

(وَاتَّقُوا اللهَ): بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه . ومنها النهى عن أكل الربا .

(لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ): عسى أن تفلحوا .

والتعبير بلفظ (لَعَلَّ) : يدل على أنه يُرْجَى نيل الفلاح وقرب الأمل فى حصوله . لمن جدَّ مخلصًا فى طلبه .

١٣١ - (وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ) :

أى : وحاذروا أن تستهينوا بالربا ، فينزع منكم الإيمان ؛ فإن من الذنوب ذنوبًا - منها الربا - ينزع الله بها الإيمان من المقيم عليها .

قال أبو حنيفة رحمه الله : هى أخوف آية فى القرآن . حيث أوعد المؤمنين بالنار المعدة للكافرين ، إن لم يتقوه فى اجتناب محارمه .

ولا شك أن فى وصف النار بأنها أعدت للكافرين زجرًا عظيما ، ووعيدًا شديدًا .

وفيه تنبيه إلى أن الربا قريب من الكفر .

١٣٢ - (وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ . . .) الآية .

وأطيعوا الله باجتناب كل ما نهى عنه - ومنه أكل الربا - وامتثال كل ما أمر به . وأطيعوا الرسول فيما بلغكم عن الله ، وفيما تضمنته سنته من أوامر ونواه .

قال تعالى : « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا . . . »[2] .

---

(١) رواه مسلم.

(٢) الحشر ، من الآية : ٧

(لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) :

رجاء أن تنزل بكم رحمته ، وتفوزوا بخيرَي الدنيا والآخرة .

(وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾) .

المفردات :

(أُعِدَّتْ) : هيئت .

(السَّرَّاء) : الرخاء واليسر .

(الضَّرَّاء) : الشدة والعسر .

(الْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ) : الممسكين الغيظ عند امتلاء نفوسهم به . فلا ينتقمون ممن غاظهم . وأصل الكظم : شد فم القربة عند امتلائها . والغيظ : هيجان الطبع عند رؤية ما يُنْكَرُ .

(فَاحِشَةً) : الفاحشة : كل ما عظُم قبحه من الذنوب .

(يُصِرُّوا) : يقيموا .

التفسير

١٣٣ - (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ . . .) الآية .

لما حذّر الله فى الآيات السابقة ، من الأفعال المستتبعة للعقاب ، عقبه بالحث على الأفعال المستتبعة للثواب ، فقال :

(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ) :

أى : بادروا وسابقوا إلى كل مايحقق لكم مغفرة ربكم لذنوبكم ، ويوصلكم إلى نيل مرضاته ، ودخول جنته الواسعة . وذلك يكون بإقبالكم على طاعته ، ومن امتثال أوامره ، واجتناب نواهيه .

(وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ) :

أى : كعرضهما . وليس المراد التحديد ، وإنما هو كناية عن غاية سعتها ، وعظم رحبها بما هو - فى تصور المخاطبين - أوسع الأشياء وأرحبها . وخص العرض بالذكر - مع أنه دون الطول - للمبالغة فى البسط والسعة ، ويطلق العرض أيضًا على السعة .

ويجوز أن يراد منه هذا المعنى هنا .

(أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) :

أى هيأها الله لعباده الذين يتقون عذابه ، بامتثال أوامره واجتناب محارمه .

ثم وصف الله عباده المتقين ، ببعض صفاتهم التى تؤهلهم لمغفرته ، ودخول جنته فقال :

١٣٤ - (الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ . . .) الآية .

أى فى اليُسْر والعسر ، والفرح والحزن ، والمنشط والمكره .

والمراد : أنهم ينفقون فى كل أحوالهم ، فهى دائرة بين السراء والضراء . وهذه هى الصفة الأولى .

وإنما ابتدئ بالإنفاق ؛ لأن الجود بالمال - وبخاصة فى حال العسرة والشدة - من أشق الأمور على النفوس .

وفيه أقوى الأدلة على الإخلاص ؛ لأن حاجة المسلمين إلى الإنفاق - آنذاك بل وكل

آن – كانت أشد ، لمجاهدة العدو ، ومواساة المسلمين . ولأن النهى عن الربا يستدعى بديلا عنه . ولذلك يقترن النهى عن الربا – فى القرآن – بالحث على الصدقة .

وحذف مفعول (يُنفِقُونَ): ليعم كل ما يصلح للإنفاق ؛ أو لأن المراد وصفهم بالإنفاق ، دون نظر إلى ما ينفقون . كما تقول : فلان يعطى ويمنع . لا تقصد إلَّا وصفه بالإعطاء والمنع .

(وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ) :

صفة ثانية . وكظم الغيظ : حبسه وكتمه مع القدرة على إمضائه . والغيظ : هيجان الطبع عند رؤية ما ينكر . والفرق بينه وبين الغضب – على ما قيل – أن الغضب يتبعه إرادة الانتقام ألبتة ، ولا كذلك الغيظ . والغيظ أصل الغضب . وكثيرًا ما يتلازمان .

وكظم الغيظ من أجمل الأخلاق وأنبلها وأحبها إلى الله .

وفى الحديث الشريف : « من كظم غيظًا وهو قادر على أن ينفذه ، ملأَ اللهُ جوفَه أمْنًا وإيمانًا . »[1] .

وعبر فى الصفة الأولى بالفعل المضارع (يُنفِقُونَ) : قصدًا لإرادة أن يجددوا الإنفاق من آن لآخر .

وعبر بالكاظمين وهو اسم فاعل : لقصد الثبات والاستمرار على ضبط النفس .

(وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ) :

هذه صفة ثالثة ، جاءت على اسم الفاعل ؛ للدلالة على الثبوت والدوام أيضًا .

والعفو : ترك عقوبة من يستحق العقوبة من الناس ؛ لذنب جناه . وهو أكمل من كظم الغيظ ؛ لأن الغيظ ؛ مجرد ضبط للنفس ، ولا يلزمه الإغضاء عن الإساءة .

أما العفو ؛ فيقتضى تناسى الإساءة واعتبارها كأن لم تكن .

وفى الحديث الصحيح : « . . . وما زادَ اللهُ عبدًا بِعَفْوٍ إلَّا عِزًّا »[2] .

(١) أخرجه أبو داود وغيره .

(٢) رواه مسلم .

(وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) :

أى كل المحسنين ، ويدخل فيهم ، من تقدم ذكرهم .

والحب : ميل القلب إلى المحبوب .

والمراد به - فى الآية - ما يلزم عنه من الثواب والرضوان .

والمعنى : أن الله يرضى عن المحسنين جميعا ، ويجازيهم على إحسانهم أحسن الجزاء .

والإحسان يشمل : إتقان العمل ، والإتيان به على الوجه الأكمل .

ومنه قول الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد سئل عن الإحسان :

« أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كأنك تَرَاهُ ، فإن لم تكُنْ تَرَاهُ فإنه يَرَاكَ »[1] .

ويشمل أيضًا : إيصَالَ النفع إلى الغير ، ودَفْعَ الضرر عنه .

ولا يكمل الإحسان حتى يكون خالصًا لوجه الله : لا ينتظر المحسن مكافأة عليه ، ولا يكون مكافأة على إحسان سابق وصل إليه .

وفى الحديث الشريف : « لَيْسَ الواصلُ بالمكافىء »[2] والمراد بالواصل : المحسن .

وقال الثورى : الإحسان : أن تحسن إلى من أساء إليك . فأما من أحسن إليك ، فإنه متاجرة كنقد السوق : خذ منى وهات .

ولمكانة الإحسان عند الله ، أثاب عليه بأعلى أنواع الثواب ، وهو محبته - سبحانه وتعالى - كما قال فى ختام الآية : (وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) .

١٣٥ - (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ) :

---

(١) رواه البخارى وغيره . (٢) رواه البخارى .

هذه هي الصفة الرابعة من صفات المتقين . عطفت على ما قبلها . وقوله تعالى : (وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) : جملة متوسطة بين المعطوف والمعطوف عليه: مشيرة إلى ما بينهما من التفاوت فى الفضل . فإن درجة الأولين من التقوى أعلى ، وحظهم أوفى .

ويجوز أن يكون : (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً) معطوف على (الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ) فكأنه لما ذكر الصنف الأعلى من المتقين . وهم : المتصفون بتلك الأوصاف الجميلة ـ ذكر من دونهم فقال :

(وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً) :

أى أتَوْا بمعصية تفاقَمَ قبحها ، وعَظُمَ شرُّها وخطرها .

(أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ) :

أى جَنَوْا على أنفسهم بارتكاب أى ذنب من الذنوب الكبائر أو الصغائر .

(ذَكَرُوا اللَّهَ) :

أى تذكروا عظمته وجلاله ، وحقه فى أن يُعْبَدَ ولا يُعْصَى ، وأنه الذى يقبل التوبة عن عباده ، ويعفو عن السيئات .

(فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ) : عَقِبَ تَذَكُّرِهِم لله .

والمراد بالاستغفار : الإقلاع عن الذنب ، والندم على فعله ، والعزم على عدم معاودته ، ورد المظالم لأصحابها .

أما التوبة بمجرد اللسان ، فتلك توبة الكذابين .

وفى مثل هذه التوبة الكاذبة ، يقول بعض العارفين : استغفارُنا هذا يحتاج إلى استغفار .

(وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ) :

أى لا أحد يقبل توبة التائبين ، ويعفو عن العاصين ، غيره سبحانه .

وفى هذا دعوة منه تعالى ، إلى الالتجاء إليه ، وطلب عفوه ومغفرته ؛ لأنه لا ملجأ ولا مَنْجَى منه إلا إليه ، ولا حيلة للمذنب إلا طلب فضله ـ سبحانه ـ والتماس رحمته .

(وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا) : هذا عطف على (فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ) .

وجملة : (وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ) متوسطة بين المتعاطفين .

ومعنى : (وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا) : أنهم لا يقيمون على معصية من المعاصى : كبيرة كانت أم صغيرة . بل يرجعون إلى الله ، ويتوبون إليه من قريب .

(وَهُمْ يَعْلَمُونَ) : أن من تاب تاب الله عليه ، وأن إقامتهم على الذنب ـ ولو كان صغيرًا ـ قبح ، لا يليق بمؤمن ، لأن الصغيرة لا تبقى صغيرة مع الإصرار ، كما أن الإصرار على الذنب يتنافى مع الاستغفار .

قال صلى الله عليه وسلم : « ما أَصَرَّ مَن استغفَرَ »[1] .

١٣٦ ـ (أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ) :

(أُولَٰئِكَ) : أى الموصوفون بما تقدم من الصفات .

(جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ) :

أي جزاؤهم على هذه الصفات التى تجملوا بها : ستر خطاياهم ، وعدم مؤاخذتهم عليها .

(وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) :

أى تجرى من تحت قصورها الأنهار المختلفة : التى ذكرها الله فى قوله : « مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى . . . »[2] .

وهذه الجنات ، ضمن تلك الجنة : التى أخبر سبحانه ، أن عرضها السموات والأرض .

---

(١) رواه أبو داود والترمذى وغيرهما.   (٢) محمد : ١٥

(خَالِدِينَ فِيهَا) : أى ماكثين فيها ، لايخرجون منها أبدًا . كما قال سبحانه : « وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ »[1] .

(وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ) : ذلك المذكور من المغفرة والجنات .

(قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾) .

المفردات :

(خَلَتْ) : مضت .

(سُنَنٌ) : السنن : الطرائق ، والمراد منها عقوبات الأُمم المكذبة .

(مَوْعِظَةٌ) : الموعظة : التذكير بما يرقق القلب من : مرغبات فى الطاعة ، ومنفرات عن المعصية .

---

(١) الحجر : ٤٨

(تَهِنُوا) : تضعفوا .

(الْأَعْلَوْنَ) : المتفوقون بالدِّين ، الظاهرون على العدو .

(مَسٌّ) : المسّ ؛ الإصابة .

(قَرْحٌ) : القَرْح ؛ الْجُرْحُ ، أو أَلَمُهُ .

(نُدَاوِلُهَا) : نجعلها متبادلة . فنجعل الغلبة لهؤلاء مرة ، ولهؤلاء مرة أُخرى .

(وَلِيُمَحِّصَ): لِيُنَقِّيَ ويُخَلِّصَ .

(وَيَمْحَقَ) : يسحق وَيُهْلِكَ .

التفسير

١٣٧ ـ (قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ . . .) الآية .

هذا رجوع إلى قصة أُحُد ، بعد أن تخللها تذكيرُ المؤمنين بما كان من نصر الله لهم فى بدر ؛ تسليةً لهم عما أصابهم من الهزيمة فى أُحُد ، وإرشادًا لهم إلى بعض النصائح التى تستتبع رضا الله ونصره . وجِمَاعها : تقوى الله ، وطاعة الله ورسوله ، والاستغفار من الذنوب .

والمعنى : قد مضت من قبل زمانكم طرائق ، سنها الله تعالى ، فى المكذبين من الأُمم السابقة . فقد تكون لهم الْغَلَبَةُ فى بعض المواطن على المؤمنين ، ثم تكون العاقبة ـ فى النهاية ـ للمؤمنين ، والدائرة على المكذبين .

(فَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) :

أى تَعَرَّفُوا أخبارهم وما نزل بهم ؛ لتعلموا أن سنَّة الله فى الغابرين : نصرُ أوليائه ، وخذلانُ أعدائه . كما قال سبحانه : « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ . وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ »[1] .

---

(١) الصافات : ١٧١ ـ ١٧٣

١٣٨ - (هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ) :

(هَٰذَا) : إشارة إلى قوله تعالى : (قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ) :

أى هذا الذى عرفتكم به ، من أن سنة الله - فى الماضين - أن تكون الدائرة على الكافرين والعاقبة للمتقين - بيان للناس جميعًا ، وإيضاح لحسن مآل المؤمنين وسوء عاقبة المكذبين ، وهدى وتذكير للمتقين .

وتخصيص المتقين بذلك ؛ لأنه لا ينتفع بهذا البيان فيهتدى ويتعظ ، إلا المتقون الذين شرح الله صدورهم للإسلام ، وخافوا الله رب العالمين .

١٣٩ - (وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ . . .) الآية .

أى ولا تضعفوا - أيها المؤمنون - عن الجهاد ، وتتثاقلوا عنه ؛ لكثرة من قُتل منكم فى أُحُد . ولا تحزنوا لذلك ، فيشغلكم ويقعدكم عن قتال عدوكم ، والحال أنكم أعلى شأنا منهم ، فإنكم على الحق . وهم على الباطل . وأنتم أولياء الله . وهم أعداؤه وأولياء الشيطان . وقتلاكم فى الجنة . وقتلاهم فى النار . ومَن هم على هذه الحال ، لا ينبغى لهم أن يهنوا ولا أن يحزنوا لما أصابهم ، فإن العاقبة لهم .

وفى قوله تعالى : (وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ) وَعْدٌ لهم بالنصر على أعدائهم - فيما يستقبل من الأيام - وبشرى بأنهم الغالبون المنتصرون ، ما داموا متمسكين بتعاليم دينهم .

(إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) :

أى إن كنتم مؤمنين حقا فلا تهنوا ولا تحزنوا ؛ لأن الإيمان يوجب قوة القلب ، ويزيد الثقة بالله تعالى ، وعدم المبالاة بأعدائه .

ويجوز أن يكون المعنى : إن كنتم مصدقين بوعدى لكم بالنصرة على عدوكم ، فلا تهنوا ولا تحزنوا .

١٤٠ - (إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ . . .) الآية .

المراد بالقوم : أهل مكة المشركون . والقَرح بفتح القاف : الجُرح . وبالضم : ألمه . وقد قرئ بهما .

وهذه الآية من تمام المعنى الذى سيقت له الآية السابقة .

أى لا داعىَ للوَهَن والحزن ، فإن ما أصابكم يوم أُحد من القتل ، والجراح والآلام ، قد أصاب كفارَ قريش مثلُهُ يوم بدر ، فلم يثنهم ذلك عن معاودة حربكم مع ما هم عليه من باطل . فأنتم أولى منهم بالثبات ، وأجدر منهم بقوة العزيمة ؛ لأنكم على الحق .

(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) :

تلك : مبتدأ ، والأيام خبر . كما تقول : هى الأيام : تُبْلِى كُلَّ جديد .

والإشارة ، إلى أيام الحروب ، أو الأيام بعامة . والمداولة : نقل الشيء من واحد إلى آخر . يقال : الدنيا دُوَل . أى تنتقل من قوم إلى آخرين . ثم عنهم إلى غيرهم .

والمعنى : أن النصر تارة يكون للمؤمنين إذا تمسكوا بإيمانهم ، واستعدوا لعدوهم . وتارة أخرى يكون للكافرين . والله لا ينصر الكافرين إلا ابتلاء للمؤمنين ، وتمحيصًا لإيمانهم . ودرسًا يستفيدون منه فى مستقبل غزواتهم . حتى لا يعودوا إلى الأسباب التى أدت بهم إلى مثل تلك المحنة .

قال الرازى فى تعليل ما يقع من النصر للكافرين : إنه تعالى ، لو شدد المحنة على الكفار فى جميع الأوقات ، وأزالها عن المؤمنين فى جميع الأوقات ، لحصل العلم الاضطرارى : بأن الإيمان حق وما سواه باطل . ولو كان كذلك لبطل التكليف ، والثواب والعقاب . فلهذا المعنى تارة يسلط الله المحنة على أهل الإيمان ، وأخرى على أهل الكفر ؛ لتكون الشبهات باقية ، والمكلف يدفعها بالنظر فى الدلائل الدالة على صحة الإسلام ، فيعظم ثوابه عند الله . ا. هـ.

وصيغة المضارع (نُدَاوِلُهَا) الدالة على التجدد ، تؤذن بأن تلك المداولة سُنَّةٌ مسلوكة فى جميع الأمم ، متجددة فيهم .

(وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا) :

أى وتلك الأيام نداولها بين الناس لوجوه من المصالح ، وضروب من الحكم ؛ وليعلم الله المؤمنين المتميزين بالإيمان ، علما مقترنا بالواقع .

والمراد بالعلم هنا : العلم التنجيزى بالواقع . وهذا لا ينافى علمه بهم قديماً .

والمقصود أنه يبرز – فى الواقع – ما سبق فى علمه عنهم قديماً من تمييزهم بإيمانهم عن سواهم ، ليُجْزَى كل بما عمل ، لا بما علمه الله أزلا فى شأنه . وذلك هو المقصود بقوله تعالى : « مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ »[1] .

(وَيَتَّخِذَ منكُمْ شُهَدَاء) :

هذا سبب آخر لمداولة الأيام بين الناس . والشهداء : جمع شهيد .

أى وليكرم قوماً منكم بالشهادة فى الدفاع عن الدين . وتلك كانت أُمنيةً لبعض المسلمين ، الذين فاتتهم الشهادة فى غزوة بدر . أو هو جمع شاهد : أى ليتخذ منكم شهوداً بذلك على الأُمم يوم القيامة ، وذلك منصب جليل ، لا يستحقه إلا مَنْ وطَّنُوا أنفسهم على التضحيات الجسيمة ، الذين بذلوا النفس والنفيس فى سبيل الله . هذا وجميع المؤمنين الصادقين ، سيكونون شهداء على الأُمم السابقة يوم القيامة . كما قال تعالى : « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا »[2] لأنهم أهل البذل والتضحية فى سبيله ، فى جميع بقاع الأرض ، حيث ينشرون دعوة دينه الخالد فى كل قاصٍ ودانٍ .

ولفظ الاتخاذ ينبئ عن الاصطفاء ، ففيه من تشريف المؤمنين ما فيه .

(وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) :

جملة متوسطة بين المتعاطفات ؛ للإشارة إلى أن الله يبغض الكفار أعداء المؤمنين ، فلن ينصرهم عليهم .

وما يكون لهم من نصر فى بعض المواطن ، فليس ذلك عن حب الله لهم ، وإنما لِلْحِكم التى بينها الله فى الآيتين السابقتين (١٣٩ ، ١٤٠) وفى الآية اللاحقة (١٤١) .

---

(١) آل عمران من الآية : ١٧٩ (٢) البقرة من الآية : ١٤٣

١٤١ ـ (وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ) :

أى وليطهرَ نفوس المؤمنين ، وينقّيها من الشوائب التى تكون قد علقت بها ، فيصيروا مؤمنين خالصين : يصبرون على البأساء ، ويثبتون عند اللقاء ، وتتطهر نفوسهم من كل صفة لا تليق بمن باع نفسه لإعلاء كلمة الله .

(وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ) :

إن كان المراد من اللفظ : العموم ، فمعنى الْمَحْق : النقصان وإظهار المسلمين عليهم ، ما داموا صادقى الإيمان ، متخذى العدة والعتاد لمقاتلة أعداء الله .

وإن كان المراد الكفارَ من أهل مكة : الذين حاربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد ، وأصروا على الكفر ـ فمعنى الْمَحْق : الاستئصال . وقد كان ذلك .

قال أبوحيان : (وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ) : أى يهلكهم شيئًا فشيئًا .

والمعنى : أن الدولة إن كانت للكافرين على المؤمنين ، كانت سببًا لتمييز المؤمن من غيره ، وسببًا لاستشهاد من قُتل منهم ، وسببًا لتطهير المؤمن من الذنب . فقد جمعت فوائد كثيرة للمؤمنين .

وإن كان النصر للمؤمنين على الكافرين ، كان سببا لمحق الكافرين بالكلية ، واستئصالهم .

قاله ابن عباس .

ويحمل ذلك ما كان عليه فى أهل مكة .

١٤٢ ـ (أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ) :

(أَمْ) هنا : أفادت الانتقال من الكلام السابق إلى الكلام اللاحق ، واستبعاد أن يظنوا دخول الجنة بدون جهاد وصبر عليه .

والمعنى : بَل أظننتم أن تدخلوا الجنة ، ولما يتحقق جهاد المجاهدين منكم ، وصبرُ الصابرين عليه . فيعلم الله ذلك واقعًا دالا على صدق الإيمان ، مستتبعا لدخول الجنان !!

وكلمة (لَمَّا) : وإن أفادت نفي ما بعدها من الجهاد والصبر ، ولكنها تفيد تَوَقُّعَ حصولهما منهم ، وقد وقعا فعلا : في الغزوات التي تلت غزوة أُحد .

(وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾) .

المفـردات :

(تَمَنَّوْنَ) : أي ترغبون .

(الْمَوْتَ) : المراد به هنا ؛ القتال . وقيل : هو على حقيقته ؛ طلبًا للشهادة .

(تَلْقَوْهُ) : أي تلقوا سببه . وهو القتال .

(رَأَيْتُمُوهُ) : أي رأيتم الموت ، برؤية من يموت في الحرب .

(خَلَتْ) : مضت .

(وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ) المراد : مَن يرتد عن دينه أو ينهزم .

التفسـير

١٤٣ - (وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ . . .) الآية .

هذا خطاب من الله تعالى ، عاتب فيه الذين أَلَحُّوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في الخروج من المدينة إلى أُحُد للقاء المشركين ، الذين نزلوا عنده قادمين من مكة ، لقتال المسلمين انتقامًا ليوم بدر . ولما التقى الجمعان انهزم فريق منهم ، ولم يثبتوا أمام المشركين . وكان هؤلاء هم الذين ألحوا في الخروج ، ممن لم يشهدوا بدرًا ، وتَمنَّوْا أن يحضروا

مع النبي صلى الله عليه وسلم لينالوا به شرف الشهادة إن ماتوا ، أو أجر الجهاد وكرامة المجاهدين إن رجعوا كأصحاب بدر .

وقد عُرف مما جاء فى غزوة أُحد : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان – أوّل الأمر – يميل إلى البقاء فى المدينة ، حتى إذا هاجمها كفار مكة ، صدمهم المسلمون متحصنين بها . . . الرجال يضربونهم بالسيوف والسهام . والنساء والصبيان يقذفونهم من فوقهم بالحجارة ، وبكل ما تصل إليه أيديهم . لولا موقف أولئك المُلِحِّين .

والمعنى : ولقد كنتم تحبون الموت فى سبيل الله ، وترغبون فى الشهادة من قبل أن تَلْقَوْهُ ، وأنتم بالمدينة .

(فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ) :

أى فقد تحققت أُمنيتكم ، إذ استجاب الرسول صلى الله عليه وسلم لرغبتكم ، وأذن لكم بلقاء عدوكم ، فرأيتم الموت الذى تمنيتموه حين سقط شهداؤكم .

(وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ) : فما بالكم لم تثبتوا فى قتال عدوكم ، ولو صبرتم لما هزمتم !

١٤٤ – (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ . . .) الآية .

لَمَّا التقى الجمعان فى أُحد ، ظهر المسلمون على المشركين فى أول اللقاء ، وجعلوا يتعقبونهم ويجمعون الغنائم فى إثرهم ، ولكن الرماة الذين أمرهم الرسولُ بحماية ظهور المسلمين – أثناء قتالهم – رأوا المسلمين منتصرين على المشركين : يتعقبونهم ويجمعون غنائمهم . فتركوا أماكنَهم ليشاركوا إخوانهم فى جمع الغنائم ، مخالفين أمْرَ الرسولِ فيما فعلوا . فانتبه المشركون لما فعل الرماة ، فاحتلُّوا مكانَهم فوق الجبل ، وجعلوا ينضحون المسلمين بالنبل . . واستطاعوا بذلك أن ينالوا من المسلمين ، حتى رمى ابنُ قميئة الرسولَ عليه السلام ، بحجر فَشَجَّ رَأْسه ، وكَسَر رُبَاعِيَّتَهُ . ثم أقبل يريد قتلَه ، فدافع عن النبي مصعبُ

ابن عمير ، فقتله ابن قميئة - وهو يرى أنه قتل رسول الله - فصاح قائلا : قتلت محمدًا ، وصرخ بها صارخ ؛ فسمعها المسلمون ؛ فسرى الوهن فى نفوس كثير منهم . حتى قال بعض المستضعفين : ليت عبد الله بن أُبى يأخذ لنا أمانًا من أبى سفيان .

وقال ناس من المنافقين : لو كان نبيًّا - حقًّا - لما قُتل . . . ارجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم .

والتقى أنس بن النضر ، بالمنهزمين من المسلمين ، فقال لهم : يا قوم إن كان محمد قتل فإن رب محمد حَىٌّ لا يموت ، فقاتلوا على ما قاتل عليه ، وموتوا كرامًا على ما مات عليه .

وشاء الله أن يحفظ رسوله لأُمته ، وأن يظهر كذب ابن قميئة .

فنادى رسول الله صلى الله عليه وسلم : إلىَّ عباد الله . وكان حوله - حينئذ - أبو بكر ، وعمر ، وعلى ، وطلحة ابن عبيد الله ، وجماعة من المسلمين ، فأقبل المنهزمون . بعد ما سمعوا صوته عليه السلام ، فأنزل الله عتابًا للمنهزمين : (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ . . .) إلى نهاية الآية : (فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) :

والمعنى : وما محمد إلا رسول كسائر من مضى قبله من الرسل : مهمته التبليغ وإلزام الحجة . وسيمضى إلى ربه كسائر من مضى من الأنبياء : « سُنَّةَ اللهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً »[1] ، « إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ »[2] .

(أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ) :

أى توليتم مدبرين من القتال ، منهزمين أمام الكفار . أو ارتددتم عن دينكم ، كما وقع من بعض المنافقين .

---

(١) الأحزاب : ٦٢ (٢) الزمر : ٣٠

وعلى كلٍّ : فالمراد ، أنه لا ينبغى أن تجعلوا وفاة الرسول - بموت أو قتل - سببًا فى تولِّيكم منهزمين عن قتال الكفار وجهادهم ؛ استبعادا لقتله . فقد مضى من قبله أمثاله من الرسل . وما كان موتهم أو قتلهم سببًا فى ارتداد أتباعهم عن دينهم ، ولا فى تخلِّيهم عن جهاد أعدائهم .

(وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا) :

هذا وعيد من الله لكل من تهتز عقيدته ، أو يفر من المعركة أمام أعداء الإسلام .

والمعنى : ومن يُدْبر عن دينه لأى سبب ، أو ينهزمْ أمام الكافرين ولا يستبسل فى الدفاع عن دينه ووطنه

(فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ) بما فعل من تولِّيه مدبرًا . (شَيْئًا) أى أقل ضرر . وإنما يضر نفسه : بتعريضها لسخط الله ، وازدراء الناس له ، كما يضر قومه ؛ فإن الله سبحانه وتعالى - لا تنفعه طاعة الطائعين ، ولا تضره معصية العاصين .

(وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ) :

أى وسيجزى الله من شكروه بصبرهم على دينهم ولقاء عدوهم ، جزاء يليق بكرمه . . ومن ذلك النصر على الأعداء وحسن ثواب الآخرة .

والتعبير بقوله : (وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ) يفيد أن جزاءهم متوقع قريبًا ، فإن السين للتقريب ، وقد حقق الله وعده ، ونصرهم فيما استقبلوه من غزوات . وما عند الله - فى الآخرة - أعظم وأكرم .

(وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾) .

المفردات :

(بِإِذْنِ اللهِ) : أمره وقضائه .

(مُؤَجَّلًا) : مؤقتًا بوقت معلوم .

(وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ) : وكثير من الأنبياء .

(رِبِّيُّونَ) : منسوبون إلى الربّ بالتقوى والصلاح . مفرده رِبِّيٌّ .

(وَهَنُوا) : الوهن : شدة الضعف فى القلب .

(اسْتَكَانُوا) : ذلوا وخضعوا لما يريد بهم عدوهم .

(وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا) : أى تجاوزنا الحدّ فى ارتكاب الكبائر .

التفسير

١٤٥ - (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا . . .) الآية .

بعد أن بينت الآية السابقة ، ما كان من المسلمين ، حين شاع قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة أُحد ، من خوف وهلع ، حتى تولى فريق منهم عن القتال مدبرًا ، حذرًا من الموت ، وحرصًا على الحياة - جاءت هذه الآية تنبيهًا على خطئهم فيما فعلوا : حيث أوضحت أن موت أىٍّ إنسان لا يكون إلا بأمر الله ، وفى الوقت الذى تعلقت مشيئته - تعالى - بوقوعه فيه ، والذى حدده نهايةً لأجله ، وإن اقتحم المعارك والأهوال ، وخاض المخاوف ، وأقبل على الجهاد راغبًا فيه ، طالبًا لدرجات الشهداء عند الله . فالآجال موقوتة .

كتب الله ذلك .

(كِتَابًا مُّؤَجَّلًا) :

أى مؤقتا بأجل وغاية : « فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ »[1] .

وفى هذه الآية من التحريض على الجهاد والترغيب فيه ، ما لا يخفى . كما أن فيها تنبيهًا إلى أن الخوف والجبن والاستكانة ، لا تُنجى من الموت ولا تطيل الأجل . كما يستفاد من الآية : أن موت الرسول صلى الله عليه وسلم كغيره ، لا يكون إلا بانتهاء أجله ، فلا يموت قبل استيفائه .

(وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا) :

أى ومن يقصد بعمله وجهاده الحصول على حُظوظ الدنيا ومتاعها ، يعطه الله النصيب الذى قدّره له منها .

(وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا) :

أى ومن يقصد بعمل الصالحات والجهاد فى سبيل الله ، الفوز بنعيم الآخرة ، ويخلص النية لله فى طلب ذلك ، يؤته الله ما شاء من نعيمها .

---

(١) الأعراف من الآية : ٣٤

(وَسَنَجْزِى الشَّاكِرِينَ) :

المراد بهم الذين ثبتوا على الإسلام ، وصبروا على المكاره ، وبذلوا أقصى الجَهد فى طاعة الله ، والجهاد فى سبيله : لا يصرفهم عن ذلك صارف . أى سيجزيهم الله - فى الآخرة - الجزاء الأوفى ، الذى لا يعلم مقداره إلا الله تعالى . ولهم فى الدنيا ما قسم لهم من خيرها ومتاعها ، دون حرمان .

والآية : يجوز أن تكون خاصة بأهل أحد ، وأن تكون عامة لهم ولغيرهم . وهو أرجح . فإنها من القواعد العامة فى الدين .

١٤٦ - (وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ . . .) الآية .

أى وكثير من الأنبياء السابقين ، قاتل معهم جماعات كثيرة ، منسوبون إلى الرَّب بالتقوى ، ممن آمنوا بهم ، واتبعوا هديهم .

(فَمَا وَهَنُوا لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ) :

أى فما فترت عزائمهم ، ولا ضعفت قلوبهم ، ولا اضطربت نفوسهم بسبب ما أصيبوا به - أثناء القتال - من جراحات ، وقتل ، وآلام ، وما كانوا يعانون من متاعب ومشاق .

(وَمَا ضَعُفُوا) :

عن لقاء الأعداء وجهادهم ، وما شكُّوا فى صدق رسلهم .

(وَمَا اسْتَكَانُوا) :

أى وما ذلوا للعدو ، ولا استسلموا لإرادته : يفعل بهم ما يشاء ، ويقضى فى شأنهم بما يريد .

وفى هذه الآية أيضًا : لَوْمٌ لمن خارت عزائمهم من المسلمين يوم أُحد ، عند تَغَلُّب الكفار عليهم ، والإرجاف بقتل الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتقريعٌ لمن استكانوا حين أرادوا الاستعانة بابن أُبى - رأس المنافقين - فى طلب الأمان من أبى سفيان .

(وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ) :

أى والله يرضى عن الصابرين ، فى البأساء والضراء ، وحين البأس .

والمراد بالصّابرين : إمّا أُولئك المعهودون : الذين ثبتوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أُحد . . وإما كل الذين يصدق عليهم هذا الوصف . وهو الأَرجح . ويدخل من ثبت فى أُحُدٍ بالأَوْلَى .

١٤٧ ـ (وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) :

بعد أن بينت الآية السابقة ، حسن أفعال الرِّبِّيِّين ، جاءت هذه الآية مبينة لحسن أقوالهم .

والمعنى : ما كان لهم قول ـ فى حال الشدة وملاقاة الأَعداء ـ إلا دعاؤُهم : أن يغفر الله لهم ذنوبَهُم وتَجَاوُزَهم الحدَّ فى أمرهم ، بارتكاب ما عسى أن يكون لهم من كبائر ، وأن يثبتَهم فى مواطن الشدة بتأْييد من عنده .

(وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) :

أى واجعل الغلبة لنا على الذين يريدون أن يطفئوا نور الله ، وطمس معالم الهدى والرشاد . والنصر هو الغاية القصوى .

وقد قدَّموا فى دعائهم طلبَ المغفرة لتصفوَ نفوسُهم ، ويخلصوا من شوائب الذنوب ، فيكونَ ذلك أقربَ إلى استجابة دعائهم ، بتثبيت الأَقدام والنصر ، فإن الله ـ سبحانه ـ إنما يتقبل الدعاء من المتقين الطاهرين من الذنوب . واستغفارُهم من الصغائر والكبائر ، وإضافتها إلى أنفسهم ـ مع أنهم رِبِّيُّون أتقياء ـ هضمٌ لأَنفسهم ، واتهامٌ لها ، وشعورٌ بالتقصير فى جانب الله تعالى . وكذلك يكون حال المسلم مع الله تعالى .

١٤٨ـ (فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ . . .) الآية .

أى أعطاهم الله أجر الدنيا . وهو النصر والغنيمة ، وطيب الذكر فى الدنيا ، ومنحهم ثواب الآخرة الحسن . وهو الجنة والرضوان ، والنعيم المقيم .

وقد أخبرت الآية بوقوع الثواب من الله فى الآخرة ، مع أنه لم يقع بعد ، لأنه فى حكم الواقع . فإنَّ وَعْدَ الله لا يتخلف .

ووصف ثواب الآخرة بالْحُسْنِ دون ثواب الدنيا ؛ لأن نِعَمَ الدنيا ـ وإن عظمت ـ فهى مشوبة بالكدر . وهى إلى زوال وإن طال الأجل . أما نِعَمُ الآخرة ، فإنها خالصة من جميع الأكدار ، دائمة باقية . وكلها حسنة . فلذا وصفها بالحسن دون نعم الدنيا .

(وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) : أى يرضى عنهم ، ويريد الخير بهم .

ويجوز أن يراد بالمحسنين : هؤلاء الربانيون الذين أحسنوا فى أفعالهم حين ثبتوا مع أنبيائهم ، فلم يضعفوا ، وأحسنوا فى أقوالهم .

ويجوز أن يراد كل من أحسن فى أى زمان ، وفى أى مكان فى القتال وغيره ، فى حياة الرسل وبعد وفاتهم . وهذا أنسب ؛ لما فيه من ترغيب المؤمنين فى تحصيل ما حكى عن الربانيين ، من الصفات الحميدة ، والأفعال المجيدة ، ويدخل هؤلاء الربانيون بالأَوْلى .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾) .

المفـردات :

(يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَابِكُمْ) : أى يردوكم إلى ماكنتم عليه فى الجاهلية .

(وَمَأْوَاهُمُ) : المأوى ؛ المكان الذى يرجعون إليه .

(مَثْوَى) : مثوى الإنسان ؛ مكان إقامته الدائمة .

(تَحُسُّونَهُمْ) : أصل معناه ؛ تبطلون حِسَّهم . والمراد : تستأصلونهم قتلا .

(فَشِلْتُمْ): جَبُنتم وضعُف رأيكم ، وأصابكم الخَوَرُ فهُزِمتم .

(وَتَنَازَعْتُمْ) : افترقت كلمتكم ، واختلفتم .

(لِيَبْتَلِيَكُمْ): ليختبركم .

التفسير

١٤٩ - (يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ) :

دَعَا المنافقون - فى أعقاب هزيمة أحد - إلى طلب الأمان من أبى سفيان : رأس المشركين يومئذ ، كما قالوا للمؤمنين المنهزمين : ارجعوا إلى إخوانكم ، واطلبوا الأمان منهم ، وادخلوا فى دينهم . فنزلت هذه الآية تحذيراً للمؤمنين من طاعة المنافقين ، الذين كفروا بنفاقهم .

وقيل : نزلت بسبب قول أهل الكتاب للمؤمنين : لو كان محمد نبيًّا حقًّا ، لما غُلِبَ ، ولما أصاب أصحابَهُ ما أصابهم . . وخصوص السبب ، لا يمنع إرادة العموم من اللفظ .

والمعنى : يَأيها المؤمنون : إن تطيعوا الكافرين - فى فضائحهم الزائفة وتشكيكاتهم الواهية - يرجعوكم إلى ما كنتم عليه فى الجاهلية ، من الكفر والمعاصى ، فترجعوا خاسرين فى الدنيا والآخرة .

أما فى الدنيا ، فبالذلة والهوان بالانقياد إلى الأعداء . وكفى به مهانة .

وأما فى الآخرة ، فبالحِرْمان من الثواب العظيم والوقوع فى العذاب المقيم . . وكفى بذلك خسرانا .

١٥٠ - (بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ) :

بل الله ناصركم إن امتثلتم أمره واجتنبتم نهيه ، وأعددتم لعدوه ما استطعتم من قوة ، وكنتم كالبنيان : يشد بعضه بعضًا . فلا تتولوا سواه ولا تلوذوا بغيره .

(وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ) : يمنحكم القوة ، ويهيئ لكم أسباب النصر .

١٥١ – (سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ . . .) الآية .

قال كثير من المفسرين : إن المراد بالذين كفروا – هنا – هم مشركو مكة . وذلك لأنهم رأوا – وهم فى الطريق إلى مكة عائدين من أحد – أنهم أخطأوا إذ لم يقضوا على المسلمين ، فأرادوا الرجوع للقضاء على من بقى منهم . حتى يتم لهم النصر . فنزلت هذه الآية ، تطمينا للمسلمين .

(بِمَآ أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا) : علة لإلقاء الرعب فى قلوبهم .

والمعنى : سَيُلْقِى اللهُ الرُّعبَ فى قلوبهم بسبب إشراكهم – بعبادته – آلهةً ليس على صحة ألوهيتها حجة ، حتى ينزلها الله .

(وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ) : أى جزاؤهم النار .

(وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ) : وساء هذا المثوى والمستقر للكافرين .. ووصفهم بالظالمين ؛ لأن الشرك أعظم الظلم للنفس وأفظعه .

١٥٢ – (وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ . . .) الآية .

المراد بوعد الله : ما تكرر فى القرآن ، من نصر المؤمنين إذا صبروا وصدقوا فى القتال . كقوله تعالى : « وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ »[1] .

والمعنى : ولقد حقق الله لكم وعده بالنصر على الكافرين ، إذ تستأصلونهم بالقتل بأمر الله وقضائه . كما حدث فى أول غزوة أحد ، حيث مكنهم من قتل جماعة من صناديد قريش ، وظل النصر حليفهم إلى وقت اختلاف الرماة مع رئيسهم – ابن جبير – وذلك حين رأوا اشتغال الجيش بجمع الغنائم عند أول بوادر النصر ... فهو يرى ألا يبرحوا أماكنهم كيفما كانت المعركة ؛ امتثالا لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم . وهم يرون الانصراف إلى جمع

(١) الحج : من الآية ٤٠

الغنائم ، ظنا منهم أن العدو انهزم : مخالفين أمر الرسول بالبقاء فى أماكنهم مهما حل بالعدو... ونفذوا رأيهم ، وتركوا مراكزهم ،وأخذوا فى جمع الأسلاب ، ولم يبق مع ابن جبير إلا عدد قليل دون العشرة ، ففطن المشركون لهذه الثغرة ، فقتلوا الرُّمَاةَ ، وهاجموا المسلمين منها .

وذلك يقصه الله تعالى بقوله :(حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ) :

أى والذى رأوه هو الغلبة على المشركين . وذلك حين صُرع طلحة بن عثمان – صاحب لواء المشركين ، وصُرع معه تسعة نفر ، كانوا حول اللواء .

(مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا) : وهم الذين أرادوا الغنيمة .

قال عبد الله بن مسعود : ما شَعَرنا أن أحدًا من أصحاب النبى – صلى الله عليه وسلم – يريد الدنيا وعرضها ، حتى كان يوم أُحد ! !

(وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ) : وهم عبد الله بن جبير وأصحابه : الذين ثبتوا معه بعد ترك أصحابهم لهم حتى استشهدوا .

(ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ) : ثم كفكم عن المشركين ، بمنع معونته عنكم ، بعد الفشل والتنازع والعصيان . وألقى عليكم الهزيمة ؛ ليمتحنكم بالمصائب ، فيظهر ما علمه منكم من الاضطراب والفرار ، حتى تحذروهما – وأسبابهما – فيما تستقبلون من قتال الكفار .

(وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ) : تفضلا لصدور ندمكم على ما وقع منكم .

(وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) : بالعفو عنهم ، وقبول توبتهم . أو فى جميع الأحوال ؛ لأن الابتلاء رحمة ؛ لما فيه من تمييز الصادقين من المارقين ، وإثابة الصابرين على ما صبروا ؛ كما أن النصر رحمةٌ ظاهرةٌ ، ونعمةٌ واضحةٌ .

(إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ اللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾) .

المفـردات :

(تُصْعِدُونَ) : تشتدون فى العَدْوِ منهزمين .

(وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ) : ولا تلتفتون إليه لجدكم فى الهرب ؛ فرارا من الطلب .

(أُخْرَاكُمْ) : مؤخرة جيشكم .

(فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ) : جزاكم الله غمًّا بالهزيمة بسبب غمكم للرسول بالمخالفة ، أو غمًّا متصلا بغم .

(أَمَنَةً) : أمنًا وسلامًا .

(يَغْشَىٰ) : يغطى .

(أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ) : شغلهم الاهتمام بها .

(لَبَرَزَ) : لخرج ولظهر .

(مَضَاجِعِهِمْ): المراد بها ؛ مصارعهم فى أرض الموقعة .

(وَلِيَبْتَلِيَ) : ليختبر وهو العليم .

(وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ) : وليطهرها من الشبهات وينقيها .

التفسير

١٥٣ - (إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ . . .) الآية .

هذه الآية مرتبطة بما قبلها ، وهما فى شأن غزوة أحد .

والمعنى : ثم صرفكم الله عن جهاد المشركين ، حين تصعدون فى الأرض وتبعدون فيها هربًا ، لا تلوون على أحد ولا تلتفتون إليه لتعينوه ، أو تنجدوه ؛ لانشغالكم بالهرب والنجاة بأنفسكم .

وهو تصوير لما كان عليه حال المسلمين عند انهزامهم فى أحد .

(وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِى أُخْرَاكُمْ) :

أى فى مؤخرة جيشكم أثناء هربكم وفشلكم ؛ للعودة إلى القتال .

(فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ) :

فجزاكم غمًّا وحزنًا بفوات النصر والظفر بالغنيمة ، وقتل من قتل منكم بسبب غمكم للرسول صلى الله عليه وسلم ، بمخالفة أمره . أو جزاكم على مخالفتكم غمًّا متصلا بغم . قال القفال : وعندنا : أن الله تعالى ، ما أراد بقوله : (غَمًّا بِغَمٍّ) اثنين ، وإنما أراد مواصلة الغموم وطولها . أى أن الله عاقبكم بغموم كثيرة . مثل : قتل إخوانكم وأقاربكم ،

ونزول المشركين من فوق الجبل عليكم ، بحيث لم تأمنوا أن يهلك أكثركم .

فكأنه تعالى قال : أثابكم هذه الغموم المتعاقبة ؛ ليصير ذلك زاجرًا لكم عن الإقدام على المعصية ، والاشتغال بما يخالف أمر الله تعالى .

(لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَابَكُمْ) : هذا متعلق بقوله تعالى :

(وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ) : أى ولقد عفا الله عنكم ، بعد ندمكم وصادق توبتكم . لينتهى غمكم وحزنكم على ما فاتكم وما أصابكم . أو هو متعلق بقوله تعالى : (فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ) . قال الحسن : جعلكم مغمومين يوم أحد ، فى مقابلة ما جعلتم المشركين مغمومين يوم بدر ؛ لأجل أن يسهل عليكم أمر الدنيا فى أعينكم ، فلا تحزنوا بفواتها .

والأول أولى .

والمراد بما فاتهم : النصر والغنيمة ، وبما أصابهم : القتل والهزيمة .

(وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) : عليم بجلائل أعمالكم ودقائقها ، لا يخفى عليه من ذلك شىء . وهو يثيبكم أو يعاقبكم على ما يكون منكم . فخافوا بأسه ، وارجوا ثوابه .

١٥٤ ـ (ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا . . .) الآية .

المعنى : أن الله سبحانه وتعالى ، أكرم المؤمنين بالنعاس ، بعدما نزلت بهم الغموم ، لتطمئن قلوبهم ، ويهدأ روعهم فإنما ينعس من يأمن . والخائف لا ينام .

وقد أنزل الله عليهم النعاس بعد المعركة وهم صافون ، استعدادا لما يتوقعون من كرة العدو عليهم ، بعد أن كان متجها إلى مكة .

روى الإمام البخارى ، عن أبى طلحة ، قال : « غَشِيَنَا النعاس ، ونحن فى مصافّنا يوم أُحد . فجعل سيفى يسقط من يدى وآخذه ، ويسقط وآخذه » .

وكان هذا من رحمة الله بهم بعد ما أصابهم .

(يَغْشَى طَائِفَةً مِّنكُمْ) : وهم المؤمنون والصادقون .

(وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ) : وهم المنافقون الذين خرجوا مع الرسول ، غير راغبين فى الخروج . فقد كان هَمُّ هؤلاء أنفسهم . فلم يغشهم النعاس .

أما المؤمنون ، فقد كان همهم الرسولَ وسلامتَه ، حتى يأخذَ الإسلام سبيله إلى قلوب العالمين ، بقيادته وتوجيهه .

(يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ) : أى يظنون أن الله لا ينصر محمداً ، وأن دينه باطل ، وأن الله لن يكون مع المؤمنين .

وهذا الظن لا يصدر عن قلب مؤمن . فلهذا وصفه الله بأنه : ظن الجاهلية . أى ظن أهل الجاهلية ، الذين يجهلون أن الله ينصرُ رسلهُ ، ويؤيدُهم على أعدائهم .

(يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ) : كان من رأى عبد الله بن أُبَىّ وسائر المنافقين : ألاّ يخرجوا للقتال ، بل يبقوا بالمدينة حتى يهاجَمُوا فيها من المشركين . ولكن أكثر أصحاب الرسول — ممن لم يشهدوا بدرا — أصروا على الخروج ، كما سبق بيانه . فنزل النبى صلى الله عليه وسلم على رأيهم . وقال مقالته المعروفة :

« ما يَنْبَغِى لِنَبِىٍّ أن يَضَعَ أداتَهُ بَعْدَ ما لَبِسَهَا ، حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بينه وبَيْنَ عَدُوِّه[1] » .

فلما حدث ما حدث ، قال المنافقون : لم يكن لنا شىء من الأمر ، أى لم يؤخذ برأينا ، وإنما خرجنا كَرهًا .

---

(١) رواه الترمذى والبيهقى وابن ماجه .

(قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ) : بيده مقاليد الأشياء ، يقدر ويدبر كيف يشاء . وقد قضى بأن يخرج المسلمون فى أحد ، وأن ينهزموا لِحِكَمٍ يعلمها سبحانه ، و يستفيدوا من درس الهزيمة ، فلا يفعلوا ما يؤدى إلى مثلها .

(يُخْفُونَ فِى أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ) : يضمرون الشرك والشك فى عون الله للمسلمين ، ويظهرون لك الإيمان .

(يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا) : أى يحدثون أنفسهم ، أو يقول بعضهم لبعض : لو كان لنا من الرأى والتدبير شىء ما خرجنا من بيوتنا ، ولَمَا قُتل منا من قتل ، ولا هُزِمنا . ولكنا غُلبنا على الأمر ، فأصابنا ما أصابنا .

(قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ) :

أى قل يا محمد ؛ تنبيهًا لهم إلى أن ما حدث من القتل كان تقديرًا من الله ، ـ وما قدره الله لا بد أن يقع . حتى لو قعدوا ولم يغادر بيته منهم أحد ، يوم أحد ، لخرج الذين قَدَّرَ الله عليهم أن يُقْتَلُوا إلى مصارعهم ، التى قدر الله تعالى قتلهم فيها ، وقتلوا هنالك ألبتة . فلا مفر من قدر الله . والتدبير لا ينفع مع التقدير .

(وَلِيَبْتَلِىَ اللهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ) : أى وليختبر الله ضمائركم وأسراركم ــ وهو بها أعلم ــ وليطهر قلوبكم من الشبهات ــ كتب عليكم القتال وما أصابكم فيه .

(وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ): لا تخفى عليه من سرائركم خافية . فهو يجازيكم على ما تخفون . وهو غنى بعلمه إياكم من اختباركم . وإنما يفعل ذلك ؛ ليميز لكم الخبيث من الطيب ، فيتبين لكم المؤمن من المنافق .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾) .

المفردات :

(اسْتَزَلَّهُمُ) : أوقعهم فى الزلل بما زيّنه لهم .

(ضَرَبُوا فِى الْأَرْضِ) : أوغلوا فيها .

(غُزًّى) : جمع غازٍ . وهو المقاتل .

التفسير

١٥٥ـ (إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا . . .) الآية .

الجمعان هما : جمع المسلمين وجمع المشركين . ويوم التقائهما ، هو يوم أحد . والذين تَوَلَّوْا منهم : هم المسلمون الذين رجعوا إلى المدينة ، بعد أن ترك الرماة أماكنهم ، أو هم الرماة الذين خالفوا أمر الرسول صلى الله عليه وسلم : وهو ألا يبرحوا أماكنهم بأى حال .

والمعنى : إن الذين تركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورجعوا متأثرين بدعاية المنافقين منكم يوم التقى الجمعان بأُحد، إنما أوقعهم الشيطان فى الزلل ببعض ما كسبوه من الذنوب والمعاصى ، كمخالفة أمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بالثبات حتى النصر ، وألا تغريهم الغنائم التى لاحت لهم .

والتعبير ببعض ما كسبوا ؛ للإيذان بأن الشيطان لم يستزلهم إلا من ناحية المخالفات ، أما الأعمال الصالحة من الإيمان ، والخروج مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، وسائر الطيبات – فلا حيلة للشيطان فيها حتى يستزلهم عن طريقها . وهذا يشعر بأن جانب الخير فيهم وافرٌ متين .

(وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ) : فغفر لهم هذا الذنب .

(إِنَّ اللهَ غَفُورٌ) : واسع المغفرة .

(حَلِيمٌ) : عظيم الحلم ، فلا يعجل بالعقوبة على من عصاه .

١٥٦ – (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا . . .) الآية .

هذا تحذير للمؤمنين الصادقين فى عهده – صلى الله عليه وسلم – أن يحذوا حذو الكفار فى التثبيط عن الجهاد .

والمراد بالذين كفروا : المنافقون ؛ لأن هذه الآيات متعلقة بشرح أحوالهم .

ومع كون الآية نزلت فى هؤلاء الصادقين من أصحاب رسول الله لتحذيرهم ، فهى قاعدة عامة لنهى المؤمنين – فى كل عصر – عن أن يثبطوا عن الجهاد فى سبيل الله .

(وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ) :

أى : فى شأنهم ، أو لأجلهم ؛ لأن إخوانهم الذين قالوا هذا فى حقهم ، ماتوا أو قتلوا . ومعنى أخوتهم لهم : اتفاقهم معهم نسباً أو مودة .

(إِذَا ضَرَبُوا فِى الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى) :

الضرب فى الأرض : الإبعاد فيها للتجارة ونحوها . والغُزَّى جمع غازٍ وهو المقاتل . وَإِفْرَادُ كونهم غزاةً بالذكر – مع اندراجه تحت الضرب فى الأرض – لأنه المقصود بيانه . وَذِكْرُ الضرب فى الأرض : توطئة له . وتقديمه ؛ لكثرة وقوعه .

على أن الغزو قد يوجد بدون ضرب فى الأرض وسفر فيها .

(لَوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا) :

أى : لو لم يخرجوا وكانوا مقيمين عندنا ، ما ماتوا وما قتلوا . وذلك جهل منهم بأن الله قدّر الآجال ، وأن الضرب فى الأرض أو الغزو ، لا يكون سببًا فى الموت ، أو القتل . وهم إنما قصدوا – بذلك – تعويق المؤمنين عن الجهاد .

قال الرازى : وذلك لأن فى الطباع محبةَ الحياة ، وكراهيةَ الموت والقتل . فإن قيل للمرء : إذا تحرزت من السفر والجهاد ، فأنت سليم طيب العيش ، وإن تَقَحَّمْتَ أحدهما[1] ، وصلت إلى الموت أو القتل – فالغالب أن ينفر طبعه عن ذلك ، ويرغب فى ملازمة البيت ، وكان ذلك من مكايد المنافقين فى التنفير من الجهاد . إ هـ .

(لِيَجْعَلَ اللهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ) :

هذا تعليل لنهى المؤمنين عن مشابهة المنافقين فى اعتقادهم ورأيهم .

والمعنى : يأيها الذين آمنوا ، لا تكونوا مثل الكافرين – المنافقين – فى اعتقاد أن الحَذَرَ يمنع من القدر ، وأن إخوانهم لو لم يخرجوا من المدينة . لما قتلوا . ولا تمتنعوا عن الجهاد – فى أى مكان – تَـأَثُّرًا بما قالوا ، ليجعل الله معاصاتكم لهم – فيما أرادوه منكم – سببًا لحسرة بالغة فى قلوبهم .

وقيل : إنه متعلق بـ(قَالُوا) فى قوله : (وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ) ، فتكون اللام للعاقبة . على حد قوله تعالى : « لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا »[2] .

والمعنى : أن الله يجعل ذلك القول حسرة فى قلوبهم ، حين يرون من قتل منهم ، وأنهم فشلوا فى صرفهم عن الجهاد .

أو أن هذه الحسرة تكون يوم القيامة ، حين يرون ما أُعد للمجاهدين من الثواب العظيم .

---

(١) أى رميت نفسك فيه بلا روية . (٢) القصص ، من الآية : ٨

وما قلناه أوّلا أولى .

(وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ) :

هذا رد حاسم لمقالتهم . فليس الإحياء والإماتة إلا فى يد الله سبحانه . هو مقدِّرهما .. فالموت يأتى القاعد فى بيته متى حان أجله ، كما يأتى المجاهد فى حربه كذلك . وربما أصابت المنية القاعد ، ولم تنزل بالغازى .

(وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) : فيجازيكم على أقوالكم وأفعالكم ، إن خيرا فخير ، وإن شرًّا فشر .

١٥٧ - (وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ) :

سيقت هذه الآية ؛ لبيان أن الموت - فى سبيل الله - وسيلة إلى نيل غفرانه ورحمته . وأنه خير مما يحرص عليه هؤلاء المنافقون من الحياة ، وجمع حطام الدنيا ، ومتاعها الزائل . كما سيقت لتحذيرهم مما يريده المنافقون ، من إعظام الفجيعة فى قتلى المؤمنين فى غزوة أحد .

والمعنى : ولئن قتلتم فى الجهاد فى سبيل إعلاء كلمة الله ، وفزتم بشرف الشهادة ، أو متم بغير قتل - وأنتم فى سبيل الله - فذلك لا يقتضى الجزع ؛ لأن مغفرة الله ورحمته ، لمن ينال شرف القتل أو الموت فى سبيله - خير من البقاء فى الدنيا وما يجمعون من منافعها .

١٥٨ - (وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ) :

المعنى : ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون للحساب والجزاء ، لا إلى غيره .

ومَن كان مرجعه إلى الله ، فعليه أن يقدر لذلك قدره ، بأن يكون فراره مما يسبب العقاب ، لا من الجهاد الذى يقتضى عظيم الثواب .

وقدَّم القتل على الموت فى الآية السابقة ، لأنها كانت فى المقاتلين . والغالب فى شأنهم القتل .

أما هذه الآية ؛ فهى لبيان أن مصير جميع العباد إليه تعالى . والغالب فى حالهم الموت . فلذا قدمه على القتل .

والحشر : جمع الخلائق إلى الله بعد البعث ، تمهيدًا للحساب والجزاء .

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾) .

المفردات :

(لِنتَ لَهُمْ) : رفقت بهم .

(فَظًّا) : الفظ ، سيئ الخلق .

(غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ) : قاسيه .

(يَخْذُلْكُمْ) : يمنع عنكم النصر .

التفسير

١٥٩ - (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ . . .) الآية .

بيان لعظم حلم النبي صلى الله عليه وسلم ، ورحمة الله به وبهم ، بعد ما كان منهم من مخالفة أمر الرسول وفرارهم ، كما سبق بيانه .

أى : فبسبب رحمةٍ واسعةٍ من الله - بك وبهم - وفَّقك الله للصفح عنهم : فَلِنْتَ لهم ورفقت بهم ، ولم تغلُظ عليهم فى الملام . مع أنهم فعلوا ما يقتضى أشد التعنيف . إذ ترك أكثرُ الرماة أماكِنَهم فوق الجبل ، واشتغلوا بجمع الغنيمة . فمكَّنوا المشركين من صعوده مكانهم ، وقلب ميزان المعركة لصالحهم . وترتب عليه أن أكثر الجيش فرّ ، وترك الرسول

فى قلةٍ من أصحابه ، فناله من أذى المشركين ما ناله ، حتى أرجفوا بقتله .!! فكان لين الرسول معهم – بعد ذلك – رحمةً من رحمات الله به وبهم . إذ كان سببًا فى بقاء الإسلام ، وجمع قلوب المسلمين .

ولذا قال سبحانه وتعالى :

(وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ) :

أى : ولو كنت جافِىَ الطبع ، قاسِىَ القلب ، فعاملتهم بقسوة ، وعنّفتهم على ما كان منهم ، وأشحت عنهم غضبًا عليهم – لنَفَرت قلوبهم منك ، فتفرقوا عنك ، ولم تستطع أداء رسالتك ، وتبليغ دعوتك على وجهها الأكمل .

فَلِينُهُ صلى الله عليه وسلم معهم – على خطئهم وعفوه عنهم – لم يكن عن ضعف ، وإنما كان ناشئًا عن الرحمة التى فطره الله عليها .

(فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ) :

قال صاحب الكشاف : اعف عنهم فيما يتعلق بحقك ، واستغفر لهم فيما يتعلق بحق الله .

(وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ) :

أى : فى أمر الحرب وغيره ، من كل أمر له خطر ولم ينزل فى شأنه وَحْىٌ ؛ استظهارا برأيهم ، وتطييبًا لنفوسهم ، ورفعًا لأقدارهم ، وتقريرا لسُنّة التشاور فى الأُمة الإسلامية .

وقد جاء فى الكشاف : وعن الحسن رضى الله عنه : قد علم الله أنه مابه إليهم حاجة ، ولكنه أراد أن يستن به مَنْ بعده .

وقيل : كانت العرب ، إذا لم يشاوَرُوا فى الأمر ، شق عليهم ذلك . فَأُمِرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمشاورة أصحابه ، لئلا يثقلَ عليهم استقلالُه بالرأى دونهم . وكان صلى الله عليه وسلم ، يدرك – تمام الإدراك – ما للمشاورة من أثر فى الوصول إلى الصواب .

وفى ذلك يقول صلى الله عليه وسلم : « ما تشاور قَوْمٌ قط إلا هُدُوا لأرْشَدِ أمْرِهِم »[1] .

(فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ) :

أى : فإذا استقر رأيك ، وسكنَت نفسُك – بعد المشاورة – فَأَمْضِ الأَمْرَ ولا تتردد ، وتوكل على الله فى تنفيذ ما عزمت عليه فإنه هو المعين لك فى أمور الدين والدنيا .

(إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) : عليه فى جميع أمورهم . وإنما يحبهم ؛ لأنهم أخلصوا نفوسهم له ، وطردوا عنها ما سواه ، إذ لم يَرَوا فى غيره غناء .

وحُبُّ اللهِ لهم ، مجاز عن توفيقه وإرشاده لهم فى الدنيا ، وحسن المثوبة فى الأخرى .

١٦٠ – (إِن يَنصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ . . .) الآية .

أى : إن يمددْكم الله بأسباب النصر ، ووسائل الغلب ، فلن يغلبكم غالب . . فاتقوه وتوكلوا عليه وحده ، وأعِدُّوا للقتال عُدَّتَه : من حشد الجنود ، وإعداد السلاح ، والتدبير المصحوب بالإيمان والصبر والثقة بالله . . فإن ذلك يوجب لكم النصر والغلب . وما النصر إلا من عند الله . . .

(وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِى يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ) :

أى : وإن يمنع نصره عنكم ، فمن هذا الذى ينصركم من بعد خذلانه لكم .

والمراد أنه لا ناصر لكم سواه .

وفى هذا تنبيه إلى أن الأمر كله لله .

(وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) : أمر لِلمُؤْمنين بأن يخصوا الله – تعالى – بالتوكل عليه ، والثقة به ، فى جميع أمورهم ، مع الأخذ فى الأسباب .

والمراد بالتوكل ، غير التواكل الذى هو ترك الأخذ بالأسباب ، مما يقع فيه كثير من المسلمين ، بناء على خطئهم فى فهم المراد من التوكل . وهذا التواكل محرم شرعا . .

---

(١) أخرجه ابن أبى شيبة فى مسنده ، والبخارى فى الأدب . وأشار إليه الترمذى فى آخر باب الجهاد .

(وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾) .

المفردات :

(يَغُلّ) : يخون . فالغُلُولُ : الخيانة وأخذ الشيء خفية . وخص – فى الشرع – بالسرقة من المغنم قبل القسمة . وفى قراءة « يُغَلّ » بضم الياء وفتح الغين ، أى ينسب إلى الغلول .

(بَاءَ بِسَخَطٍ) : رجع بغضب شديد من الله .

التفسير

١٦١ – (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ . . .) الآية .

أى ما صح وما استقام – عقلا وشرعًا – لنبى من الأنبياء ، أن يخون فى المغانم وغيرها ، أو يُنْسَبَ إلى الخيانة .

وفى هذا تنزيه لمقامه صلى الله عليه وسلم ، عن جميع وجوه الخيانة فى أداء الأمانة ، ومنها قسمة الغنائم ، وتنبيه على عصمته عليه السلام . فإن النبوة تنافى ذلك .

والمراد : تنزيه ساحته صلى الله عليه وسلم ، عما ظنه الرماة الذين تركوا أماكنهم يوم أحد ، حرصًا على الغنيمة ، وخوفًا من أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أخذ شيئًا فهو له ... فيحرموا – فقال الرسول صلى الله عليه وسلم لهم معاتبًا متعجبًا :

« ظننتم أنا نَغُل ؟! » فنزلت الآية[1] .

---

(١) حكاه الواقدى عن الكلبى ، ومقاتل .

وعن مجاهد ، عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : « اتَّهَمَ المنافقون رسولَ الله – صلى الله عليه وسلم – بشيء فُقِدَ ، فأنزل الله الآية » .

(وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) :

أى ومن يخُنْ يأْت بما خان فيه يوم القيامة ، يحمله أمام أهل المحشر ؛ ليفتضح أمره .

وقد وردت أحاديث كثيرة فى عاقبة الغلول وجزائه ، وأنه من الكبائر .

فعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : كان على ثَقَلِ[1] النبي – صلى الله عليه وسلم – رجل يقال له كركرة فمات فقال النبى صلى الله عليه وسلم : هو فى النَّار ؛ فذهبوا ينظرون إليه فوجدوا عباءَةً قد غلَّها[2] » .

وقد امتنع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من صلاة الجنازة على من غَلّ[3] .

(ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ) :

أى : تعطَى كل نفس مكلفة جزاء ما عملت – من خير أو شر – وافيًا تامًّا ، قليلا كان أو كثيرًا .

والغالُّ داخل فى هذا العموم دخولا أوليًّا .

(وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ) :

أى : وكل الناس لا يُظْلَمُون بنقص فى ثواب ما عملوه من الخير ، أو زيادة فى العقاب على ما اقترفوه من الشر . « إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا »[4] .

---

(١) متاع المسافر . (٢) غلها : سرقها من الغنيمة . رواه البخارى نقلا عن تاج الأصول ٤/٣٩١ كتاب الجهاد .

(٣) انظر أبو داود فى كتاب الجهاد – باب تعظيم الغلول . (٤) النساء من الآية : ٤٠

١٦٢ـ (أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللهِ كَمَن بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللهِ . . .) الآية .

المعنى : أغفلتم عن عدل الله ، فحسبتم أن من اتبع رضوان الله وسعى فى تحصيله : بفعل الطاعات وترك المنهيات، كمن رجع بغضب شديد من الله عليه ؛ بسبب الكفر والمعاصى ، ومنها الغلول ؟

أى : لا يستوى من اتبع رضوان الله ـ بالتزام شريعته ، فاستحق ثواب الله ونعيمه ـ ومَنْ حاد عنه ، فاستحق غضبه وشديد عقابه ، فلا محيد له عنه .

(وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ) :

أى : مقره ومثواه جهنم : يلقى فيها عذاب الهون ؛ جزاء تفريطه فى أوامر الله تعالى ونواهيه .

(وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) :

أى : وبئس مآله ومرجعه السيىء : جهنم .

١٦٣ـ (هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللهِ . . .) الآية .

أى : المتبعون رضوان الله والذين باءوا بسخطه ، ذوو درجات ومنازل متفاوتة فى الثواب والعقاب .

فأصحاب الثواب متفاوتون فى الدرجات . والمستحقون لغضب الله وعذابه ؛ متفاوتون كذلك . والدرجات تكون فى النعيم ، وتكون فى العذاب . يدل لذلك قوله تعالى : « وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا »[1] بعد قوله تعالى : « ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ »[2] .

والمراد بقوله تعالى : (عِندَ اللهِ) أى : فى علمه تعالى وحكمه .

(وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ) :

أى : بصير بالأعمال التى عملوها من خير أو شر . سيجازيهم عليها : كلا بحسبه من ثواب أو عقاب .

(١) الأنعام من الآية : ١٣٢ (٢) الأنعام الآية : ١٣١

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ ﴾ . .

المفردات :

(مَنَّ) : المن ، التفضل والإنعام من غير مقابل .

(مِنْ أَنفُسِهِمْ) : من جنسهم .

(الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) : القرآن والسنة .

(أَنَّىٰ هَٰذَا) : من أين هذا ؟ .

التفسير

١٦٤ – (لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ . . .) الآية .

أى : أنعم الله تعالى وتفضل على المؤمنين ، ببعثه الرسول فيهم من جنسهم : عربيًّا مثلهم : نشأ بينهم ، وعرفوا أخلاقه وصفاته .

وإذا كان الرسول إليهم من جنسهم ، كان ذلك أبلغ فى الامتنان . حيث يسهل عليهم مخاطبته ومجالسته ، ومعرفة أمور الدين منه .

وبعثته صلى الله عليه وسلم فيهم – وهو منهم – شرف للعرب ، وفخر عظيم لهم . وإن كانت رسالته عامة للعالمين أجمعين «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ» [1]

(يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ) : وهو القرآن ، بعد أن كانوا أهل جاهلية ، لم يطرق أسماعهم شىء من الوحى .

(١) الأنبياء الآية : ١٠٧

(وَيُزَكِّيهِمْ) : أى ويطهرهم مما كانوا فيه من دنس الجاهلية ، وخبيث المعتقدات . حيث دعاهم إلى العقيدة الصحيحة ، والأخلاق الكريمة ، والأعمال الصالحة .

(وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) :

أى : ويعلمهم القرآن وشرائعه ، وحكمه وأحكامه ، والسنة وما اشتملت عليه من بيان لِمُبْهَمِ الكتاب ، وتفصيلٍ لمُجمَلِهِ .

(وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) :

أى : وإنهم كانوا - من قبل بعثته - لفى ضلال ، واضح الدلالة على الجهالة ، ظاهرٍ لكل من اطلع على عاداتهم وأخلاقهم وعقائدهم .

١٦٥ - (أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا . . .) الآية .

كلام مستأنف ، سيق لإبطال بعض ما نشأ من الظنون الفاسدة بعد معركة أحد ، إثر إبطال بعض آخر منها .

والمعنى : أفعلتم ما فعلتم من أسباب الهزيمة وَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ يوم أحد بقتل سبعين شهيدًا منكم (قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا) : يوم بدر بقتل سبعين من كفار قريش وأسر سبعين منهم - لَمَّا حدث هذا - قلتم : من أين هذا الذى أصابنا وقد وعدنا الله النصر ؟ !

(قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ) : بسبب عصيانكم أمر رسول الله ، حيث أمركم بالثبات فى مكانكم فعصيتم .

(إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) :

فهو ينصركم حين تستحقون النصر ، ويكتب عليكم الغلبة حين تقصرون فى التزام أسبابه .

وفى ختم الآية بما ذكر : ما يرشد إلى أن الأمر كله بيده وتحت قدرته ، سبحانه وتعالى .

(وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾)

المفردات :

(يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ) : أى يوم أحد ، حيث التقى جمعُ المؤمنين وجمع المشركين .

(وَلِيَعْلَمَ) : وليظهر ويميز .

(نَافَقُوا) : النفاق : إظهار الإيمان وإبطان الكفر .

(فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ) : أى فادفعوه عن أنفسكم .

التفسير

١٦٦ - (وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ . . .) الآية .

أى : وما نزل بكم من استشهاد بعضكم ، يوم التقى الجمعان : جمع المؤمنين بقيادة رسول الله ، وجمع المشركين بقيادة أبى سفيان (فَبِإِذْنِ اللهِ) : أى فكائن بقضاء الله وقدره ، حسبما جرت به سنته فى خلقه ، « وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ »[1]

(١) آل عمران من الآية : ١٤٠

وفى ذلك تسليةٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ، ومواساةٌ لهم فيما أصابهم . فالمؤمن إذا عرف ذلك ، يرضى ويُسلِّمُ بما قضاه الله وقدَّره .

(وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ) :

أى : وليظهر المؤمن الصادق من غيره ، وليميز الله الخبيث من الطيب .

١٦٧ - (وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا . . .) الآية .

أى : وليظهر غير الصادقين فى إيمانهم .

(وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا) :

أى : وقيل للمنهزمين مع عبد الله بن أُبَىٍّ - رأس المنافقين - تعالَوْا قاتلوا فى سبيل الله لإعلاء دينه ونصرة نبيه ، أو ادفعوا عن أنفسكم وأموالكم ، إن لم تقاتلوا لوجه الله . وممن قال لهم ذلك : عبد الله بن عمرو بن حرام .

(قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ) :

هذا استئناف بيانى ، أى قالوا : لو كنا نعلم أنكم تلقون قتالا لاتبعناكم وسرنا معكم . أو قالوا استهزاء : لو نعلم فنون الحرب وأساليبها لاتبعناكم .

ثم كشف الله حقيقة أمرهم فقال :

(هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ) :

أى هم - يوم قولهم ذلك - أقرب للكفر منهم للإيمان ، حيث تركوا الجهاد فى سبيل الله ، وقالوا ذلك كاذبين .

وإنما لم يصرح القرآن بحقيقة كفرهم ، لنطقهم بالشهادتين . وهم - فى الواقع - لا إيمان فى قلوبهم .

(يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ) :

هذه جملة – تبين حال المنافقين الدائمة ، لا فى هذا اليوم فقط . أى أنهم يتكلمون بكلمة التوحيد وليس فى قلوبهم منه شىء؛لإضمارهم الكفر والعداوة والبغضاء لأهل الإسلام .

(وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ) :

أى : والله سبحانه عليم بما انطوت عليه صدورهم من الشر والفساد ، وبأن ما قالوه بأفواههم ، ليس كائنًا فى قلوبهم ، بل مخالفًا له .

١٦٨ – (الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا . . .) الآية .

أى : الذين قالوا فى حق إخوانهم فى الدين ، أو ذوى قرابتهم الذين خرجوا مع المؤمنين وقاتلوا ، وقد قعدوا هم عن مشاركتهم والجهاد معهم .

(لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا) : أى لو أطاعونا فى ترك السير مع الرسول والمؤمنين ، ما قُتلوا. كما أننا لم نقتل .

وفى ذلك ما يدل على أن المنافقين ، حرّضوا المؤمنين على التخاذل والقعود عن الجهاد .

(قُلْ فَادْرَءُوا) : أى قل لهم يا محمد : إن كان القعود ينجى من الموت كما تزعمون . فادفعوا عن أنفسكم الموت الذى كتب عليكم .

(إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) : فيما تزعمون من أن الموت لم يقع بكم ؛ لأنكم قعدتم وجبنتم . قال تعالى: « قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا . قُلْ مَن ذَا الَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا »[1] .

(١) الأحزاب : ١٦ ، ١٧

(وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾) .

التفسير

١٦٩ - (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا . . .) الآية .

كلام مستأنف: سيق لبيان أن القتل الذى يحذرونه ، ويحذّرون الناس منه ، ليس مما يُحْذَر ويُتَّقَى . بل هو من أَجلّ المطالب التى يتنافس فيها المتنافسون .

والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو لكل من يقف على الخطاب ويصلح له.

أى : لا تحسبن الشهداء الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتًا كسائر من يموتون .

(بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ) :

أى : بل هم أحياء حياة كريمة عند ربهم ، فى دار كرامته ، حيث ينعمون النعيم اللائق بما قدموا من بذل أرواحهم فى سبيله .

(يُرْزَقُونَ) : برزق الجنة على وجه يعلمه الله .

فالحياة والرزق للشهداء ، قد جاء بهما القرآن . فيجب الإيمان بهما .

وقد وردت السنة الصحيحة مبيّنة ما عليه الشهداء فى الجنة.

روى مسلم[1] فى صحيحه بسنده ، عن مسروق ، أنه سأل عبد الله (يعنى ابن مسعود) عن هذه الآية: (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ).

(١) مسلم فى باب بيان : « أن أرواح الشهداء فى جوف طير خضر » من كتاب الإمارة .

فقال : أما إنَّا قد سألنا عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « أرواحُهم فى جوف طير خُضْر لها قناديلُ معلقةٌ بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى تلك القناديل . . . » الحديث .

وروى الإمام أحمد فى مسنده ، عن ابن عباس رضى الله عنهما ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأُحُدٍ جَعَلَ اللهُ أَرْوَاحَهُمْ فى أَجْوَافِ طَيْرٍ خُضْرٍ تَرِدُ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ ، وَتَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا ، وَتَأْوِى إِلَى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ ، فِى ظِلِّ الْعَرْشِ ، فَلَمَّا وَجَدُوا طِيبَ مَأْكَلِهِمْ وَمَشْرَبِهِمْ ، وَحُسْنَ مَقِيلِهِمْ ، قَالُوا : يَا لَيْتَ إِخْوَانَنَا يَعْلَمُونَ مَا صَنَعَ اللهُ لَنَا لِئَلَّا يَزْهَدُوا فِى الْجِهَادِ وَلَا يَنْكُلُوا عَنِ الْحَرْبِ . فقال الله - عَزَّ وَجَلَّ - أَنَا أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُمْ ، فَأَنْزَلَ اللهُ فِى هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ » : (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ..) . وكذلك رواه أبو داود ، والحاكم فى مستدركه .

١٧٠ - (فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ . . .) الآية .

هذه تتمة أحوال الشهداء فى الآخرة . فهم أحياء عند ربهم يرزقون . وهم فرحون بما أعطاهم الله من ثوابه وكرامته ، وإحسانه الدائم الذى لا يسلب عنهم .

(وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ) :

أى : يُسَرُّون بإخوانهم الذين يُقاتلون بعدهم فى سبيل الله ، ولَمَّا يظفروا بالشهادة ، بأن لهم إحدى الحسنَيَيْن : النصر ، أو الشهادة .

(أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ) :

أى : أنهم لا يخافون حين يقدمون عليهم شهداء مثلهم .

(وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) : على ما تركوه وراءهم من دنيا فانية .

وهذا يبعث فى نفوس الأحياء الجد فى الجهاد ، والرغبة فى نيل منازل الشهداء .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

وكيل أول
رئيس مجلس الإدارة
علي سلطان علي

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٧٤/١٦٧٩

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
٤٥ - ١٩٧٤ - ٢٠٠٠ - ٢٥٠



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

الحزب الثامن

الطبعة الأولى ١٣٩٤ هـ — ١٩٧٤ م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٧٤

(يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾) .

التفسير

١٧١ - (يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللهِ وَفَضْلٍ . . .) الآية .

أى : يتجدد استبشارهم وسرورهم بنعمة من الله وفضل عظيمين فى الجنة : دار الثواب ، حيث يجدون فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . كما قال تعالى : « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ »[1] .

(وَأَنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ) :

أى : ويستبشرون بأن الله - سبحانه وتعالى - عادل رحيم بعباده : يكافئ المؤمنين ، ولا يضيع أجرهم على أعمالهم . بل يضاعف الحسنة بعشر أمثالها ، إلى أضعاف مضاعفة.

والآية - وإن نزلت فى شهداء غزوة أحد - حكمها عام فى جميع شهداء المؤمنين ؛ المجاهدين فى سبيل الله .

---

(١) يونس من الآية : ٢٦

(ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾) .

المفردات :

(القَرْحُ) : الجرح .

(حَسْبُنَا اللهُ) : كافينا وحافظنا .

(الوَكِيلُ) : المتصرف . أو الكافى . أو الكافل .

التفسير

١٧٢ - (الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ) :

هذا كلام مستأنف ، سيق لبيان فضل أهل أحد : الذين أصابتهم الجراح وأثخنتهم . ولكنهم استجابوا لدعوة الله ورسوله ؛ ليرهبوا المشركين ، حتى لا يحملهم ما حسبوه نصرا فى المعركة ، على الذهاب إلى المدينة ، ليتموا نصرهم على المسلمين .

رُوِى أن أبا سفيان وأصحابه ، لما انصرفوا من أحد ، فبلغوا الروحاء : ندموا وهموا بالرجوع ، فبلغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فأراد أن يرهبهم ويريهم من نفسه وأصحابه قوة . فندب أصحابَه للخروج فى طلب أبى سفيان . وقال : « لا يخرجنّ معنا

إلا من حضر يومنا بالأمس » فخرج صلى الله عليه وسلم ، مع جماعة حتى بلغوا حمراء الأسد وهى من المدينة على ثمانية أميال . وكان بأصحابه القرح ، فتحاملوا على أنفسهم حتى لا يفوتهم الأجر ، وألقى الله تعالى الرعب فى قلوب المشركين . فذهبوا ، فنزلت الآية[1] .

والمعنى : الذين لبوْا دعوة الله ورسوله : للخروج خلف المشركين ، من بعد ما أصابهم الجرح فى غزوة أحد ، ليمنعوهم من العودة إلى المدينة ـ هؤلاء الذين أحسنوا فى خروجهم واتقوْا مخالفة نبيهم ، وخافوا الأضرار المترتبة عليها ـ لهم أجرٌ عظيم ، وثوابٌ جزيل من عند الله .

١٧٣ ـ (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) :

لمّا أصيب المسلمون فى أُحد ، نادى أبو سفيان ، قائد جيش المشركين : موعدنا بدر من العام المقبل . فقال صلى الله عليه وسلم : « قولوا : نعم . إن شاء الله » فلما كان العام المقبل خرج أبو سفيان فى أهل مكة ، حتى نزل مَرَّ الظهران ، فألقى الله الرعب فى قلب أبى سفيان ، فبدا له الرجوع . ولكنه خشى أن رجوعه يزيد المسلمين جُرأة ، فبعث إليهم فى المدينة من يثبطهم .

وقيل : إن الذى حمل رسالته ، هو نعيم بن مسعود الأشجعى ، وقد قدم معتمرا . فسأله ذلك ، والتزم له عشرا من الإبل . فخرج نعيم . فوجد المسلمين يتجهزون للخروج فقال لهم : أتوكم فى دياركم ، فلم يفلت منكم أحد إلا شريد . أفترون أن تخرجوا وقد جمعوا لكم ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده ، لأخرجَنّ ، ولو لم يخرج معى أحد » فخرج فى سبعين راكبا ، كلهم يقولون : حسبنا الله ونعم الوكيل .

---

(١) ابن كثير ١ / ٤٢٨

وفى ذلك يقول الله تعالى : (فَزَادَهُمْ إِيمَانًا) : أى فزادهم هذا التخذيل إيمانا وثقة بالله . وقالوا فى يقين صادق :

(حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) : الله كافينا : يَرُدُّ عنا أعداءنا وينصرنا ، ونعم الكفيل الله تعالى .

١٧٤ - (فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ...) الآية .

اتجه المسلمون إلى لقاء المشركين فى بدر ، حسبما تواعدوا مع أبى سفيان عقب غزوة أحد . فلم يجدوا أحدا من المشركين فيها . ووجدوا السوق قائمةً . فاتجروا فيها بمَا مَعَهُم ، فربحوا ربحا وفيرا . . وقد أقاموا بها ثمانية أيام .

والمعنى : فعادوا من بدر الثانية ، بنعمة من الله عظيمة : وهى العافية والثبات على الإيمان والزيادة فيه ، وخوف العدو منهم . كما عادوا بفضل منه تعالى ، وهو ما ربحوه فى تجارتهم .

(وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ) :

أى حرَصوا على فعل مايرضى الله تعالى عنهم ، من المبادرة إلى فعل الطاعات . ومنها : خروجهم لبدر ، وترك المنهيات ، ففازوا برضوان الله ، وتأييده ، ونصره .

(وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ) : يخص به مَن والاه .

وتنكير الفضل ، ووصفه بالعظم ، دليل على سمو قدره ، وعظم منزلته .

(إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾) .

التفسير

١٧٥ - (إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) :

المراد بالشيطان : إبليس . وبأوليائه : أبو سفيان وأصحابه .

والمعنى : إنما ذلكم إبليس : يخوفكم أنصاره على لسان هذا المخذّل المأجور . وذلك بقوله لكم : « إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ[1] » .

(فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) :

فلا تخشوا هؤلاء الكفار ؛ لأنكم أنصار الله . والله لا يتخلّى عن أوليائه الناصرين له . كما قال تعالى : « إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ[2] » .

(١) آل عمران ، من الآية : ١٧٣ (٢) محمد ، من الآية : ٧

(إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) : فيها إشارة إلى أن الإيمان القوى ، يمحو الخوف من القلوب .. إلا خوف الله تعالى .

قال الإمام محمد عبده : مَن تدبر هذه الآية حق التدبر ، علم أن المؤمن الصادق ، لا يكون جبانا . فإن الشجاعة وصف ثابت للمؤمنين الصادقين . إذا شاركهم فيه غيرهم ، فإنه لايدرك فيه مداهم . لأن الكفار والمنافقين ، أحرص الناس على حياة ، والخوف من الله ليس جبنا ؛ لأنه خوف ممزوج بالحب ؛ ولأنه خوف موصول بالأمن : « أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ »[1] ولأن المؤمنين « لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ »[2] .

١٧٦ - (وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ...) الآية .

كان للمنافقين مواقف شائنة فى غزوة أحد : أحزنت النبىَّ صلى الله عليه وسلم . فإن الرسول - لمَّا وافق على رأى أغلبية المسلمين بالخروج للقاء المشركين خارج المدينة - غضب عبد الله بن أبى بن سلول -رأس المنافقين- لأنه كان من رأيه البقاء بالمدينة . فأضمر الغدر . فلما كان جيش المسلمين بالشوط - وهو بستان بين أحد والمدينة - رجع عبدالله بن أُبَىّ بثلاثمائة من أصحابه . وقال : عصانى محمد ، واتبع الولدان - يقصد الشبان - ونسى هذا المنافق : أن عبء القتال يقع عليهم لا على الشيوخ ، وأنهم كانوا هم الأغلبية . وقال أيضا : علام نقتل أنفسنا ؟ وكان هذا المقال الباطل منه ، تبريرا لذلك الموقف الشائن المُخَذِّل : الذى أضرّ بوحدة المسلمين ، وهم مقبلون على لقاء العدو .

حينئذ تبعهم عبد الله بن عمرو : والدُ جابر بن عبد الله . وقال : ياقوم : أُذَكِّركم اللهَ أن تخذلوا قومكم ونبيكم . فقالوا : « لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ »[3] فقال لهم والد جابر : أَبْعَدَكُمُ الله ، فسيغنى الله عنكم نبيَّهُ .

ولما فعل عبدالله بن أُبَىّ ذلك ، همت طائفتان أن تفشلا . وهما : بنو حارثة من الخزرج ، وبنو سلمة من الأوس . فعصمهما الله ، وعدلتا عما اعتزمتاه .

(١) الأنعام ، من الآية : ٨٢ (٢) يونس ، من الآية : ٦٢ (٣) آل عمران ، من الآية : ١٦٧

ولما دارت الدائرة على المسلمين فى أحد ، بسبب موقف المنافقين أولا ، وبسبب ترك الرماة أماكنهم فوق الجبل لحماية ظهور المسلمين ثانيا ، ورجعوا إلى المدينة تثقلهم الجراح - بعدما استشهد بعضهم - سخر بهم المنافقون ، وأظهروا ما فى قلوبهم من البغضاء ، وقالوا فى حق إخوانهم الذين قتلوا فى المعركة : « ... لَوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا »[1] وكانوا - بهذا الموقف - جديرين بما وصفهم به الله : « ... هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ »[2] .

ولما استعرض الرسول تلك المواقف الشائنة من المنافقين ، حزن وتألم . فأنزل الله تلك الآية ، لتسليته .

والمعنى : لا يحزنك المنافقون الذين يسارعون بما فعلوه فى الكفر ، فإنه لا يفعل ذلك إلا الكافرون الذين لم تطمئن قلوبهم بالإيمان . والشىء من معدنه لا يستغرب .

(إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا) :

أى لن يضروا دينه شيئا من الضرر . فإذا كان عملهم هذا أساء إلى الإسلام والمسلمين فى غزوة أحد ، فلن يؤدى إلى ضعف فى دين الله . فقد أتم الله نوره . وأظهر دينه على الدين كله « وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ »[3] .

وقد استفاد المسلمون من هذه الغزوة ، إذ عرفوا أعداءهم المتبثين فيما بينهم من المنافقين ، فأخذوا حذرهم منهم .

(يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى الْآخِرَةِ) :

أى : يريد الله ألا يجعل لهم نصيبا فى نعيم الآخرة ، بسبب ما أبدوه من أسباب الفرقة والتخذيل والشماتة : فيما أصاب المسلمين ، وما انطوت عليه نفوسهم من الكفر بدينه .

(وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) : وعقاب أليم ، فوق عذاب الحرمان من نعيم الجنة . قال تعالى : « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا »[4] .

---

(١) آل عمران ، من الآية : ١٥٦ (٢) آل عمران ، من الآية : ١٦٧

(٣) يوسف ، من الآية : ٢١ (٤) النساء ، الآية : ١٤٥

١٧٧ - ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ :

المعنى : إن الذين استبدلوا الكفر بالإيمان - بعد ماقام برهانه - لن يضروا دين الله شيئا من الضرر . فسيمضى إلى ما شاء الله من النمو والازدهار . وما يضرون بمكائدهم سوى أنفسهم ، حيث يضرونها : فى الدنيا بالتلوث بالكفر الذى قام البرهان على فساده ، وفى الآخرة بالعقاب . وذلك هو قوله تعالى :

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ : لا يعصمهم منه عاصم ، ولا ينقذهم منه منقذ .

وقد أكدت هذه الآية ، ما أفادته الآية السابقة ، من أن السعى فى الإضرار بالإسلام ، لا يضر الإسلام . فإنه مَاضٍ إلى ما كتبه الله من الذيوع والانتشار . وإنما يضر ذلك السعى صاحبه فى الدنيا والآخرة . كما عممت الحكم فى جميع الكفار : سواء أكانوا منافقين أم صُرَحَاء بالكفر .

١٧٨ - ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ... ﴾ الآية

المعنى : ولا يعتقدنَّ الذين كفروا : أن إمهالنا لهم ، وعدم تعجيلنا بعقوبتهم على كيدهم للإسلام - خير لأنفسهم ، فإن فازوا فى غزوة من الغزوات ، أو فى مكرٍ سيء فعلوه بالإسلام ، ولم يعجل الله بعقوبتهم ، فلا يفرحوا بذلك . فهذا إملاء من الله لهم وإمهال ، حتى تأتيهم عقوبة الله فى أوانها ، بعد أن تزداد مآثمهم ، مصداقا لقوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ :

أى : ما نُمْهِلُهُمْ ونؤخر عقوبتهم ، إلا لتكون عاقبتهم أن يزدادوا إثما على إثمهم : بكثرة المعاصى فيستحقوا أشد العذاب ، إن لم يرجعوا - بهذا الإمهال - عمَّا هم فيه من الكفر والمعاصى .

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ :

أى : ولهم فى الآخرة عذابٌ مهين : يقابل اعتزازهم فى الدنيا بالكفر والمعاصى ، والكيد للإسلام والمسلمين . والبادئ أظلم .

روى الشيخان ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إِن اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ » .

وقد استفيد من الآية : أن الله تعالى ، لا يعجّل بعقوبة الكفار والعصاة .

والحكمة فى ذلك : أن يترك لهم فرصة واسعة للتفكير فيما هم فيه ، لعلهم يرجعون إلى رشدهم ، ولا تكون لهم حجة على الله ، ليقولوا : لولا أخرتنا ، لعلنا نرجع ونتوب . فإن لم يرجعوا ، ازدادوا إثما واستحقوا أشد العذاب ، حيث لم يستفيدوا بإمهال الله لهم .

(مَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾) .

المفردات :

(لِيَذَرَ) : ليترك .

(يَمِيزَ) : يفرق ويعزل .

(يَجْتَبِى) : يختار .

التفسير

١٧٩ - (مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ...) الآية .

بيَّن الله تعالى - فى هذه الآية - بعض حِكَمِه فى أحداث غزوة أحد ، ومشاهدها المختلفة . والمعنى :

ما كان الله ليترك المؤمنين على ما هم عليه ، من اختلاط المنافقين بالصادقين منهم ، وعدم تبين حالهم لهم ؛ لما فى ذلك من خطورة عليهم وعلى الإسلام . فإن أعدى أعداء

المسلمين ، مَنْ لبس ثوب الصديق ، واستتر فيما بينهم ، فعاملوه معاملة المخلص ، وكاشفوه بالأسرار - وهو يدبر لهم أسباب المعاطب فى الخفاء ، ويباطن أعداءهم بالولاء - فلا بد أن يدبر الله من أسباب المحن ، ما يفضح به نفاق المنافقين ويكشف به ستر المرائى ، ويظهر به إخلاص المخلص ، وصبر المستيقن وبلاءه : فى سبيل دينه ورسوله وربه . فلذا جاءت تلك المحن فى غزوة أحد . فكشفت للنبى صلى الله عليه وسلم ، حجم النفاق ومداه ، بما كان من رجوع ابن أبى - رأس المنافقين - وثلاثمائة ممن كانوا على مذهبه ، وإشاعته - وبعض من حضر منهم الموقعة - أكذوبة قتله صلى الله عليه وسلم - التى زعمها ابن قميئة المشرك . وقول بعضهم : علام نقاتل وقد قتل محمد ؟ ودعوتهم إلى أخذ الأمان من أبى سفيان ، والرجوع إلى ما كانوا عليه من كفر . وقول بعض آخر : لو كان محمد نبيا لما قتل . إلى غير ذلك مما كشف الله به أستارهم . كما كشفت تلك الغزوة للنبى أيضا : صدقَ المخلصين ، واستبسالهم فى الدفاع عنه وعن الإسلام الذى دانوا به ، ورجوعَهم إليه بعد فرارهم من نبال المشركين ، وشدة حملتهم عليهم . وذلك بعد أن علموا : أنه حىٌّ لم يمت - كما أشاعه المنافقون . فقد ناداهم النبى صلى الله عليه وسلم ، قائلا : إلىّ عباد الله ، فلبُّوا سراعا ، بالرغم مما بهم من جراح : فرحين ببقائه بين ظهرانيهم : يقودهم فى دعوة الإسلام ، حتى يظهره الله على الدّين كله .

فكما استبان بذلك أمر المنافقين للرسول ، استبان به - كذلك - إخلاص المؤمنين الصّادقين . وبذلك تحقّق ما أراده الله من أغرّاض هذا الامتحان . وهو أن يتميز الخبيث من الطيب .

والأثر المترتب على ذلك : أن يَعْرِفَ المخلصون بعضهم بعضا ، ويتماسكوا . وأن يحذروا المنافقين الذين هُتكَتْ أستارهم ، وعُرِفت أسماؤُهم . وحقيقةُ نواياهم .

ولا شك أن ذلك له أثره فى مستقبل الدعوة الإسلامية .

(وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ) :

أى : وما كان الله ليظهركم على ما غاب عنكم من الأسرار مباشرة ، بأن يقذفه فى قلوبكم ، من غير أن يعقد من الأسباب ما يكشف به الأمور الخفية عليكم . فإن إظهار الغيب ـ بغير إبراز الأسباب ـ لا يكون إلا للرسول . ولهذا قال سبحانه :

(وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ) :

أى : ولكن الله يصطفى ويختار من رسله من يشاء، ويطلعه على ما يشاء من غيبه ، ويحقق له بالوقائع ما أخبره به من الغيب . كما فعل مع النبى صلى الله عليه وسلم ، إذ أطلعه على نفاق المنافقين ، ثم حقق له ـ بوقعة أحد ـ ما أخبره به من نفاقهم .

(فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ) :

أى : فداوموا على ما أنتم عليه من الإيمان بالله ورسله ، بعد ما عرفتم أسرار هذه المحنة التى حلت بكم فى أحد ، وعرفتم حكمتها .

(وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ) :

وإن تدوموا على ما أنتم عليه من الإيمان ، وتتقوا مخالفة الله ورسوله ، فلكم على ذلك أجر عظيم .

(وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾) .

المفـردات :

(سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ) : سيجعل ما بخلوا به طوقا فى أعناقهم.

التفسير

١٨٠ - (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ...) الآية .

بعد أن بين الله أحداث أحد ، وأسرار المنافقين فيها ، وأمر المسلمين بالتقوى - شرع يحض المسلمين على بذل المال فى سبيل الله ، فإنه من أهم أسباب التقوى والوقاية من مكايد المشركين : الذين عرفوا جِدّهم فى القضاء على الإسلام والمسلمين ، وبين لهم عاقبة البخل فى البذل .

والمعنى : ولا يظنن الذين يبخلون فى سبيل الله ، بما أعطاهم الله من فضله من المال ، فلا يبذلونه فى إعداد أسباب القوة والغلبة على الأعداء ، ولا ينفقونه على الفقراء ، وفى سبيل الخير - لا يحسبوا ذلك البخل خيراً لهم ، ونفعا يعود عليهم . بل هو شر كبير لهم . فإنهم سيضعفون أمام أعدائهم ، لعدم إعدادهم العدة للقائهم . كما أنه يورث الحقد فى قلوب الفقراء ، ويبعثهم على الإخلال بالأمن ، ويغريهم بالنهب والسلب ، والسرقة والقتل ، لمن منعوا عنهم حق الله فيما آتاهم الله من فضله . فضلا عما ينتظرهم من عقوبة فى الآخرة : بينها الله بقوله :

(سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) :

أى : سيجعل الله المال الذى بخلوا به عن وجوهه المشروعة ، طوقا فى أعناقهم يوم القيامة .

وفى ذلك يروى البخارى ، عن أبى هُريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَلَمْ يؤدِّ زَكَاتَهُ ، مُثِّلَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَتَانِ ، يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ ، يَقُولُ : أَنَا مَالُكَ ، أَنَا كَنْزُكَ . ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الآيَةَ : (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ ...) الآية .

والشجاع الأقرع : الثعبان القوى . والزبيبتان : نقطتان سوداوان فوق عينى الثعبان . واللهزمتان : الشدقان .

وروى النسائى والطبرانى بسنده ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « لَا يَجْتَمِعُ شُحٌّ وَإِيمَانٌ فِى قَلْبِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ أَبَدًا » .

(وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) :

أى : ولله مآل السموات والأرض ومن فيها . فمصير هذه الدنيا إلى زوال . ثم يستقبل الخلائق - بعد ذلك - حسابا على ما قدموا من أعمال « فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ »[1] . ومن كان أمرهم إلى ذلك ، فلا يصح لهم أن يبخلوا ببذل المال ، فيما شرعه الله من وجوه البر والإحسان ، فيندموا بتقصيرهم فيما ينفعهم ، وحرمانهم مَنْ له حق عليهم .

(وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) :

فلا يغيب عن علمه من أحسن ومن أساء . فيجزى كلاً على ما علمه من أعمالهم .

(لَقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾) .

التفسير

١٨١ - (لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ...) الآية .

لما حثَّ الله المسلمين على البذل ، ونهاهم عن البخل : الذى هو من ألزم الصفات القبيحة لليهود - أتبع ذلك الحديث عن اليهود ، وبخلهم ، وبعض آثامهم .

(١) الزلزلة : الآيتان الأخيرتان .

سبب النزول :

قال سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : لما نزل قول الله تعالى : «مَّن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً»[1] قالت اليهود : يامحمد ، افتقر ربك فسأل عباده القرض . فنزلت هذه الآية .

وَرَوَى البغوى فى معالم التنزيل ، عن عكرمة والسدى ومقاتل : أنه صلى الله عليه وسلم ، كتب مع أبى بكر رضى الله عنه ، إلى يهود بنى قينقاع : يدعوهم إلى الإسلام ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وأن يقرضوا الله قرضا حسنا . فقال فنحاص اليهودى : إن الله فقير حتى سألنا القرض . فلطمه أبو بكر رضى الله عنه ، فى وجهه ، وقال : لولا الذى بيننا وبينكم من العهد ، لضربت عُنُقَكَ . فشكاه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجحد ما قاله . فنزلت .

والمعنى : لقد علم الله قول اليهود الذين قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء : مجترئين - بهذا القول الشنيع - على من لا تنفد خزائنه .

(سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ) :

سنكتب هذه الفرية التى بلغت الغاية فى الشناعة والقبح ، ونكتب أيضا : قتلهم الأنبياء بغير حق . ولا يكون قتلهم إلا ظلما . فهم دعاة الحق .

(وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ) :

أى : ويقال لهم من جهة الله تعالى ، تقريعا وإهانة - وهم يعذبون بالنار - ذوقوا عذاب الإحراق بالنار . ليجتمع لهم العذاب الجسدى ، مع العذاب الروحى .

١٨٢ - (ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ) :

أى ذلك العذاب ، عقاب عادل بسبب ما فعلتموه فى الدنيا من الآثام ، وبأن الله ليس بظالم لعبيده . فبقدر العمل يكون الجزاء . «وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ»[2] .

ونسبة العمل إلى الأيدى - مع أنه قد يكون بغيرها - لأن أكثر الأعمال تُزَاوَلُ بها .

وصيغة (ظَلَّامٍ) للنسب : أى ليس منسوبا إلى الظلم ، ومن استعمال هذه الصيغة فى النسب قولهم : نَجَّار : أى منسوب إلى النجارة ، وحدّاد : أى منسوب إلى الحدادة ، وعطّار : أى منسوب إلى العطر .

---

(١) البقرة من الآية : ٢٤٥ (٢) آل عمران من الآية : ١٠٨

(ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾) .

المفردات :

(عَهِدَ إِلَيْنَا) العهد : حفظ الشيء ومراعاته ، حالا بعد حال .

(بِقُرْبَانٍ) القربان : كل ما يتقرب به إلى المعبود .

(بِالْبَيِّنَاتِ) : المعجزات الواضحات .

(وَالزُّبُرِ) : هي المواعظ والزواجر . جمع زبور ، من : زبرته ، بمعنى : زجرته .

التفسير

١٨٣ ـ (الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ ...) الآية .

أي هؤلاء اليهود الذين قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء ، هم الذين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ـ عندما دعاهم إلى الإيمان برسالته المؤيدة بالمعجزات الكافية ـ قالوا : لن نؤمن لرسول ولن نصدق به ، حتى يأتينا بقربان تحرقه النار . كما كان يفعله أنبياء بني إسرائيل .

قل لهم يامحمد : قد جاءكم رسل من قبلي : بالمعجزات ، وبالقربان الذي تأكله النار كما طلبتم . فلم قتلتم هؤلاء الأنبياء . كيحيى وزكريا ، إن كنتم صادقين في أنكم تؤمنون لرسول يأتيكم بمثل هذا القربان ؟

والغرض المقصود من الآية : تكذيبهم فى وعدهم بالإيمان لو جاءهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، بالقربان الذى طلبوه ؛ لأن لهم سوابق فى تكذيب من جاء به ، وقَتْلِه .

والنار التى تأكل القربان ، لم نقف على نص يعول عليه : يبين مصدرها ، وكيفية إحراقها .

١٨٤ ـ (فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ...) :

هذه الآية : تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، عما لقيه من تعنت أهل الكتاب ، ببيان : أن ذلك شأنهم وعادتهم ، ليعلم أنه ليس أول رسول كذبه قومه . فكم من الرسل قبله جاءوا أممهم بالحجج الواضحة ، والمواعظ الزاجرة ، والكتب التى أضاءت الطريق إلى الله ، فكذبوهم . وجحدوا ما جاءوا به من الشرائع . والبلوى إذا عمَّت ، هانت .

(كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾) .

التفسير

١٨٥ ـ (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ...) الآية .

وعدٌ من الله للمصدقين ، ووعيد للمكذبين ؛ ببيان أن الحياة فانية ، وأن مردَّ الجميع إلى الله ، يجزى كل نفس بما عملت . فمن كان من المصدقين العاملين ، أُبعِد عن النار . وأُدخل الجنة . ففاز بالنجاة ، والنعيم المقيم . ومن كان من المكذبين الضالين الذين اطمأنوا إلى الحياة الدنيا وزينتها ـ خابوا ، وخسروا ، إذ آثروا الحياة الدنيا على الآخرة وما الحياة الدنيا إلا متاع زائل يغُرُّ الجاهل ، ولا يسر العاقل .

(لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾) .

المفردات :

(لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ) : لَتُخْتَبَرُنَّ فيها بالإصابة ببعض البلايا .

(مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) : من الجد فى الأمور . مأخوذ من عزم الأمر . أى جَدَّ فيه .

(مِيثَاقَ) : الميثاق : العهد .

(فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ) : أى طرحوه خلفها . والمقصود : أنهم أهملوه ، ولم يعملوا به .

(وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا) : واستبدلوا بهذا الميثاق ، مقابلا قليلا ، من أعراض الدنيا .

التفسير

١٨٦ - (لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) :

الربط :

بعد أن أخبر الله تعالى : أن كل نفس ذائقة الموت ، ليتسلى كل امرىء عمن فقده من أحبابه بهذا القضاء الشامل ، أتبع ذلك إخبار النبى صلى الله عليه وسلم ، والمؤمنين : أنهم سيلقون أنواعا من البلاء : فى أنفسهم وأموالهم . وسيؤْذَوْنَ من أعدائهم ؛ ليوطنوا

أنفسهم على احتمال ذلك عند وقوعه . فقال جل شأنه : (لَتُبْلَوُنَّ . . .) الآية .

والخطاب فى (لَتُبْلَوُنَّ) : لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمؤمنين ، وما فيه من التوكيد لتحقيق وقوع البلاء ، مبالغة فى الحث على ما أريد منهم من التهيؤ له ، والصبر عليه ، لما فيه من الحكم .

ولما كان المولى يعلم حال عباده من قبل أن يخلقهم ، فالمراد بابتلائه لهم : إصابتهم ببعض البلايا ، ليظهر ما علمه أزلا من حالهم : من الثبات والصبر ، أو الجزع والهلع ، فيجازى كلا بما كسب .

والمعنى : لَتُخْتَبَرُنَّ حتما (فِى أَمْوَالِكُمْ) : بنقصها أو تلفها ، أو استيلاء الأعداء عليها ، أو نحو ذلك .

(وَأَنفُسِكُمْ) : بالقتل والأسر والجرح ، والأمراض الجسدية ، والمتاعب النفسية .

(وَلَتَسْمَعُنَّ) : قطعا .

(مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ) : التوراة والإنجيل وما بينهما .

(مِن قَبْلِكُمْ) : وهم اليهود والنصارى .

(وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا) : وسائر الكفار .

(أَذًى كَثِيرًا) : من الطعن فى الإسلام ، والقدح فى رسولكم ، وصد من أراد الإيمان ، وتخطئة من آمن ، ومحاولة تكفيره ، وتحريضه على معاداة رسوله .

والخطاب هنا – فيما يلى – وإن كان لرسول الله وأصحابه – فحكمه عام للمسلمين جميعا : فى كل زمان ومكان ، إلى يوم القيامة .

ولما أكد أن ذلك سيحدث لهم ، أمرهم أن يقابلوه بالصبر والتقوى ، فقال :

(وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) :

أى : وإن تصبروا على تلك الشدائد عند وقوعها ، وتقابلوها بحسن التحمل ، وعدم الجزع ، وعفة اللسان ، وتتخذوا لكم وقاية منها باللجوء إلى الله ، وتساوى المحبوب والمكروه لديكم فى سبيل رضاه تعالى ، واتخاذ أسباب الوقاية والعلاج من الأمراض والجراح ، وإرهاب الخصوم والأعداء بأسباب القوة والغلبة – إن تفعلوا ذلك – فإن الصبر والتقوى منكم ، من عزم الأمور والجد فيها . وهو فضيلة يتنافس فيها المتنافسون . وأنتم بها أحق وأولى .

ويجوز أن يكون المعنى : وإن تصبروا وتتقوا ، فهو خير لكم ، فإن الصبر والتقوى مما يجب أن يعزم عليه كل أحد ، لما فيهما من كمال المزية والشرف .

وإنما أخبرهم بذلك قبل وقوعه ، وأمرهم بالثبات والتقوى ، ليستعدوا للقائه ، فإن هجوم الشدائد قد يزلزل الأقدام . أما الاستعداد لها ، فإنه يهوّن أمرها .

وعبر عن اليهود والنصارى بقوله : (الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ) : للتنبيه على أن مدار مايسمعونه منهم من الأذى ينسبونه – كاذبين – إلى كتابهم . و كتابهم منه براء . فهو مدسوس عليه منهم ، تحريفا أو سوء تأويل .

قال تعالى : « وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ[1] » .

ومن أمثلة ذلك قولهم : « إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ[2] » . وقد رد الله عليهم بقوله : « قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ » .

(١) آل عمران ، الآية : ٧٨

(٢) آل عمران ، من الآية : ١٨٣

وبعد أن أخبر الله المؤمنين بأنهم سيبتلون فى أموالهم وأنفسهم ، وسيؤذون من أهل الكتاب والمشركين ، عقبه بذكر بعض إيذائهم ، فقال مستأنفا :

١٨٧ ـ (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ) :

المعنى : واذكر ـ يا محمد ـ حين أخذ الله العهد المؤكد على الذين أعطاهم الكتاب : من علماء اليهود والنصارى ، فقال لهم بأسلوب التأكيد : لتبينن هذا الكتاب الذى أنزل عليكم للناس ، ولا تكتمون عنهم ما فيه من الحقائق التى منها شواهد نبوتك يامحمد وأماراتها ، فنبذوا هذا العهد الوثيق المأخوذ عليهم ، وطرحوه وراءهم ظهريا ، إذ لم يعملوا به . فلم يبينوا الكتاب ، بل كتموه واستبدلوا بالوفاء به عوضا ومقابلا قليلا . هو الرياسة الدينية والجاه ، والمال الحرام الذى يرتشون به ، ويأخذونه من غير وجهه المشروع . فبئس شيئا يشترونه ويأخذونه : ذلك الثمن القليل الذى آثروه على الوفاء بالميثاق : بتبيان الكتاب ، وعدم كتمانه .

والآية ـ وإن نزلت توبيخا وتهديدا ووعيدا لأهل الكتاب ، على كتمانهم العلم ، وعدم بيان الحق لأغراض دنيوية ـ ففيها تحذير ضمنى للعلماء عن أن يسلكوا سبيلهم ، فيحل بهم مثل عقابهم . وقد جاء ذلك ـ صراحة ـ فى قوله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ ، أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ[1] » .

عن على رضى الله عنه : ما أخذ الله العهد على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذه على أهل العلم أن يعلموا .

وعن محمد بن كعب : لا يحل لأحد من العلماء أن يسكت على علمه . ولا يحل لجاهل أن يسكت على جهله حتى يسأل .

والإتيان بقوله : (وَلَا تَكْتُمُونَهُ) بعد قوله : (لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ) ـ مع أنه يستلزم عدم الكتمان ـ للمبالغة فى إيجاب التبيين ، وتأكيد وجوب الامتثال .

---

(١) أخرجه ابن ماجه ، وأحمد ، وأبو داود ، والترمذى .

والتعبير عن إيثارهم عرض الدنيا ، على بيان الكتاب بقوله : (وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا) : أى عرضًا حقيرًا - مع أنه لاشراء ولابيع - للإيذان بأنهم جعلوا دين الله موردًا للرزق ، ووسيلة إلى مآربهم الذاتية . كما يفعل التجار . ولم يجعلوهُ سبيلا للهداية والإرشاد، كما يفعل العلماء والصالحون الصادقون. وذلك شاهد على فساد ضمائرهم ، وداعٍ إلى عدم الثقة بأقوالهم وأفعالهم ، والبعد عن تصديقهم .

(لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾) .

المفردات :

(يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا) : يفرحون بما جاءوا به نفاقًا أو رياء ، من الأقوال والأفعال .

(بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ) : بمنجاة منه .

(مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ) : سلطان عليهما خلقًا ومُلكًا وتدبيرًا وتصرفًا .

التفسير

١٨٨ - (لَاتَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) :

لا يزال الكلام موصولا مع أهل الكتاب : فالآية نازلة فيهم :

أخرج الإمام أحمد ، عن حُمَيْد بن عبد الرحمن بن عوف : أن مروان بن محمد ، قال : اذهب يا رافع - بَوَّابه - إلى ابن عباس رضى الله عنه ، فقل له : لئن كان كل

امرئ منا فرحَ بما أُتِى وأَحَبَّ أن يحمد بما لم يفعل – معذبًا ، لَنُعَذَّبَنَّ أجمعون . فقال ابن عباس : وما لكم وهذه ! إنما نزلت هذه فى أهل الكتاب .

ثم تلا ابن عباس : (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ) . وتلا ابن عباس (لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) :

وقال ابن عباس ، : سألهم النبى صلى الله عليه وسلم ، عن شىء فكتموه ، وأخبروه بغيره ، فخرجوا قَدْ أَرَوْهُ أن قد أخبروه بما سألهم عنه ، واستحمدوا بذلك إليه ؛ وفرحوا بما أَتَوْا من كتمانهم ما سألهم عنه .

وَرَوَى نحوه البخارى ، ومسلم ، والترمذى ، والنسائى وغيرهم .

وقيل : نزلت فى المنافقين : لِمَا رواه البخارى ومسلم وغيرهما – واللفظ للبخارى عن أبى سعيد الخُدرى : أن رجالا من المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كانوا إذا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى الغزو تخلفوا عنه ؛ وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من الغزو ، اعتذروا إليه ، وحلفوا وأحبوا أن يُحْمَدُوا بما لم يفعلوا . فنزلت : (لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا . . .) الآية .

وعلى هذا ، فالمراد من حُب المنافقين أن يحمدوا بما لم يفعلوا : أنهم أرادوا أن يحمدهم المؤمنون بسرورهم الذى أظهروه نفاقًا بنصر المؤمنين ، ولم يكن سرورًا نابعًا من قلوبهم . فاعتبره الله تعالى فى حكم المنفى .

وقد جاء التصريح بسرورهم الظاهري بالنصر ، في رواية طويلة ، لابن مردويه ، في تفسيره . جاء فيها : وإن كان لهم نصر وفتح ، حلفوا لهم ؛ ليرضوهم . ويحملوهم على سرورهم بالنصر والفتح .

ولا منافاة بين ما قاله ابن عباس ، وما قاله أبو سعيد الخدرى ، في سبب النزول ، فالآية عامة في جميع ما ذكر . وهى – وإن نزلت لهذا السبب الخاص ، أو ذاك ، أو لهما معًا – فهى بعموم لفظها ، عامة لكل من يأتى بشيء من الحسنات : بظاهره أو بحقيقته ، فيفرح به فرح إعجاب ، ويود أن يمدحه الناس بما هو عار عنه من الفضائل . كأن يقولوا فيه : هو صادق فيما قال . أو مخلص فيما فعل . أو عظيم الإحسان والمبرات ، أو نحو ذلك مما ليس فيه .

ويدخل في هذا العموم : من نزلت فيهم الآية ، دخولا أوليًّا .

والخطاب في قوله تعالى : (لَا تَحْسَبَنَّ) للنبي صلى الله عليه وسلم ، أو لكل من يصلح للخطاب .

والمعنى : لا تظنن الذين يفرحون – فرح إعجاب – بما جاءوا به مما ظاهره الخير ، وباطنه النفاق أو العجب ، أو التجرد عن النية الصالحة ، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، بأن يقال : إنهم صادقون ، أو مخلصون ، أو محسنون ، أو غير ذلك من الصفات الجميلة : التى أرادوا أن تقال في شأنهم على وجه الحمد والثناء ، وهم منها برآء .

(فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ) : فلا تظننهم بمنجاة من العذاب الأخروى ؛ وإن أفلتوا من المؤاخذة الدنيوية .

والمقصود من نهيه صلى الله عليه وسلم : أن يظنهم ناجين من العذاب ، هو التنبيه على أنهم معذبون حتمًا على نياتهم الخبيثة ، ونفاقهم الممقوت ، وليس المقصود نهيه حقيقة

عن ظنه نجاتهم . فهو – عليه السلام – عليم باستحقاقهم العذاب ، ما داموا مصرين على ما هم عليه من الطوية الخبيثة ؛ طبقًا لما نزل عليه من شرع الله تعالى .

وذكر قوله : (فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ) . بعد قوله : (لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ) لتأكيد الوعيد ؛ لطول الكلام .

أما قوله : (بِمَفَازَةٍ) فهو المفعول الثانى لـ (تحسبن) الأول .

(وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) : هذه الجملة قصد بها : أن العذاب الذى لا ينجو منه هؤلاء ، وليسوا منه بمفازة ، هو عذاب بليغ الإيلام فى شدته ومدته ونوعه . وليس عذابًا هينًا ، يمكن احتماله .

١٨٩ – (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) :

أى : له تعالى – وحده – السلطان فيهما : خلقًا وتدبيرًا ، وإحياء لمن فيهما وإماتةً ، وتعذيبًا وإثابة .

ومن كان كذلك ، لا يقال : إنه فقير ، وبعض عباده أغنياء ، كما زعم اليهود ، إذ قالوا : « . . . إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ[1] » .

ولا يفلت من عقابه من أحب أن يحمد بما لم يفعل ، كما فعلوا هم وغيرهم .

(وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) : فكما قدر على خلق السموات والأرض ، يقدر على بعث الخلائق وجزائهم على أقوالهم وأفعالهم ونياتهم : « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ »[2] .

---

(١) آل عمران ، من الآية : ١٨١

(٢) الأنبياء ، من الآية : ١٠٤

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾) .

المفردات :

(وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) : تعاقبهما . فيكون أحدهما خلفة للآخر ، أو تفاوتهما طولا وقصرًا ، وضياء وظلمة .

(لِأُولِي الْأَلْبَابِ) : لأصحاب العقول الخالصة البريئة مما يعطلها .

(مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا) : ما أبدعته عبثًا خاليًا عن الحكمة .

(فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) : فاحفظنا منه .

(أَخْزَيْتَهُ) : أهلكته ، أو فضحته ، أو أهنته .

التفسير

١٩٠- (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) :

لما ذكر الله - تعالى : أن له ملك السموات والأرض ، وأنه على كل شيء قدير ، عقبه ببيان أن فى خلقهما - من الآيات والشواهد - ما يدل على ذلك ويقرره . فقال تعالى :

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) : من عجيب الإبداع ، وإحكام الصنعة ، وبقائهما فى الفضاء ، دون أن يختل توازنهما ، ودوران كل كوكب فى فلكه بانتظام ، دون فتور

أو اصطدام ، وتوالى ملايين الدهور عليهما بغير خلل ولا فساد ، وأداء كل جزء منهما ، وكل نجم أو كوكب لما نيط به من المنافع – إن فى هذا : (وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) وتعاقبهما على سطح الأرض ، كل منهما خلفًا للآخر ، حسب تدبير الله لأرضنا الكروية ، إذ جعلها تدور تحت أشعة الشمس ، فيعم ضوؤها نصف الأرض المقابل لها ، وينعم أهله بنور النهار ، فينشطون ويباشرون شئون معاشهم . ويظلم النصف الآخر الذى لا يقابلها ، فيسكن أهله ويستريحون . ثم ينعكس الأمر عندما يكون النصف الآخر مقابلا لأشعتها . وهكذا دواليك . . ويجوز أن يكون المراد من اختلافهما : تفاوتهما طولا وقصرًا ، حسب الفصول الأربعة التابعة لوضع الأرض من الشمس ، وحسب البعد عن القطبين أو القرب منهما ، أو اختلافهما نفعًا أو حرارة ، أو غير ذلك من وجوه الاختلاف – إن فى كل هذا التدبير المحكم العجيب :

(لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) :

أى : لدلائل عظيمة لأصحاب العقول الخالصة من ظلمة الجهل والتقليد . فإنهم – بالنظر اليسير فى بدائع خلق السموات والأرض ، وقوانينه وضوابطه ونظمه – يصلون إلى الجزم بوجود صانع حكيم ، ومالك واحد لهذا الملك العظيم : أحكم التدبير ، وأتقن التقدير ، وأنه لا بد أن ينتهى إليه المصير ، فيحاسب كل امرئ على ما كسب من خير فيثيبه ، أو شر فيعاقبه .

ورحم الله الشيخ أبا سليمان الدارانى ، إذ يقول : إنى لأخرج من منزلى فما يقع بصرى على شىء ، إلا رأيت لله علىّ فيه نعمة ، ولى فيه عبرة[(1)] .

١٩١ – (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) :

المقصود من ذكره تعالى : تذكره وشغل القلب به ، وعدم الغفلة عنه بشواغل الدنيا . سواء أصحب ذلك ذكر لسانى أم لم يصحبه .

---

(١) الآية رقم (١٦٤) فى سورة البقرة ، تماثل هذه الآية ، ولكن فيها تفصيل أكثر . فارجع إلى تفسيرها إن شئت .

والمقصود من ذكرهم له قائمين وقاعدين ومضطجعين على جنوبهم : أن يذكروه فى كل حال حسب الإمكان ، حتى يخشوه فى تصرفاتهم .

وتخصيص هذه الأحوال الثلاثة بالذكر ؛ لأنها هى المعهودة التى لا يخلو عنها الإنسان غالبًا . فكما يذكرونه فيها يذكرونه فى غيرها . كالمشى والسباحة ونحوهما . ومعنى هذه الآية ، مرتبط بما قبلها على النحو الآتى :

المعنى : إن فى خلق السموات والأرض وما فيه من الإبداع والإحكام ، والحِكَم والمنافع ، وفى اختلاف الليل والنهار لَعَلَامَاتٍ واضحاتٍ لأصحاب العقول على وجود رَبٍّ لهذا الكون : واحد عظيم . وأدلةً شاهدات له بكل كمال ، وتنزهه عن كل نقص .

وأولو الألباب ـ هؤلاء ـ هم الذين يتذكرون الله فى كل حال ، بعد أن أثرت آياتُهُ فى نفوسهم ، وهدت إلى معرفته عقولَهُم ، وجعلتهم يجددون التفكر فى خلق السموات والأرض ليزدادوا معرفة بخالقها ، وإيمانًا واثقًا بمبدعها ، وخشية من التقصير فى واجبات مدبرها .

فالعلم : يهدى إلى قوة الإيمان والخشية من الديان : « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ[1] » .

وهكذا شأن القرآن : يشيد بالعقل ويرفع قدره ، ويحضُّ على المعرفة والنظر فى الآيات .

وشأن الإسلام يقوم : على دعائم العقل والعلم والعرفان . ولا يرضى بالجمود والتقليد الذى عليه أرباب الأديان المختلفة .

(رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا) : ليس المراد أنهم يقولون هذه الجملة الدعائية ـ وما يليها ـ بالنص الحرفى ، بعد تفكرهم فى خلق السموات والأرض ، بل المراد : أنهم يعبرون عما ينفعل فى نفوسهم من مشاعر الإقرار بقدرة الله وحكمته ، ووجوب الإيمان به تعالى وباليوم الآخر ، وما حول ذلك من الحمد والثناء والإنابة .

(١) فاطر ، من الآية : ٢٨

والمعنى : يقول أولو الألباب ، الذاكرون الله بعد تفكرهم فى خلق السموات والأرض : ربنا ما خلقت هذا الكون البديع العظيم الشأن عبثًا ، بل منتظمًا لِحِكَمٍ جليلة ، ومصالح عظيمة . من جملتها أن يكون مدارًا لمعايش العباد ، ومنارًا يرشدهم إلى أحوال المبدإ والمعاد ، حسبما جاءت به الرسل والكتب الإلٰهية .

والإشارة بكلمة (هَٰذَا) راجعة إلى السموات والأرض لقصد التعظيم ، كما فى قوله تعالى : « إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ[1] » . وإفرادها وتذكيرها - مع رجوعها إلى السموات والأرض - لأنه أريد بها : الكون جميعه .

(سُبْحَانَكَ) : تنزيها لك عن أن تخلقه باطلا ، وعن كل ما لا يليق بك من الصفات.

(فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) : فاحفظنا من عذابها ، فقد عرفناك ونزهناك عن العبث ، وأطعناك وآمنا بالبعث والجزاء .

١٩٢ - (رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ) :

أى : رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلْهُ النَّارَ لكفره ومعصيته . (فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ) : فقد فضحته وأهنته وأهلكته . ولا شىء أشد من ذلك . فلهذا نسألك الوقاية من عذاب النار ، ومن الخزى والعار .

(وَمَا لِلظَّالِمِينَ) : لأنفسهم بالكفر والمعاصى .

(مِنْ أَنصَارٍ) : يخلصونهم من عذابها . فلا الآلهة التى عبدوها ، ولا الرؤساء الذين أطاعوهم فى الكفر ، بقادرين على إنقاذهم منها .

ولم يقل وما لهم من أنصار ، بل قال : (وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ) : للتعميم ، والإشعار بأن ظلمهم هو سبب تعذيبهم .

---

(١) الإسراء ، من الآية : ٩

(رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾) .

المفـردات :

(الْأَبْرَارِ) : جمع بَر . والبَرُّ والبارُّ ، هو كثير البر والإحسان .

(لَا تُخْزِنَا) : لا تُهِنَّا ، ولا تفضحنا . . أو لا تهلكنا .

(فَاسْتَجَابَ) : بمعنى أجاب .

(هَاجَرُوا) : تركوا الشِّركَ أو تركوا الأوطانَ والعشائر .

التفسـير

١٩٣ - (رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ) :

المنادى : هو محمد صلى الله عليه وسلم . ونداؤه : دعوته إلى الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وذلك هو سبيل ربه . كما قال تعالى : « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ »[1] .

وقال محمد بن كعب : المنادى : هو القرآن .

والمعنى : ربنا إننا سمعنا داعيًا : يدعو الناس للإيمان بأن آمنوا بربكم : مالككم ومتعهدكم فى جميع أموركم ، فاستجبنا لدعائه ، وبادرنا بالإيمان .

والمقصود من إيمانهم بربهم – سبحانه – إيمانهم بجميع ما يجب له من الصفات اللائقة بربوبيته ، وتنزيهه عما سواه ، وإيمانهم بدينه الذى شرعه لهم ، على لسان ذلك المنادى ، وهو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

(رَبَّنَا): كرر نداءه تعالى ، لإظهار كمال التضرع والخشوع والاستعطاف .

(فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا): فامح عنا كبائرنا .

(وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا): وحطَّ عنا صغائرنا ، ببركة إيماننا .

ويجوز أن تكون الجملتان بمعنى واحد . والتكرير للمبالغة فى الدعاء بتكفير الذنوب جميعًا .

(وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ) : مُكرَمين بصحبتهم ، معدودين فى جملتهم وزمرتهم .

١٩٤– (رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ) :

أى : ربنا وأعطنا من الثواب ، ما وعدتنا على ألسنة رسلك ، وإنما قالوا : (عَلَى رُسُلِكَ) بالجمع ، ولم يقولوا : (على رسولك) بالإفراد ، مع أن المنادى هو محمد صلى الله عليه وسلم ، للإشارة إلى أن الثواب الذى بشرهم به على الإيمان ، أمر مجمَع عليه من الرسل جميعًا .

---

(١) النحل من الآية : ١٢٥

(وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ) : ولاتُهِنَّا فيه بعدم قبول أعمالنا الصالحة لقلتها ، وعقابنا على تقصيرنا .

(إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ) : إن شأنك يا ربنا ، ألَّا تخلف وعدك بقبول طاعة المطيع وإثابته عليها ، والعفو عن المؤمن المقصر المستغفر . وهذه الجملة تعليل لما طمعوا فيه من تحقيق المولى الكريم دعاءهم .

وتلك الدعوات ليست لخوفهم من إخلافه تعالى وعدَه بالثواب والحفظ من النار للمؤمنين ، بل لخوفهم من أن يتغير حالهم ، وتسوء خاتمتهم ، فلا يكونوا – حينئذ – من جملة الموعودين بالثواب والنجاة . فمرجعها إلى الدعاء بالتثبيت على الإيمان والصلاح . أو للمبالغة في التعبد والخشوع .

وقد يفسر الميعاد بالبعث ولقاء الله يوم القيامة ، وبه قال ابن عباس .

ويكون المعنى : ربنا لا تخزنا يوم القيامة الذى نعلم يقينا : أنه واقع لا ريب فيه ؛ فإن وعدك الحق ، وإنك لا تخلف الميعاد .

١٩٥ – (فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُمْ مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ . . .) الآية .

(فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ) : أى أجابهم إلى ما طلبوا ، ووعدهم بتحقيق ما سألوا .

(أَنِّى لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُمْ) : بفتح همزة (أنّى) أى فاستجاب لهم ربهم : بأنّى لا أحبط عمل عامل منكم أيها المؤمنون .

أما قراءة كسر الهمزة ، فبتقدير : قائلا : (إنى لا أُضيع) . . . الخ .

(مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى) : فكلا الصنفين في الثواب على الطاعة سواء ، لا فرق بينكم فيه إلا بقدر العمل وكيفيته . دون أن يكون للذكورة أو الأُنوثة دخل فيه . وعلل هذه المساواة بقوله جل وعلا :

(بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ) : فالذكر مفتقر في وجوده إلى الأُنثى . والأُنثى مفتقرة في وجودها إلى الرجل ، فالأَصل واحد .

ويجوز أن يكون المعنى : بعضكم من بعض في الطاعة والعمل الصالح . أى أنتما متماثلان . فلا وجه للتفرقة بينكما في الثواب ، فإن المماثلة في العمل ، تستدعى المماثلة في الأَجر .

(فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ) : من أجل دينهم وطاعتهم لربهم . والهجرة هنا : هجر الشرك . أو هجر الأوطان والعشائر . والإخراج من الديار ، مراد به : أنهم هاجروا منها بالإكراه والإجبار لا بالاختيار والإرادة .

(وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي) : من أجل ديني .

(وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا) : وجاهدوا المشركين واستشهدوا .

(لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ) : لأغفرنها لهم ، ولأسترنها عليهم .

(وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) : ينعمون بنعيمها الذى لا يخطر مثله على بال ، ويغتبطون بجريان الأنهار من تحتها .

(ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ) : لا يثيبه غيره ، ولا يقدر عليه سواه .

(وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ) : خير الجزاء .

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾) .

المفردات :

(تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ) : التقلب : التنقل . والمراد هنا : تنقلهم للتكسب بالاتجار والزراعة وغيرها ، وتقلبهم فى النعمة .

(مَتَاعٌ قَلِيلٌ) : تَمَتُّعٌ يسير .

(ثُمَّ مَأْوَاهُمْ) : المأوى : محل الإقامة .

(الْمِهَادُ) : المكان الممهد .

(نُزُلًا): النزل ؛ ما يقدم للضيف عند نزوله أو المنزل . ومنه قول الله تعالى : « ... كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا »[1] .

التفسير

١٩٦ - (لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ) :

الخطاب فى (لَا يَغُرَّنَّكَ): إما للنبى صلى الله عليه وسلم ؛ لتثبيته على ما هو عليه من عدم اغتراره بنعمتهم . فكأنه قال له : دُمْ على ما أنت عليه من عدم الاغترار بتقلبهم فى النعمة ، وتبسطهم فى المكاسب والمتاجر والمزارع . وهذا كقوله تعالى للرسول : « فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ »[2] أى استمر على ما أنت عليه من عدم طاعتهم .

وقيل : الخطاب - وإن كان له صلى الله عليه وسلم - فالمراد به : نهى المؤمنين عن الاغترار بما فيه الكفار من النعم ، كما يوجه الخطاب إلى رئيس القوم ، والمراد به أتباعه .

وقيل : هو خطاب لكل من يصلح له من المؤمنين .

ذكر المفسرون بأسانيدهم : أن بعض المؤمنين كانوا يرون المشركين فى رخاء ولين عيش ، فيقولون : إن أعداء الله - تعالى - فيما نرى من الخير ، وقد هلكنا من الجوع والجهد . . . فنزلت الآية .

والمعنى : لا يخدعنك ما هم عليه من سعة الرزق ، وإصابة الربح ، ورخاء العيش ، فتظنه خيرًا متصلا ، ومتاعًا دائمًا .

١٩٧ - (مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ) :

أى هو (مَتَاعٌ قَلِيلٌ) مهمَا عَظُمَ ، فى جانب ما ذكر من ثواب الله للمؤمنين ، فعما قريب يموتون ، فينقضى نعيمهم الذى استدرجهم الله به ، ويُمْسُون مرتهنين بأعمالهم السيئة .

---

(١) الكهف من الآية : ١٠٧

(٢) القلم الآية : ٨

(ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ) : ثم إنهم - بعد ذلك التمتع اليسير والتنعم القليل - صائرون إلى عذاب جهنم التى مهدوها وهيئوها لأنفسهم بكفرهم . وساء ما يمهدون لأنفسهم : جهنم ! !

والتعبير بالمهاد عن النار ؛ للتهكم بسوء اختيارهم . فإن العاقل لا يهيىء لنفسه مكان عذاب وهَوَان يقيم فيه .

١٩٨ - (لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ) :

لما حذَّر الله المؤمنين من الاغترار بما فيه الكافرون من نعيم فانٍ ، أتبعه بيان حسن عاقبة المؤمنين ؛ ليزدادوا صبرا على ما هم فيه من شظف العيش ، انتظارا لهذا النعيم المقيم .

والمعنى : هذا حال الذين كفروا ومآلهم الفظيع (لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ) بالإيمان والعمل الصالح ، لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها لا يبرحونها أبدًا .

(نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ) : رزقًا كريمًا من عند الله ، أو منزلا عظيما من عنده .

(وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ) : أى ما أعده الله لمن أطاعه من النعيم الكثير الدائم ، خير للأبرار ، وأبقى مما يتقلب فيه الكفار ، من قليل زائل ، ونعيم حائل ، وحطام فان .

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ يقول : « ما الدنيا فى الآخرة إلا مثلُ ما يَجعلُ أحدُكم أُصْبُعَهُ فى الْيَمِّ فلينظُرْ بِمَ يرجع ؟ ! »[1] .

وتكرار وعدهم بالجنات التى تجرى من تحتها الأنهار ؛ ليعظم سرورهم ، ويتكامل به سوءُ حال الكفرة ، مع ما فيه من زيادة الوعد بالخلود فى هذا النعيم .

ولهذه الاعتبارات ، جاء الوعد بأسلوب الاستدراك .

---

(١) صحيح مسلم ج ٢ ص ٥٤٠ (باب فناء الدنيا) .

(وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾) .

المفـردات :

(خَاشِعِينَ لِلَّهِ) : خاضعين له .

(لَا يَشْتَرُونَ) : لا يستبدلون .

(اصْبِرُوا) : الصبر ؛ حبس النفس على المكاره .

(وَصَابِرُوا) : المصابرة ؛ مغالبة العدو في الصبر .

(وَرَابِطُوا) : المرابطة ؛ الملازمة في سبيل الله .

التفسـير

١٩٩ - (وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) :

هذه جملة مستأنفة ؛ لبيان أن أهل الكتاب ليسوا جميعاً على ما تقدم من نبذ الميثاق ، وتحريف الكتاب الحق ، لنفع دنيوى . بل منهم مَنْ له مناقب جليلة .

وقد نزلت هذه الآية ، فيمن أسلم من أهل الكتاب : من أحبار اليهود ومن النصارى.

أما أحبار اليهود ، فلم يبلغوا عشرة ، كما قال ابن كثير ، وفيهم عبد الله بن سلام ، وزيد بن سعنة .

وأما النصارى ، فكانوا كثيرين ، فقد أسلم أربعون من أهل نجران ، واثنان وثلاثون من الحبشة ، وثمانية من الروم .

وترجع قلة من آمن من اليهود ، إلى أنهم أشد الناس عداوة للذين آمنوا .

وترجع كثرة من آمن من النصارى ، إلى أنهم أقرب إليهم مودة قال تعالى : « لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ . وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ »[1] .

ومن هؤلاء النجاشي – ملك الحبشة – وبعض علماء دينه .

فقد قال ابن كثير : وقد ثبت فى الحديث أن جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه ، لما قرأ سورة « كهيعص » بحضرة النجاشى ، وعنده بعض البطاركة والقساوسة ، بكى وبكوا معه ، حتى أخضبوا لحاهم !

وقال ابن كثير أيضًا : ثبت فى الصحيحين : أن النجاشى لما مات ، نعاه النبى صلى الله عليه وسلم ، إلى أصحابه وقال : « إن أخًا لكم بالحبشة قد مات ، فخرج إلى الصحراء فصفهم وصلى عليه » .

وروى ابن جرير وغيره : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين مات النجاشى ، قال : « إن أخاكم أصحمة قد مات » ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصلى كما يصلى على الجنائز ، فكبَّر عليه أربعا ، فقال المنافقون : يُصَلِّى على عِلْجٍ[2] مات بأرض الحبشة ! فأنزل الله :

(١) المائدة : ٨٢ ، ٨٣

(٢) العلج : الرجل من كفار العجم .

(وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ . . .) الآية .

والمعنى : وإن بعض أهل الكتاب لَمَن يؤمن بالله على ما يجب له من صفات الكمال ، وما أُنزل إليكم من القرآن ، وما أُنزلَ إليهم من التوراة والإنجيل مجردَين عن تحريف المحرفين منهم ، خاضعين لله فيما أمرهم به . من الإيمان بمحمد وما أنزل عليه – كما أمرهم به كتابهم – لا يستبدلون بآيات الله التى أنزلها فى التوراة والإنجيل ، عوضًا قليلا ، فلم يشتركوا مع قومهم فى كتمان ما جاء بهما من البشارة بالنبى محمد صلى‌الله عليه وسلم ، ووجوب الإيمان به ، ولا فى تحريفهما ؛ رغبة فى عرَض قليل من أعراض الدنيا الفانية ، كالرياسة والرشوة ، والإتاوات التى يفرضونها على قومهم .

وقدم الإيمان بما أنزل إلى المؤمنين وهو القرآن ، على ما أُنزل إليهم وهو التوراة والإنجيل؛ للإيذان بأن إيمانهم بكتابهم يجب أن يكون تابعًا لما جاء فى القرآن ، من رَدّ ما فيهما نحو البنوة لله تعالى ، ومن انتهاء العمل بأحكامهما المنسوخة بالقرآن ، وتصديق ما جاء بهما مما أقره القرآن الكريم شرعا لجميع المرسلين .

فهذا هو شأن المسلمين ، فإنهم – مع إيمانهم بالقرآن– يجب عليهم أن يؤمنوا بالتوراة والإنجيل على هذا النحو ، فلا يقولوا كما قال كفار أهل الكتاب : « نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً »[1] .

(أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) :

أى أولئك المتصفون بهذه الصفات الحميدة من أهل الكتاب ، لهم أجرهم اللائق بهم عند ربهم .

(إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) : لنفوذ علمه فى كل شىء . ومن كان كذلك ، يسارع إلى منحهم الأجر الموعود لهم .

---

(١) النساء ـ من الآية : ١٥٠

وأهل الكتاب : يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ ، قال تعالى : « أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ... »[1] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة يؤتَوْن أجرهم مرتين : رجلٌ من أهل الكتاب ، آمن بِنَبِيِّه ، ثم آمن بِي ، وعبدٌ مملوكٌ أدَّى حق الله وحق مواليه ، ورجلٌ كانت له أَمَةٌ فَأَدَّبَهَا فأحسن تأديبها ، ثم أعتقها فتزوجها » . أخرجه البخارى ومسلم .

ولما ذكر الله فى هذه السورة كثيرًا من الأحكام ، ختمها بما يوجب المحافظة عليها فقال :

٢٠٠ ـ (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) :

والمعنى : يـأيها الذين آمنوا : اصبروا على مشاق الطاعات ، من واجبات يجب فعلها ، ومنهيات يتحتم تركها ، ونافسوا وغالبوا غيركم فى الصبر فى مواطن الجد ، من الحروب ، وهوى النفوس ، وعزائم الأمور .

وتخصيص المصابرة بالأمر بها ـ بعد الأمر بالصبر الشامل لها ـ اهتمامًا بها ؛ لكونها أشد منه وأشق .

(وَرَابِطُوا) : أقيموا على حدود البلاد وثغورها ، وما هو عرضة للخطر منها ، متأهبين للغزو . مأخوذ من : ربط الخيل وشدها .

وليس بلازم أن يكون الرباط بالخيل ، فى كل حال أو زمان أو مكان . إذ المقصود : رصد حركات العدو ، والتأهب لصده عن البلاد الإسلامية . وليس بلازم أن يكون فى أطراف الإقليم فحسب . بل فى أى مكان منه يمكن أن يصل إليه العدو ، ولو فى قلب الوطن .

ففى هذا الزمان ، يمكن أن يصل العدو بطائراته إلى أى مكان فى وطن عدوه .

فالرباط فى هذه الحالة ، يكون بالإقامة فى كل مكان منه يظن أن يقصده العدو ، مع التأهب بكافة أنواع الأسلحة المضادة لهجومه أو استطلاعه ، واستعمال أحدث أنواع الأجهزة لرصده : أرضًا ، أو بحرًا ، أو جوًا .

---

(١) القصص من الآية : ٥٤

والرباط فى سبيل الله ، له أجر عظيم .

قال صلى الله عليه وسلم : « رِبَاطُ يوم فى سبيل الله خيرٌ من الدنيا وما عليها » أخرجه البخارى ، عن سهل بن سعد الساعدى برفعه .

وقال صلى الله عليه وسلم : « رباط يوم وليلة خيرٌ من صيامِ شهرٍ وقيامِه ، وإن ماتَ جرَى عليه عملُه الذى كان يعملُه ، وأُجْرِىَ عليه رِزقُه ، وَأَمِنَ الفَتَّان » . أخرجه مسلم عن سلمان الفارسى برفعه .

وعن ابن عباس وغيره : أن الرباط : هو انتظار الصلاة بعد الصلاة .

واسْتُدِلَّ لهذا الرأى ، بقوله صلى الله عليه وسلم : « ألا أُخبِرُكُم بما يمحو اللهُ به الخطايا ، ويرفعُ به الدرجاتِ : إسباغُ الوضوء على المكاره ، وكثرةُ الخُطا إلى المساجد ، وانتظارُ الصلاةِ بعد الصلاةِ فذٰلكُم الرِّباطُ ، فذلكُم الرِّباطُ ، فذلكُم الرِّباطُ » أخرجه مسلم والنسائى والحاكم ومالك وابن أبى حاتم .

والحق : أن هذا الحديث لا يدل على ذلك ؛ بل على تسمية هذا الانتظار رباطا ، وأن له أجرا عظيما . وقد مرّ حديثان للبخارى ومسلم ، دالان على فضل الرباط .

وأخرج أحمد عن فضالة بن عبيد ، قال : سمعتُ رسولَ اللهِ – صلى الله عليه وسلم – يقول : « كُلُّ مَيتٍ يُخْتَمُ على عملِهِ ، إلا الذى مات مرابطًا فى سبيلِ الله ، فإنه يَنْمى له عملُه إلى يومِ القيامة ، ويأْمَنُ فِتنةَ القَبْر » .

وأخرج مثله ابن حبان ، وأبو داود ، والترمذى ، وقال : حسن صحيح .

(وَاتَّقُوا اللهَ) : بفعل ما أمرتم به ، وترك ما نهيتم عنه .

(لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) : لكى تفوزوا فى الدنيا بالنصر وتحقيق الآمال ، وفى الآخرة بجزيل الثواب . . والله أعلم .

سورة النساء

وآياتها ١٧٦ نزلت بعد الممتحنة

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه السورة مدنية ، وآياتها ست وسبعون ومائة . نزلت بعد الممتحنة . وسميت سورة النساء ؛ لاشتمالها على أحكام كثيرة تتعلق بالنساء .

أهم مقاصد السورة :

١ ـ افتتحت هذه السورة باستهلال عظيم التأثير فى الضمائر والقلوب ، حتى يتلقى ما تشتمل عليه من أحكام بالطاعة والإذعان . فقد نادى الله الناس وأمرهم بالتقوى ، وحثهم على امتثال أمره ، والبعد عن معاصيه .

٢ ـ وذكر مبدأ الإنسان وما يجب على أفراده من التناصر والتعاطف ، والتعاون ورعاية ذوى الأرحام ، وأتبع ذلك ما يلى :

٣ ـ رعاية حقوق الضعفاء من اليتامى والنساء والسفهاء .

٤ ـ العناية بالأحكام المتعلقة بالأسرة من : النكاح ، والميراث ، ووجوب العدل بين النساء عند التزوج بأكثر من واحدة .

٥ ـ الأمر بالمحافظة على الأموال والأعراض ، وبيان ما أحل منها وما حرم .

٦ ـ بيان العقوبات الرادعة عن الاعتداء على الأعراض والأموال والأنفس .

٧ ـ تعرضت السورة لكثير من شئون المنافقين ومآلهم فى الآخرة . ثم جاء فيها ما يلى :

٨ ـ المجادلة مع أهل الكتاب وذكر بعض أخبارهم ومعتقداتهم .

٩ ـ والأمر بأداء الأمانات إلى أهلها ، والعدل فى الأحكام بين الناس ، وبالرجوع إلى الله ورسوله عند التنازع .

١٠ - ثم ورد فيها آية التيمم ، وصلاة الخوف ، وصلاة المسافر وبعض أحكام الجهاد .

١١ - وفيها الأمر بالإحسان إلى الوالدين وذوى الأرحام ورعاية حقوق الجار وابن السبيل والرقيق . إلى غير ذلك ، من المقاصد الكريمة ، والأحكام النافعة .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)) .

المفردات :

(بَثَّ) : نشر وفرّق .

(تَسَآءَلُونَ بِهِ) : أصلها تتساءلون . والمراد : يسأل بعضكم بعضا بالله تعالى .

(وَالْأَرْحَامَ) : جمع رحم ، والمراد بها : القرابة .

(رَقِيبًا) : الرقيب ، هو الحفيظ المطلع .

التفسير

١ - (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) :

هذا خطاب يعم جميع المكلفين ، من الذكور والإناث ، منذ نزول الآية إلى يوم القيامة .

والمعنى : احذروا عقاب الله بأداء حقوقه ، وحقوق العباد .

وفى ذكر اسمه تعالى ، بعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين - تأكيدٌ للأمر بإيجاب الامتثال ؛ وفاء بحق نعمه عليكم .

وفى قوله :

(الَّذِى خَلَقَكُمْ) : تنبيه إلى القدرة التامة ، والنعمة الشاملة ؛ حثًّا على التقوى ، وخوفا من العقاب ، وشكرا للنعمة ، وطلبًا للثواب .

(مِن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ) : هى نفس آدم – عليه السلام – وليس هناك سوى آدم واحد ، وهذا ما عليه جمهور المحدثين والفقهاء .

(وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا) : أى وخلق من هذه النفس الواحدة زوجها : حواء .

(وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً) : أى ونشر وفرق من آدم وزوجه رجالا كثيرا ونساء كثيرات ، بطريق التوالد والتناسل .

(وَاتَّقُوا اللَّهَ) : أعاد الأمر بالتقوى ؛ لعظم شأنها وجليل خطرها ، فى المأمورين فى هذه السورة .

(الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ) : أى الذى يسأل بعضكم بعضا بالله ، فيقول أحدكم لصاحبه : أسألك بالله ، أن تفعل كذا . على سبيل الاستعطاف .

(وَالْأَرْحَامَ) : أى واتقوا قطيعة الأرحام . وقرأ حمزةُ (وَالْأَرْحَامِ) بالجر عطفا على الضمير فى (بِهِ) أى واتَّقُوا الله الذى تساءلون به وبالأرحامِ ، فقد كان أحدهم يقول لصاحبه : أسألك بالله وبالرحم : أن تفعل أو لاتفعل .

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) : أى احذروا مخالفته بالتمسك بتقواه ، لأنه رقيب عليكم وحفيظ لأعمالكم ، فلا تخفى عليه خافية منكم .

فالجملة تحذير للناس وتخويف لهم ، من بأس الله الذى أمروا بتقواه ، ببيان أنه تعالى رقيب عليهم ، قد أحصى عليهم أعمالهم ، وسيحاسبهم عليها .

والمراد من أنه كان عليهم رقيبا : أن رقابته عليهم موجودة منذ نشأتهم ، كما أنها باقية إلى فنائهم . فلم يفلت منها أحد . ولن يغيب عنها إنسان ، إلى أن تقوم الساعة .

(وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا (٢)) .

المفردات :

(وَآتُوا) : المراد بإتيانها أن يحافظوا عليها ، ولايتعرضوا لها بسوء ؛ حتى يسلموها لليتامى عند البلوغ والرشد كاملة . إلا ما صرف منها فى ضرورات اليتامى وحاجاتهم .

(الْيَتَامَىٰ) : جمع يتيم ؛ وهو من مات أبوه . وخصه العرف والشرع بالصغير دون البلوغ .

(تَتَبَدَّلُوا) : يقال : تبدل الشىء بالشىء واستبدله به إذا أخذ الأول بدل الثانى . فالباء داخلة على المتروك .

(الْخَبِيثَ) : الحرام ، أو الردىء .

(بِالطَّيِّبِ) : بالحلال ، أو بالجيد .

(حُوبًا) : إثما وذنبا .

التفسير

٢ - (وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا) :

بعد أن أمر الله الناس جميعا بتقواه ، أمر الأولياء والأوصياء على اليتامى ، بأن يحفظوا أموالهم ولا يتعرضوا لها بسوء، حتى تسلم إليهم - بعد البلوغ - كاملة غير منقوصة ؛ فإيتاء الأموال يراد به : الحفظ والصيانة لها . واليتامى باقية على معناها العرفى والشرعى .

أو المراد بالإيتاء : الإعطاء .

والمعنى : وأعطوا اليتامى أموالهم بعد البلوغ وإيناس الرشد منهم ، ولا تحبسوها عنهم . وتسميتهم يتامى ؛ لقرب عهدهم بالصِّغَر .

وفيه إشارة إلى تسليمهم أموالهم عند البلوغ مباشرة ، من غير مماطلة . قبل أن يزول وصف اليتيم عنهم .

والأول أرجح ؛ لأن دفع الأموال إلى اليتامى بعد البلوغ ، سيأتى قريبا فى قوله تعالى : « فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ » [1] .

(وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ) :

أى ولا تأخذوا الحرام – وهو أموال اليتامى – بدل الحلال وهو أموالكم .

أو المعنى : ولا تستبدلوا بالردىء من أموالكم الجيد من أموال اليتامى ، فقد كان بعض الأوصياء يأخذ الشاة السمينة من مال اليتيم ، ويضع بدلا منها شاة مهزولة ، ويقول : شاة بشاة . ويأخذ الدرهم الجيد ، ويضع مكانه الزيف ، ويقول : درهم بدرهم .

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ) :

أى ولا تأخذوا أموال اليتامى مضمومة إلى أموالكم ، وتسوّوا بينهما فى الإنفاق منهما . من غير مبالاة . مع أن أحدهما حرام والآخر حلال .

(إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا) :

أى إن أخذ الخبيث لليتيم بدل الطيب ، وأكل ماله على الصفة المذكورة – ذنب عظيم ، وإثم كبير . وسيظل كذلك .

وفى الآية دليل على أن ذلك من كبائر الذنوب . وفيها عدة تأكيدات للمحافظة على أموال اليتامى . حيث وصّى بالمحافظة عليها حتى يتسلموها كاملة سليمة ، ونهى عن استبدال غيرها بها ، وعن ضمها لأموالهم ، وأكلها من غير مبالاة بما يلحقهم من جراء ذلك . ثم ختم ذلك ببيان أن هذا إثم كبير ، وذنب عظيم .

---

(1) النساء من الآية : ٦

(وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾) .

المفردات :

(أَلَّا تُقْسِطُوا) : أى ألَّا تعدلوا ، من : أقسط أى عدل . وأما قسط ، فمعناه : ظلم .

(فِي الْيَتَامَى) : المراد : اليتيمات .

(فَانكِحُوا) : تزوجوا .

(مَا طَابَ) : ما حل . أو ما مالت إليه نفوسكم .

(مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ) : أى اثنتين اثنتين ، وثلاثا ثلاثا ، وأربعا أربعا .

(أَلَّا تَعْدِلُوا) : ألا تجوروا وتظلموا .

التفسير

٣ -(وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا) :

لمَّا عَظَّم الله حق اليتامى فى أموالهم فأمر الأولياء بحفظها ، وعدم التفريط فيها . إلى أن تؤَدى إليهم ، وجعل أكلها ذنبا عظيما . أتبع ذلك التوصية بحقوق اليتيمات : فى أنفسهن ، وفى أموالهن .

وقد صح فى سبب نزول هذه الآية . ما رواه البخارى وغيره : « عن عروة بن الزبير ، عن عائشة رضى الله عنها : أنه قد سألها عروة عن هذه الآية : فقالت : يا ابن أختى هذه اليتيمة تكون فى حجر وليِّها : تشركه فى ماله ويعجبه مالها وجمالها ، فيريد وليها أن

يتزوجها ، بغير أن يُقسط فى صداقها ، فيعطيها مثل ما يعطيها غيره . فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن ، ويبلغوا بهن أعلى سنتهن فى الصداق ، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء » ... الحديث رواه البخارى فى كتاب التفسير .

(وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِى الْيَتَامَى ...) :

وإن خفتم عقاب الله ، بسبب ما علمتموه – أو غلب على ظنكم من عدم العدل فى تزوجكم من يتامى النساء اللائى تحت ولا يتكم ، بعدم إعطائهن صداق مثيلاتهن : أو بسوء معاملتهن – فاتركوا التزوج بهن ، وانكحوا ما حلَّ أو ما مالت إليه نفوسكم من النساء غيرهن . ولكل واحد منكم الخيار فى أن يتزوج اثنتين أو ثلاثا أو أربعا . بحيث لا يزيد العدد الذى فى عصمته على أربع ، فإن ظننتم عدم العدل – عند تعدُّد الزوجات فى شأن القسم والعشرة والمؤنة – فتزوجوا واحدة فقط . أو تمتعوا بما شئتم من الإماء بملك اليمين . فإن ذلك أقرب إلى عدم الجَوْر . إذ الواحدة تستقل بزوجها ، والإماء لا حق لهن فى القسم .

هذا وقد أجمع فُقَهاءُ الأمصار : على عدم جواز الزيادة على أربع .

وقد ثبت عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أنه قال لغيلان الثقفى حين أسلم وتحته عشر نسوة : « أَمْسِكْ أَرْبَعًا ، وفارِقْ سَائِرَهُنَّ » رواه أحمد والترمذى وابن ماجه .

وقد قال الشافعى : « دلت سنة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، المبينة عن الله : أنه لايجوز لأحد غير رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أن يجمع بين أكثر من أربع نسوة » .

وهذا الذى قاله الشافعى مجمع عليه .

وقد أُبيح للرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة ، لحكم كثيرة أهمها :

١ – أن الحروب تقع كثيرا . والرجال هم الذين يخوضون غمارها ، ويموت الكثير منهم وتتأيَّم النساء ، وتتيتم ، ويفقدن العائل والمعين ، فيصبحن فى حاجة إلى من يقوم بشئونهن . فلو لم يجز التعدد ، لكثر عدد الأيامَى منهن . وفى ذلك ما يعرضهن للفساد .

٢ ـ عدد النساء أكثر من عدد الرجال فى كثير من بلاد العالم . فإباحة التعدد علاج لهذه الحالة ، حتى لا يتعرضن لعبث العابثين ، ومذلة الفقر والحاجة ، فزواج إحداهن برجل متزوج بأخرى ، إبعاد لها عن الشقاء . وأخذ بيدها إلى ما يصون كرامتها وعفتها .

٣ ـ وقد تمرض الزوجة أو تكون عقيما ، ويأبى زوجها مفارقتها برًّا بها ، ووفاء لها . فهل نمنعه من الزواج بغيرها فيقع فى الحرج؟ أو نلزمه بتطليقها ليتزوج بأخرى فيزيد ألمها وتحرم من العطف والحنان ؟ أو نبيح له أن يتزوج معها غيرها ؟ إذا حكمنا العقل فى ذلك ، نرى أن الخصلة الأخيرة هى الجديرة بالرجحان .

وهذا هو الذى شرعه الله .

٤ ـ للمرأة فى شبابها فترات لا تصلح فيها للتمتع الجنسى ، كفترة الحيض والنفاس والولادة . فإذا كان زوجها قويا لا يصبر عن النساء . فهل نبيح له الزواج بأخرى ، كما تقضى به الشريعة ، أو يدنس نفسه بالحرام كما يريده من يبغون حظر التعدد ؟ .

٥ ـ إذا فقدت الزوجة ما يحببها إلى زوجها ، من وسامة وجمال ، أو حسن عشرة ولين خلق ، فليس من الحكمة منع الرجل من الزواج بغيرها ، مع إبقائه عليها رعاية لماضى العشرة بينهما ، وحفاظا على بقائها مع أولادها منه ، حتى يتربوا بين والديهم ، فإن منعه من الزواج بغيرها حينئذ ، يفضى إلى انحراف الزوج ، وكراهته لأولاده ، وفى ذلك شرٌّ كبير .

هذه بعض حكم إباحة الزواج بأكثر من واحدة .

وقد وضع الشارع له قيودا : فحرم الزيادة على أربع ، وأوجب العدل على الرجل ، إذا تزوج بأكثر من واحدة . فإن وقع جور على إحداهن ـ فلها أن ترفع أمرها إلى الحاكم ليرفع عنها ما وقع عليها أو يخففه . فإن استحكم الخلاف وتعذر الوفاق فللحاكم أن يفرق بينهما : « وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللهُ وَاسِعًا حَكِيمًا »[1] .

---

(١) النساء الآية : ١٣٠

(وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾) .

المفردات :

(وَآتُوا) الإيتاء : الإعطاء والمناولة ، أو الالتزام .

(صَدُقَاتِهِنَّ) : جمع صدقة بضم الدال . وهو المهر .

(نِحْلَةً) : عطية من غير عوض . وفسرها ابن عباس بالفريضة ، فهى عطية من الله مفروضة على الأزواج .

(هَنِيئًا مَّرِيئًا) : صفتان من هنُؤ الطعام ومرؤ . والهنيء ما يلذ للآكل . والمرىء ماسهل هضمه ، وحسنت عاقبته . والمراد : أنه لا تبعة ولا عقاب عليه : أى حلالا طيبا .

التفسير

٤ - (وَآتُوا النِّسَآءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا) :

بعد ما بين الله فى الآية السابقة ، ما يحل الزواج بهن من النساء ، وما يجب على الزوج من العدل بين الزوجتين أو الزوجات - بين فى هذه الآية ، ما يجب على الزوج لزوجته . من دفع صداق لها أو إلزام نفسه به فقال :

(وَآتُوا النِّسَآءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً) : الخطاب فى الآية للأزواج ، لأن الضمائر فى الآية السابقة لهم ، وهذه معطوفة على ما سبق.

والمعنى : وأعطوا النساء اللاتى تعقدون عليهن مهورهن نحلة : أى عطية من الله مفروضة عليكم .

والصداق : آية من آيات المودة ، وتوثيق لعرى الصلة بين الزوجين ، كى تدوم الألفة ، وتعظم المحبة ، وهودليل على صدق رغبة الزوج فى زوجته .

ويرى البعض : أن الخطاب للأولياء ، فقد كان الولى - فى الجاهلية - يزوج ابنته أو أخته ، ويأخذ الصداق لنفسه . فأنزل الله الآية لمنع ذلك .

ولا مانع من أن يجعل الخطاب عاما للمسلمين ، فيشمل الأزواج والأولياء ، فالزوج مطالب بإعطاء الزوجة صداقها . والولى مطالب بدفعه لها ، بعد تسلمه من الزوج . وهى كاملة التصرف فيه بعد ذلك .

(فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا) : أى فإن طابت نفوسهن بإعطائكم شيئا من هذا الصداق - قل أو كثر - فلا مانع من أخذه والانتفاع به . بشرط أن يكون ذلك عن طيب نفس منهن : من غير إكراه ، ولا إلجاء بسوء العشرة ، أو الإضرار بهن . وإلا كان حراما . كما سيأتى بيانه فى الآية (٢٠) من هذه السورة .

(فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا) : أى فخذوه وانتفعوا به أخذا لا ضرر ولا تبعة عليكم فيه . فليس المراد خصوص الأكل . إنما المراد : حل التصرف فيه . وخص الأكل بالذكر ؛ لأن أكثر وجوه الانتفاع بالمال ، عن طريق الأكل .

(وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝) .

المفردات :

(السُّفَهَاءَ) : جمع سفيه . والمراد هنا : الذى لا يحسن التصرف فى المال .

(قِيَامًا) : ما تقوم به أموركم ، وتصلح شئونكم .

التفسير

٥ - (وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا) :

لمَّا بينت الآيات السابقة ، ما يجب على الأولياء من المحافظة على أموال اليتامى ، وأمرهم بالزواج من غير اليتيمات ، عند خوف عدم العدل معهن ، مع بيان وجوب المهر للزوجة ، رجع السياق - فى هذه الآية - إلى بيان ما بقى من الأحكام المتعلقة باليتامى . وبيانها ما يلى :

(وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا) : أى ولا تعطوا - أيها الأولياء - اليتامى أموالهم التى تحت أيديكم ؛ لأنهم لا يحسنون التصرف فيها ، ولا القيام على حفظها واستثمارها .

وقد جعل الله تلك الأموال ، قياما لليتامى : منها يتعيشون ، وعليها يعتمدون فيما يحتاجون إليه فى معاشهم وحياتهم .

وإنما أضيفت الأموال إلى الأولياء مبالغة فى حملهم على المحافظة عليها ، حيث نَزَّلَ أموالَ اليتامى منزلة أموال الأولياء ، لأنهم متحدون فى الجنس والنسب غالبا . وذلك نظير قوله تعالى فى هذه السورة : « وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ »[1] : أى لا يقتل بعضكم بعضا . فعبر عن النوع بالنفس ؛ مبالغة فى الزجر عن القتل . كأنَّ من قتل غيره ، فقد قتل نفسه .

وقد ذهب إلى تفسير الآية بما ذكر : عكرمة ، وابن جبير ، وكثير من المفسرين .

هذا وفى الآية دلالة قوية على النهى عن إضاعة المال ، والأمر بالمحافظة عليه ، والعمل على حسن التصرف فيه ، والتدبير له ، لأن الله تعالى - قد جعله سببا فى إصلاح المعاش ، وانتظام الأمور .

(وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ) : أى اجعلوا الأموال مكانا لرزقهم وكسوتهم . وذلك بالاتجار فيها واستثمارها ، فتكون نفقاتهم من غلتها وربحها ، لا من أصل المال . وإلا أكله الإنفاق ، وهذا هو سر التعبير بقوله : (فِيهَا) . ولم يقل : منها .

وقد روى الترمذى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « أَلَا مَنْ وَلِيَ يَتِيمًا لَهُ مَالٌ فَلْيَتَّجِرْ فِيهِ ، وَلَا يَتْرُكْهُ حَتَّى تَأْكُلَهُ الصَّدَقَةُ » .

---

(١) سورة النساء من الآية : ٢٩

(وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا) : أى وليقل كل من ولى أمر سفيه أو يتيم ، قولا ليّنًا تَطيب به نفسه . مثل أن يقول له : المال مالك ، وما أنا إلا خازن عليه أحفظه لك من الضياع ، وعند الكبر - أو الرشد والتدبر للأمر - سأسلمه لك ، ونحو ذلك من العبارات التى فيها دلالة على الرفق والرحمة ، والعناية بشئونهم .

(وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾) .

المفردات :

(وَابْتَلُوا) الابتلاء : الاختبار والتجربة .

(بَلَغُوا النِّكَاحَ) : بلغوا الحلم وهو حد التكليف .

(آنَسْتُمْ) : أبصرتم ، وتبينتم .

(رُشْدًا) : أى حسن تصرف فى الأموال .

(إِسْرَافًا) : الإسراف ؛ مجاوزة الحد المعتاد فى التصرف .

(بِدَارًا :) البدار ؛ المسارعة فى الشىء .

(فَلْيَسْتَعْفِفْ) : العفة ؛ ترك ما لا ينبغى من الشهوات ، والمراد فليتنزه عن الأكل من مال اليتيم .

التفسير

٦ - (وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا ...) الآية .

أى اختبروا اليتامى - أيها الأولياء - قبيل البلوغ ، بالإذن لهم فى التصرف فى بعض أموالهم ؛ لتعرفوا حسن تصرفهم فيها وضبطهم لها . فإن تبينتم منهم رشدا - بعد البلوغ ، وهداية إلى حسن التصرف - فادفعوا إليهم أموالهم التى تحت أيديكم . وإلا فاستمروا على الابتلاء والتجربة ، حتى تعرفوا منهم ذلك .

وقد ذهب الشافعى وأبو حنيفة إلى أن الاختبار قبل البلوغ .

ويدل على هذا قوله : (حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ) .

وقد فَرَّعَ أبو حنيفة على هذا : أن تَصَرُّفَ الصبى العاقل المميز صحيح ، متى كان بإذن الولى .

وقال الشافعى : لايباشر الصبى العقد بنفسه ، وإنما يباشره وليه ، فإذا تَمَّت الصفقة ، قام الولى بالتعاقد .

وظاهر الآية : دال على أن أموال اليتامى ، لاتدفع إليهم ، إلا إذا بلغوا راشدين .

والبلوغ : إما بالاحتلام للذكور ، وبالحيض للإناث . وإما بالسن ، وهو عند الشافعى والحنابلة : خمس عشرة سنة . وعند المالكية . سبع عشرة سنة . وفرق الحنفية بين الذكور والإناث : فجعلوه للذكور ثمانية عشر عاما ، وللإناث سبعة عشر عاما . وكل ذلك بالحساب القمرى .

فإذا بلغ غير رشيد ، فلا يُسَلَّمُ له ماله ، عند جمهور الفقهاء . ومنهم صاحبا أبى حنيفة . وقال أبو حنيفة : يُسَلَّم له إذا بلغ خمسا وعشرين سنة وإن لم يثبت رشده ؛ لأنه يصلح أن يكون جدا ، وهو يستحيى أن يحجر على مثله ، ولكن النص لا يساعد مذهبه . فقد قال تعالى : (فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ) .

(وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا) :

هذا نهى للأولياء والأوصياء ، عن أكل أموال اليتامى : مسرفين فى الإنفاق منها ، ومتعجلين أكلها ، مخافة أن يكبروا فينتزعوها من أيديهم . فإن الكثير من الأولياء ، يستعجل بعض التصرفات التى يكون لهم فيها منفعة ، حتى لاتفوتهم إذا كبر اليتيم وتسلّم ماله .

(وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ) :

نهى الله الأولياء – فى الجملة السابقة – عن أكل مال اليتامى مسرفين ومبادرين كبرهم ، حتى يظفروا بما يريدون .

وفى هذه الجملة من الآية ، يرشد الأولياء ، إلى أن من كان منهم ذا مال ويسار ، فليكف نفسه عن الأكل من أموال اليتيم التى تحت يده ، وليبالغ فى إعفاف نفسه وإبعادها عنه . فلا يأكل منه شيئا . ومن كان منهم فقيرا فليأخذ من مال اليتيم ، بقدر حاجته من سد الجوعة وستر العورة ... لايزيد عن ذلك .

ومن هذا يتبين جواز انتفاع الوصى والولى بقدر حاجته ، من غير إسراف . أما إذا أسرف ، فإنه يكون ظالما . وفاعله يدخل تحت مَنْ قال الله فيهم ، فى هذه السورة بعد ثلاث آيات : « إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا »[1] .

وقد روى الإمام أحمد ، والنسائى ، وأبو داود ، عن ابن عمر : أن رجلا سأل النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : ليس لى مال . وإنى وَلِىُّ يتيم . أفآكل من ماله ؟ فقال : « كُلْ مِنْ مَالِ يَتِيمِكَ غَيْرَ مُسْرِفٍ ، وَلَا مُتَأَثِّلٍ مَالًا[2] : وَمِنْ غَيْرِ أَنْ تَقِىَ مَالَكَ بِمَالِهِ » .

وإلى هذا الظاهر ، ذهب عطاء وقتادة ، وهو أحد الروايات عن ابن عباس .

وقال سعيد بن جبير ، ومجاهد والزهرى ، وآخرون : ما يأخذه الفقير – بقدر حاجته – يكون قرضا . وعليه أن يرده إذا أيسر .

---

(١) سورة النساء من الآية : ١٠ (٢) تأثل المال : اكتسابه .

وعن عمر ، أنه قال : أنزلتُ نفسي من هذا المال بمنزلة وليّ اليتيم : إن استغنيت استعففت ، وإن احتجت استقرضت ، فإذا أيسرت قضيت[1] .

وقد ذهب جماعة إلى أنه ليس للولى أن ينتفع من مال اليتيم بشيء . وأن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا[2] » . ، وقد أنكر أبو بكر بن العربى القول بالنسخ ، لأن الله تعالى يقول : (فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ) .

وقال : « إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا » فكيف ينسخ الظلم المعروف ؟ .

والحق من هذه الآراء : أن للولى الفقير ، أن يأخذ من مال اليتيم ، ما يفى بحاجته ، من غير إسراف ولاتبذير ، وليس عليه ردُّ ما أخذه ، لأنَّ ما أخذه نظير نظره ورعايته المال .. وأما الغنى ، فلا ينبغى أن يأخذ من مال اليتيم شيئا ، لأن الله تعالى ، أمره بالعفة والكف عنه .

(فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ) : أى فإذا أديتم - أيها الأولياء - أموال اليتامى إليهم فأحضروا شهودا عليهم ، بأنهم تسلموها ، وأبرئوا ذمتكم منها ، كيلا يكون بينكم وبينهم نزاع ؛ لأن الإشهاد أبعد عن التهمة ، وأنفى للريبة والخصومة ، وأدخلُ فى الأمانة .

(وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا) : أى وكفى الله محاسبا وشهيدا ورقيبا على الأولياء ، فى حال تسليمهم الأموال لليتامى ، هل هى كاملة أو منقوصة ؟ .

وفى هذه الجملة ، تحذير للمسلمين ، من أخذ شىء من أموال اليتامى . وأن الإشهاد - وإن أسقط الدعوى فى الدنيا أمام القضاء - فهو لا يحل ما أخذه الولى من مال اليتيم ، عند الله فى الآخرة ، فإذا كان الولى خائنا ، فإن الله سيحاسبه ؛ لأنه لا تخفى عليه خافية .

(١) نقلا عن ابن كثير يرويه عن ابن أبى الدنيا . (٢) سورة النساء الآية : ١٠

(لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (٧)) .

التفسير

٧ـ (لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا) :

بعد أن بين الله تعالى ، الأحكام المتعلقة بأموال اليتامى ـ التى آلت إليهم بالميراث ـ شرع فى الكلام على أحكام المواريث . فأجملها فى هذه الآية الكريمة ، إبطالا لما كان عليه أهل الجاهلية من حرمان الصغار والنساء منه ، وسيفصلها فيما يأتى :

سبب النزول :

نزلت هذه الآية فى شأن زوجة أوس بن ثابت وأولاده وابنى عمه .

فقد روى ابن مردويه وغيره ، عن جابر : أن أوس بن ثابت ، مات عن زوجته أم كحة وابنتين ، وابن صغير ، وابنى عمه ـ وهما وصياه ـ فأخذا ماله ، ولم يعطيا أولاده وزوجته منه شيئا ، كعادتهم فى الجاهلية . فقالت الزوجة للوصيين : تزوجا بالبنتين وكانت بهما دمامة فأبيا . فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخبرته الخبر . فدعاهما . فقالا : يارسول الله ، ولدها لايركب فرسا ، ولا يحمل كَلاًّ [1] ولا ينكأ عدواً [2] . فصرفهم النبى صلى الله عليه وسلم ، حتى يَنزلَ حكمُ الله فى شأنهم ، فأنزل الله هذه الآية . فأرسل إلى ابنى العم . وقال لهما : لاتحركا من الميراث شيئا ، فإنه قد أُنزلَ عَلَيّ فيه شيء

---

(١) يطلق الكل على السيف والعيال والثقل . (٢) أى لا يقتل عدوا ولا يجرحه .

أخبرت أن للذكر والأنثى نصيبا . ثم نزلت بعد ذلك الآيات فى تفصيل الميراث . فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالميراث ، فأعطى المرأة الثمن ، وقسم الباقى بين الأولاد ، للذكر مثل حظ الأنثيين . ولم يعط ابنى العم شيئًا .

وفى بعض طرق الحديث : أن الورثة كانوا زوجة وابنتين وابنى العم ، وأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنى العم ما بقى بعد نصيب الزوجة والبنتين .

ومن هذا يتبين : كيف أنصف الإسلام المرأة ، وحفظها من ضياع .

(لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ) :

والمقصود من الرجال والنساء : الذكور والإناث ، وإن كانوا صغارا . أى للذكور نصيب مما تركه آباؤهم وأمهاتهم وأقاربهم ، كالإخوة والأخوات ، والأعمام والعمات . وللإناث نصيب مما ترك آباؤهن وأمهاتهن وأقاربهن .

وبهذا ، بطل ما كان عليه أهل الجاهلية ، من توريث البالغين من الرجال فقط ، حيث جعل للجميع حظا ونصيبا فى الإرث . وكان يكفى أن يقال : لكل واحد نصيب مما ترك الوالدان والأقربون . ولكنه تعالى ، شاء أن يفصل فيجعل للرجال نصيبا وللنساء نصيبا مما تركه الوالدان والأقربون ، إيذانا بأصالة النساء فى استحقاق الميراث ، ومنعًا من صرف هذا المجمل إلى الرجال وحدهم ، على ما كانت عليه عادة الجاهلية ، ومبالغةً فى إبطال هذه العادة الظالمة .

(مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ) :

أى لكل من الصنفين ــ الرجال والنساء ــ نصيب من المتروك . سواء أكان المتروك قليلا أم كثيرا ، عظيم القيمة أو حقيرها ، عقارا ثابتا أو منقولا . فلا يحق لبعض الورثة أن يستأثر ببعض الميراث دون الآخرين ، كالسلاح والخيل ، وغير ذلك . كما كان شائعا فى الجاهلية .

وتقديم القليل على الكثير – فى الآية – للتنبيه على وجوب دخوله فى الميراث بين المستحقين ، لأنه مظنّة التهاون فيه .

(نَصِيبًا مَّفْرُوضًا) :

أى فرض الله ذلك حظًّا مفروضا مقدرا ، تجب مراعاته ، وتحرم مخالفته .

(وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾) .

المفردات :

(أُولُو الْقُرْبَى) : أصحاب القرابة غير الوارثين .

(فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ) : فأعطوهم من المال الموروث .

التفسير

٨ـ (وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا) :

بعد أن بين الله ـ فيما سبق ـ استحقاق الوارثين من الرجال والنساء ، بين فى هذه الآية : أن من لايرث من أقارب المتوفى ، ومن اليتامى والمساكين الأجانب ، يُسْتَحَبُّ إعطاؤهم شيئا من التركة إذا حضروا قسمة التركة ، تطييبا لنفوسهم وجبرًا لخواطرهم .

(وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ) :

أى وإذا حضر قسمة الميراث ، أصحاب القرابة ممن لاحق لهم فى الميراث ، أو حضرها اليتامى والمساكين من الأجانب .

(فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ) : أى فأعطوهم من المال المتروك شيئًا ، تطيب به نفوسهم ، ويجبر خاطرهم ويدفع ما قد يسرى فى نفوسهم من حسد الورثة على ما ورثوه .

(وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا): أى قولا لينا جميلا . مثل وددنا لو أعطيناكم أكثر من هذا ، ودعائكم لهم بالبركة ، وعدم مَنِّكم عليهم .

وقد ذهب جمهور فقهاء الأمصار ، إلى أن هذا الإعطاء على سبيل الاستحباب ، إذ لو كان واجبا ، لبينه الله ، كما بين سائر الحقوق ، ولتوفرت الدواعى على نقله . ولكنه لم ينقل . فدل ذلك على عدم وجوبه .

وعلى ذلك فالآية محكمة لا نسخ فيها .

وقد نقل عن ابن عباس أنه قال : والله ما نسخت هذه الآية ، ولكن الناس تهاونوا بها .

ومن العلماء من قال : إن الإعطاء كان واجبا قبل نزول آيات المواريث . ثم نسخ .

والأول هو الصحيح المعوَّل عليه ؛ لأن نص الآية مشعر بتقدم آيات المواريث عليها ، فمعنى (وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ) : أى قسمة الميراث على أربابه ، ولا يقسم الميراث ، ما لم تعلم أنصباء الورثة ، والأمر بالرزق فى قوله : (فَارْزُقُوهُمْ) : إنما هو فى نصيب البالغين من الورثة ، أما الصغار فلا يعطى من نصيبهم شىء .

(وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾) .

المفردات :

(وَلْيَخْشَ) الخشية : الخوف والحذر .

(قَوْلًا سَدِيدًا) : عدلًا وصوابًا .

التفسير

٩ - (وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا) :

يأمر الله تعالى الأولياء ، فى هذه الآية الكريمة : بأن يخافوا ربهم ويتقوه فى رعاية اليتامى الذين يَلُونَ أمورهم . فعليهم أن يعاملوهم بمثل ما يحبون أن يُعَامَلَ بِهِ أبناؤهم الضعفاء من بعدهم . وذلك بحفظ أموال اليتامى ورعايتها .

أخرج هذا المعنى ابن جرير ، عن ابن عباس ، حيث قال : يعنى بذلك : الرجل يكون له أولاد صغار يَخشَى عليهم الضياع ، ويخاف عليهم ألا يحسن إليهم من يلى أمرهم . يقول : فإن وَلى ضعافا يتامى مثل ذريته ، فليحسِنْ إليهم ، ولا يأْكل أموالهم .

وخلاصة المعنى : عاملوا اليتامى ، بما تحبون أن يُعَامَلَ به أولادكم من بعدكم .

(وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا) :

أى وليقولوا لليتامى قولا لينا ، تظهر فيه الشفقة والحنان ، مع العناية بتهذيب خلقهم وتوجيههم إلى الرشاد .

(إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾) .

المفردات :

(يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا) : أى يأْكلون مايؤَدى بهم إلى النار ، ليعاقبوا فيها على ما أَكلوه .

(وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا) : أى وسيدخلون نارا هائلة . من صَلِى النار ــ بكسر اللام ــ أى قاسى حرها . والسعير : النار الموقدة . من سَعَرت النار أوقدتها وألهبتها .

التفسير

١٠ ــ (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا) :

سيقت هذه الآية ، لتأْكيد الأَوامر والنواهى ، التى سبقت فى شأْن اليتامى . وهى وعيد شديد ، لمن يتعدى على أموالهم ، بأَخذها ظلما وعدوانا . أما إذا أخذ منها الولى

الفقير ، بمقدار حاجته ، كما سبق - فى قوله تعالى : « وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ » - من هذه السورة ، فلا إثم فيه .

والمراد من قوله تعالى : (يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا) أنهم يأكلون من أموال اليتامى فى الدنيا ، ما يؤدى بهم إلى النار فى الآخرة . أو أن من يأكل مال اليتيم فى الدنيا ، يجازى فى الآخرة على ذلك ، بأن يأكل النار حقيقة . كما أخرجه ابن جرير فى حديث الإسراء . وفيه : أن الرسول صلى الله عليه وسلم « رَأَى أُنَاسًا تُلْقَى فِي أَفْوَاهِهِمْ صُخُورٌ مِنَ النَّارِ ، وَتَخْرُجُ مِنْ أَدْبَارِهِمْ . فَسَأَلَ : مَنْ هَؤُلَاءِ يَاجِبْرِيلُ ؟ فَقَالَ جِبْرِيلُ : هَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا » .

والآية عامة فى كل من يأكل مال اليتيم ظلما وعدوانا : وَلِيًّا كَانَ أو غيره . وفيها من المبالغة فى الوعيد على ذلك والتحذير ما لايخفى .

(يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾) .

التفسير

١١ - (يُوصِيكُمُ اللهُ فِى أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَاتَرَكَ ...) الآية .

لقد بيَّن الله - عز وجل - فيما سبق - أن لكل من الرجال والنساء، نصيبا فى الميراث . وكان بيانا مجملا .

وفى هذه الآية - وما يليها - بين الله من يستحق الميراث تفصيلا .

ولقد ذُكرت المواريث فى ثلاث آيات من سورة النساء . وهى الآيتان (١١ ، ١٢) والآية التى ختمت بها هذه السورة ، وهى قوله تعالى : « يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِى الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَاتَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ » .

وقد قرر الله - فى هذه الآيات الثلاث - الميراث للرجال والنساء : كبارهم وصغارهم . وأعطى كلَّ واحد نصيبه . وأبطل ما كانَ عليه أهل الجاهلية من حرمان الإناث والصغار من الذكور . وتوريث من ليس له حق فى الميراث . فقد كانت أسباب الميراث فى الجاهلية :

١ - النسب : مع قَصْرِه على البالغين من الرجال : القادرين على الضرب والطعن ، وركوب الخيل .

٢ - التَّبَنِّى : فكان للمتبنى ما للابن الحقيقى فى الميراث وغيره . وأبطل الإسلام ذلك .

٣ - الحلف والعهد : فكان الرجل يقول للآخر : دمِي دَمُكَ ، وَهَدْمِي هَدْمُكَ ، وترثُنى وأرِثُكَ . فإذا مات أحدهما قبل الآخر ، ورث الحىُّ الميت .

وبقى هذا الأخير مَعمولا به فى صدر الإسلام ، إلى أن نزلت آيات المواريث .

وقد كان من أسباب الميراث فى صدر الإسلام : الهجرة والمؤاخاة . أول العصر المدنى . فقد كان المهاجرى يرث الأنصارى ، دون قرابته وذوى رحمه ؛ للأُخوة التى آخى بينهما

رسول الله صلى الله عليه وسلم . كما قال ابن عباس . ثم نسخ الله ذلك ، واستقر الأمر - عند جميع المسلمين - بعد نزول آيات الميراث ؛ على أسباب ثلاثة هي :

١ - النسب . ٢ - النكاح . ٣ - الولاء[1] .

والحكمة فى تشريع ما كان فى صدر الإسلام ظاهرة . لأن أقارب المسلمين . كان أغلبهم كفارا . وكان المسلمون - لقلتهم وفقرهم - فى حاجة إلى التكافل والتناصر والتعاون بينهم . ولا سيما : المهاجرون الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم .

سبب النزول :

أخرج الإمام أحمد ، وأبو داود والترمذى . عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه . قال : «جاءت امرأة سعد بن الرّبيع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : يارسول الله ، هاتان ابنتا سعد بن الربيع ، قُتِلَ أبوهما معك فى أُحُدٍ شهيدًا . وإنَّ عمَّهما أخذَ مالَهما فلم يَدَعْ لهما مالا . ولا تُنكَحانِ إلَّا ولهما مالٌ . فقال : يقضِى اللهُ فى ذلك . فنزلتْ آيةُ الميراثِ : (يُوصِيكُمُ اللهُ فِى أَوْلَادِكُمْ . . .) الآية . فأرسل رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، إلى عمِّهما فقال له : أَعْطِ ابْنَتَىْ سَعْدٍ الثُّلُثَيْنِ ، وَأُمَّهُمَا الثُّمُنَ . وَمَا بَقِىَ فَهُوَ لَكَ » .

(يُوصِيكُمُ اللهُ فِى أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ) :

أى يأمركم الله فى ميراث أولادكم أمرا مؤكدا : بأن يكون للذكر مثل حظ الأنثيين . والولد : يطلق على الذكر والأنثى . ويدخل أولاد الابن فى الأولاد ، لأنهم يرثون عند عدم وجود الأولاد . فإذا مات الميت ، وترك أولادا ذكورا وإناثا ، كان للذكر مثل نصيب اثنتين من الإناث .

---

(١) المراد : ولاء العتق . فالمعتق يرث عتيقه بعد موته ، إن لم يكن له وارث آخر . كالقرب والزوجة ، بحيث يستنفدون الميراث . أما إن بقى بعد هؤلاء شىء ، فهو للمولى المعتق .

والحكمة فى جعل حظ الذكر ـ فى الميراث ـ ضعف حظ الأنثى : أن الرجل مكلف بأعباء وواجبات مالية ، لاتلتزم بها المرأة .

فهوَ الذى يدفع المهر ، وينفق على الزوجة والأولاد ـ بعد ذلك ـ نفقة شاملة .

أما المرأة ، فهى تأخذ المهر ، ولا تُلزم بأى نفقة : لنفسها أو أولادها ، ولو كانت غنية . وبذلك ترى أن العدالة تقضى بأن يكون نصيبها فى الميراث أقل من نصيب الرجل . وأن الإسلام كان معها كريما ، حينما أعطاها نصف نصيب الرجل ، وجعل لها فيه كامل التصرف . فلا مجال لما يقال من أن الإسلام بخسها حقها . ولا عدالة فيما يطالبون به من مساواتها بالرجل فى الميراث .

أفلا يذكر هؤلاء : أن المرأة كانت ـ قديما ـ محرومةً من الميراث عند العرب وغيرهم ، وأن بعض الشعوب ـ إلى الآن ـ تحرم على الزوجة كل تصرف فى مالها ، وتجعل حق التصرف فيه لزوجها ، ولو بغير إذن منها ؟ !

(فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ) :

أى فإن كانت الأولاد إناثا لاذكر معهن ، وكان عددهن أكثر من اثنتين ، فلهن ثلثا التركة ، مهما بلغ عددهن .

(وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ) :

أى إن ترك الميت بنتا واحدة : لا أخ لها ولا أخت . فلها نصف الميراث . بالغا ما بلغ . والنصف الآخر يقسم على باقى الورثة ، حسب أنصبتهم فى الميراث .

وهذا الذى تقدم ، هو نصيب الذكور مع الإناث من الأولاد ، ونصيب البنات إذا كن أكثر من اثنتين ، ونصيب البنت الواحدة إذا انفردت .

أما نصيب البنتين ، فلم يذكر فى الآية الكريمة . وقد اختلف فيه العلماء :

١ - فقال الجمهور : للبنتين الثلثان . فحكمهما حكم الثلاث فأكثر . ودليلهم ما يأتى :

(أ) قياس البنتين على الأختين ، حيث قال الله فيهما : « فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ[1] » والبنت أقرب إلى الميت من الأخت . فإذا حازت الأختان الثلثين ، فأولى أن يكون ذلك للبنتين .

(ب) أن البنت تأخذ مع أخيها الثلث . فأولى أن تأخذه مع أختها .

(ج) ما ورد عن ابن مسعود ، من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جعل للبنت مع بنت الابن الثلثين . فأولى أن يكون الثلثان للبنتين .

(د) الحديث المذكور فى سبب النزول ، فهو صريح فى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أعطى لابنتى سعد بن الربيع الثلثين .

وعلى ذلك ، يكون المعنى المراد من الآية : فإن كن نساء : اثنتين فما فوق .

٢ - وقال ابن عباس : إن البنتين : كالبنت الواحدة . نصيبهما النصف . لأن الله جعل لما زاد على الاثنتين الثلثين . فلا تعطى البنتان الثلثين . وإنما تأخذان النصف . والراجح ما ذهب إليه الجمهور ؛ لقوة أدلته .

هذا ، وأولاد الابن كأولاد الصلب - فى كل ما تقدم - عند عدم وجودهم . وتعرف أحوال ميراثهم من كتب الفقه .

(وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ) :

بعد أن بين الله نصاب الأولاد : ذكورا أو إناثا أو مجتمعين ، شرع فى بيان ميراث الأب والأم . فإن كان الميت قد ترك أبويه وولدا ذكرًا أو أنثى : واحداً أو أكثر ، فلأبيه السدس . ولأمه السدس . والباقى يعطى للأولاد على النظام المتقدم فى بيان نصيبهم . فإن كان الميت قد ترك بنتاً واحدة - مع الأب والأم - أخذت البنت النصف، ولكل من

---

(١) النساء ، من الآية : ١٧٦

الأبوين : السدس . والباقى من التركة يأخذه الأب تعصيباً . لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَلْحِقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا . فَمَا بَقِيَ فَلأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ[1] » .

(فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ) : أى إذا مات الميت ولم يترك ولدًا : ذكرًا كان أو أنثى ، وورثه أبوه وأمه ، أخذت أمه ثلث التركة ، والباقى للأب . وهو الثلثان . لأن الميراث انحصر فيهما . فبعد أن أخذت الأم فرضها ، يأخذ الأب الباقى .

(فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ) :

أى : أن نصيب الأم يصير سدسًا . لو كان الميت قد ترك عددًا من الإخوة من أى نوع : اثنين فأكثر ، ولو كانوا غير وارثين . أما إذا كان للميت أخ واحد أو أخت واحدة ، فلا يحجب الأمَّ من الثلث إلى السدس ، بل يبقى لها الثلث .

هذا الذى تقدم ، هو مذهب الجمهور . من أن الاثنين من الإخوة يُصَيِّران نصيب الأم السدس ، بدلا من الثلث .

ويرى ابن عباس : أن نصيبها لا ينقص عن الثلث مع الاثنين من الإخوة و الأخوات . أخذًا من قوله تعالى : (إِخْوَةٌ) وأقل الجمع ثلاثة .

والجمهور يقولون : الاثنان جمع ، فقد ورد إطلاق الجمع على الاثنين . قال تعالى : « فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا[2] » . وقال: « وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ . إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ[3] » .

وأيضًا ، فقد رأى الجمهور : أن كلاًّ من البنتين والأختين . كالثلاث فى الميراث . فيكون الاثنان من الإخوة كالثلاثة ، فى الحجب من الثلث إلى السدس .

---

(١) رواه الشيخان وغيرهما ، وأحمد ، والترمذى .

(٢) التحريم . من الآية : ٤

(٣) ص . من الآية : ٢١ ، ٢٢

ومن مسائل ميراث الأبوين : ما إذا كانا موجودين مع أحد الزوجين . فإذا ماتت امرأة عن زوجها وأبيها وأمها ، فلو أعطينا الزوج النصف كما سيأتى ، وأعطينا الأم الثلث لعدم وجود ولد ولا عدد من الإخوة ، لكان الباقى للأب هو السدس . فيكون نصيب الأم - وهى أنثى - ضعف نصيب الأب وهو رجل . وهذا لم يعهد فى الميراث . . وقعت هذه المسألة فى عهد الصحابة : فقضى فيها عمر ، وزيد بن ثابت ، وابن مسعود ، وجمهور من الصحابة : بأن نصيب الأم ثلث الباقى بعد فرض الزوج ، وللأب ثلثا الباقى .

وخالف ابن عباس فى ذلك . وقال : للأم ثلث المال ، وتناظر زيد بن ثابت فيها مع ابن عباس . فقال ابن عباس لزيد : لا أجد فى كتاب الله أن للأم ثلث الباقى . فقال زيد ليس فى كتاب الله إعطاؤها الثلث مع وجود الزوج . وكأن زيدًا يريد أن يقول : إن الله تعالى ، أعطاها الثلث - إن كان الميراث منحصرًا فى الأبوين ، وإلا كان قول الله - تعالى : (وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ) عديم الفائدة .

ومثل المسألة المتقدمة : ما إذا كان الميت الزوج ، وترك زوجة وأبًا وأمًا . فللزوجة الربع وللأم ثلث الباقى ، وللأب ثلثاه .

وتعرف هاتان المسألتان فى الميراث ، بالعُمَرِيتين ؛ لقضاء عمر فيهما بذلك . وقد وافقه جمهور الصحابة على ذلك .

(مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَا أَوْ دَيْنٍ) :

أى تقسيم الميراث على النحو المتقدم : للأولاد والأبوين ، لا يكون إلا بعد أداء وصية قد أوصى بها قبل موته أو بعد سداد دين كان عليه قبل موته .

فلا يأخذ أى وارث شيئًا من الميراث ، إلا بعد سداد الديون ، وتنفيذ الوصايا ؛ لأنهما حق لغير الورثة . فلا يورث .

هذا ، والحقوق المتعلقة بالتركة : ما يأتى ، على هذا الترتيب :

(١) ما يتعلق بتجهيز الميت ودفنه .

(٢) سداد ديونه حتى تبرأ ذمته .

(٣) ما يكون قد استدركه من أعمال الخير قرب وفاته ، كالوصايا فى حدود الثلث.
ويقدم سداد الديون على تنفيذ الوصية ، إذا لم يتسع المال الموروث لهما .

وإنما قدم الله الوصية فى الآية الكريمة على الدين ، اهتمامًا بشأنها ؛ لأنها مظنة للتفريط فى أدائها .

(آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا) :

أى : هؤلاء الذين أوصاكم الله بهم ، وبيّن أنصباءهم فى المال الموروث هم : آباؤكم وأبناؤكم . والله يَعْلَمُ أقربهم لكم نفعًا . وأنتم لا تدرون ذلك . ولهذا تولى قسمة المال بينهم حسب علمه . ولم يتركه لكم ؛ لعدم علمكم بمن يستحق الأكثر ، ومن يستحق الأقل .

(فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ) :

أى فَرَضَ الله ذلك الذى تقدم ، فريضة عليكم ، وألزمكم به .

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا) :

فهو يعلم ما به صلاح خلقه ، وهو ذو حكمة : يضع كل شىء فى موضعه . ويقضى بما يراه حقا .

فعليكم أن تنفذوا وصيته ، وأن تستسلموا لما قضى به من قسمة المواريث . فهو العليم بمواضع المصلحة ، دون سواه .

(وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٢) تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٤)) .

المفـردات :

(كَلَالَةً) : مصدر من فعل « كَلَّ » بمعنى الكلال . وهو العجز والإعياء ، وكَلَّ الرجلُ كلالة ، إذا مات وليس له والد أو ولد يرثه ؛ لأنه عجز عن بلوغ القرابة القوية .

(غَيْرَ مُضَارٍّ) : أي غير مدخلٍ الضررَ على الورثة ، في وصية أو دين . كأن يوصي بأكثر من الثلث . أو يقر بدَيْن ليس عليه .

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ) حدود الله : شرائعه وأحكامه . وأطلق عليها الحدود ، لشبهها بالحدود والحواجز ، من حيث إن المكلف : لا يجوز له أن يتعداها إلى غيرها .

التفسير

١٢ - (وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ - إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ . . .) الآية .

المعنى : (وَلَكُمْ) أيها الأزواج . (نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ) : أى نساؤكم ، بعد وفاتهن من أموال منقولة وغير منقولة .

(إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ) : أى ولد من بطنها ، أو من صلب بنيها ، أو أولاد بنيها . . نزولا إلى غير حد : ذكرا كان أو أنثى ، واحدًا أو أكثر ، منكم أو من غيركم . كما فهم من إضافته إلى الزوجات فى قوله تعالى : (لَّهُنَّ) والباقى بعد النصف الذى استحقه الزوج يعطَى لذوى الفروض والعصبات ، الذين لهم حق ميراث الزوجات . ولبيت المال ، إن لم يكن لهن وارث أصلا .

(فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ) : على النحو المذكور (فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ) : من المال . والباقى لسائر الورثة . والنصيبان المذكوران للأزواج من زوجاتهم .

(مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ) : فالباقى من مال الزوجة المتوفاة - بعد تنفيذ وصيتها وقضاء دينها - يأخذ منه الزوج النصف تارة ، والربع تارة أخرى . حسب التفصيل السابق .

ويفهم من الآية : وجوب تقديم الوصية والدَّين على قسمة الميراث . فإن استوعبا التركة ، فلا ميراث لأحد منها . وإن كانت التركة تكفى الدَّين وحده أو الوصية وحدها ، قُدِّم الدَّين على الوصية .

وقد أجمع العلماء : على أن نصيب الزوج من زوجته النصف أو الربع ، على النحو الذى بينته الآية الكريمة .

(وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ) : أى ولزوجاتكم الربع مما تركتم - أيها الأزواج - من المال . والباقى لسائر ورثتكم ، أو لبيت المال ، إن لم يكن لكم وارث : (إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ) منهن أو من غيرهن : ذكرًا كان أو أنثى . واحداً أو أكثر .

(فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ) : على النحو المذكور . (فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ) : من المال . ويقوم ولد الابن مقام ولد الصلب فى كل ذلك . وما بقى ، فالشأن فيه كما تقدم (مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ) : كما سبق بيانه .

وقد أجمع العلماء : على أن كلا من الربع أو الثمن ، يكون للزوجة إن انفردت ، وللزوجتين أو الثلاث أو الأربع إذا اجتمعن : يقسم الربع بينهن بالسوية ، عند عدم الولد للزوج . والثمن كذلك عند وجوده . وقد فرض الله تعالى ، للرجل - بحق الزواج - ضعف ما فرض للمرأة . كما فى النسب . ذلك بما فضله الله به ، إذ جعله قوامًا عليها .

ثم شرع فى بيان أحكام من يحتمل السقوط من الورثة - بعد بيان أحكام الآباء والأولاد ، والأزواج والزوجات ، وهم لا يسقطون بحال - فقال ، جل شأنه :

(وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً) الكلالة : هو من لم يكن له والد ولا ولد عند موته . (أَوِ امْرَأَةٌ) : تورث كلالة كذلك .

(وَلَهُ) أى للرجل الذى يورث كلالة (أَخٌ أَوْ أُخْتٌ) لأمه ، وكذلك إذا كان للمرأة التى تورث كلالة ، أخ أو أخت لأمها (فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا) : أى من الأخ أو الأخت لأم (السُّدُسُ) : يستوى فيه ذكرهم وأنثاهم (فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ) : أى فإن زاد الإخوة لأم عن الواحد ، فهم جميعًا : شركاء فى الثلث - وإن كثر عددهم - يقتسمونه بينهم بالسوية . لا فرق بين ذكرهم وأنثاهم.

وقد أجمع العلماء : على أن المراد من الإخوة - هنا - الإخوة لأم لقوله تعالى : (فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ) : والإخوة للأبوين أو للأب ، لا يرثون هكذا . إذ هم المعنيون بما جاء فى قوله تعالى فى آخر هذه السورة : « وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ » وإن كانوا أيضًا يسمون: كلالة . مثل الإخوة لأم ، لقوله تعالى فى صدر

تلك الآية : «يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ . . . . » الآية .

وفى كل حال من أحوال ميراث الكلالة ، يأخذ الإخوة للأم نصيبهم (مِن بَعْدِ) تنفيذ (وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا) من الرجل أو المرأة صاحبى التركة (أَوْ دَيْنٍ) ثبت على كل منهما أو أوصى به ، وكذا الحكم فى مثله فيما تقدم : (غَيْرَ مُضَارٍّ) : أى غير جالب لورثته الضرر بعد موته ، بالزيادة على الثلث فى الوصية . أو بقصد الإضرار بهم ، دون التقرب بها إلى الله تعالى . أو بالإقرار بدين لا يلزمه .

(وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ) : أى يوصيكم الله بكل ذلك ، وصية مؤكدة ، صادرة من عنده ، واجبة الرعاية والتنفيذ .

(وَاللَّهُ عَلِيمٌ) بكل شىء : عِلْمَ إحاطةٍ وشمول . فيعلم جميع أحوالكم ونياتكم : حسنة كانت أوسيئة . فيجزيكم عليها .

(حَلِيمٌ) : لا يعاجل المخالفين بعقوبته ، إمهالا ، لعلهم يتوبون . وليس إهمالا ، فكل سيلقى جزاءه .

واستيفاء الكلام على ميراث الإخوة لأم وأحكام الوصية ، مبسوط فى كتب الفقه .

١٣ ، ١٤ - (تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ) :

بعد أن أوضحت الآيات السابقة ، طائفة من أهمّ أحكام الوصية والميراث وحقوق اليتامى والنساء - جاءت هاتان الآيتان : تشددان فى الالتزام بها بترغيب الطائعين ، وتحذير المخالفين .

والمعنى : (تِلْكَ) الأحكام العظيمة الشأن ، التى مضت فى شئون النساء واليتامى والمواريث والوصايا وسواها .

(حُدُودُ اللهِ) : شرائع الله : الكثيرة النفع ، التى هى كالحدود والحواجز ، التى لا يجوز تجاوزها .

(وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ) : بامتثال كل التكاليف ، وفى جملتها تلك الحدود .

(يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ) : عظيمة النعيم ، عالية الدرجات . ومن عظمها أنها (تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا) : لا يخرجون منها ، ولا يموتون فيها . قال تعالى : « لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى »[1] . وقال تعالى : « لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ »[2] .

(وَذَٰلِكَ) : الجزاء الكريم بتلك الجنات العالية هو (الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) : فقد حصلوا به على أسمى المطالب ، ونجوا من كل المكاره . ولا فوز يدنو من ذلك الفوز ، الذى نالوه بطاعة ربهم ، وجزيل كرمه .

(وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ) : أى من يتجاوز شرائعه المحدودة فى جميع الأحكام ، مستحلا مخالفتها ، أو مستهينًا بها ، عاصيًا بتركها – ويدخل فى هذا الوعيد العام – المخالفون لما بينته الآيات السابقة .

(يُدْخِلْهُ) الله . (نَارًا) هائلة : شديدة الإحراق ، حال كون الداخل إلى تلك النار .

(خَالِدًا فِيهَا) : لا يبرحها .

(وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ) : أى وله فوق عذاب الحريق الجسمانى ، عذاب روحانى ، مهين : مذل . لا يعرف كنهه إلا الله تعالى .

---

(١) الدخان من الآية : ٥٦ (٢) الحجر الآية : ٤٨

(وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾) .

المفـردات :

(الْفَاحِشَةَ) : معناها لغة ؛ الفعلة الشديدة القبح . والمراد منها هنا : الزنى . لأنه من أقبح الفواحش .

(فَأَمْسِكُوهُنَّ) : احبسوهن .

(سَبِيلًا) السبيل : الطريق الموصل ، سواء أكان سهلا أم صعبًا .

التفسـير

١٥ـ (وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلًا) :

بعد أن قررت الآيات السابقة ، حقوقًا للنساء فى الميراث ـ كان أهل الجاهلية ينكرونها عليهم ولا يعترفون لهم بها ـ جاءت هذه الآية ، والتى تليها ـ ببيان ما عليهن من واجب العفة ، وصيانة العرض ، وتوضحان : أنهن إن ارتكبن الفاحشة ، عوقبن ؛ صيانة لهن من الخزى ، وللأسرة من العار والضياع ؛ وللمجتمع من الفساد والانحلال . وللإيذان بأن باب التوبة مفتوح أمام الزناة ؛ حضًا على تطهير القلوب ، والرجوع إلى الله : بالإقلاع عن الجريمة النكراء .

والمعنى :

(وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ) : أى والنساء اللاتى يفعلن ويرتكبن فاحشة الزنى القبيحة ـ حال كونهن من إناثكم أيها المسلمون ، سواء أكن ثيبات أم أبكارا .

(فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ) : أى فاطلبوا ممن قذفهن أن يُشْهِدَ على زناهن ـ عند عدم إقرارهن به ـ أربعة رجال عدول منكم أيها المؤمنون. فلا تصح شهادة النساء ، ولا تقبل شهادة غير المسلمين ، ولا غير العدول .

ولخطورة الادعاء بالزنى . اختص ـ وحده ـ بشهادة هذا العدد : تغليظًا على المدعى وسترًا على العباد ، وصيانة للأنساب .

(فَإِن شَهِدُوا) : أى فإن أدى الأربعة الشهادة عليهن ، برؤيتهم للجريمة رؤية واضحة محققة ، أثناء التلبس الكامل بها .

(فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ) : أى فاحبسوهن فى البيوت ؛ عقوبة لهن طول حياتهن .

(حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ) : أى حتى ينهى الموت حياتهن ، بقبض أرواحهن .

(أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا) : أو إلى أن يجعل الله لهن طريقًا آخر لعقوبتهن على اقتراف جريمة الزنى .

وهكذا شأن الله تعالى ، فى علاج الجرائم الاجتماعية ، المنتشرة بين الطبقات ، الجارية منهم مجرى الغرائز : لا يعالجها بالحسم من أول الأمر ، ولكنه يتدرج فى علاجها ، فيبدأ بالأخف ، وينتهى بالأشد ، حتى لا يكون الحسم ـ من أول الأمر ـ صعبًا على النفوس . وقد حدث مثل ذلك فى عقوبة الخمر وسواها . فسبحانك أنت الحكيم العليم .

١٦ ـ (وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا) :

المعنى : والرجل والمرأة اللذان يرتكبان فاحشة الزنى القبيحة منكم ـ أيها المسلمون ـ (فَآذُوهُمَا) : بالتقريع والتوبيخ ، وبيان أن ما ارتكباه جريمة فى حق المجتمع وحق أنفسهما ، وأنهما تعديا حدود الله عما اقترفا .

ورأى ابن عباس : أن يضاف إلى ذلك الضرب ، وهذا الإيذاء عقوبة للزناة من الرجال : أبكارًا كانوا أو غير أبكار . وكذا للزانيات من النساء، ثيبات وأبكارًا ، فوق عقوبة الحبس الخاصة بهن .

فالإيذاء : عقوبة مشتركة بين الجنسين ، بعد ثبوت الزنى عليهما بأربعة شهداء استكملوا الشروط السابقة ، ومثل ثبوته بهؤلاء الشهود ، ثبوته بالإقرار . فهو سيد الأدلة . وقد ثبت بالسنة .

(فَإِن تَابَا) : أي إن رجع الزانيان من الفريقين عن جريمتهما بعد الإيذاء . (وَأَصْلَحَا) : عملهما وسلوكهما ، وظهرت الاستقامة عليهما . (فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا) : فاقبلوا توبتهما ، وكفُّوا الإيذاء عنهما . وتبقى عقوبة الحبس على الزانيات بعد توبتهن ؛ احتياطًا للأعراض .

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا) : أي إن الله كان ولا يزال ، عظيم التوبة على عباده ، واسع الرحمة بهم .

وإنما اختص النساء – أول الإسلام – بعقوبة الحبس دون الرجال ؛ لأن الرجل هو عائل الأسرة ، والقوَّام عليها . فلو حُبس حتى يموت ، لكان في ذلك ضياعٌ واسع المدى لأسرته . والله لا يرضى بذلك .

وقد بقيت عقوبة الزنى على النحو السابق : الإيذاء للرجال والنساء. والحبس للنساء خاصة حتى الموت . حتى جعل الله لهن السبيل الذي وعد به . فيما رواه الإمام أحمد ، وأبو داود ومسلم والترمذي ، عن عبادة بن الصامت ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « خُذُوا عَنِّي . خُذُوا عَنِّي . قَدْ جَعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلًا : الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ : جَلْدُ مِائَةٍ وَتَغْرِيبُ عَامٍ . وَالثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ جَلْدُ مِائَةٍ وَالرَّجْمُ » .

وقد نسخ جلد الثيب الوارد في الحديث بما فعله النبي صلى الله عليه وسلم مع ماعز والغامدية ، فإنه رجمهما ولم يجلدهما مع أنهما ثيبان وبقيت على الثيب عقوبة الرجم .

وبذا ، تكون عقوبة الحبس – التي شرعت أول الإسلام – قد انتهت بتشريع الرجم للمحصن والجلد لغيره ، ذكرا كان أم أنثى .

(إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾) .

المفردات :

(السُّوء) : القبيح . والمراد هنا : المعاصى مطلقًا .

(بِجَهَالَةٍ) الجهالة : الجهل والسفه بارتكاب ما لا يليق بالعقلاء . وليس المراد بها عدم العلم ، فإن من لا يعلم ، لا يحتاج إلى التوبة .

التفسير

١٧ - (إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوء بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا) :

بعد أن أوضحت الآيتان السابقتان ، عقاب من أتى بالفاحشة من النساء والرجال ، وأن باب التوبة مفتوح - جاءت هاتان الآيتان تؤكدان ذلك ، وتذكران الشروط التى تجعل التوبة مظنونة القبول .

(إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوء بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ) :

أى : إنما قبول التوبة ثابت ومتحقق من الله - وفاء بوعده الصادق - للذين يعملون المعصية : صغيرة كانت أو كبيرة ، جاهلين - أى سفهاء غير متدبرين - عاقبة ما يصنعون .

ثم يتوبون إلى الله من ذنوبهم – توبة صادقة ، ويستيقظون من غفلتهم – فى وقت قريب ، قبل أن تبلغ الروح الحلقوم ، وتظهر أسباب الموت وأماراته .

(فَأُولَٰئِكَ) : التائبون قبل فوات الأوان (يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ) : أى يقبل توبتهم تفضلا منه ، تحقيقًا لوعده الذى لايتخلف .

(وَكَانَ اللَّهُ) : ولا يزال (عَلِيمًا) : يحيط علمه بكل شىء . فيعلم الصادق فى توبته وغيره (حَكِيمًا) : عظيم الحكمة فى تدبير كل الأمور ، وتصريف جميع الشئون . ومن حكمته : أن فتح باب التوبة أمام العصاة جميعًا ؛ حسما لمادة الفساد .

وقد اتفقت الأمة ، على أن التوبة من الذنب ، واجبة على المؤمنين . لقوله تعالى : « وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »[1] .

(وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ) : صحيحة ولا مقبولة (لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ) : ويستمرون عليها . (حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الْآنَ) : فإن توبة هؤلاء لا يقبلها الله تعالى ؛ لأنها جاءت فى وقت اليأس من الحياة .

أما التوبة المقبولة ، فهى التى تكون فى وقت الأمل فى الحياة ،مع الرغبة فى إصلاح الحال بعدها .

(وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ) : أى وليست التوبة أيضًا للذين يقربون من الموت وهم كفار . فيقولوا آمنا فى وقت الغرغرة ، فإنها توبة مردودة على صاحبها . كما رد الله توبة فرعون لَمَّا أدركه الغرق .

(أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) : أى أولئك جميعًا هيأنا لهم عذابًا عظيما شديد الإيلام ، يتفاوتون فيه تفاوتهم فى الكفر والمعاصى .

---

(١) النور ، من الآية : ٣١

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾) .

المفردات :

(كَرْهًا) : مكرهين بدون رضاهن .

(وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ) العضل : المنع والحبس والتضييق .

(بِفَاحِشَةٍ) : كل ما فحش قبحه قولا أو فعلا . والمراد بها هنا : نحو الزنى والنشوز .

(مُبَيِّنَةٍ) : واضحة ظاهرة .

التفسير

١٩ـ (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاء كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ . . .) الآية .

فيما تقدم من الآيات ، أبطل الله ـ سبحانه ـ عادات كانت للجاهلية ، فى شأن اليتامى وأموالهم . وميراث النساء . واستطرد الحديث ، إلى وجوب الحفاظ على عفتهن وتأديبهن ، إن ارتكبن الفاحشة ، استكمالاً لعناصر إصلاح الأسرة .

وفى هذه الآية ، ينهى عن عادات جاهلية أخرى ، تتعلق بالنساء فى أنفسهن وأموالهن .

سبب النزول :

روى البخارى ، عن ابن عباس ، قال : «كانوا إذا مات الرجلُ كانَ أولياؤُه أحقّ بامرأته : إن شاء بعضهم تزوجها ، وإن شاءُوا زوّجوها ، وإن شاءُوا لم يزوجوها . فهم أحق بها من أهلها» . فنزلت هذه الآية .

(يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ) :

أى : لا يحل لكم أيها المؤمنون : أن ترثوا من أقاربكم زوجاتهم بعد وفاتهم، كما تورث الأموال والعقارات . وتقولوا : نرثهن كما نرث أموالهم .

(كَرْهًا) : كارهات لذلك ، بأن تتزوجوهن أو تزوجوهن من غيركم ، بدون رضاهن ، أو تمنعوهن من الزواج . كأنما تتصرفون فى أموال ورثتموها . فإن ما كان من أفعال الجاهلية المنكرة ، لا يليق بكم أيها المؤمنون .

(وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ) : أى ولا تضيقوا أيها الأزواج ، على زوجاتكم اللائى كرهتموهن لدمامة أو سآمة وملل . وتحبسوهن لديكم . مع سوء العشرة ؛ ليفتدين أنفسهن منكم ببعض صداقكم لهن ؛ فتأخذوه منهن بدون رضاهن .

(إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ) : أى إلا أن يرتكبن فَعْلَةً واضحة القبح . ظاهرة الشناعة تجعلها - وحدها - المسئولة عن هدم الحياة الزوجية : كالزنى . أو النشوز . وعندئذ ، يكون من العدل : أن يأخذ الزوج المظلوم ، بعض ما أداه لها صداقًا ليخالعها عليه ؛ إذ هى التى هدمت بيته بظلمها ، وعدوانها .

(وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ) : أى بما عُرِفَ فى الشرع حسنُه : من الإنفاق قدر طاقتكم ، من غير إسراف . ومن القسم بالعدل ، والقول اللين . وانبساطة الوجه ؛ لتعيشوا سعداء .

(فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ) : وسئمتم عشرتهن لدمامتهن ، أو سوء فى خلقهن يمكن احتماله ، فلا تفارقوهن بمجرد كراهة النفس ، وذهاب الحب ، واصبروا على معاشرتهن (فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا) : فلعلكم تكرهون شيئًا بحكم النفس والهوى ،

ويجعل الله تعالى فيه خيرًا كثيرًا : دنيويًّا كان أو أخرويًّا ، وأنتم لا تعلمون ذلك الخير ولا تدركونه ، بسبب كراهتكم لهن ! فأحسنوا إليهن وعاشروهن بالمعروف ؛ لتروْا ثمرة ذلك ، فإن المعروف يستعقب الخير دائمًا .

(وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾) .

المفردات :

(قِنطَارًا) : هو مائة رطل كما فى القاموس والعرف . والمراد منه : الشىء الكثير .

(بُهْتَانًا) البهتان : الكذب الذى يواجه به المكذوب عليه فيحيّره . والمراد به هنا : الظلم الذى يتحير من ارتكابه .

(أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ) الإفضاء إلى الشىء : الوصول إليه بالملامسة . والمراد به هنا : الاتصال الجنسي . أو ما يكون بين الزوجين فى خلوة .

(مِيثَاقًا غَلِيظًا) : عهدًا وثيقًا قويًّا .

التفسير

٢٠ - (وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا . . .) الآية .

بعد أن تحدثت الآية السابقة ، عن حكم الفراق الذى سببه الزوجة ، وأنه يتيح للزوج . أن يأخذ من زوجته ، بعض ما أعطاها من ماله ؛ تعويضًا عما لحقه من الضرر ،

جاءت هذه الآية لتبين أنه إن طلَّقها - دون أن يكون منها نشوز وإساءة - فليس له أن يأخذ مما أصدقها إياه شيئًا، ولو كان قليلاً، وإن كان الذى أعطاها إياه مالا كثيراً .

والمعنى : وإن أردتم - أيها الأزواج - تزوج امرأة ترغبون فيها ، لتقوم مكان زوجة ترغبون عنها ، وتريدون طلاقها ، وقد كنتم أعطيتم من قبل ذلك من تريدون فراقها مالا كثيراً :

(فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا) : فلا تستردوا من الكثير الذى أعطيتموه لها شيئًا ولو قليلا ، فضلا عن أن تأخذوا منه كثيراً .

وقد استدل بظاهر الآية ، على جواز المغالاة فى المهور .

روى أن عمر - رضى الله عنه ، قال على المنبر : لا تُغَالوا فى مُهور نسائكم . فقامت امرأة فقالت : يا ابن الخطاب ، الله يعطينا وأنت تمنع ؟ وتلت هذه الآية ، فقال عمر : كل الناس أفقه من عمر . ورجع عن النهى عن المغالاة[1] .

ومع سكوت عمر عن النهى عنها ، فالقصد فى المهور أفضل .

فى الحديث : « أَعْظَمُ النِّسَاءِ بَرَكَةً أَيْسَرُهُنَّ مُؤْنَةً[2] » .

وذهب العلماء إلى أنه لا حد لأكثر الصداق .

واختلف فى أقله . وقد تكفلت كتب الفقه ببيان الآراء فى ذلك .

وبعد النهى الصريح عن أخذ شىء من صداق من يراد طلاقها ، انتقلت الآية إلى تأكيد هذا النهى - بطريق الإنكار - على من يسترد شيئًا من الصداق ، وتوبيخه على ذلك ، بقوله تعالى :

(أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا) : أى أتأخذون هذا الصداق - أو شيئًا منه - ظالمين للزوجات بهذا الأخذ ، وآثمين به إثمًا بينًا واضحًا !

(١) رواه الإمام أحمد. (٢) رواه أحمد فى مسنده .

كان أحدهم إذا أراد التزوج بامرأة ، رمى الزوجة التى عنده بفاحشة ظلمًا ، كي يلجئها إلى الافتداء منه بصداقها أو ببعضه ، فنُهوا عن ذلك[1] .

٢١ - (وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ . . .) الآية .

هذا إنكار على الأخذ من صداق الزوجة ، بعد إنكار فى الآية قبلها ، وتنفير منه إثر تنفير . وتعجيب من حال هذا الذى يظلم زوجته بغير حق !

والمعنى : بأى وجه ، ولأى سبب تفعلون هذا ، وتتناسون أنه جرى بينكم وبينهن ما يؤكد حقهن فيما أخذنه صداقًا ! فقد بذلت المرأة نفسها لزوجها ، وجعلت ذاتها موضع تمتعه ، وحصلت الألفة التامة ، والمودة الكاملة بينهما . فكيف يليق بالعاقل أن يسترد منها شيئًا بذله لها بطيب نفس ! إن هذا لا يليق بمن له طبع سليم ، وذوق مستقيم .

(وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا) : يوم تزوجتموهن على ما أخذه الله للنساء على الرجال ، من إمساك بمعروف ، أو تسريح بإحسان . قال تعالى : « فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ[2] » . ومن ألجأ زوجته إلى الافتداء بصداقها ، لم يكن تسريحه لها بإحسان ، بل بالإساءة .

وقد أكدت السنة ما جاءت به الآية .

قال صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع : « وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللهِ وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهِ[3] » .

---

(١) رواه الطبرانى عن ابن عباس .

(٢) البقرة ، من الآية ٢٢٩

(٣) رواه الترمذى وقال حسن صحيح .

(وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾) .

المفردات :

(سَلَفَ) : مضى وتقدم .

(فَاحِشَةً) : فعلة شديدة القبح .

(مَقْتاً) : بغضا شديداً .

(وَسَاءَ سَبِيلًا) : وقبح طريقًا .

(وَرَبَائِبُكُمُ) : جمع ربيبة وهى بنت امرأة الرجل من غيره .

(فِي حُجُورِكُمْ) الحِجْرُ : الحضن . والمراد فى كفالتكم وتحت رعايتكم .

(وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ) : زوجات أبنائكم . وسميت الزوجة حليلة ؛ لحلها للزوج .

التفسير

٢٢ ـ ﴿ وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ . . . ﴾ الآية .

بعد أن بينت الآية السابقة ما يحل للزوج أخذه من الصداق وما يحرم ، جاءت هذه الآية ـ والآيتان بعدها ـ لبيان من يحرم نكاحهن من النساء ومن يحل .

سبب النزول :

قال الآلوسي : أخرج ابن سعد ، عن محمد بن كعب ، قال :

كان الرجل إذا تُوُفِّي عن امرأته . كان ابنه أحقَّ بها أن ينكحها ـ إن شاء ـ إن لم تكن أمَّه ـ أو يُنكِحَها من شاء . فلما مات أبو قيس بن الأسلت ، قام ابنه حصْن ، فورث نكاح امرأته ، ولم ينفق عليها ، ولم يورثها من المال شيئًا . فأتت النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، فذكرت ذلك له . فقال : ارجعى ، لعل الله ينزل فيك شيئًا ، فنزلت ﴿ وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ . . . ﴾ الآية .

ونزلت ﴿ . . . لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا . . . ﴾ الآية .

وقال الآلوسى أيضًا : وذكر الواحدى ، وغيره ، أنها نزلت فى حِصْن المذكور . وفى الأسود بن خلف : زوج امرأة أبيه ، وفى صفوان بن أمية بن خلف . تزوج امرأة أبيه : فاختة بنت الأسود ، وفى منظور بن ربان : تزوج امرأة أبيه ، مليكة بنت خارجة .

وقال القرطبي : كان فى العرب قبائل ، قد اعتادت أن يخلف ابن الرجل على امرأة أبيه . وكانت هذه السيرة فى الأنصار لازمة . وكانت فى قريش مباحة مع التراضى . . الخ .

ولشيوع هذا المنكر بينهم ، أفرد الله تحريمه بآية خاصة ، ولم يدرجه ضمن المحرمات فى الآيتين التاليتين ؛ اهتمامًا بشأن تحريمه ، ومبالغة فى الزجر عنه ، والتنفير منه ؛ لشدة قبحه .

المعنى : ولا تتزوجوا مَن تزوجهن آباؤكم من النساء بعد فراقهم لهن بموت أو طلاق ؛ لشدة قبحه . لكن ما قد مضى وسبق من هذا الزواج ـ قبل نزول تحريمه فى هذه الآية ـ فإنه معفو عنه . ويجب التفريق بين الزوجين فيما كان قائما من هذا الزواج ، عند نزول هذه الآية . ويثبت النسب به ، وعليكم أن تمتنعوا عن وطئهن ، فإنهن أصبحن محرماتٍ عليكم .

(إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً) :

أى إن نكاح زوجات الآباء ، الذى حرمه الله فى هذه الآية ، كان - ولا يزال فى حكم الله - فعلة قبيحة ، وأمرًا ممقوتًا بغيضًا . وَقَبُحَ هذا الطريق عند الله ، وعند أصحاب المروءات ، طريقًا إلى الزواج .

والنكاح : حقيقة لغوية فى كل من العقد والوطء .

واختلف فى معناه شرعًا فى آيات القرآن الكريم .

فالشافعية يقولون : المراد منه العقد . ولذلك يحلون للابن المرأة التى زنى بها أبوه . وقال أبو حنيفة رضى الله عنه : يحرم على الرجل أن يتزوج بمن زنى بها أبوه . إذ النكاح عنده : عبارة عن الوطء ولو كان محرمًا .

٢٣ - (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا) :

المعنى : جاءت هذه الآية - مع التى قبلها والتى بعدها - بتحريم نكاح خمسة عشر صنفًا من النساء . وهن : سبع من النسب ، وسبع من جهة الرضاعة والمصاهرة ، وواحدة ما دامت زوجة . وهى المحصنة .

وقد تقدم فى الآية السابقة ، بيان تحريم ما نكح الآباء من النساء . ويأتى فى الآية التالية ، بيان تحريم المحصنات من النساء . فتكون هذه الآية وحدها ، اشتملت على تحريم ثلاثة عشر نوعًا . وفيما يلى بيانها :

سبعٌ يحرم نكاحهن من النسب ، أى القرابة . وهن : الأمهات ، والبنات ، والأخوات ، والعمات ، والخالات ، وبنات الأخ ، وبنات الأخت .

وستٌ أخريات يحرم نكاحهن من الرضاعة والمصاهرة وهن : الأمهات ، والأخوات من الرضاعة ، وأمهات الزوجات وبناتهن ، وحلائل الأبناء ، والجمع بين الأختين . قال تعالى :

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ) : أى حرم الله عليكم نكاح أمهاتكم . والمراد من الأمهات : ما يشمل الأم والجدات لأب أو لأم .

(وَبَنَاتُكُمْ) : أى بنات الصلب ، وبنات الأولاد : ذكورا كانوا أو إناثا . (وَأَخَوَاتُكُمْ) من الجهات الثلاث : شقيقات أو لأب ، أو لأم .

(وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ) : من الجهات الثلاث ، فى كل نوع من هذه الأنواع : أى شقيقات ، أو لأب ، أو لأم . والعمة تشمل أخت الأب أو الجد وإن علا . والخالة تشمل أخت الأم وأخت الجدة وإن علت . وبنات الأخ وبنات الأخت ، تتناول القربى والبعدى .

وبعد بيان المحرمات من النسب ، انتقلت الآية ، إلى بيان ما يحرمه الرضاع ، فقالت :

(وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ) : لقد أثبت هذا الجزء من الآية الكريمة ، أن الرضاعة تمنح المرضعة وصف الأمومة ، فتسمى بذلك أمًّا للرضيع . وتمنح أولادها وصف الأخوة للرضيع : ذكوراً وإناثًا ، ولو من أزواج متعددين . ويسمَّون بذلك إخوةً وأخواتٍ . وينتقل التحريم - بحكم ذلك - من المرضعة إلى أصولها وفروعها ، وإخوتها وأخواتها . وينتقل كذلك ، إلى صاحب اللبن - وهو زوج المرضعة - وأصوله وفروعه ، وإخوته وأخواته . فأبو المرضعة ، جدٌّ للرضيع ، وأمها جدة له . وبنتها أخته ، وأخوها خاله ، وابنة بنتها ابنة أخته . وهكذا . وكذلك زوج المرضعة - صاحب اللبن - أبو الرضيع ، وأبواه جداه من الرضاع ، وبنته - ولو من غير المرضعة - أخته ، وأخته عمته . وعلى كل ، فالأمر فى الرضاع ، كما فى الحديث « يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعَةِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ »[1] .

والمراد من أخوات المرء من الرضاعة : بناتُ من أرضعته ، وبنات صاحب اللبن ، وإن لم يَرْضَعْنَ معه ، بأن وُلِدْنَ قبله أو بعده .

والرضاع المحرم : يكون بوصول لبن المرأة إلى الجوف . مصًّا من الثدى ، أو شربًا من نحو إناء ، أو مطبوخًا .

وَرَضْعَةٌ واحدةٌ ولو مصَّة ، تكفى فى التحريم عند أكثر العلماء .

---

(١) الفتح الكبير ٣ - ٤١٥ رواه أحمد فى مسنده والبخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه عن عائشة وأحمد فى مسنده ومسلم والنسائى وابن ماجه عن ابن عباس .

ولا تحريم عند الشافعي إلا بخمس رضعات متفرقات . لحديث ثبت عنده بذلك[1] والرضاع بعد الحولين ، عند أكثر العلماء لا يحرم . والمراد : الحول القمرى .

واعتبر أبو حنيفة فى إثبات حكم الرضاع : ستة أشهر بعد الحولين .

واعتبر مالك ـ بعد الحولين ـ شهرًا أو نحوه .

وقال الأوزاعى : إذا فطم لسنة ، واستمر فطامه ، فلا يعتبر الرضاع بعده .

وعند الإمام الليث : أن الرضاع يحرم ولو للرجل الكبير . وهو مذهب عائشة . والفتوى على خلافه . ولكل دليله .

وتفصيل الكلام على ذلك ، فى كتب الفقه .

وبعد بيان المحرمات من جهة الرضاعة ، التى لها لحمة كلحمة النسب ، شرعت الآية فى بيان المحرمات من جهة المصاهرة . فى قوله تعالى :

(وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ اللَّاتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ) :

والمراد من هذا الجزء من الآية الكريمة : أن الرجل إذا عقد على البنت فإن أمها تحرم عليه بمجرد العقد ، حرمة أبدية . وإن لم يدخل بها . فلا تحل له بحال ، وإذا عقد على امرأة لا تحرم عليه بنتها إلا إذا دخل بأمها ، فإنها حينئذ تحرم أبدًا ، فإن لم يدخل بالأم ، فلا تحرم عليه بنتها أبدًا . بل له أن يتزوجها بعد طلاق أمها .

وليس المراد بالتعبير بربائبكم اللاتى فى حجوركم ، تقييد التحريم لبنت الزوجة ، بكونها تتربى فى حماية الزوج ، وفى حضانته ورعايته ـ بل هو تعبير عما هو الغالب . وهو أن يكن فى حضانة الأزواج مع أمهاتهن . كما يستفاد منه تأكيد معنى الحرمة ، بتقوية الشبه بينهن وبين الأولاد .

(وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ) :

أى وحرم عليكم نكاح زوجات أبنائكم تحريمًا أبديًا . سواء حصل الدخول أم لم يحصل

والمراد بالابن من انتسب إليك بالولادة . فيشمل ابن الابن وإن نزل . فزوجة ابن الابن ، وابن البنت ، تحرم كذلك على الجد .

---

(١) رواه مسلم عن السيدة عائشة .

وقد أجمع العلماء على ذلك . كما أجمعوا على تحريم زوجة الأب على أبنائه وحفدته ، وإن لم يدخل بها . وسميت الزوجة حليلة ؛ لحلها للزوج .

وقوله : (الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ) : لإخراج زوجات الأبناء بالتبنى . فيجوز التزوج بهن بعد طلاقهن .

أما حرمة زوجات الأبناء من الرضاع ، فثابتة بحديث : « يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعَةِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ[1] » .

(وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ) : أى وَحُرِّمَ على الرجل أن يجمع بين أختين فى النكاح . فلا يتزوج الرجل امرأة ، ثم يضم إليها أختها بطريق الزواج .

وهذا بإجماع العلماء .

واختلف فى الجمع بينهما فى الوطء بملك اليمين . فجمهور العلماء يحرمه ، قياسًا على النكاح .

وأهل الظاهر يجيزونه ، كما جاز الجمع بينهما فى الملك . عملا بقوله تعالى : فى الآية التالية « وَأُحِلَّ لَكُم مَا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ » ولم يلتفت أهل الفتوى لهذا الرأى . وقالوا بحرمة ذلك ، لأن سبب التحريم وهو البغضاء والنفور . والتقاطع بسبب الغير ، حاصل فى الوطء بملك اليمين – كالنكاح .

(إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ) : أى لكن ما قد مضى قبل النهى ، لا تؤاخذون به . ويجب التفريق بينهما ، إن وُجِدَ مثل ذلك ، حين نزول الآية .

وكما يحرم الجمع بين الأختين ، يحرم الجمع بين المرأة وعمتها . أو خالتها . وكذلك يحرم الجمع بين أكثر من أربع حرائر .

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا) :

أى إن الله كان – ولا يزال – عظيم الغفران لذنوب مَنْ تاب إلى الله وأناب ، واسع الرحمة ، فلا يؤاخذ إلا بعد النهى والإرشاد .

---

(١) رواه الشيخان وأحمد وغيرهم .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

وكيل أول
رئيس مجلس الإدارة
علي سلطان علي

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩/١٩٧٤

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٥٨ - ١٩٧٤ - ٢ - ٢٥٫٠٠



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

الحزب التاسع

الطبعة الأولى ١٣٩٥ هـ — ١٩٧٥ م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٧٥

(وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾).

المفردات :

(الْمُحْصَنَاتُ): جمع محصنة . وقد ورد الإحصان فى القرآن الكريم بمعانٍ مختلفة منها: التزويج والحرية ، والعفة . والمراد هنا : ذوات الأزواج .

(مُحْصِنِينَ) من الإحصان بمعنى العفة .

(مُسَافِحِينَ) : زانين .

(اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ) : تمتعتم بهن .

(أُجُورَهُنَّ) : مهورهن التى فرضت لهن .

التفسير

٢٤ ــ (وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ...) الآية .

المعنى : وحرمت عليكم ــ مع من ذكر فى الآية السابقة ــ النساء المتزوجات بالفعل . فلا يحل لكم أن تعقدوا عليهن قبل مفارقة أزواجهن وانقضاء عدتهن : سواء كن حرائر أم إماء ، وسواء كن مسلمات أم كتابيات .

ويستثنى من ذلك الحكم ، ماملكت أيمانكم بسبب السبى الواقع لزوجات الكفار المحاربين : فهُنَّ حلال لكم مطلقا – بعد استبرائهن والتأكد من عدم حملهن من أزواجهن الكافرين –لأنه لاحرمة لهذا الزواج . وبهذا حل وطؤهن .

ويرى بعض الفقهاء : أنه لا يحل وطؤها إذا سبيت مع زوجها .

ثم أكد الله تحريم من حرم من النساء فى هاتين الآيتين ، بقوله :

(كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ) :

أى كَتَبَ اللهُ عليكم كتابا وفرضه فرضا . وهو تحريم جميع من ذكر من أصناف النساء ، لتلتزموا به وتتبعوا تعاليمه .

(وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ) :

والمعنى : إن الله أحل لكم نكاح مَنْ عدا المذكورات ومَنْ فى حكمهن ، مما فهم من الآيتين استنباطا ، ووضحته السُّنة ، لأجل أن تبتغوا بأموالكم من المحللات من ترغبون فيهن ، حالة كونكم تريدون – بذلك – تحصين أنفسكم من الوقوع فى السفاح ، الذى لايراد منه سوى قضاء الشهوة المحرمة ، التى لاتليق بالإنسان الذى كرَّمه الله ، وخلقه فى أحسن تقويم .

(فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً) :

معناه : فمن استمتعتم به ممن أحل الله لكم – عن طريق النكاح الصحيح – فآتوهن مهورهن التى اتفقتم عليها . أو ما يعادل مهر المثل ، إذا لم يكن هناك اتفاق بخصوصه . وذلك حق مفروض عليكم لهن . لابد من أدائه إذا تمسك كلٌّ بحقه .

(وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ) :

بأن قبل أحد الطرفين أن يكون كريما مع صاحبه ، فزاد الزوجُ مثلا على قيمة المهر الواجب ، أو تنازلت الزوجة عن بعض حقها أو كله . . فلا حرج فى ذلك : لاحرج عليكم فى الزيادة ، ولا حرج عليهن فى الحط . قال تعالى : « وَءَاتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا »[1] .

(١) سورة النساء ، آية : ٤

ثم ختمت الآية بقوله :

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا) :

لإفادة أن ما شرع الله من الأحكام ، إنما هو لمصلحة عباده . فهو : العليم بما ينفعهم ويقيم حياتهم على الجادة ، الحكيم فيما يدبره لهم ويشرعه من أجلهم . ومن جملته هذه الأحكام السابقة .

(وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾) .

المفردات :

(طَوْلاً) : غنى وسَعَة . والمراد هنا : المال الذى يعين على دفع المهر والإنفاق على الزوجة .

(الْمُحْصَنَاتِ) : الحرائر .

(مُحْصَنَاتٍ) : عفيفات .

(غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ) : غير زانيات .

(أَخْدَانٍ) : جمع خدن ، وهو الصاحب فى السر .

(فَإِذَا أُحْصِنَّ) : فإذا تزوجن .

(بِفَاحِشَةٍ): الفاحشة : الزنى .

(الْعَنَتَ) : المشقة .

التفسير

٢٥ - (وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ...) الآية .

المعنى : ومن لم يجد منكم - أيها الأحرار المؤمنون - سعة من المال ، تمكنه من القيام بتكاليف الزواج من إحدى الحرائر المؤمنات - فلينكح أمةً من الإماء المؤمنات ، لخفة تكاليف الزواج منهن ، ويتخذ منها زوجة ، دون غضاضة في ذلك الزواج . فقد يكون - في قوة إيمان الأمة - ما يعوضه خيرا مما فاته من نكاح الحرة . والله - وحده - هو الذي يعلم حقيقة إيمانكم ، الذي هو أساس التفاضل بينكم عنده سبحانه . فأنتم جميعا - أحرارٌ وأرقاء - من جنس واحد : في الدين ، وفي النسب . وأنتم جميعا - أمام الله - سواء من هذه الناحية . أكرمكم عند الله أتقاكم .

(فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ) :

معناه : فإذا رغب أحدكم أن يتزوج إحدى الإماء المسلمات ، فليكن نكاحه إياها بإذن وليها ومالكها . وليؤدّ لها مهرها ، من غير مطل أو إضرار أو نقص . بل المهر المتعارف لأمثالهن . واختاروهن عفيفات عن الزنى .

(غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ) :

أي غير مجاهرات به ، ولا مسرات ، باتخاذهن الأخدان والأصحاب .

(فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ) :

المعنى : فإذا أُحصِنَت الأمة بالزواج ، وزنت بعد ذلك ، فحدُّها على النصف من حد المرأة الحرة البكر ، التي لم تتزوج : وهو خمسون جلدة .

وعلى هذا ، فقوله تعالى : (فَإِذَا أُحْصِنَّ) ليس جاريا مجرى الشرط فى تنصيف الجلد ، كما فهمه البعض . وبنى عليه أن الأَمَةَ لا تحد إلا إذا زنت بعد زواجها ، وإنما هو لدفع توهم أن التزوج يغير حدهن من الجلد إلى الرجم كالحرائر .

والذى يدل على ذلك ، ما رواه البخارى ومسلم ، عن زيد بن خالد الجهنى ، أن النبى صلى الله عليه وسلم ، سئل عن الأَمَة إذا زنت ولم تُحْصَنْ ، فقال : « اجْلِدُوهَا ، ثُمَّ إِنْ زَنَتْ فَاجْلِدُوهَا ، ثُمَّ إِنْ زَنَتْ فَاجْلِدُوهَا . ثُمَّ بِيعُوهَا وَلَوْ بِضَفِيرٍ » أى بحبل مضفور من الشعر .

وإنما كان حد الأَمة المتزوجة الجلد ، وعلى النصف من حد البِكْر الحرة ؛ لأن جريمة الزنى عن الأَمة أخف منها بالنسبة للحرة ، لأن الأَمَة ضعيفة ، ولا تستطيع الوصول إلى تحصين نفسها كما تصل إليه الحرة .

(ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ) :

معناه : أن الزواج بالأَمَة المملوكة للمسلم الحر - عند عدم الطول - إنما هو لمن خاف الوقوع فيما يشق عليه . وهذا بخلاف من لايخشى المشقة من الأَحرار المسلمين .

ويؤخذ من منطوق هذه الآية الكريمة : أن زواج الحر بالأَمَة مباح ، بشروط ثلاثة :

١ - أن يخاف على نفسه المشقة إذا لم يتزوج .

٢ - وألا يجد من المال ، ما يمكنه من تحمل تكاليف الزواج بالحرة .

٣ - وأن تكون الأَمَة مؤمنة .

وبهذا الظاهر أخذ جماعة من العلماء ، منهم الشافعى ، رضى الله عنهم .

ومن العلماء من قال بعدم اشتراط شىء من ذلك . ومنهم أبوحنيفة - رضى الله عنه - فهو يرى أن هذه الشروط الثلاثة ، إنما هى لمجرد الإرشاد إلى ما هو الأفضل والأولى بالمؤمنين .

ثم ختمت الآية الكريمة بقوله تعالى :

(وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ) :

أى وصبركم عن زواج المملوكات وعن الوقوع فى الزنى - خير لكم ، لئلا يصير الولد رقيقا . ونكاحها لأجنبى يقطع الطريق على سيدها أن يشتهيها فتلد منه الحر ، وتضع أول خطواتها على طريق الحرية باعتبارها أم ولد .

والإسلام يتشوق إلى تحرير الرقاب ، وتقليل الأرقاء .

وإن لم تصبروا ، وضعفت نفوسكم عما هو خير لكم ، فلا تثريب عليكم .

(وَاللَّهُ غَفُورٌ) : لمن يقع فى الزلل .

(رَّحِيمٌ) : واسع الرحمة بالتيسير عليكم ، وتخفيف المشقة . « وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ » [1] .

(يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾) .

المفردات :

(سُنَنَ) : جمع سُنَّة ، وهى الطريقة .

---

(١) الحج ، من الآية : ٧٨

التفسير

٢٦ - (يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) :

يريد الله تعالى - بذكر ما سبق فى هذه السورة من الأحكام والتشريعات - أن يبين لكم ما فيه إرشادكم ، ويهديكم إلى نهج مَنِ اصطفاهم من عباده من الأنبياء ، فى أصول ما شرعه الله لهم . فاتبعوهم واقتفوا أثرهم ، وانسجوا على منوالهم : « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ »[1] . ويريد كذلك فيما أباحه لكم : أن يرشدكم إلى ما يكفكم عن المعاصى ويحملكم على التوبة منها . والله عليم بما خَلَقَ ومن خَلق ... فيشرع لكم ما فيه صلاحكم فى دينكم ودنيا كم . والله حكيم فى كل ما يأمر به ، وما يبيح فعله ، وما ينهى عن ارتكابه .

٢٧ - (وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا) :

المعنى : والله سبحانه ، يريد أن يتوب عليكم ، فيفتح لكم باب التوبة لتُقْبلوا عليها ، فيتجاوز عن سيئاتكم . بل إنه يفرح بتوبتكم أشد من فرحكم بقبولها ، لأنه أرحم بكم من أنفسكم . فشأنه الرحمة دائما . فاطرقوا بابه ، والزموا رحابه . فإنما يريد المبطلون الذين يتبعون شهواتهم ، ويسيرون وراء ضلالاتهم : أن تعدلوا عن الاستقامة ، وتنحرفوا إلى الضلالة انحرافا عظيما . حتى تكونوا مثلهم . وهذا شأن المنحرفين دائما : يريدون أن يكون الناس على طريقتهم ، حتى يسلموا من ذمهم ولومهم . كما فى قوله تعالى : « وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ »[2] وقوله تعالى : « وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً »[3] .

---

(١) الأنعام . من الآية : ٩٠

(٢) القلم . الآية : ٩

(٣) النساء . من الآية : ٨٩

٢٨ـ (يُرِيدُ اللهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا) :

المعنى : يريد الله أن يخفف عنكم ـ أيها المؤمنون ـ ويسهل عليكم أحكام شريعته ، لتسهل عليكم طاعته سبحانه .

وهذا مقتضى الحكمة ، ومناط الرحمة ... فما فعل الله ذلك إلا لعلمه أن الإنسان خلق ضعيفا أمام رغباته وشهواته . فرحمةً به ، خفف عنه التكاليف ورخص له فى كثير من الأحكام ، وفتح أمامه باب التوبة .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾) .

التفسير

٢٩ـ (يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا) :

بعد أن بين الله ـ سبحانه ـ لعباده ما أحل لهم من النساء ، وما حرم عليهم ، شرع فى بيان بعض الحرمات المتعلقة بالأموال والأنفس ، وبيان الوسائل المشروعة فى الحصول عليها . فقال :

(يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ) :

والمعنى : نادى الله عباده ـ بوصف الإيمان ـ حفزا لهم على مراعاة تعاليمه ، والاستماع إليه ، والانتفاع بما شرعه لهم سبحانه ، وعدم اقتراف ما يجردهم من صفة الإيمان المحببة

إلى نفوسهم . ثم نهاهم – جل شأنه – عن محاولة حصول بعضهم على أموال بعض ، بأى وسيلة غير مشروعة : كالربا ، والسرقة ، والغصب ، والرشوة ، واليمين الكاذبة ، وشهادة الزور ... ونحو ذلك مما حرمه الله .

وبيّن وسيلةً من وسائل الكسب الحلال ، وهى التجارة القائمة عن تراضٍ يتعامل الناس فيها معاً ، ويقيمونها بينهم ، كما بينها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفصلها الفقهاء فى كتبهم .

ويلحق بالتجارة كل أسباب التملك التى أباحها الشارع . كالهبة ، والصدقة ، والإرث .

وإنما اختصت التجارة بالذكر من بين هذه الأسباب ؛ لأن كسب الإنسان واضح فيها أكثر من الطرق الأخرى ، ولنفى ما قد يتوهم من أنها تشبه الربا .

وعبّر سبحانه ، عن الحصول على الأموال وأخذها بالأكل ؛ لأنه هو المقصود الأول للإنسان من جمع المال ، أيا كانت وسيلته .

والتعبير بلفظ (أَمْوَالَكُمْ) – للدلالة على أن المال المأكول هو مال الآكل . فمال أخيك هو مالك ، باعتبار أن الجماعة المؤمنة ، متضامنة فى السراء والضراء ، وأن ما يصيب أحد أعضائها من الألم – يصيب الآخر لامحالة .

فعندما تتفكك الأواصر بين أفراد جماعة ما ، بسبب ظلم بعض أفرادها للبعض الآخر – تتولد الكراهية بينهم وتنمو .

وفى ذلك فناء للجماعة كلها ... لا فرق بين ظالم ومظلوم .

وقد عبرت الآية الكريمة عن هذا المعنى – بوضوح وجلاء – فى قوله عز وجل :

(وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا) :

أى لا تكونوا سببا فى هلاك جماعتكم ، فهو هلاك لكم . ولا ترتكبوا من الآثام ما يؤدى إلى ذلك . بل ابتغوا – لأنفسكم وجماعتكم – الحياة الكريمة التى يسودها الوفاق والحب : باتباع معالم الهدى ، والوقوف عندما أحل الله لكم . ففيه وحده صلاحكم فى دنياكم وآخرتكم ، لأنه سبحانه . رحيم بكم فى نهيه إياكم عن ذلك .

٣٠ـ (وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا) :

المعنى : بعد هذا البيان الحكيم المنبعث من الرحمة الإلٰهية التى وسعت كل شىء ، توعّد الله كل من تسوّل له نفسه : أن يرتكب ما يفسد رباط الجماعة المؤمنة ، متجاوزا بذلك حدَّ الشرع : ظالما لنفسه ولغيره ... توعده ـ سبحانه وتعالى ـ بعذاب أليم فى نار تلظّى : يصلى حرها ، ويقاسى سعيرها . وذلك أمر هيِّنٌ على الله .

ثم رغب الله فى اجتناب ما نهاهم عنه ، وحبّبه إليهم ببيان ما يترتب على اجتناب الكبائر من تكفير صغائر الذنوب ، والفوز بالجنة ونعيمها . فقال جَلَّ شأنه :

٣١ـ (إِن تَجْتَنِبُوا كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا) :

المعنى : إن تبتعدوا ـ أيها المسلمون ـ عن الذنوب الكبائر التى نهى الله عنها ، وتوعدكم على فعلها ، فأطعتم الله ورسوله ـ كان ثمرة ذلك ، أن نكفر عنكم سيئاتكم ، ونستر عليكم معاصيكم التى لم تبلغ حدَّ الكبيرة ـ بسبب هذه الطاعة ، وندخِلكُم دار النعيم حيث تقيمون فيها مكرمين ، وتحيَون فيها حياة لا يشوبها كدر ولا عناءٌ .

وهذا مظهر آخر من مظاهر الرحمة الإلٰهية الشاملة ، يتمثل فى هذا الوعد الكريم من الله لعباده المتقين .. وفى إسباغ فضله عليهم بالثواب الجزيل ، الذى يزيد أضعافا على ما يستحقون .

هذا ، وقد قيل فى تعريف الكبيرة كلام كثير . أظهره أنها : كل ما رتّب الشارع عليه حَدًّا ، أو صرح بالوعيد فيه نصًّا .

وقد تكفلت السنة النبوية بذكر أمثلة واضحة لكبائر الذنوب .

فقد روى الشيخان عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال : « ذكر لنا رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، الكبائرَ فقال : الشِّرْكُ باللهِ . وعُقوقُ الوالدَيْن ، وقتلُ النفسِ . وقال : ألا أنبئكم بأكبرِ الكبائر : قَوْل الزور . أو قال : شهادة الزور » .

وروى الشيخان أيضا عن أبى هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « اجتنبوا السبعَ الموبِقات . قيل : يارسولَ اللهِ ، وما هُنَّ ؟ قال : الشِّرْكُ بالله ، والسِّحْرُ ، وقَتْلُ النفسِ التى حرم اللهُ إلا بالحق ، وأكْلُ مالِ اليتيمِ ، والزنى ، والتَّوَلِّى يومَ الزحفِ ، وقذْفُ المحْصناتِ الغافِلاتِ المؤمناتِ » .

وروى البخارى عن عبدالله بن عمرو بن العاص –رضى الله عنهم – أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « الكبائرُ : الإشراكُ بالله ، وعقوقُ الوالِدَيْن ، وقَتْلُ النفسِ ، واليمينُ الغَمُوسُ » .

وروى الشيخان ، عن عبدالله بن عمرو بن العاص – رضى الله عنهما – أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « إنَّ مِنْ أكبر الكبائر : شَتْمَ الرجل والِدَيْه ، قالوا : وهل يشتمُ الرجلُ والِديْه ؟ قال: نعم . يسبُّ الرجلُ أبا الرجلِ أو أمَّه ، فيسب أباهُ وأمَّهُ » .

(وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾) .

المفردات :

(تَتَمَنَّوْا) : من التمنى . وهو إرادة مايُعْلَمُ أو يُظَن ألاّ يكون . أو هو التعلق بحصول أمْر فى المستقبل .

التفسير

٣٢- (وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا) :

لما نهى الله المؤمنين - فى آية سابقة - عن أكل أموال الناس بالباطل ، وبيّن أثر ذلك فى هلاك الجماعة ، نهاهم - فى هذه الآية - عن التطلع إلى ما فضل الله به بعض الناس على بعض فى الرزق .

سبب النزول :

روى فى سبب نزول هذه الآية - وما بعدها - روايات منها :

أن أم سلمة - رضى الله عنها - قالت : « ليت الله كتب علينا الجهادَ كما كتبه على الرجال ، فيكون لنا من الأجر مثلهم » .

ومنها : أنه لما جعل الله تعالى ، للذكر فى الميراث مثل حظ الأنثيين ، قالت النساء : نحن أحوج أن يكون لنا سهمان ، وللرجال سهم ، لأنا ضعفاء وهم أقوياء . وأقدر على طلب المعاش : فنزلت الآية .

المعنى : ولا يتمنَّ أحدكم أن يكونَ له ما أنعم الله به على أخيه دونه ، مما يتعلق بأمور الدنيا ومتاعها ، من مال أو جاه . فللرجال نصيب مما اكتسبوه فى حياتهم . وللنساء نصيب مما اكتسبن . وهذا التفاوت المادى ، الذى جعله الله بين الرجل والمرأة فى الميراث وبعض التكاليف - وإن أشعر بالتفاضل فى الدنيا - فهو لحكمة اقتضاها اختلاف طبيعة كل من الرجل والمرأة ، ومسئولية كل منهما . وهو ليس مقياسا للتفاضل فى الآخرة . بل التفاوت فيها مبنى على التفاضل فى الأعمال الصالحة « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ »[1] راجع تفسير الآيتين : (١١ ، ١٢) من هذه السورة .

---

(١) الحجرات ، من الآية : ١٣ .

(وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ) : إذا رغبتم المزيد من نعمه ، فإن خزائن الله لا تنفد . وذلك خير من الطمع فيما أنعم الله به على فريق من عباده « أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ »(1) .

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً) : فيعطى كل واحد من عباده ما يناسب استعداده ، وتصلح به ـ فى نظره ـ أمور حياته .

وبهذا البيان الحكيم المعجز ، عالج القرآن الكريم ، ما يعتمل فى نفوس كثير من الناس ، حين يرون التفاوت الواضح : فيما أنعم الله به على عباده ، وفضل بعضهم على بعض ، فى كثير من وجوه الرزق .

وقد يصعب على الناس فهم الحكمة فى ذلك . ولكن حياتهم فى هذه الدنيا لن تستقيم إلا بهذا التفاوت فيما بينهم .

وصدق الله العظيم حيث يقول : « نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ »(2) .

(وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٣٣)) .

المفردات :

(مَوَالِيَ) : جمع مَوْلَى ؛ وهو يطلق على من يتولى شئون غيره . كما يطلق على من يتولاه غيره . والمراد هنا : ورثة .

(١) النساء ، من الآية : ٥٤

(٢) الزخرف ، من الآية : ٣٢

(وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ) :

أى من حالفتموهم وعاهدتموهم . والأيمان : جمع يمين . ويراد منه القسم ، أو اليد اليمنى ، لأن المتحالفين يضع كل منهما يمينه فى يمين الآخر عند التعاقد .

التفسير

٣٣ـ (وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا) :

هذا شروع فى بيان ما من شأنه أن يقوى بنيان الأسرة ، ويحفظ عليها مالها .

والمعنى : ولكل ميراث تركه الوالدان والأقربون ، جعلنا ورثةً متفاوتين فى الأنصباء ، تبعا لتفاوتهم فى درجات قرابتهم من الميت : كلٌّ يرث ماقدَّره الله له من حق .

(وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ) :

أى : والذين عاقدتموهم ، وتحالفتم معهم على النصرة والنصيحة والعطاء : بأن توصوا لهم بما لا يتجاوز الثلث مما تتركونه من أموال ـ فعليكم الوفاء بما عاهدتموهم عليه . قال تعالى : « وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ »(١) .

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا) :

إنَّ الله عليم بكل شىء من الأشياء ـ التى منها المنع والعطاء ـ شهيدٌ عليها ، مطلع على أفعالكم . فيعلم منكم الوفاء أو عدمه .

ثم أخذ يبين نوع الصلة التى يجب أن تكون بين الزوجين ، باعتبارهما حجر الأساس فى استقرار الأسرة ، وشيوع السعادة بين أفرادها فقال :

---

(١) النحل . الآية : ٩١

(ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾) .

المفردات :

(قَوَّامُونَ) : جمع قَوَّام . وهو القائم بالتدبير والحفظ .

(قَانِتَاتٌ) : مطيعات لله بطاعتهن لأزواجهن .

(تَخَافُونَ) : الخوف ؛ حالة تحصل فى القلب عن حدوث أمر مكروه شرعا . أو عند الظن أو العلم بحدوثه . وهو يختلف باختلاف الحالات .

(نُشُوزَهُنَّ) : عصيانهن ؛ وترفعهن عن مطاوعتكم . من النشز . وهو المرتفع من الأرض .

(وَاهْجُرُوهُنَّ) : الهجر ؛ الترك عن كراهية .

(الْمَضَاجِعِ) : أماكن الاضطجاع . وهى المراقد .

(فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا) : تبغوا ؛ إما من البغى بمعنى الطلب ؛ وإما من البغى بمعنى الظلم .

(خِفْتُمْ) : الخوف لغة ؛ توقع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة . كما قال الراغب . والمراد به هنا ؛ العلم .

(شِقَاقَ بَيْنِهِمَا) : أى اختلافا بين الزوجين .

التفسير

٣٤ - (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ....) الآية .

فضل الله - سبحانه وتعالى - الرجال على النساء ، بأمور منها :

الإمامة ، والولاية ، والميراث ، والشهادة ، والجهاد ، والجمعة ، والجماعات .

(وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ) :

أى : ولما أنفقوا على النساء فى النفقة والمهر ، جعل الله لهم قوامة على زوجاتهم . وهى قوامة رابطة ومحبة : تقوم على التعاون بينهما ، والمعاشرة بالمعروف ، بحيث يقوم كل منهما بواجبه نحو صاحبه . وهو ما يبدو واضحًا فى قوله تعالى : « وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ »[1] .

ولا شك فى أن حقوق كلٍّ من الزوجين وواجباته ، تختلف عن حقوق الآخر وواجباته تبعا لاختلاف التكوين الفطرى لكل منهما .

ولا شك أن مصالح الأُسرة ، ودوام استقرارها ، يتطلب قيام كل منهما بوظيفته التى تلائم طبيعته . مع التعاون التام ، والاحترام المتبادل .

والرجل أقدر - بطبيعته - على السعى والكدح فى سبيل تحصيل رزقه ، ورزق أُسرته ، ليهيئ لها حياة سعيدة هانئة .

ولهذا ناط به الشارع رعاية الأُسرة ، وحَمَّلَهُ مسئوليتها . وهو ما عبر عنه القرآن الكريم بقوله سبحانه : « وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ »[2] .

(فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ) :

هذا بيان للناس من الله تعالى ، بأن النساء أمام هذه القوامة نوعان :

نوع يفهمها على وجهها الصحيح ، ويقوم برسالته كما ينبغى .

ونوع يتمرد عليها ، ويحاول التهرب من التزاماتها .

(١ و ٢) البقرة . من الآية : ٢٢٨

وقد عبر القرآن عن النوع الأول بقوله تعالى :

(فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ) :

فوصفهن بالصالحات ، لأنهن يمتثلن أمر الله ، فيطعن أزواجهن ، ويقمن بواجباتهن ، ويحفظن على الأزواج أموالهم وأعراضهم فى جميع الحالات ، ويقوم بهن المجتمع الإسلامى الأمثل ، تحقيقا لشرع المدبر الأعلى .

أما النوع الثانى ، فالحديث عنه فى قوله تعالى :

(وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ) :

فقد بين الله الطريقة المثلى فى إرجاعهن إلى الصواب ، حتى تؤدى الأسرة رسالتها المنوطة بها ، وكان الله رحيما بها ، على الرغم من تمردها .

وجعل – سبحانه وتعالى – علاج الشقاق بين الزوجين على مرحلتين :

الأولى : يتولاها الزوج . فيقوم أولا بوعظها . فإن لم يفد ، انتقل إلى هجرها فى المضاجع علّها تثوب إلى رشدها ، فإن لم يُجْدِ ذلك ، انتقل إلى ضربها ضربا غير مبرح ، مع اتقاء الوجه ، والمواضع التى يظهر فيها أثر الضرب غير المبرح : علاجا لمرض النشوز ، والتماسا للطاعة وحياة الاستقرار والهدوء .

(فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا) :

أى : إن شفين مما عرض بهن ورجعن لكم مطيعات – فلا تظلموهن بأى طريق من طرق الظلم . وعاشروهن بالمعروف .

وعلى الذين يهاجمون القرآن وتشريعه فى جعل الضرب وسيلة إلى تأديب الناشز ، أن يلاحظوا :

أولا : أن القرآن جعل هذا التأديب المادى ، آخر وسيلة يلجأ إليها الزوج ، بعد أن يفشل الوعظ ، ويفشل التأديب العاطفى بالهجر فى المضجع ، ولم يبق إلا آخر الدواء وهو الضرب غير المبرح .

ثانيا : أن الضرب المباح للزوج ، أوضحه الرسول الكريم بقوله : «غَيْرَ مُبَرِّحٍ[1]» فليس المقصود منه الإيذاء ، بل هو لإيقاظ صوابها وضميرها ، بتخويفها هذا ، حتى لا يهدم البيت من أساسه .

---

(١) من خطبة الرسول صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع . رواها ابن ماجه والترمذى .

ثالثا : أن التأديب المادى لأرباب الشذوذ، معترف به ، ومطبق عمليا ، فى البلاد التى بلغت فى الحضارة شأوًا بعيدا .

وعليهم بعد هذا : أن يوازنوا بين مرارة الوسيلة التى لايمكن إنكارها ، وبين مايترتب على إلغائها من هدم الأسرة وتخريب البيت ، وتشريد الأطفال . فإذا كان الضرب ينتج تقويم المعوج ، ويرجع الزوجة الناشز عن غيِّها ، ويردها إلى صوابها – والضرب هنا أنفَى للضرب – فستحمده هى عندما ترى نفسها ، وقد استعادت مكانتها كزوجة وربة بيت .

وما من شك فى أن الزوجة العاقلة الصالحة ، لن تَدَعَ الأمر يصل بها إلى هذا الحدّ من العقاب .

وفى قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا) بعد قوله : (فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا) تحذير من الله لعباده من ظلمهم لزوجاتهم . فهو سبحانه ، قوى قادر على أن ينتصف لهن منكم إن بغيتم عليهن ، ولم تتقوا الله فيهن أيها الأزواج .

٣٥– (وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا) :

هذه هى المرحلة الثانية فى علاج الشقاق بين الزوجين . فقد يشتد الخلاف بينهما . وربما الْتَبَسَ أمره فلا يعرف المحق من المبطل ، ولا المسالم من المشاكس ، لادّعاء كل منهما عدوان الآخر عليه – لمّا كان الأمر كذلك – أمر الله سبحانه ولاة الأمر – فى هذه الحالة – أن يقيموا حَكَما من أهل الزوج ، وحَكَما من أهل الزوجة ، للتعرف على أسباب الشقاق والخلاف والقضاء عليها ، والعمل على إعادة الحياة الزوجية بين الزوجين المتنازعين : نقيّة من كل ما يكدر صفوها . فقال : (وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا ...) الآية .

والمعنى : وإن علمتم أن بين الزوجين شقاقا قد استفحل خطره ، فوجِّهوا إليهما حَكَما من أهل الزوج وحَكَما من أهل الزوجة ، لينظرا فيما بينهم من نزاع وشقاق ، فإذا خلَصت

نية الحَكَمين ، وقصدا – بصدق – إلى التوفيق بين الزوجين ، وفقهما الله سبحانه ، إلى إزالة أسباب الخلاف والشقاق ، وأعانهما على إعادة الحياة الزوجية ، نقية من مكدراتها صافية من منغصاتها ، لأنه – مع إخلاص النية وصدق الطوية – يكون توفيق الله .

والله سبحانه عليم خبير بكل شيء .

ومن ذلك الذى يعلمه ولا يخفى عليه – نيةُ الحَكَمين ، وما تنطوى عليه سرائرهما من رغبة فى التوفيق أو الإفساد والتفريق .

وفى ذلك ترغيب من الله تعالى ، لمن حسنت نيته ، وصفت سريرته ، وترهيب لمن ساءت نيته ، وانطوت على غشّ سريرته .

وظاهر الأمر ببعث الحَكَمين : الوجوب .

وبه قال الشافعى .. لأنه من باب رفع المظالم . وهو من الفروض العامة التى فرضها الله على ولىّ الأمر .

وظاهر وصف الحَكَمين بأن أحدهما من أهل الزوج ، والثانى من أهل الزوجة : أن ذلك يشبه أن يكون شرطا ، ولكنه شرط على وجه الاستحباب فقط . فلو بعث ولىّ الأمر – أو القاضى – حَكَمين أجنبيين عن الزوج والزوجة فذلك جائز .. ولكن كون الحَكَمين من الأقرباء أولى وأوفق . ذلك لأن نية القريب ورغبته فى فض النزاع ، وإحلال الوفاق محله ، أصدقُ وأقوى من نية البعيد .

ثم إن هناك من دواعى الشقاق ما لا يليق أن يطلع عليه الغرباء ، ولا تطاوع نفس الزوج أو الزوجة أن يبوح به ، إلا لقريب يركن إليه .

فمن هنا ، كان إختيار الحَكَمين من أهل الزوج والزوجة ، أسلم وأوفق من اختيارهما من بين الغرباء .

وقد اختلف العلماء فيما يليه الحكمان[1] ؛ فذهب مالك : (وهو مذهب على وابن عباس ، ورواية عن الشافعى) إلى أن الحكمين حاكمان موليان من قبل الإمام . فلهما أن يلزما الزوجين - بدون إذنهما - بما يريان فيه المصلحة ، مثل أن يطلق حَكَمُ الزوج ، أو يفتدى حَكَمُ الزوجة عصمتها بشيء من المال .

وذهب أبو حنيفة - وأحد قولى الشافعى - إلى أن الحكمين وكيلان عن الزوجين . فليس لهما أن يبرما أمرا إلا برضاهما . فلا يطلِّق حكمُ الزوج إلا بإذنه ، ولا يفتدى حَكَمُ الزوجة إلا بإذنها .

وليس فى الآية ما يرجح أحد الرأيين . والمسألة اجتهادية . ولكل مذهب أدلته . وهى مبسوطة فى كتب الفقه .

والمتأمل فى هاتين الآيتين ، يرى : أن القرآن لم يذكر الطلاق كوسيلة لفض النزاع . وذلك دليل على حرص الإسلام على بقاء الحياة الزوجية ، ومحاولة إصلاح ما يقع من النزاع بين الزوجين ، بشتى الوسائل ، حرصا على الأسرة .

(وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾) .

المفردات :

(وَبِذِى الْقُرْبَى) : ذى القربى ، صاحب القرابة من قِبَل الأب أو الأم .

(وَالْيَتَامَى) : جمع يتيم ، وهو الصغير الذى مات أبوه ، ويستمر يتمه إلى البلوغ .

(وَالْمَسَاكِينِ) : جمع مسكين ، وهو من يقل كسبه عن الوفاء بحاجته . فيشمل الفقير .

(١) أى فى دائرة اختصاصهما .

(وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى) : وهو الذى قرب جواره ، أو من له مع الجوار قرب أواتصال بنسب .

(وَالْجَارِ الْجُنُبِ) : أى الذى بَعُد جواره ، أو الجار الذى لا قرابة له .

(وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ) : وهو الرفيق فى أمر حسن ، كتعليم وصناعة وسفر ... إلخ .
وقيل : الزوجة .

(وَابْنِ السَّبِيلِ) : وهو الغريب الذى سافر فانقطع عن بلده وماله .

(مُخْتَالًا فَخُورًا) المختال : هو المتكبر المعجب بنفسه ، المتعالى على غيره .

والفخور : الذى يزعم لنفسه الفضل على من عداه .

التفسير

٣٦- (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ...) الآية .

بعد أن بيّن الله -فى الآيتين السابقتين - الوسائل التى يعالج بها ماقد يتطرق إلى العلاقات الزوجية من وَهَن ، بيّن فى هذه الآية ، ما يقوّى صلة الناس بربهم ، وما يقوّى الصلات بين بعضهم البعض :

فقال : (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا) :

يأمر الله الناس جميعا بعبادته تعالى وحده . أى بالخضوع والتذلل له ، مع الإخلاص واليقين ؛ وألا يتخذوا معه فى ذلك شريكا من خلقه .

(وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) :

أمر بالإحسان إلى الوالدين . أى : أحسنوا بهما إحسانا ، بأن تكونوا بارّين بهما ، كارهين تاركين لعقوقهما ، شاكرين لهما مالقيا فى سبيل تربيتكم .

وقَرَن حقهما بحقه سبحانه ؛ إعظاما لحقهما ، وإعلاء لقدرهما .

(وَبِذِى الْقُرْبَى) :

أى : وأحسنوا بصاحب القرابة ، من قِبَلِ الأب أو الأم ، كالإخوة والأخوات ، والأعمام والعمات ، والأخوال والخالات ، وما تناسل من هؤلاء جميعا .

(وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ) :

أى وأحسنوا أيضا إلى الضعفاء من الناس ، الذين هم فى حاجة إلى العون ، سواء أكان مبعث هذه الحاجة فَقْدَ العائل قبل البلوغ وهم اليتامى أم القصورَ فى الكسب عما يفى بضرورات الحياة ، وهم الفقراء والمساكين .

(وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ) :

أى : وأحسنوا إلى الجار الذى قرب مكانا أو دينا أو نسبا . وإلى الجار البعيد مكانا أو دينا أو نسبا .

ومدى بُعد المكان ، إلى أربعين جارا من كل جانب .

ومما ورد فى أنواع الجيران . ما رواه البزار بسنده عن النبى صلى الله عليه وسلم : «الجِيرانُ ثَلاثةٌ : جَارٌ لَهُ حَقٌّ وَاحِدٌ ، وَهُوَ أَدْنى الجِيرانِ حَقًّا . وجارٌ لَهُ حَقَّانِ . وَجارٌ لَهُ ثَلاثَةُ حُقُوقٍ . وهُو أفْضَلُ الْجِيرَانِ حقًّا .

فأما الجارُ الذى له حَقٌّ واحدٌ ، فجارٌ مُشْرِكٌ لارَحِمَ له : له حَقُّ الجِوَارِ .

وأما الجارُ الذى له حَقَّانِ ، فجارٌ مسلمٌ : له حقُّ الإسلام وحقُّ الجوارِ .

وأما الذى له ثلاثةُ حُقُوقٍ ، فجارٌ مُسلمٌ ذُو رَحِمٍ : لَهُ حقُّ الجِوارِ ، وحقُّ الإسلامِ ، وحَقُّ الرَّحِمِ » .

وقد أوصى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالجار ، فقال : « مازَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِى بالجَارِ حتى ظَنَنْتُ أنه سَيُوَرِّثُهُ » ، رواه أحمد والشيخان .

(وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ) :

أى : وأحسنوا إلى الصاحب بالجنب . وهو الرفيق مطلقا . كالجليس فى الحضر ، والرَّفيق فى السفر ، والزوجة .

وبذلك يتم التعاون وتصفو النفوس .

(وَابْنِ السَّبِيلِ) :

أى وأحسنوا إلى ابن السبيل . وهو الغريب البعيد عن بلده وماله . وذلك بإعطائه مايخفف عنه متاعب الطريق ، ويعينه على بلوغ غايته ، والرجوع إلى بلده

(وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) :

من الأرقاء ، وذلك بالإحسان إليهم ، ومعاونتهم على بلوغ حريتهم .

فالإسلام يحض على تحرير الرقيق فى كثير من أحكامه .. ويلحق بذلك الخدم . وقد امتد الأمر بالإحسان حتى شمل الحيوان .

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا) :

هذا تعليل للأمر بالإحسان إلى من ذُكروا . كأنه قيل : أحسنوا إلى هؤلاء ولا تتعالَوْا عليهم ، لأن الله لا يحب المختال المتكبر على غيره ، ولا الفخورَ المتباهيَ بما قدمه من معونة وإحسان .

(ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾) .

المفردات :

(رِئَآءَ النَّاسِ) : أى مرائين لهم التماسًا للجاه ، وطلبا لثناء الناس ، لا ابتغاء مرضاة الله .

(قَرِينًا) : صاحبا وخليلا ورفيقا .

التفسير

٣٧ ، ٣٨ - (الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا . وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا) :

هاتان الآيتان الكريمتان ، بيان لحال من لا يحبهم الله من المختالين الفخورين .وهم - على ما صرحت به الآيتان - صنفان :

الأول : صنف أحب المال لذاته ، فبخل به وأمر غيره بالبخل ، فلم يعط منه فقيرا ولم يصل به رحمًا ، ولم يفرّج به عن مكروب . وبالغ فأمر الناس بذلك أيضا .

وفى هذا يقول الله تعالى :

(الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ...) الآية .

أى الذين يبخلون بأموالهم فلاينفقونها فى وجوه البر والإحسان ، ولا يكتفون بهذا ، بل يأمرون غيرهم بالبخل ، ويحرضونهم عليه .

(وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ) :

أى : يخفون ما أنعم الله به عليهم ، حتى لايطمع الناس فى نوالهم وإحسانهم .

(وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا) :

أى : وأعددنا لهم عذابا مخزيا مذلا لكبريائهم .

وسماهم الله كفارا ، إشعارًا بأن من هذا شأنه ، فهو كافر بنعم الله . وله - جزاء ذلك - عذاب يهينه ويخزيه .

روى الإمام أحمد بسنده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إِذَا أَنعَمَ اللَّهُ عَلَى عَبْدِهِ نِعْمَةً أَحَبَّ أَن يُظْهِرَ أَثَرَهَا عَلَيْهِ » .

أما الصنف الثانى : فهم الذين ينفقون أموالهم للفخار وطلب الثناء من الناس ، لا ابتغاء وجه الله . وفيهم يقول الله تعالى :

٣٨- (وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ ...) الآية .

أى ولا يحب الله - كذلك - الذين ينفقون أموالهم للرياء وللسمعة ، لا شكرا لله على نِعَمه ، ولا اعترافا بما أوجب الله عليهم من حق فى أموالهم .

(وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ) :

أى لا يؤمنون بالله ، ولايصدقون بوقوع اليوم الآخر ، وما فيه من ثواب وعقاب . لأنهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر ، لتحروْا مرضاة الله ، ولما راءوْا أحدًا أبدًا .

(وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا):

فى هذه الجملة، يبين الله أن مقارنة الشيطان ومخالطته هى السبب فى البخل وفى الأمر به، وكتمان النعمة، ومراءاة الناس بالإنفاق، وعدم الإيمان بالله واليوم الآخر - كما قال تعالى :

«الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَآءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً»[1].

وقد ذم الله مقارنتهم للشيطان ، واتباعهم طريقه بقوله :

(وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا) :

أى : ومن يكن الشيطان له صاحبا ، فبئس هذا الصاحب صاحبا ، لأنه يضله ويقوده إلى الهلاك .

(وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُواْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾) .

التفسير

٣٩ - (وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ . . .) الآية :

فى هذه الآية ، ذم وتوبيخ للصنفين السابقين ، على غفلتهم عما يفيدهم ، وانصرافهم عما فيه مصلحتهم ، وإقبالهم على ما فيه هلاكهم فى الدنيا والآخرة .

والاستفهام : للتعجب والإنكار .

---

(١) البقرة من الآية : ٢٦٨

والمعنى : أىُّ ضرر كان يلحقهم لو آمنوا ـ حقيقة ـ بالله ، وعملوا ليوم الجزاء، فأنفَقوا مما رزقهم الله : ابتغاء مرضاته ، ونزولا على حكمه وامتثالا لأمره ؟ !

ما كان عليهم فى ذلك أى ضرر . . بل إن الضرر ـ كل الضرر ـ فيما هم عليه .

(وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا) :

فيجازيهم بما عملوا .

فعلى المؤمن أن يعتقد أن الله مطلع على كل النـاس ، وسيحاسبهم على ما قدموا من أعمال .

(إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾) .

المفـردات :

(لَا يَظْلِمُ) الظلم : النقص ، ووضع الشىء فى غير موضعه .

(مِثْقَالَ) المثقال : المقدار . مأخوذ من الثقل . كما أن المقدار مأخوذ من القدر .

(ذَرَّةٍ) الذرة : هى النملة الصغيرة . أو الهباء الصغير ، الذى يرى فى ضوء الشمس إذا دخلت من نافذة . والمراد : أدنى ما يكون من الأعمال .

(يُضَاعِفْهَا) : أى يضاعف ثوابها ، ويزيد أجرها .

(لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ) : أى أن يواروْا فيها ، ويدخلوا فى باطنها ، أو أن يكونوا من جنسها ، حتى يَهْرَبُوا من العقاب .

التفسير

٤٠ - (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا) :

لمّا توعد الله العصاة بأنه سيجازيهم على أعمالهم ، حسبما تضمنه قوله تعالى : « وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا » - بين هنا ، أن هذا الجزاء يقوم على العدل ، ولا يكون فيه أدنى ظلم .

والمعنى : أن الله لا يظلم الناس شيئا وإن قل؛ لأنه تعالى منزه عن النقص . والظلم نقص لا يليق به سبحانه . فهو لا يبخس الناس شيئا من الأجر ، ولا يحملهم ما لم يرتكبوا من الوزر ، ولو كان أقل القليل .

واقتضت رحمته ألَّا يجزىَ على السيئة إلَّا بمثلها ، وأن يضاعف ثواب الحسنة إلى عشر أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف ، إلى أضعاف كثيرة ، حسبما يعلم من حال العبد . والله يختص برحمته من يشاء .

(وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا) :

أى : أنه يعطى عبده ثوابا عظيمًا ، لايعرف مقداره إلا هو سبحانه .

٤١ - (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا) :

المعنى : فى هذه الآية تهويل تعجبى ، وتحذير من أهوال يوم القيامة .

أى : كيف يكون حال هؤلاء ، إذا جاء ذلك اليوم ، وجىء بالنبيين ليشهدوا على أممهم بما فعلوا فى الدنيا ، وجئنا بك - يا محمد - على هؤلاء ، أو على أمتك شهيدًا ، وعلى هؤلاء الرسل : بأن تزكى شهادتهم ، وتقرر أنهم قاموا بتبليغ أممهم ، حسبما أخبرك الله فيما أوحاه إليك ! !

لا شك أنهم يكونون فى حال يُرثى لها .

عن عبد الله بن مسعود قال : قال لى النبى صلى الله عليه وسلم : « اقْرَأْ عَلَيَّ . قُلْتُ : أَقْرَأُ عَلَيْكَ ، وَعَلَيْكَ أُنزِلَ ؟ قَالَ : فَإِنِّى أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِى ، فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ سُورَةَ النِّسَاء حَتَّى بَلَغْتُ قَوْلَهُ تَعَالَى : (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا) قَالَ : أَمْسِكْ ... فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ »[1] .

---

(١) رواه الشيخان والترمذى .

٤٢ - (يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ ...):

بيان لسوء حالهم فى ذلك اليوم ، بأنهم يتمنون أن تواريهم الأرض وتبتلعهم ، لينجوا من العذاب . أو أن يكونوا من جنسها ، كما قال تعالى فى آية أخرى : « وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَالَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا[1] » .

(وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا) :

أى : يودون ذلك . والحال أنهم لا يستطيعون أن يخفوا عن الله شيئا مما فعلوا ، حيث يشهد عليهم كل شىء حتى الجوارح : « يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[2] » .

ويمكن أن يكون قوله تعالى : (وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا) : استئنافا مبينا لبعض أهوال ذلك اليوم ورجح هذا بعض العلماء .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا (٤٣)) .

المفردات :

(إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ) : مسافرين ، أو عابرين المسجد من جانب إلى جانب .

(الْغَائِطِ) : المكان المنخفض من الأرض . وكانوا يقصدونه لقضاء الحاجة .

(أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ) : اتصلتم بهن جنسيا ، أو مجرد لمس .

(صَعِيدًا طَيِّبًا) الصعيد : وجه الأرض أو التراب . والطيب : الطاهر .

---

(١) النبأ ، من الآية : ٤٠ (٢) النور ، الآية : ٢٤

التفسير

٤٣ - (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ . . .) الآية .

في الآيات السابقة ، أمرنا الله بعبادته وحده ، وبين جزاء الطائعين ، وعقاب العاصين .

وفي هذه الآية ، نَهْيٌ صريح عن الدخول في الصلاة في حال السكر ، حتى يفيق السكران من سكره ، ويدرك ما يقول .

ومقتضى هذا : أن الإنسان لايقبل على الصلاة ، إلا وهو في حالة صحو كامل - بحيث يعرف ما يقول ، لأنه يناجي الخالق سبحانه وتعالى .

وفي أسلوب الكتاب الكريم ، حيث نَهَى عن قربان الصلاة في حالة السكر ، مايؤكد هذا المعنى .

وفي قوله تعالى : (حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ) ما جعل بعض العلماء يمنع كل من كان في حالة لا تمكنه من معرفة ما يقول - كغلبة النوم - من قربان الصلاة كذلك .

واستأنس هؤلاء بما جاء في الصحيحين ، عن السيدة عائشة - رضي الله عنها ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا نَعَسَ أَحَدُكُم وهو يُصَلِّي فَلْيَرْقُدْ حتى يَذْهَبَ عنه النَّوْمُ ، فإنَّ أَحَدَكُم إذَا صَلَّى وهو ناعِسٌ ، لا يَدْرِي لعلَّهُ يَذْهَبُ يَسْتَغْفِرُ رَبَّهُ فَيَسُبُّ نَفْسَهُ » ! !

وكما أوجب القرآن على المسلم ألا يقدم على الصلاة إلا وهو في حالة وعي تام ، فقد أوجب عليه كذلك ، ألا يدخل المسجد وهو جنب ، إلا إذا كان مجتازا للمسجد - مارًّا به من جانب إلى جانب - فإنه يجوز له ذلك ، وهو معنى قوله : (إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ) .

والطهارة للصلاة ، حددها الله في كتابه : بالوضوء في حالة الحدث الأصغر ، وبالاغتسال في حالة الحدث الأكبر ، وذلك أخذا من قوله تعالى : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ

إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا . . . »[1] الآية .

وغنى عن البيان ، ألَّا وضوء ولاغسل إلا بالماء .

ولما كان كثير من الناس ، عرضة لبعض الأمراض التى تمنع من استعمال الماء . ومنهم من تضطره ظروف الحياة إلى التنقل من بلد إلى بلد . وفى الأسفار يصعب وجود مايكفى من الماء عادة . كما أن هناك حالاتٍ لايجد المقيم سبيلا إلى الماء : لفقده أولعسر الوصول إليه لسبب أو لآخر – فلهذا كله – جاء التشريع الحكيم بإيجاب التيمم بالصعيد الطاهر ، فيمسح الإنسان به وجهه ويديه ، بالطريقة التى وردت عن النبى صلى الله عليه وسلم .

وفى ذلك تخفيفٌ من الله على عباده ، ورفعٌ للحرج عنهم ، إذ الصعيد الطاهر موجود فى أى مكان يوجد الإنسان فيه .

يقول الله – تبارك وتعالى – فى هذا كله :

(وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا) :

قال بعض العلماء : (عَفُوًّا) بالترخيص والتيسير .. (غَفُورًا) عن الخطإ والتقصير . وصدق الله العظيم ، حيث يقول فى سورة المائدة – تعقيبا على إيجاب التيمم بدلا من الوضوء والغسل – فى الحالات المذكورة – « مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » .

والنهى عن الصلاة فى حال السكر ، كان قبل تحريم الخمر نهائيا فى جميع الأوقات[2] . وسيأتى تتمة تفصيل ذلك فى تفسير الآية (٩٠) من المائدة إن شاء الله تعالى .

---

(١) المائدة : من الآية ٦

(٢) راجع الآية : ٢١٩ من سورة البقرة .

(أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾) .

المفردات :

(رَاعِنَا) : كلمة ذات وجهين : تحتمل المدح والذم . وكان اليهود يقصدون بها الذم والتهكم .

(لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ) : أى صرفا للكلام عن ظاهره ونهجه .

التفسير

٤٤- (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ) :

بعد أن أرشد الله عباده المؤمنين – فى الآيات السابقة – إلى كثير من الأحكام والتكاليف، جاءت هذه الآيات للتعجيب من حال أهل الكتاب : الذين غيروا أحكام الله ؛ تحذيراً لنا من الوقوع فيما يريدونه بنا ، من الضلال عن سواء السبيل .

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ) :

أى ألمْ تنظر – يامحمد – إلى هؤلاء الذين أُوتوا حظا من علم الكتاب ؛ لأنهم يستحقون أن تشاهدهم وتتعجب من شناعة أعمالهم ، حيث يستبدلون الضلالة بالهدى ، مع أنهم أُوتوا حظا من الكتاب ، كان كفيلا بهدايتهم إلى الصواب ولم يكتفوا بذلك بل أرادوا أن تضلوا أنتم السبيل كما ضلوا ؟ ! .

قال تعالى : « وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً »[1] وحقًّا إن أمرهم لعجيب ؟ !

٤٥ – (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا) :

معنى قوله : (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ) : أى هو أعلم منكم بهم ... فاحذروهم ، والتزموا التمسك بأحكام الله وطاعته ، واستعينوا به .

(وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا) : أى وحسبكم الله وليا ، تلجأون إليه فى جميع أموركم .

(وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا) فى كل المواطن ، فاعتمدوا عليه ، واكتفوا بولايته ونصرته . ولا تتولوا غيره ، ولاتبالُوا بأعدائكم .

٤٦ – (مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ . . .) الآية .

هذا بيان لنوع من أنواع ضلال أهل الكتاب : الذين اشتروا الضلالة . فإنهم يتأولون الكلام على غير تأويله ، ويفسرونه بغير مراد الله تعالى كذبًا منهم وافتراءً وتضليلاً للمسلمين . وإنهم كانوا يقولون للنبى صلى الله عليه وسلم : (سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا) : أى سمعنا قولك ، ولانطيعك فيه ، عنادا وتحقيقًا للمخالفة . وذلك أبلغ فى عنادهم وكفرهم . ويقولون أيضًا مخاطبين له – عليه السلام – : (وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ) .

(١) النساء من الآية : ٨٩

وهذا كلام يحتمل وجهين : الشر والخير . . . وذلك بحمله على معنى : اسمع لا سمعت ... ويكون دعاء عليه بالصمم أو الموت . أو هو على معنى : اسمع لا سمعت مكروها . وهـذا – وإن كان ظاهره الدعاء له – إلا أنه فى حقيقة باطنهم استهزاءٌ منهم واستهتارٌ برسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكذلك كانوا يقولون أيضًا : (رَاعِنَا) وهى كلمة ذات وجهين : تحتمل الخير على معنى : انظرنا وتمهل علينا نكلمك . وتحتمل الشر على معنى : أنها رمى له بالرعونة والحمق . فكانوا يظهرون التوقير والاحترام ، ويضمرون الإهانة والاستهزاء .

(لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى الدِّينِ) :

أى صرفًا للكلام عن ظاهره ، إلى إرادة الشتم والسب ، وقدحا فى الدين . بالاستهزاء والسخرية .

(وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ) :

هذا بيان لما كان ينبغى عليهم أن يقولوه . أى ولو أنهم – عندما سمعوا شيئًا من أوامر الله ونواهيه – قالوا مخلصين : سمعنا وأطعنا . بدل قولهم : سمعنا وعصينا . وقالوا أيضًا : اسمع وانظرنا ، بدلا من قولهم : اسمع غير مُسْمَعٍ وراعنا – لكان ذلك خيرا لهم مما قالوا . وأعدلَ وأصْوَبَ .

(وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا) :

أى ولكنهم لم يقولوا ذلك . واستمروا على الكفر والضلال . فأبعدهم الله – بسبب كفرهم – عن الهدى . فهم لايصدقون إلا تصديقًا قليلا : لاينتفع به إلا عدد قليل منهم . مثل من آمن من أحبارهم .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾) .

المفردات :

(نَطْمِسَ وُجُوهًا) : نزيل معالمها . وأصل الطمس : إزالة الأعلام المنصوبة لهداية المارة وقد يطلق على إزالة الصورة ، ومطلق التغيير والقلب .

(فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا) : أى نجعلها على هيئة الأقفاء ، أو نحولها إلى الوراء حقيقة فى المحسوسات ، ومجازا فى المعنويات .

(أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ) : المراد بأصحاب السبت ؛ اليهود المتمردون على أوامر الله بالصيد يوم السبت ، بعد أن نهاهم الله عن الصيد فيه . واللعن : الطرد من رحمة الله .

التفسير

٤٧ - (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ . . .) الآية .

بعد أن ندد الله بقبائح أهل الكتاب فى الآيتين السابقتين ، اتبع ذلك دعوتهم إلى الإقلاع عن غوايتهم ، وتهديدهم بأشد العذاب إن لم يقلعوا عما هم عليه من الغىّ والضلال . فقال :

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ . . .) الآية .

ناداهم - سبحانه وتعالى بوصف كونهم أهل كتاب - ليحملهم على الإقلاع عمَّا هم عليه ؛ وليزيد فى تقريعهم والتشنيع عليهم ؛ فإن كونهم أهل كتاب ، يقتضى مسارعتهم إلى الهداية ، لاتماديهم فى الضلال . كما وصف المُنَزَّلَ - وهو القرآن الكريم - بأنه مصدق لما معهم ، وموافق لما فى كتابهم ، مما يدعو إلى المبادرة بتصديقه ، لا إلى الطعن فيه ، والوقوع فى تكذيبه . فإذا عاندوا بعد ذلك ، وخرجوا على حكم العقل والنقل ، كانوا مستحقين لأشد العذاب . ولذا هددهم بقوله :

(مِن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ) :

أى من قبل أن نضلهم إضلالا لايهتدون بعده . وهو مثلٌ ضربه الله لهم فى صرفهم عن الحق ، وردهم إلى الباطل ، ورجوعهم عن الطريق الواضح المستقيم ، إلى الطريق المعوج .

فالطمس والوجه والرد على الأدبار ، لايراد بها حقيقتها ، كما قال الله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ »[1] .

(أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَابَ السَّبْتِ) :

أى أو أن نطردهم من رحمة الله ، كما طردنا أصحاب السبت من اليهود ، بسبب عصيانهم بالصيد يوم السبت ، وقد نهوا عنه .

ثم أكد الله هذا الوعد والوعيد بقوله :

(وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا) :

أى كان كل ما أراده واقعا لامحالة . وقد تحقق ذلك فى الأمم السابقة ، فاحذروا غضبه وخافوا عقابه .

٤٨ - (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَادُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا) :

لما كانت جرائم أهل الكتاب - لشناعتها وكثرتها - مظنة عدم المغفرة ، ولو تابوا منها ، جاءت هذه الآية الكريمة ، لإبعاد اليأس من رحمة الله ومغفرته عمن آمن ، وتهديد من لم يؤمن . فقال تعالى :

---

(١) محمد ، الآية : ٢٥

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ . . .) الآية .

والمراد بالشرك هنا : مطلق الكفر الشامل لما عليه أهل الكتاب ، من اليهود والنصارى ، وما عليه غيرهم .

وفى هذا أيضًا ، ردٌّ عليهم فيا زعموه من أن الله سيغفر لهم مايرتكبونه من المعاصى ، مع استمرارهم على الكفر . كما أخبر الله عنهم بذلك فى قوله : « فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا »[1] .

وإنما استحالت مغفرة الشرك بالله تعالى ؛ لأنه الغطاء الكثيف: الذى يمنع نور الإيمان من الوصول إلى القلب . . وهو أحط ماتنتهى إليه عقول البشر . . ومنه تتولد جميع الرذائل التى تهدم الفرد والمجتمع .

(وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا) :

أى ومن يشرك بالله ، فقد اختلق كذبا ، وارتكب إثما عظيما ؛ إذ تتضاءل جميع الذنوب بالنسبة إلى ذنب الشرك .

هذا ، ومن المقرر شرعا : أن من أشرك بالله ، وتاب عن الشرك ، قبلت توبته ، ويغفر الله له . قال الله تعالى : « قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ »[2] .

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾) .

المفردات :

(يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ) : يمدحونها . وأصل التزكية : التطهير .

(فَتِيلًا) : الفتيل ؛ هو الخيط الذى يُبَطِّنُ نواة التمر ، والمراد : لايظلمون أدنى ظلم .

---

(١) الأعراف . من الآية : ١٦٩ (٢) الأنفال . من الآية : ٣٨

التفسير

٤٩ - (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا) :

فى هذه الآية الكريمة ، تعجيب من حال أهل الكتاب ، حيث كانوا يرتكبون الكفر والطغيان ، ويأتون إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، قائلين : نحن أبناء الله وأحباؤه .

والمعنى : ألم ينته علمك يامحمد ، إلى هؤلاء الذين يثنون على أنفسهم ، ويمدحونها بما ليس فيهم ، مدعين أنهم على الحق ، وأنهم مقربون إلى الله ؟ !

(بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ) :

أى أن مامدحوا به أنفسهم ليس صحيحًا ، لأن الإنسان ليس له أن يزكىَ نفسه ، لأنه قد ينحاز إليها ويمدحها بالباطل . . ومدار التزكية على التقوى ، وهذه لايعلمها إلا الله كما قال - عز من قائل -: « فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى »[1] .

(وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا) :

أى ولا يَنقص من ثواب أحد شيئًا وإن قل . فهو سبحانه ، يؤتى كل ذى فضل فضله ، ولا يبخس الناس شيئًا . فلو كان لهم من الأعمال مايستحقون عليه الثناء ، لما ظلمهم الله !!

٥٠ - (انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ...) الآية .

تعجيب آخر من مزاعمهم ، حيث كانوا يدَّعون أنهم أبناء الله وأحباؤه ، ويقولون : « لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى »[2] . ويقولون : « لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ »[3] ويزعمون - إلى اليوم - أنهم شعب الله المختار . والكذب فى ذاته رذيلة ، فما بالك بمن يختلق الكذب على الله ! .

---

(١) النجم ، من الآية : ٣٢
(٢) البقرة ، من الآية : ١١١
(٣) آل عمران ، من الآية : ٢٤

(وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا) :

أى وكفى بصنيعهم هذا ذنبا واضحا ظاهرًا .

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾) .

المفردات :

(بِالْجِبْتِ) : الجبت ؛ كل ماعُبِدَ من دون الله ، ويطلق أيضًا على الكاهن والساحر والسحر .

(وَالطَّاغُوتِ) : الطاغوت فى الأصل ؛ كثير الطغيان . ويطلق على كل رأس فى الضلال يصرف عن طريق الخير ، ويغرى بالشر .

(نَقِيرًا) النقير فى الأصل : هو النقرة التى تكون فى ظهر النواة . ويضرب به المثل فى القلة والضآلة . فالمراد به أقل القليل .

(يَحْسُدُونَ النَّاسَ) : الحسد ؛ تمنى زوال نعمة الغير .

(وَالْحِكْمَةَ) : العلم النافع ، أو النبوة .

(صَدَّ عَنْهُ) : انصرف عنه ، وأعرض .

(سَعِيرًا) : نارًا مسعرة يعذبون فيها .

التفسير

٥١ - (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ...) الآية .

روى ابن أبي حاتم ، عن عكرمة : أن حيي بن أخطب ، وكعب بن الأشرف اليهوديين ، خرجا إلى مكة في جماعة من اليهود ؛ ليحالفوا قريشا على محاربة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وينقضوا العهد الذي كان بينهم وبينه . فقال لهم كفار قريش : أنتم أهل كتاب ؛ وأنتم أقرب إلى محمد منكم إلينا ، فلا نأمن مكركم ، فاسجدوا لآلهتنا ، حتى نطمئن إليكم . . ففعلوا . . .

فهذا إيمانهم بالجبت والطاغوت ؛ لأنهم سجدوا للأصنام ، وأطاعوا إبليس فيما فعلوا . وقال أبوسفيان لكعب : إنك امرؤ تقرأ الكتاب ، وتعلم ونحن أميون لانعلم . فأينا أهدى سبيلا : نحن أم محمد ؟ ! فقال : ماذا يقول محمد ؟ قال : يأمر بعبادة الله وحده ، وينهى عن الشرك . قال : وما دينكم ؟ . قالوا نحن ولاة البيت : نسقى الحاج ، ونقرى الضيف ، ونفك العاني . وذكروا أفعالهم . فقال : أنتم أهدى سبيلا . فنزلت .

وروى - من غير وجه - نحو ذلك .

وهذه الآية : تعجيب من حال أخرى من أحوال أهل الكتاب ، وتوبيخ لهم على ارتكابهم جريمة من أشنع الجرائم ، وهي سجودهم للأصنام ، وشهادتهم بأن عَبَدَةَ الطاغوت أحسن دينا من أهل الإسلام . على الرغم من أنهم أهل كتاب ، وأعرف من غيرهم بالدين الصحيح .

والمعنى : ألم ينته علمك يامحمد - أو كل من يستحق أن يخاطب - إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب ، ورزقوا حظا منه ، وإلى حالتهم العجيبة الداعية إلى الدهشة والعجب ، وهي أنهم - مع كونهم أهل كتاب - يؤمنون بالأصنام ، و يطيعون الشيطان ، ويقولون في شأن الذين آمنوا للذين كفروا - من أجل محالفتهم - هؤلاء الكفار الجاهليون : أهدى سبيلا ، وأقوم طريقا من الذين آمنوا بمحمد ؟ ! .

فبين بذلك مناط التعجيب من حالهم .

ياللعجب من قوم : أهل كتاب ، وأتباع رسل ، يقولون عن المؤمنين بمحمد : إن [illegible] من مشركي مكة - أهدى منهم سبيلا ؟ !

وإنما وصفهم الله بأنهم أوتوا نصيباً من الكتاب ، ولم يصفهم بأنهم أوتوا الكتاب ؛ لأن حالهم تتنافى مع الكتاب كله ، حيث يؤمنون ببعضه ، ويكفرون ببعضه .

٥٢ـ (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا) :

بعد أن ذكر الله أحوالهم المثيرة للدهشة والعجب ، عقب ذلك بتقريعهم ، وبيان العقاب المستحق لهم ، فقال :

(أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ . . .) الآية .

والمعنى : أولئك الموصوفون بالصفات السابقة ، المرتكبون لهذه الجرائم البشعة ، هم الذين حكم الله عليهم بالطرد من رحمته ، بسبب كفرهم وعصيانهم . ومن يلعنه الله ويبعده من رحمته ، فلن تجد له نصيرا ينصره من عذاب الله الذى ينزل به .

٥٣ـ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا) :

أى ليس لهم نصيب من الملك ، حتى يكون لهم الحق فى الإعطاء والمنع ، والحكم بالهداية وغيرها . فقد زال ملكهم قبل بعثة محمد عليه السلام ، بمئات السنين . ولو بقى لهم من الأمر شىء ، لما أعطوا أحدا أقل قليل من الخير .

ثم بين الله تعالى سر هذا العناد والتمادى فى الضلال ، فذكر أنه يرجع إلى حسدهم للنبى صلى الله عليه وسلم وأمته ، وسيطرة الحقد على نفوسهم ، فوبخهم على ذلك بقوله :

٥٤ـ (أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ . . .) الآية .

أى أنهم ليس لهم دليل يستندون إليه ، وسبب يتمسكون به فى تكذيبهم . بل هم يحسدون الناس ، وهم النبى صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين ـ على ما آتاهم الله من فضله ، وأنعم به عليهم حيث : أعطاهم النبوة والكتاب والحكمة .

ولا غرابة فى هذا ، ففضل الله واسع . وقد آتى الله آل إبراهيم ـ أى إبراهيم ومن معه ـ الكتاب والحكمة والنبوة ، وآتاهم الله مع ذلك ملكا عظيما واسعا .

ومن ذلك ماأعطاه الله تعالى ليوسف عليه السلام ، من السلطان فى مصر .

وماأعطاه الله تعالى لداود وسليمان عليهما السلام . من النبوة والملك العظيم . فلا غرابة – بعد هذا – أن يؤتى الله محمدًا عليه السلام – وهو من أولاد إبراهيم – مثلما أعطى إخوانه الأنبياء .

٥٥ – (فَمِنهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا) :

فى هذه الآية بيان لموقف أهل الكتاب من شريعة إبراهيم عليه السلام ، والتصديق برسالته .

أى : فمن أهل الكتاب ، مَن آمن بإبراهيم وما أنزل عليه ، ومنهم من كفر به وصد عنه . وقد أعد الله للكفار الجزاء المناسب لهم ، وهو أنهم يصلون سعيرًا : أى يقاسون نارا مسعرة ملتهبة ، وكفى بجهنم سعيرا . ولا حاجة بعدها إلى ما هو أشد منها ، إذ ليس هناك ما هو أقوى منها حرارة ، وأكثر اضطراما ، وأشد تعذيبا .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾) .

المفردات :

(نُصْلِيهِمْ نَارًا) : نذيقهم حرها ، ونشويهم بها .

(نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ) : احترقت وذابت .

(ظِلاًّ ظَلِيلاً) : ظلاًّ وارفًا مستديما : لايصاحبه حر ولا برد .

التفسير

٥٦ـ (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا . . .) الآية .

بعد أن عدد الله جرائم أهل الكتاب وأحوالهم المقتضية للتعجيب ، وهددهم عليها بالسعير ـ أتبع ذلك ببيان جزاء الكفار على وجه العموم : الشاملين لأهل الكتاب وغيرهم. فقال :

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا ...) :

والمعنى : إِنَّ الَّذِينَ جحدوا آياتنا الدالَّةَ على ألوهيتنا ، والمنزلة على أنبيائنا عليهم الصلاة والسلام ، وفى مقدمتها القرآن الكريم : الذى هو آخر الكتب وأوفاها ، وأوضحها دلالة .

(سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا) :

أى سوف ندخلهم نارا هائلة يوم القيامة .

(كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ) :

أى كلما احترقت جلودهم ، وتعطلت عن الإحساس بالألم .

(بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا) :

أى جلودا جديدة أخرى ؛ ليستمر عذابهم ، ويدوم لهم بها ، وذوقهم لها ؛ لأنهم كانوا مصرين على الكفر ، إلى ما لايتناهى .

فحكم الله تعالى عليهم بالعذاب الشديد الذى لايتناهى. « جَزَاءً وِفَاقًا »[1] .

وأكد الله هذا الوعيد بقوله :

(إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا) :

أى هو ـ فى ذاته ـ قوى : لايعجزه شىء ، ولا يستعصى عليه أمر ، حكيم فى أفعاله . ومن حكمته : تعذيب العاصى على قدر ذنبه .

---

(١) النبأ ، الآية : ٢٦

٥٧ـ (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ...) الآية .

بعد أن ذكر الله عذاب الكفار ، أتبعه بيان ثواب المؤمنين ، جريا على عادة القرآن الكريم ، فى اتباع الترهيب بالترغيب ، وقرْنِ الوعد بالوعيد ، إظهارا للفرق بين الحالين ، وتقريرا للعدل بين الفريقين . فقال :

(وَالَّذِينَ آمَنُوا) :

بالله ورسله إيمانا صحيحا .

(وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) :

أى عملوا الأعمال النافعة لهم ، وللناس جميعا ، فى الدنيا والآخرة .

(سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ):

أى سندخلهم يوم القيامة جنات عالية تجرى الأنهار من تحت أشجارها وقصورها ، وتفيض الخيرات فى كل أنحائها . « لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ »[1] .

(خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا) :

فلا يعتريهم خوف من زواله .

(لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ) :

أى ويتنعمون فيها بزوجات طاهرات من الأدناس الحسية والمعنوية .

(وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلًا) .

أى وسيدخلهم الله ــ الكريم القادر ــ ظلا ظليلا ، لايعتريه ضيق الحر ، ولامس البرد . ولهم فيها الثواب العظيم ، والنعيم المقيم .

وشتان بين هذا وبين ما يقاسيه الكفار ، مما بينته الآية السابقة .

«وَمَا يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ . وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ . وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ»[2] .

---

(١) الحجر ، الآية : ٤٨

(٢) فاطر ، الآيات : ١٩ - ٢١

(إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾) .

المفردات :

(أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ) : جمع أمانة . وهى ما يؤتمن عليه الإنسان : لله أو للناس . وأداؤها : ردها وحملها إلى أصحابها .

التفسير

٥٨ ـ (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ...) الآية .

إن الله عز وجل ، قد ذكر ـ فى الآيات السابقة ـ أن بعض علماء أهل الكتاب ، خانوا أمانة العلم ، وقالوا لكفار مكة : أنتم أهدى سبيلا من محمد ودينه . فجاءت هذه الآية ، آمرة الناس بردِّ ما ائتمنوا عليه ، والحكم بالعدل بين الناس .

وقد ورد فى سبب نزول هذه الآية : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، دخل مكة يوم الفتح ، ثم طلب من عثمان بن طلحة بن أبى طلحة : من بنى عبد الدار ، مفتاح الكعبة ، فأتاه به . فلما بسط يده إليه ، قام العباس ، فقال : يارسول الله ، بأبى أنت وأمى : اجعله لى مع السقاية . فكفَّ عثمان يده . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أرنى المفتاح ياعثمان » وتكرر الطلب من العباس والكفُّ من عثمان ، إلى أن قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ياعثمانُ ، إن كنتَ تؤمن باللهِ واليومِ الآخرِ ، فهاتِنِى المفتاح » فقال : هاك بأمانة الله ، فقام ففتح الكعبة ودخلها ... ثم خرج وطاف بالبيت ، ثم نزل عليه جبريل بهذه الآية . فدعا عثمانَ بنَ طلحةَ بن أبى طلحة . فأعطاه المفتاح .

وفى تفسير ابن كثير : أن عثمان دفع المفتاح - بعد ذلك - إلى أخيه شيبة بن أبي طلحة . فهو فى يد وَلده إلى اليوم .

وكان عثمان أحد الذين أسلموا مع خالد بن الوليد وعمرو بن العاص . بين الحديبية والفتح .

أما رواية - أنه لم يسلم إلا يوم الفتح - بعد أن رَدَّ إليه الرسول صلى الله عليه وسلم المفتاح - وكان علىٌّ قد أخذه منه عَنْوة - فغير صحيحة .

(إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا) :

الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فى جميع العصور : يأمرهم فيه - ومن كان معه وَمَن بَعْدَه - بأداء جميع الأمانات إلى أصحابها . سواء أكانت لله تعالى ، مثل التكاليف التى كلفنا بها ، من فعل المأمورات ، وترك المنهيات . أو كانت للناس كالودائع وغيرها . أو كانت للإنسان نفسه : كالمال المستَخْلَفِ فيه ، وكسائر أعضائه التى أمرنا باستعمالها فيما خلقت له : من لسان ، ويد ، وسمع ، وبصر ، وغير ذلك ... فكلها أمانات يجب أداؤها . وذلك باستعمالها فى الطاعة ، والبُعْد بها عن المعصية ، شكرًا لله عليها .

ومن ذلك : العمل بما تَعلَّمَه العلماء ، وتبليغه للناس ، وعدم كتمانه .. كل ذلك أمانات يطالبنا الله - عز وجل - بحفظها وردها .

وقد عظَّمَ القرآن شأن الأمانة وشأن مَنْ يرعاها . وجعل ذلك مَنَاطًا للمدح فى كتابه العزيز ، حيث قال فى وصف المؤمنين المستحقين للفلاح : « وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ »[1] .

وفى الحديث ما رواه البغوى ، عن أنس مرفوعا « لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ » .

---

(١) المؤمنون الآية : ٨

وروى الترمذى ، وأبو داود ، عن أبى هريرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : «أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ ، وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ» .

ولما أمر الله سبحانه جميع المكلفين بأداء الأمانات إلى أهلها ، أمرهم كذلك . بالحكم بالعدل بين الناس فقال :

(وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ) : أى يأمركم الله - تعالى - إذا حكمتم بين الناس مطلقا - مؤمنين وغير مؤمنين - (أَن تَحْكُمُوا) : بينهم (بِالْعَدْلِ) : دون إجحاف ، أو ميل إلى أحد المتخاصمين لقرابة أو دين .

قال تعالى : «وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا» [1] .

والحكم بين الناس بالعدل . أمر قد انعقد عليه الإجماع ، وتكرر ذكره فى القرآن الكريم قال تعالى : «وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى» [2] . وقال : «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ» [3] .

والسنّة النبوية ، حافلة بالحث على العدل والتنفير من الظلم .

وقد ورد عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : لأبى موسى الأشعرى ، حين ولاه القضاء : «آسِ بَيْنَ النَّاسِ فِى وَجْهِكَ وَعَدْلِكَ ، حَتَّى لَا يَطْمَعَ شَرِيفٌ فِى جَوْرِكَ ، وَلَا يَيْأَسَ ضَعِيفٌ مِنْ عَدْلِكَ» [4] .

ثم أكد سبحانه ، وجوب هذه الأوامر فقال :

(إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ) :

أى نعم الشىء الذى يعظكم به الله : وهو تأدية الأمانة ، والحكم بين الناس بالعدل ؛ لأنهما من الأمور المحمودة .

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا) :

أى سميعا لما يقال ، وما يجرى من الأحكام بين الناس (بَصِيرًا) : بما يحدث .. ومنه أداء الأمانات إلى أهلها ، فهو عليم بكل شىء : مسموعا كان أو مبصرا : محيط بكل شىء مجاز كلا بما يعمل من خير أو شر .

(١) المائدة ، من الآية : ٨

(٢) الأنعام ، من الآية : ١٥٢

(٣) النحل ، من الآية : ٩٠

(٤) كتاب الخراج : ١٤٠ ، وصبح الأعشى ١/١٩٣

وذلك وعد وبشرى للطائعين ، ووعيد وإنذار للعاصين .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾) .

المفردات :

(وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ) : أصحاب الحل والعقد ، من الرؤساء والعلماء .

(تَنَازَعْتُمْ) : اختلفتم .

(فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ) : أى ارجعوا فى معرفته إلى كتاب الله ، وسنة رسوله .

(تَأْوِيلًا) : مآلا ومرجعا وعاقبة . أو أحسن تأويلا من تأويلكم .

التفسير

٥٩ - (يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ...) الآية.

لمَّا أمر الله الولاة بالعدل فى الحكم بين الناس ، أمر سائر المؤمنين بطاعة هؤلاء الولاة العدول ، فى ضمن طاعة الله ورسوله . فطاعة أُولى الأمر من الحكام العدول ، هى طاعة مترتبة على طاعة الله وطاعة رسوله . وأمرهم بذلك ، هو أمر بتأسِّيهم بنور الكتاب والسنة فى كل تشريعاتهم .

وبذلك يستقيم منهج الحياة على أساس من الكتاب والسنة ، والارتباط بأُصول التشريع .

وطاعة أصحاب الأمر من الولاة والرؤساء والعلماء وغيرهم ، هى طاعة مرتبطة بهذا الأصل من التشريع أيضا . وهى - كما سبق - مقيدة ومشروطة بطاعة الله . إذ لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

وبذلك تتحقق المصلحة العامة ، من وراء ارتباط أولى الأمر بأصول التشريع ، وارتباط المسلمين جميعا بأولى الأمر قال تعالى : « وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ »[1] .

ولأن الكتاب الكريم والسنة النبوية ، هما دعامتا التعاليم التى يهتدى بها لتحقيق حياة سعيدة وآخرة مرضية . قال تعالى :

(فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ) :

أى إن اختلفتم فى حكم شىء : لم يرد فيه نص صريح فى كتاب الله - تعالى - ولا فى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فارجعوه إلى هذين الأصلين ، وليكن حكمكم فيه بالقياس إلى حكم كتاب الله تعالى أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فيما يشبهه من الأمور فإن ذلك خير ما يصار إليه : لفض التنازع وإزالة الخلاف بين المؤمنين بالله واليوم الآخر .

وبذلك ، فتح القرآن الكريم للمسلمين ، باب الفهم والبحث والاجتهاد فى دين الله . حيث أمرهم أن يردوا ما اختلفوا فيه ، إلى الكتاب والسنة .

(إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) :

أى إن كنتم تصدقون بالله وبمجىء اليوم الآخر ، وما فيه من حساب وعقاب - فردوا ما تتنازعون فيه إلى حكم الله تعالى وحكم رسوله صلى الله عليه وسلم ، وقيسوا الأمور بأشباهها ، وارضوا بذلك حكما .

(ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) :

أى الرد إلى كتاب الله وسنة رسوله ، عند التنازع والتمادى فى الخصومة ، خير لكم وأصلح من التمادى فى الخصومة ، وأحسن تأويلا من تأويلكم ، أو مرجعا وعاقبة .

---

(١) النساء ، من الآية : ٨٣

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾) .

المفردات :

(الطَّاغُوتِ) : الطاغوت فى الأصل ، كثير الطغيان . ويطلق على كل رأس فى الضلال ، يصرف عن الخير ، ويغرى بالشر .

(يَصُدُّونَ) : يعرضون .

(وَعِظْهُمْ) : خوّفهم .

(وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ) : أى واعظا لهم – بينك وبينهم – ليكون أدعى للقبول . أو فى شأن أنفسهم : كاشفا عن خبثها .

(قَوْلًا بَلِيغًا) : مؤثرا واصلا إلى حقيقة المراد .

التفسير

٦٠ – (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ...) الآية .

روى عن ابن عباس – رضى الله عنهما – أنه تخاصم يهودى ومنافق ، ودعا اليهودى المنافق إلى التحاكم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . ودعاه المنافق إلى التحاكم إلى كعب بن الأشرف .. فنزلت الآية .

والمعنى : ألم ينته علمك يامحمد ، إلى هؤلاء الذين يزعمون أنهم آمنوا بالقرآن وبالكتب التى أنزلت على مَنْ قَبْلَكَ من الرسل ؟ !

إن شأن هؤلاء لعجيب ؛ لأنهم – مع زعمهم الإيمان بذلك – يريدون أن يتخذوا من كاهن اليهود – رأس الضلال – حاكما فى قضاياهم . وقد أمرهم الله أن يكفروا بمن يدعوهم إلى الشر ويبعدهم عن الخير ، ويريد الشيطان أن يوقعهم فى ضلال بعيد ، لا خلاص لهم منه باتباعهم دعاة الشر !!

٦١– (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَآ أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا) :

أى ومن عجيب أمر هؤلاء المنافقين : أنهم إذا دعوا إلى التحاكم إلى كتاب الله تعالى وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم ، أصرُّوا على الكفر ، وأعرضوا عما تدعوهم إليه : إعراضا شديدا .

٦٢– (فَكَيْفَ إِذَآ أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا) !! :

هذا بيان لسوء عاقبتهم جزاء جناياتهم ومخالفاتهم ، وتعجيب من حالهم .

أى فياعجبا .. كيف يكون حال هؤلاء المنافقين – وقت نزول المصائب بهم – بسبب ذنوبهم ، ثم جاءوك ملتجئين إليك فى ذلك ، يعتذرون عن قبائح أعمالهم ، ويحلفون بالله ما أردنا بذهابنا إلى غيرك ، وتحاكُمِنَا إلى مَنْ عداك ، إلا الإحسان والتوفيق . أى المداراة والمصانعة . لااعتقادا منَّا صحة تلك الحكومة . كما أخبر الله عنها بقوله :

« فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ »[1] .

---

(١) المائدة ، الآية : ٥٢

٦٣ - (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا) :

(أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ) :

أى أولئك هم المنافقون الموغلون فى الكفر والنفاق ، الذين لايخفى على الله أمرهم ، ويعلم ما انطوت عليه صدورهم من الشر والفساد ، وسيجزيهم على ذلك .

(فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ) :

أى أعرض عن قبول معذرتهم . وازجرهم عما فى قلوبهم من الكيد والنفاق .

(وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا) :

أى انصحهم - فيما بينك وبينهم بعيدا عن الناس - ليكون ذلك أدعى إلى قبولهم - بكلام بليغ رادع لهم . أو قل لهم . فى شأن أنفسهم وما انطوت عليه من الخبث والقبائح قولا مؤثرا يردهم عن غيهم ، ويعود بهم إلى رشدهم .

(وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾) .

المفردات :

(فَلَا وَرَبِّكَ) : اللام لتأكيد القسم .

(شَجَرَ بَيْنَهُمْ) : اختلط عليهم من الأمور .

(حَرَجًا) : ضيقا .

التفسير

٦٤ـ (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ...) الآية .

أى . وما أرسلنا رسولا من الرسل ، لأمر من الأمور ، إلا ليطيعه الناس بسبب إذنه تعالى لهم فى طاعته ، وأمره لهم بأن يتبعوه ، فإن طاعة الرسول طاعة لله ... « مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ »[1] .

(وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ) :

فى هذا بيان لما كان يجب عليهم أن يفعلوه حين ظلموا أنفسهم . أى ولو أنهم حين ظلموا أنفسهم ـ بترك طاعة الله تعالى ـ بادروا بالمجىء إليك ، معتذرين عن جرائمهم مبالغين فى التضرع إلى الله ، والتوبة إليه من ذنوبهم ، حتى تقوم شفيعًا لهم إلى ربك ، طالبا منه المغفرة لهم .

(لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا) :

أى لو أنهم فعلوا ذلك ـ لوجدوا أبواب التوبة مفتحة لهم ، ورحمته تعالى محيطةً بهم .

وفى هذه الآية ، إرشاد لسائر العصاة والمذنبين ، إذا وقع منهم ذنب أو خطيئة ، أن يبادروا بالتوبة والندم ، كى يفوزوا بغفران الله لهم .

٦٥ـ (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ...) الآية .

روى البخارى بسنده ، قال : خاصم الزبير رجلا فى شَرْج[2] من الحرة ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « اسق يازبيرُ ، ثم أرسلِ الماء إلى جارك » فقال الأنصارى : يارسول الله ، لِأَن كان ابنَ عمتك ؟ فتلوَّنَ وجهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم قال : « اسق يازبير ، ثم احبِسِ الماء حتى يرجع إلى الجُدُر ، ثم أرسل الماء إلى جارك ... »[3] فاستوفى النبى صلى الله عليه وسلم ، للزبير حقه كاملا فى الحكم ، حين أحفظه الأنصارى ، وكان أشار عليهما ، صلى الله عليه وسلم بأمر لهما فيه سعة .. قال الزبير : فما أحسِب هذه الآية إلا نزلت فى ذلك .

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ...) الآية .

---

(١) النساء ، من الآية : ٨٠ (٢) الشرج : مسيل الماء . (٣) ابن كثير ج ١ ص ٥٢٠

لقد أقسم الله - سبحانه - بذاته ، وهو الذى تولى تربيتك أيها الرسول ، وأنعم عليك بنعمة النبوة ، وأدّبك بأدب القرآن - أقْسَمَ: أن هؤلاء الذين أعرضوا عن التحاكم إليك فيما اختلط عليهم ، لايدخلون فى عداد المؤمنين الصادقين ، حتى تتحقق فيهم صفات ثلاث :

أولاها : أن يفْزَعوا إليك - أيها الرسول - لتحكم بينهم فيما اختلط عليهم .

ثانيها : أن ترضى نفوسهم - وتستمر راضية دون حرج أو ضيق - بحكمك وقضائك .

ثالثها : أن يسلّموا بحكم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، تسليما كاملا ، ويذعنوا له إذعانا صادقا ، ويقوموا على تنفيذه بنفوس راضية .

(وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾) .

المفردات :

(كَتَبْنَا) : قدرنا .

(مَا يُوعَظُونَ بِهِ) : ما يؤمرون به من طاعة الله .

(تَثْبِيتًا) : تحقيقا لإيمانهم .

التفسير

٦٦- (وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُمْ ...) الآية .

أى : ولو أنا كتبنا على هؤلاء الذين أعرضوا عن التحاكم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مثل ما أوجبناه على بنى إسرائيل من قتلِهم أنفسَهم ، أو خروجهم من

ديارهم ، حين طلبنا منهم التوبة – لشق ذلك عليهم ، وما نفذه إلا نفر قليل منهم ، وهم المخلصون من المؤمنين .

(وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ) : من طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، والانقياد لحكمه ظاهرا وباطنا .

(لَكَانَ) : فعلهم ذلك .

(خَيْرًا لَهُمْ) : أى أنفع لهم فى الدنيا والآخرة .

(وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا) : أى تحقيقا لإيمانهم .

٦٧ – (وَإِذًا لَآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا) :

أى : ولو نفذوا ما أمرتهم به ، واستجابوا لك ، وتحقق منهم صادق الإيمان – لأعطيناهم من عندنا فضلا لا يحد ، ومنحناهم من خزائن رحمتنا أجرا عظيما ، بالغا غاية العظم . . وهو الجنة .

٦٨ – (وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا) :

أى : ولأرشدناهم فى دنياهم إلى طريق مستقيم استقامة تامة ، يقودهم إلى صالح الأعمال ، ويوصلهم إلى جزاء الأبرار .

(وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾) .

المفردات :

(أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ) : تفضل الله عليهم بنعمه .

(رَفِيقًا) : مرافقا ومؤنسا .

التفسير

٦٩- (وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ . . .) الآية .

أى : والذين يعملون بما أمر به الله ورسوله ، ويتركون ما نهى الله ورسوله عنه ، مع التصديق والإذعان والقبول .

(فَأُولَٰئِكَ) : الموصوفون بما ذكر .

(مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ) : أى مع الذين تفضل الله عليهم بنعمه وإحسانه . وقد بين المنعم عليهم بقوله :

(مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ) : أى الذين يبالغون فى تصديق أهل الصدق واليقين ، والذين قتلوا فى سبيل الله لإعلاء كلمته .

(وَالصَّالِحِينَ) : أى الذين صلحت أعمالهم وسلمت صدورهم ، فقاموا بحقوق الله ، وحقوق عباده .

(وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا) :

أى : وحسن أولئك المذكورون رفقاء - فى دار النعيم - لأولئك الطائعين .

٧٠- (ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا) :

أى : ذلك الفوز برفقة هؤلاء فى أعلى درجات الجنة ، هو الفضل العظيم ، الذى لاغاية وراءه : تفضل الله به عليهم . فكل عمل صالح يكسبه العبد ، لايوازى هذا الفضل .

(وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا) :

أى : يكفى علم الله فى الإحاطة بكل شىء ، فيعلم من هو أهل لهذا الفضل ، فيجازيه به .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾) .

المفـردات :

(حِذْرَكُمْ) : الحِذْرُ والحَذَرُ : بمعنى واحد . والمراد: تَيَقَّظُوا واحترزوا من مكائد عدوكم.

(فَانفِرُوا) : اخرجوا إلى الجهاد .

(ثُبَاتٍ) : جمع ثُبَة ، وهى الجماعة من الرجال فوق العشرة . والمراد : انفروا جماعة بعد جماعة ، وفرقة بعد فرقة .

(أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا) : أى اخرجوا مجتمعين غير متفرقين .

(لَيُبَطِّئَنَّ) : أى يتباطأ ويتثاقل .

(شَهِيدًا) : أى حاضر الموقعة .

(مَوَدَّةٌ) : علاقة وصلة .

التفسير

٧١- (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا) :

لقد نادى الله المؤمنين بوصف الإيمان ، ليثير فى نفوسهم دواعى الاستجابة إلى ما أمروا به . فقال :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) : أى يا مَن صَدَّقُوا وأَذْعَنُوا لله والرسول .

(خُذُوا حِذْرَكُمْ) : أى خذوا حيطتكم من عدوكم ، وكونوا مِنْهُ على حذَر . وتيقظوا له حتى لايباغتكم بالهجوم عليكم .

ومن الحيطة : استطلاع حال العدو ، وتعرُّفُ أسراره وخططه الحربية ، ومدى قوته ... ونحو ذلك .

(فَانفِرُوا ثُبَاتٍ) : أى اخرجوا لقتاله جماعة بعد جماعة ، وسرية بعد سرية . إذا اقتضت الحرب ذلك .

(أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا) : أى أو اخرجوا لقتاله مجتمعين إذا لزم الأمر .

ولا شك أن الخروج للقتال ، يستلزم التأهب بإعداد الجيش المدرب ، وإعداد السلاح الكافى ، حسبما يستدعيه حال العدو .

ومن الواضح أنه يجب على الأُمة : أن تظاهر جيشها ، وتحمى ظهره : بالعمل والإنتاج ، والتماسك والاتحاد ، ورفض الإشاعات الكاذبة ، وتحمُّل التضحيات .

٧٢- (وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ ...) الآية .

بعد أن أمر الله المؤمنين ، بأخذ الحذر والحيطة من الأعداء ، والخروج لقتالهم : مجتمعين أو متفرقين - حسبما تدعو إليه ظروف الحرب - كشف الله حال طائفة تتباطأ عن الجهاد ، وتتثاقل عن الخروج إليه ذمًّا لهم ، وتحذيرا منهم ، فإنهم منافقون ، فقال :

(وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ) :

أى : وإن من بينكم - معشر المسلمين - لمن يتباطأ عن الخروج للقتال .

(فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ) :

أى فإن نزلت بكم هزيمة ، ولحقت بكم نائبة .

(قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا) :

أى : قال فرحًا مسرورًا ، قد أنعم الله علىَّ ، حيث لم أحضُر القتال ، ولم أتعرض لما تعرض له جيش المسلمين من أهوال القتال وشدته .

٧٣-(وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا) :

أى : وإن تفضل الله عليكم بالنصر ، وأنعم عليكم بالغنيمة ، عَضَّ أصابع الندم ، واستولت عليه الحسرة قائلا - كأن لم يكن بينكم وبينه سابق معرفة - : ياليتنى كنت معهم فى ساحة القتال . فأغنمَ مغانم كثيرة ، وآخذَ أموالا وفيرة . وهذا الفريق أخطر على الأمة من عدوها الخارجى : المعلن لعداوته .

(فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾) .

المفردات :

(يَشْرُونَ) : يبيعون ؛ لأن شرى : من كلمات الأضداد . كذا فى الصحاح .

(وَالْمُسْتَضْعَفِينَ) : المستذلين .

(وَالْوِلْدَانِ) : جمع وليد ، وهو الصبى ، أو العبد .

(وَلِيًّا) : معينا .

(الطَّاغُوتِ) : فى الأصل كثير الطغيان . ويطلق على كل رأس فى الضلال . وقيل : الشيطان .

التفسير

٧٤- (فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ...) الآية .

ذكرت الآيتان السابقتان ، طائفةً من المنافقين : يثبطون ويخذلون المؤمنين عن القتال ، فإذا انهزم المؤمنون فرحوا ، وإذا انتصروا ندموا على تخلفهم عن القتال ؛ لحرمانهم من الغنائم .

وفى هذه الآيات يأمر الله المؤمنين بالقتال فى سبيله .

والأمر موجَّهٌ إلى من باعوا الحياة الدنيا ، طلبا لثواب الآخرة ، وجادوا بأنفسهم وأموالهم فى سبيل إعلاء كلمة الله ، ونشر الدعوة الإسلامية ، والدفاع عن المسلمين ، وعن الوطن الإسلامى .

وتقدير الكلام : إذا تباطأ المنافقون عن الجهاد . فليسرع إليه المؤمنون الصادقون .

وقد فرض الله الجهاد فى سبيل الله على المؤمنين الصادقين . قال تعالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ »[1] .

(وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا) :

أى : ومن قاتل فى سبيل الله - لاطلبا للغنائم ، ولا طمعا فى الحكم والسلطان - فقد أعدَّ الله له ثوابا جزيلا .

والمقاتل فى سبيل الله بين غايتين : الاستشهاد فى سبيل الله ، أو النصر على الأعداء .. ولا ذكر للهزيمة فى الآية الكريمة ؛ لأن المؤمن المجاهد : لايرتد على عقبيه ، ولا يستسلم

(١) الحجرات . الآية : ١٥

للهزيمة بأى حال . وقد وعده الله - فى كلتا الحالتين - بالأجر الجزيل ، والثواب العظيم : أجر الشهداء فى الآخرة ، أو ثمرات النصر فى الدنيا ، ورضاء الله فى الآخرة .

وفى تنكير الأجر ، ثم وصفه بالعظمة - إظهارٌ لمضاعفته ، وإبرازٌ لعظمته .

٧٥- (وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ ...) الآية .

يحرِّض القرآن المؤمنين على القتال فى سبيل إعلاء كلمة الله ، وفى سبيل خلاص الضعفاء المستذلين : من الرجال والنساء والصغار من المسلمين . المحبوسين بمكة .

والمعنى أى شيء لكم حتى لا تقاتلوا ؟؟! أى لا عذر لكم فى ترك القتال ؟!!

فالاستفهام فى الآية الكريمة ، لإنكار واستقباح التخلف عن الجهاد .

وقد استدعاه باعثان قويان :

الأول : الدفاع عن الإسلام .

والثانى : تخليص المستضعفين من المسلمين المستذلين بمكة . الذين يتعرضون لأنواع العذاب والنكال . وهم ضعفاء : لايستطيعون مقاومة المعتدين الطغاة .

وكلا الباعثين جدير بأن يحفز المؤمنين حفزا إلى القتال . وكلاهما جهاد فى سبيل الله ... ولكنه أفرد المستضعفين ، استثارةً للحمية والأنفة والغيرة ، لما لها - فى نفوس العرب - من مكان مكين .

(... الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا) :

أى لاعذر لكم فى ترك القتال ، لتخليص المستضعفين الذين عذبهم المشركون بمكة ، ومنعوهم من الهجرة أو حرية العبادة . فاتجهوا إلى الله عز وجل ، ضارعين قائلين : يا إلٰهنا المنعم ، المتفضل علينا بنعمة الإسلام - هيئْ لنا الخروج من مكة ، والهجرة منها ؛ فرارا بديننا من أهلها الطغاة الظالمين ، الذين ظلموا أنفسهم بالشرك ، وظلمونا بتعذيبنا ، ومَنْعِنَا من الهجرة ومن حرية العبادة ، وهيئْ لنا - بفضلك - وليًّا يتولى أمورنا ويحمينا منهم ؛ وهيئْ لنا - من عندك - من ينصرنا عليهم وييسر لنا طريق الهجرة إلى إخواننا المسلمين .

قال ابن عباس – فيما رواه البخارى عنه :

« كُنتُ أَنَا وَأُمى مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ » .

ونسبة الظلم إلى أهل مكة : تشريف لها وصيانة عن نسبة الظلم إليها ، فهو مقصور على أهلها المشركين .

٧٦– (الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ . . .) الآية .

وازنت هذه الآية الكريمة بين فريق المؤمنين ، وفريق الكافرين .

فالمؤمنون يقاتلون فى سبيل الدفاع عن عقيدتهم ، وعن أوطانهم ، وعن إخوانهم المستذلين . وهذا كله فى سبيل الله . وقد وعد الله المجاهدين فى سبيله بإحدى الحسنيين : الشهادة وما وراءها من أجر جزيل ، أو النصر وما يتبعه من عز وتمكين .

أما الكفار ، فهم يقاتلون فى سبيل الطغيان والظلم والاستعلاء .

وشتان بين مَن يجاهد فى سبيل المبادىء والمثل العليا ، ومَن يقاتل عدوانا وظلما ، وتمكينا للطغاة الجبارين .

ولا شك أن العاقبة للمتقين ، وأن الظلم مرتعه وخيم .

(فَقَاتِلُوٓا أَوْلِيَآءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا) :

أى : فقاتلوا أيها المؤمنون – فى سبيل الله – أنصار الشيطان وأعوانه ، وكونوا واثقين من نصر الله لكم ، وثوابه العظيم . ومن خذلان أعوان الشيطان ، فإنكم أنصار الله وحماة الحق ، الذى أنزلهُ إليكم . والحق لابد أن ينتصر . فإنهم أعوان الباطل والباطل إلى زوال . « بلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ »[1] . والله سبحانه – غالب على أمره .

أما الشيطان وأنصاره ، فهم المخذولون : « ... أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ »[2] .

---

(١) الأنبياء من الآية : ١٨

(٢) المجادلة من الآية : ١٩

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧٧) أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ ۗ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۖ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨) مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩) مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ۖ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (٨٠)) .

المفردات :

(كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ) : اقبضوها وامنعوها عن القتال .

(مَتَاعُ الدُّنْيَا) : ما يتمتع به من زخرفها وزينتها ولذائذها .

(فَتِيلًا) الفتيل : الخيط الموجود فى شق النواة ، يضرب به المثل فى القلة والحقارة .

(بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ) : حصون مرتفعة منيعة محكمة .

(يَفْقَهُونَ) : يفهمون فهما دقيقا .

(شَهِيدًا) : شاهدًا على صدق رسالتك ، أو مُطَّلِعا بصيرًا .

(تَوَلَّى) : أعْرَض .

(حَفِيظًا) : رقيبًا ، أو مسيطرًا .

التفسير

٧٧ـ (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ..) الآية .

روى ابن أبي حاتم بسنده . عن ابن عباس ، أن عبد الرحمن بن عوف وأصحابًا له أتوا النبي صلى الله عليه وسلم بمكة ، فقالوا يا نبي الله : كُنَّا في عِزَّةٍ ونحن مشركون ، فلما آمنا صِرْنَا أَذِلَّةً ، قال : « إِنِّي أُمِرْتُ بِالعَفْوِ فَلَا تُقَاتِلُوا القَوْمَ » . فلما حوَّله الله إلى المدينة ، أمره بالقتال فكفوا ، فأنزل الله :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ ...) الآية .

أي : ألم ينته إلى علمك ـ يا محمد ـ حال أولئك الذين كانوا يتمنون القتال ـ وهم بمكة ـ قبل أن يأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم فيه ، رغبة في التخلص من إيذاء المشركين المستمر لهم ؟!

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يستمهلهم ويقول لهم ـ وهم بمكة ـ : كُفُّوا أيديكم عن قتال المشركين حتى يأذن الله فيه ، وتفرغوا لتطهير أنفسكم وتزكيتها : بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة [1] ، وإعدادها للجهاد حين يأذن الله به فيه ؟ ! .

والاستفهام لتعجيب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن معه ، وكل من يتأتى منه ذلك إلى يوم القيامة ـ تعجيب لهم ـ من حال هؤلاء الذين تحدثت الآية عن شأنهم .

(فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً) :

---

(١) كانت الزكاة غير محددة المقادير في مكة ـ قبل الهجرة ـ وكان ذلك متروكا لتقدير المسلمين ، ثم تم تحديدها بالمدينة .

أى: فلما فرض الله القتال على المؤمنين – بعد الهجرة – استولى الخوف– من قتال الكفار – على نفوس فريق منهم ، وهم المنافقون ، وتهيبوا قتال الناس خشية القتل أو الأسر ، وملأ الرعب قلوبهم فأصبحوا يخافون قتال الكفار كخوف المتقين من الله. بل أصبح خوفهم من الناس أشد من خوف المتقين من ربهم .

(وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ) :

أى : وقالوا – فى ضيق ورعب وجزع من الموت – ياربنا ، لم فرضت علينا القتال ؟ هلّا أخرت فرضه علينا إلى مدة قريبة ؟ حُبًّا فى التمتع بالدنيا . والمدة القريبة غير محدودة فهى – عندهم – انتهاء آجالهم دون قتال : أوْ يا ربَّنا هلّا زدتنا فى مدة الكف إلى وقت آخر ، قابل للتجديد؟ حذرا من الموت وهربا من الجهاد . فقال الله لرسوله صلى الله عليه وسلم :

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا) :

أى : قل لهم يامحمد : متاع هذه الدنيا – الذى تودّون العيش من أجله – قصير الأمد ؛ لأن الآجال فيها منتهية . وكلّ آيلٍ إلى الفناء قليل . وما كان كذلك ، فهو لايستحق الحرص عليه أو الحزن على فواته . ونعيم الآخرة خير لمن خاف عقاب الله بترك معصيته ، ولم يخف من لقاء الأعداء . وكان هذا خيرا ؛ لأنه النعيم المقيم ، الدائم لمن أحسن عملا فى هذه الحياة الدنيا ، وجاهد فى سبيل الله حق الجهاد ، واتقى الله ، ولم يخش إلّا الله . ولن تنقصوا فى الدار الآخرة – دار الحساب والجزاء – من جزاء أعمالكم شيئا وإن قلّ وكان قدر الفتيلة فى شق النواة .

فنى الآخرة ، ينال المحسنون والمسيئون جزاء ما عملوا . ولا يقع على أحدهم أى ظلم « فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ »[1] والفتيل يضرب به المثل فى القلة .

---

(١) الزلزلة الآيتان : ٧ ، ٨

٧٨ـ (أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ...) الآية .

جاءت هذه الآية ردًّا على كراهيتهم فرض القتال عليهم ، لاعتقادهم أنه يعرضهم للموت الذى يكرهونه ، وأن القعود عنه يجعلهم بمنجاة منه .

والمعنى : فى أى مكان تكونون فيه ـ فى ساحة القتال ، أو بين أهليكم فى مواطن أمنكم أو خوفكم ـ ينزل بكم الموت عند انتهاء آجالكم ولو كنتم فى حصون منيعة ، أو قصور عالية : تظنونها مانعة لكم من الموت الذى تخافونه : « قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ »[1] .

وفيه تأنيب لهؤلاء المنافقين ، اللين ضاقوا بما فرض الله عليهم من قتال ، وإبراز لحماقة تفكيرهم ، فإن الجبن لايطيل عمرا ، وإنما يجلب ذُلًّا . والشجاعة لاتنقص أجلا ، وإنما تورث عِزًّا .

(وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ) :

هذا بيان لنقيصة أخرى من نقائص هؤلاء المنافقين . فقد كانوا يقولون ـ إذا حلت بهم نعمة من سعة فى الرزق ، وكثرة فى الأموال والأولاد ـ هذا الذى أصابنا من النعم من عند الله . قالوا ذلك ، لاعن إيمان بالله ، واعتراف بفضله ، بل قالوه ؛ تهوينا لشأن النبى صلى الله عليه وسلم ، وإشارة إلى أنه لايأتيهم بخير .. يدل على ذلك ما حكاه القرآن عنهم بقوله :

(وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ) :

أى : وإن يُصيبهم جدب وقحط ، ونقص فى الأموال أو الأولاد ، ونحو ذلك . قالوا : أصابنا ذلك بشؤمك الذى لحقنا ..

---

(١) الجمعة ، من الآية : ٨

فردّ الله عليهم بقوله :

(قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ) :

أى : قل لهم يامحمد : إن كل ما يصيبكم من حسنات وسيئات ، إنما هو من عند الله : بقضائه وقدره . فهو – وحده – الذى يملك النفع والضر ، ولا يقع فى ملكه إلا مايريد .

(فَمَا لِهَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا) :

تعيير لهم بالجهل ، وتعجيب من كمال غباوتهم ، وتقبيح لحالهم .

والمعنى : فما شأن هؤلاء القوم ؟ وماذا أصاب عقولهم ، حتى أصبحوا بعيدين عن الفهم والإدراك لما يسمعون ، ولما يقولون . ولا يفهمون أن كُلًّا من الخير والشر ، من عند الله وحده ! .

٧٩ – (مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ...) الآية .

بعد أن تحدثت الآية السابقة ، عن فرية من مفتريات المنافقين – وما أكثر ما افتروا ، حينما قالوا : إن البلية تصيبنا بشؤم هذا الرجل ، يريدون رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وبعد أن ذكرت أمره سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم . بالرد عليهم ، ودحضها فى قوله : (قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ) . جاءت هذه الآية بتفصيل هذا الرد وتأكيد معناه :

(مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ) :

أى : ما أصابك – أيها الإنسان – من نعمة فهى من عند الله جاءتك تفضلا منه وإحسانا .

(وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ) :

أى : وما نزل بك – أيها الإنسان – من بلية ونقمة تسوءك فهى من عند نفسك ، بسبب ما ارتكبت من الذنوب والآثام ، أتتك ونزلت بك عقوبة لك على شؤم معاصيك .

وقد تنزل البلية بالمؤمن ابتلاء واختبارًا ورفعًا لدرجاته . كما فى الحديث : « أَشَدُّ الناسِ بَلاءً الأنبياءُ، ثم الأَمثل فالأَمثل ، يُبْتَلَى الرجلُ على حسبِ دينه ، فإن كان فى دينه صُلْبا ، اشتد بلاؤه ، وإن كان فى دينه رِقَّةٌ ، ابتُلِىَ على قَدْرِ دينه . فما يبرحُ البلاءُ بالعبدِ ، حتى يتركه يمشى علَى الأَرضِ وما عَلَيْه خَطِيئَةٌ »[1] .

وقد تنزل المصائب بالمؤمن : تكفيرا لما عساه يكون قد وقع من الذنوب ؛ كما جاء فى قوله صلى الله عليه وسلم : « ما يصيب المسلمَ : من نَصَبٍ ولا وَصَبٍ ، ولا همٍّ ولا حَزَنٍ ، ولا أذًى ، ولا غمٍّ - حتى الشوكة يُشاكُها - إلا كفَّر اللهُ بها مِن خطاياه »[2] .

وقد أُضيفت السيئة إلى الله تعالى فى قوله : (قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللهِ) ، على جهة خلقه لها . وإيجاده إياها ، وأُضيفت إلى العبد فى قوله تعالى : (وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ) . على جهة تسببه فيها بما اقترفه من المعاصى والآثام - وإن كانت مخلوقة لله تعالى .

وبهذا التوجيه تلتقى الآيتان الكريمتان فى معنى واحد .

والخطاب فى هذه الآية ، عام موجه إلى كل واحد من الناس ، كما أن المراد : جميع الحسنات وكل السيئات .

وليس فى أسلوب الآية ، ما يدل على أن النعمة لا تصيب إلا المحسنين ، فقد يصيب الله بنعمته من يشاء من غير المؤمنين . كما قال تعالى : « ... نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ ... »[3] إذ المراد بالرحمة : النعمة التى لا تكون فى مقابلة عمل من الأعمال . وليس فيها أيضا ، ما يفيد أن المعصية تستلزم نزول البلية بمن عصى حتما . فإن الله يعفو عن كثير . كما قال تعالى : « وَمَآ أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ »[4] ، بل إن كثيرا من الكفار يعيشون فى الدنيا فى رغد من العيش مترفين منعمين ، دون أن تنزل بهم أية مصائب طول حياتهم . قال تعالى : « وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ »[5] .

---

(١) رواه أحمد فى مسنده ، والبخارى ، والنسائى ، وابن ماجة عن سعد .

(٢) رواه أحمد فى مسنده ، والبخارى ومسلم عن أبى سعيد وأبى هريرة معا .

(٣) يوسف ، من الآية : ٥٦ (٤) الشورى ، الآية : ٣٠ (٥) محمد ، من الآية : ١٢

وفى هذا — من كمال رحمته بعباده ، وعظيم عفوه عنهم — ما لايخفى .

(وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا) :

هذا بيان لعظم مكانته صلى الله عليه وسلم ، وجلال قدره ، وعلو شأنه .

والمعنى : وأرسلناك يامحمد ؛ رسولا مبلغا — للناس كافة — رسالة ربك ، ولم نرسلك لبعضهم .

(وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا) :

أى : شهيدا على صدق رسالتك ، وأنك أبلغت ما أنزل إليك من ربك ، وأديت واجبك أكمل أداء : بإخلاص ويقين : تبشر الناس وتنذرهم . والله تعالى خير شهيد على ذلك . فليس لهؤلاء المنافقين — ولا لغيرهم — أن يتطيروا بك ويقولوا لك : مانزل بنا من البلاء فمن عندك . وبسبب شؤمك .

وفى تقرير رسالته صلى الله عليه وسلم — على هذا النحو — تطمين لقلبه ، وتقوية لعزمه ، وإزالة ما عسى أن يكون قد علق بنفسه من الألم مما قالوه ، من نسبة ما نزل بهم من البلاء إليه صلى الله عليه وسلم — كما أن فيه زيادة كبتٍ لهم ، وتأكيدا لغاية جهلهم ، وعدم فقههم .

٨٠ — (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا) :

هذه الآية موصولة السياق بما قبلها .

فهى تتضمن : مرضاة الرسول ، وتطييب خاطره ، وتزيد من رفعة قدره ، وعلو منزلته .

ففى الآية السابقة ، قرر سبحانه وتعالى : رسالته صلى الله عليه وسلم . ورفع عنه تحمّلَ مسئولية ما يقولون ؛ لأنه ليس إلا رسولاً : مهمته تبليغ رسالة ربه . وقد أداها أكمل أداء .

وفى هذه الآية يؤكد هذا المعنى ، ويبين أحكام رسالته ، بأن من أعرض عنه فلن يضره ، فإنه رسول عليه البلاغ . وليست السيطرة عليهم من رسالته ، فقد بعثه الله إلى الناس رسولا : يدعوهم إلى الخير ، ويحذرهم من الشر ، ويهديهم إلى الصراط المستقيم .

وطاعة الرسول فيما يبلغه عن ربه - بوصف كونه رسولا يبلغ ما يؤمر بتبليغه إلى الناس - واجبة . فمن أطاعه فى ذلك ، فقد أطاع الله ؛ لأنه - صلوات الله وسلامه عليه - لا ينطق عن الهوى ... فليس لمسلم أن يخالفه فيما يبلغه عن أمر ربه . قال تعالى : « فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »[1] .

وأما مارآه الرسول صلى الله عليه وسلم من الأمور الخارجة عن دائرة التبليغ والرسالة مما هو خاص بشئون الدنيا ، فليست أوامر ، بل إرشادات . ولذا راجعه المسلمون فى بعض الآراء . كما حدث فى تأبير النخيل ، فرجع صلى الله عليه وسلم ، ونزل على رأيهم ، وقال : « أنتم أعلمُ بأمرِ دُنْيَاكم »[2] .

(وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا) :

أى : ومن أعرض عن طاعتك ، وعن اتباع الحق الذى جئت به ، فاترك أمره إلينا - فستجازيه - ولا يحزنك أمره ، فإنما أرسلناك مبلغا ، وقد بلّغت ما أُنزل إليك من ربك ، على أتم الوجوه وأكملها . والله خير شهيد على صدقك ، ولم نبعثك عليهم مسيطرا ، ولا رقيبا على أعمالهم : « فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ . لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ »[3] .

---

(١) النور ، من الآية : ٦٣

(٢) رواه مسلم .

(٣) الغاشية ، الآيتان : ٢١ ، ٢٢

(وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾) .

المفردات :

(بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ) : خرجوا من مجلسك ظاهرين .

(بَيَّتَ طَائِفَةٌ) : دبروا ليلا أو فى السر . فى أى وقت من ليل أو نهار .

(يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ) : يتأملون فيه ، ويتفكرون فى معناه .

(اخْتِلَافًا كَثِيرًا) : تناقضا فى معانيه ، وتباينا فى نظمه .

التفسير

٨١- (وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِى تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ...) الآية .

هذه الآية الكريمة ، تحكى شأنا آخر من شئون المنافقين . وهو إعلانهم طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم - بألسنتهم - حينما يكونون معه ، فإذا انصرفوا من مجلسه ، وذهبوا بعيدا عنه ، دبر زعماؤهم خفية فى السر - فى الليل أو النهار - مخالفة أمره صلى الله عليه وسلم ، ونقض الذى قالوه - بألسنتهم - فى مجلسه ، معتقدين أن هذا التدبير الخفى لن يعلمه الرسول صلى الله عليه وسلم . وفاتهم أن الله يعلم كل ما يتآمرون عليه ، وقد سجله عليهم ، وأنه سيكشفه لرسوله صلى الله عليه وسلم ،وأنه سيعاقبهم على هذا النفاق - فى الآخرة - أشد العقاب ، كما ينبئ عنه قوله تعالى :

(وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ) :

وفى هذا - من التعنيف لهم ، وبث الرعب فى قلوبهم - مالا يخفى .

(فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا) :

أى : فتولَّ عنهم - يا محمد - ولا تهتم بتدبيرهم وكيدهم ، ولا تأْبَهْ بهم ولا بمؤامراتهم ، وفوض أمرك إلى الله - وحده - فهو يكفيك أمرهم ، ويجنبك شرهم . وكفى بالله وَلِيًّا ، وكفى بالله نصيرا : « وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ »[1] .

والأُسلوب ظاهر الدلالة على تحقير شأْنهم ، والاستهانة بمؤامراتهم التى عصم الله - سبحانه - رسوله صلى الله عليه وسلم منها .

وليس معنى التوكل على الله ، أن يترك الإنسان الأَخذ بالأَسباب . فهذا هو التواكل ، وهو مذموم . وإنما المراد به ، الأَخذ بالأَسباب مع تفويض الأَمر إلى الله ، والاعتماد عليه .

٨٢ - (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) :

تثبت هذه الآية : أن القرآن من عند الله ، وتطالبهم أن يتدبروه بيقظة وانتباه ، وتنكر عليهم عدم تفكرهم فيما فيه من موجبات الإيمان به ، وتحضهم على التأَمل فيه .

والمعنى : أيعرض هؤلاء المنافقون عن القرآن ، فلا يتأَملون فيه ؛ ليعلموا أنه من عند الله ؟! . فلو تدبروه وتبصروا ما اشتمل عليه من المعانى الصادقة ، لأَيقنوا أنه من عند الله لامن عند غيره ؛ لأَنه كتاب أُحْكِمَتْ آياتُه ، لاعِوَجَ فيه . وهو فوق طاقة البشر أجمعين . فأَخباره كلها صادقة : سواءٌ ما يتناول منها الغابر السحيق ، أو المستقبل البعيد ، أو ما كشف به كيد المنافقين .

(وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) :

أى : ولو كان هذا القرآن من كلام البشر : مؤلفا من عندهم - كما كانوا يدعون حين قالوا : « إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ »[2] - لوجد الناس فيه تناقضا كثيرا . ذلك لأَن طاقة البشر ، لاتستطيع الإتيان بهذا الكمال ، فى بيان العقائد والعبادات ، والمعاملات والأَخلاق ، والإخبار الصادق عن الماضى والمستقبل ، وعالَم الغيب ، وما يجرى فيه ... كل ذلك فى أُسلوب بديع متقن ، بلغ الغاية فى الكمال والتحلى .

(١) الطلاق ، من الآية : ٣ (٢) النحل ، من الآية : ١٠٣

إن العلوم التى تقوم على التجارب ، قد تنقض اليوم ، ما أبرمته بالأمس ، وتهدم غدا ما بنته اليوم .

أما القرآن الكريم ؛ فإنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ لأنه كتابٌ أُحْكِمَت آياتُه ، ولأنه تنزيل من حكيم حميد .

والمعهود فى كبار الأدباء : أن تتفاوت آثارهم قوة وضعفًا ، وَسُمُوًّا وَضَعَةً . ولايسلم أحد من هذا ، وإن كان عبقرى الموهبة ، رائع البيان .

وقد تناول النقد الأدبى هذه الظاهرة البشرية بالدراسة والتسجيل .

أما القرآن الكريم ، فجميع آياته طبقة عليا من البلاغة التى تفوق طاقات الإنس والجن ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

(وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾) .

المفردات :

(أَمْرٌ) : خبرٌ عن سرايا الرسول صلى الله عليه وسلم .

(الأَمْنِ) : النصر .

(الْخَوْفِ) : الهزيمة .

(أَذَاعُوا بِهِ) : نشروه وأفشوه .

(يَسْتَنبِطُونَهُ) : يستخرجون حقائقه المستورة الخفية ، ومقاصده البعيدة .

التفسير

٨٣- (وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ...) الآية .

كان المسلمون فى جهاد دائم مع أعدائهم من الكفار واليهود . وطبيعة الجهاد تقتضى كتمان أخبار القتال، وصيانة أسراره ، إذا ما أريد له النجاح ، وبخاصة ما يستفيد منها الأعداء .

ومن أخطر الأمور التى تضر بالمسلمين - وبجيشهم المقاتل - إذاعة ما يسمعه المرءُ من أخبار النصر أو الهزيمة ، قبل أن يعرضه على أُولِى الأمر . فإنهم - بوقوفهم على حقائق الأمور - أعلم بما إذا كان إفشاءُ هذه الأخبار مما يضر الصالح العام أمْ لا .

لهذا ، فإن الآية منهج عظيم ، من مناهج تربية الشعوب الإسلامية على الروح العسكرية ، وتوجيهٌ لتلك الشعوب : أن يسوسوا أنفسهم ويروضوها على صيانة أخبار أمن الدولة ، وكل ما يتعلق بالجانب العسكرى من معلومات . ذلك لأن إفشاء أخبار الدولة ، يسهل للعدو مهمة التجسس ، ومعرفة مواطن الضعف والقوة لدى المسلمين ، ويكشف عن عيوبهم .

(وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ) :
فواجب كل مسلم أن يرد هذه الأخبار إلى أُولِى الحل والعقد من المسلمين .
فإنهم هم الذين يستطيعون تقييم هذه الأخبار ، وتقدير ما إذا كان من المصلحة العامة للدولة إذاعتها أو كتمانها ، حتى لايحدث اضطراب فى صفوف المسلمين .

كذلك هم - باطلاعهم على خفايا الأمور - أعرف بصحة تلك الأخبار أو فسادها . وسواءٌ كانت هذه الأخبار : التى كانوا يتلقونها فيذيعونها ، متعلقة بالنصر أو بالهزيمة ؛ لأن أخبار النصر ، قد تؤدى إلى التواكل والإهمال فلا يأخذ المسلمون حذرهم . وبهذا يكونون فريسة سهلة لأعدائهم .

وأخبار الهزيمة قد تلقى الرعب فى قلوب ضعفاء الإيمان ، فتنهار الروح المعنوية . ولا يستطيع الجيش ملاقاة الأعداء . قال تعالى : « لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم

مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا . مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا »[1] .

وقد جاء فى الحديث الشريف : « كفى بالمرء إثما : أن يُحَدِّثَ بِكُلِّ ما سَمِع »[2].

من أجل هذا ، دعت الآية الكريمة المسلمين ، ووجهتهم : أن يرجعوا فيما سمعوه من أخبار النصر أو الهزيمة ، إلى الرسول وإلى أولى الأمر من أهل الحل والعقد ، فى قوله تعالى : (وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ...) : والذين يستنبطون الحقائق ، هم الذين يطلعون على خفايا الأمور . أو المراد بهم الذين رجعوا بهذه الأخبار – حينما سمعوها – إلى الرسول وأصحابه ، فإنهم يعرفون – عن طريقهم – ما خفى عليهم أمره من هذه الأخبار .

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا) :

هذا امتنان من الله تعالى ، على عباده المؤمنين ، بحفظهم من شر هذا السلوك الشائن ، من المنافقين وضعفاء الإيمان . حيث تفضل عليهم بالنصر ، ورحمهم بالحفظ من تصديق ما يذيعه الأعداء ، وضعاف الإيمان ، وذوو الغفلة .

أى لولا هذا الفضل وتلك الرحمة من الله بهذه الأمة . لضل الكثير من أبنائها : باتباع سبيل الشيطان ، ولكان مصيرها الضياع والانهزام ، وضعف الثقة فى النفوس .

وعلى هذا ، يكون المراد بالقلة فى قوله تعالى : (إِلَّا قَلِيلًا) : القلة الممتازة من المسلمين بقوة العزيمة ، وثبات الإيمان ، فإنهم هم الذين يكونون بمنجاة من التأثر بهذه الأخبار ، فلا يصدقونها ولا يذيعونها .

ويصح أن يكون المراد بقوله : (لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ) إلا فى قليل من أعمالكم .

---

(١) الأحزاب ، الآيتان : ٦٠ ، ٦١ (٢) أخرجه أبو داود والحاكم .

وبالتأمل فيما تضمنته الآية الكريمة من إرشادات حكيمة ، يتضح أن القرآن الكريم ، قد سبق جميع النظم الحربية ، فى وضع أقوى الوسائل لمواجهة ما يسمى الآن : الحرب النفسية ، أو حرب الأعصاب . وهى التى تدير الحرب العسكرية .

(فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾) .

المفردات :

(لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ) : لا تكلف إلا فعل نفسك .

(وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ) : وحُثهم ورغِّبهم .

(تَنكِيلًا) : تعذيبا وإيلاما .

التفسير

٨٤- (فَقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ ...) الآية .

أمْرٌ من الله بالقتال ، مُفَرَّع على ما سبق ، من بيان حال المنافقين وضعاف الإيمان ، وأنهم مخذولون بإذاعتهم ما يسمعون ، قبل التثبت من صحته .

أمر من الله لرسوله - يشمل كل قائد ، وكل قادر على القتال من المؤمنين المخلصين - عند إعلان النفير - أن يندفع ولو منفردا ، إلى الجهاد فى سبيل الله ، فإنه غير مسئول فى الجهاد إلا عن نفسه ، وعن حض المؤمنين عليه ، غير ملتفت إلى هؤلاء المثبطين الذين يظهرون الطاعة ، ويضمرون العصيان ، ولا إلى من يذيعون الأخبار قبل التثبت من صحتها . أو يصدقونها ، فيتقاعدون - بسببها - عن القتال .

ويفهم من الآية : أن على القائد أن يتقدم جنده ، وأن يضرب لهم المثل بنفسه عمليا ، وأن يُحَرِّضَ المؤمنين على الجهاد ويحثهم عليه .

(عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا) :

لا ريب أن استعداد المؤمنين للقتال فى سبيل الله ، وإقدامهم عليه - بقوة وعزم وتصميم - يحقق الرجاء فى أن يوهن الله عزم الكفار ، ويضعف قوتهم ، ويبدد شملهم. ذلك لأن استعداد المسلمين وتصميمهم ، يحمل الكفار على التفكير والتروى ، قبل مواجهة المسلمين ، فيتوقفون عن قتالهم ، ويكف الله بهذا عن المسلمين شر قوتهم ، وشدة بأسهم.

وأشعر قوله عز وجل : (وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا) : بأن الكافرين - إذا لم تمنعهم قوة المسلمين واستعدادهم ، وأقدموا على قتالهم - فإن الله سيتولى نصر المؤمنين وتأييدهم ، ويمكنهم من التنكيل بأعدائهم ، فإنه - سبحانه - أشد قوة من كل ذى قوة ، وأشد تعذيبا من كل قادر على التعذيب ، وأنه القدير على إيقاع العذاب الأليم بأعداء أوليائه ، وتمزيقهم شر تمزيق.

(مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾).

المفردات :

(مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً) : الشفع فى الأصل : الضم . ومنه الشُّفعة . وهى ضم ملك الشريك . ومن الشفع : الشفاعة . كأن المشفوع له كان فردا ، فجعله الشفيع شفعا .

وتطلق الشفاعة على التوسط لإيصال شخص إلى منفعة دنيوية أو أخروية ، أو خلوص من مضرة مّا .

(نَصِيبٌ) : النصيب ؛ الحظ . وهو قابل للزيادة ، وأكثر ما يستعمل فى الخير .

(كِفْلٌ) : الكفل ؛ الوزر والإثم ، أو المقدار المساوى ، وأكثر ما يستعمل فى الشر .

(مُقِيتًا) : مقتدرا ، أو حافظا وشاهدا .

(حَسِيبًا) : محاسبا ومجازيا ، أو كافيا ، أو حفيظا .

التفسير

٨٥ـ (مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا ...) الآية .

المراد منه : بيان أن من يسعى فى أمر ، فيترتب عليه خير ـ لفرد أو لجماعة ـ كان له نصيب من أجر ذلك الخير ، الذى ترتب على سعيه .

(وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا) :

أى : ومن يَسْعَ فى أمر ، فيترتب عليه شر ، كان عليه وزرٌ من ذلك الأمر الذى ترتب على سعيه وشفاعته .

وهذا عام فى الأمرين . فيدخل فى الأول التحريض على القتال فى سبيل الله ، فإن لمن يقوم به نصيبا من أجر المقاتلين ، دون أن ينقص ذلك من أجورهم شيئا . ويدخل فى الثانى : التثبيط والتخذيل ، وإذاعة الأخبار قبل عرضها على أولى الأمر ، وإشاعة الأراجيف بين الناس ، فإن على من يقوم بذلك وِزْرًا مثل وِزْرِ القاعدين عن القتال بدون عذر : لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئا .

والتعبير فى جانب الحسنة بالنصيب ، وفى جانب السيئة بالكفل لكثرة استعمال النصيب فى الخير . وكثرة استعمال الكفل فى الشر .

(وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا) :

أى : وكان الله على تحقيق كل شىء من الأشياء مقتدرا .

ومن ذلك قدرته على جزاء كل من المحسنين والمسيئين ، بما يستحقونه من جزاء .

٨٦ـ (وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا) :

من أقوى أسباب المودة والألفة ، تبادلُ التحية بين الناس .

وأصل التحية : الدعاء بالحياة وطولها . ثم استعملت فى كل دعاء . وكانت العرب تقول عند لقاء بعضهم بعضا : حيَّاك الله . ثم استعملها الشرع فى السلام ، وهو تحية الإسلام قال تعالى : « وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ »[1] وقال : « فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً »[2] .

(وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَا) :

أى : وإذا سلَّم أحد المسلمين على فرد أو جماعة بقوله : السلام عليكم ــ وهو أقل ما يكفى فى البدء بالسلام ــ فعلى من سُلِّم عليه أن يَرُدَّ التحية بأحسن منها . ويتحقق ذلك بقوله : وعليكم السلام ورحمة الله ــ وله أن يزيد بإكمالها وهو : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

وفى الآية : إرشاد حكيم ، إلى آداب السلام ، كى تنعم بآثاره النافعة فى : جمع القلوب ، و توحيد الصفوف ، وتأمين الخائف . فأمرتْ من حُيِّيَ بتحية : أن يرد على من حيَّاه بأحسن منها أو بمثلها .

روى : أن رجالا قال أحدهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم : السلام عليك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مجيبا على هذه التحية : « وعليك السلام ورحمة الله » : وقال الآخر : السلام عليك ورحمة الله ، فقال : « وعليك السلام ورحمة الله وبركاته » . وقال الآخر : السلام عليك ورحمة الله وبركاته . فقال : « وعليك » . فقال الرجل : نقصتنى ، فأين ما قال الله ــ تعالى ــ وتلا الآية ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « إنك لم تترك لى فضلا . فرددت عليك مثله » كذا فى تفسير أبى السعود .

---

(١) يونس ، من الآية : ١٠ (٢) النور ، من الآية : ٦١

والرد على تحية الإسلام واجب . وإنما التخيير بين الزيادة وتركها .

فعن ابن عباس ، رضى الله عنهما : الرد واجب . وما من رجل يمر على قوم مسلمين فيسلم عليهم ولا يردون عليه – إلا نزع الله منهم روح القدس ، وردت عليه الملائكة .

ولا يُرَدُّ على من سَلَّم : أثناء الخطبة ، وتلاوة القرآن جهرا ، ورواية الحديث ، وعند دراسة العلم ، وعند الأذان والإقامة .

ولا يسلم على لاعب النرد ، والشطرنج ، والمغنِّى ، والقاعد لقضاء حاجته ، والعارى فى الحمام .

ويسلم الرجل على امرأته ، لا على الأجنبية .

والسُّنَّة : أن يُسَلِّمَ الماشى على القاعد ، والراكبُ على الماشى ، وراكبُ الفرس على راكب الحمار ، والصغيرُ على الكبير ، والعددُ القليلُ على العدد الكثير . وإذا التقيا بَادَرَ كُلٌّ منهما إلى إلقاء السلام على صاحبه . وخيرُهما الذى يبدأ .

وعن النبى صلى الله عليه وسلم ، « إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا : وعليكم » . ـ أى وعليكم ما قلتم . حيث إن بعضهم كان يقول : السَّامُ عليكم .

وروى : « لا تبدأ اليهودِىَّ بالسلام . وإذا بدأك فقل : وعليك » .

وعن الحسن : أنه يجوز أن يقول للكافر : وعليك السلام دون الزيادة .

ذكر هذه الأنباء الثلاثة ، أبو السعود فى تفسيره .

والسلام : معناه الأمان ، وفى بدء السلام ورده : أمان للمُسَلِّم ، ولمن سُلم عليه . فكأن كل واحد منهما يؤمن صاحبه من شره ، ويزيل الخوف من قلبه ، ويؤنسه بهذه التحية .

وقد نهى القرآن عن نفى الإيمان عمن ألقى السلام إلى المسلمين فى قوله : « . . . وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ... » [1] . ونهى عن معاجلته بالقتال .

---

(١) النساء ، من الآية : ٩٤

وقد وردت أحاديث كثيرة . تدعو إلى إفشاء السلام : منها : ما رواه مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم ، « لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا ، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا ، أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُم ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُم » .

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا) :

وختمت الآية بما يحرك وجدان المسلم نحو الامتثال ، والمحافظة على ما يوطد روابط المحبة والمودة بين الناس ، والحرص على إفشاء السلام ، وعلى ما يملأ القلب خَوْفًا من الله وحَذَرًا من عقابه ، إذ أفاد ذلك : أن الله تعالى ، سيحاسب الناس على كل ما يأتون ويذرون ، على كل صغير وكبير ، من الأعمال والأقوال .

٨٧ - (اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا) :

أى : الله الواحد القادر على كل شيء ، الحسيب على كل شيء ، هو الذى يجمع الناس - بعد قيامهم من قبورهم - يوم القيامة ؛ ليجازى كلا بما قدمت يداه . وهذا الجمع لاريب فيه ، أو هذا اليوم آت لاشك فى مجيئه .

وأسلوب الآية يؤكد - بقوة - وقوع المحاسبة ، ومجازاة كل بما يعمل .

والمقصود ، تحريض المسلمين على الالتزام بتنفيذ ما أمر الله به ، وترك ما نهى الله عنه .

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا) :

هذا إنكار أن يتطرق إلى النفوس غير الحقيقة التى تقررت فى قوله تعالى: (اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ ...) الآية . إذ الذى تحدث عن حتمية مجيء الحساب والجزاء ، واليوم الذى يقعان فيه - هو الإله الذى لايوجد حديث أصدق من حديثه ، ولا محدث أصدق منه - وهو الله - (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا) ؟!!.

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

وكيل أول
رئيس مجلس الإدارة
علي سلطان علي

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩/١٩٧٤

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
٦٨٤ س ١٩٧٤ - ٢٥,٠٠٢



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

الحزب العاشر

الطبعة الأولى ١٣٩٥ هـ — ١٩٧٥ م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٧٥

(فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾).

المفردات :

(فِئَتَيْنِ) : فرقتين .

(أَرْكَسَهُمْ) : ردَّهم إلى الكفر ونكّسهم .

(أَوْلِيَآءَ) : أعوانا ونصراء ، توالونهم .

(مِيثَٰقٌ) : عهد .

(حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ) : ضاقت صدورهم .

(اعْتَزَلُوكُمْ) : تركوا قتالكم .

(وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ) : وألقوا إليكم الانقيادَ والاستسلام .

التفسير

٨٨ـ (فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا . . .) الآية .

ذكر العلماء فى سبب نزول هذه الآية : أن قوما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يظهرون الإسلام ، فأقاموا بالمدينة ماشاء الله ، ثم قالوا : يارسول الله ، نريد أن نخرج إلى الصحراء ، فَأْذَنْ لنا ؛ فأَذِن لهم . فلما خرجوا ، لم يزالوا يرحلون مرحلة بعد مرحلة ؛ حتى لحقوا بالمشركين .

فتكلم المؤمنون فيهم .

فقال بعضهم : لوكانوا مسلمين مثلنا ؛ لبَقوا معنا ، وصبروا كما صبرنا .

وقال قوم : هم مسلمون ، وليس لنا أن ننسبهم إلى الكفر ، إلى أن يظهر أمرهم .

وعن ابن عباس ، وقتادة : أن قوما أظهروا الإسلام بمكة ، وكانوا يعينون المشركين على المسلمين . فاختلف المسلمون فى شأنهم ؛ فبين الله تعالى نفاقهم فى هذه الآية الكريمة :

(فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا) :

والخطاب فيها : عام لجميع المؤمنين . والاستفهام : لإنكار ماوقع من الخلاف فى أمر هؤلاء المنافقين ، بعد أن رجعوا إلى المشركين ، وأظهروا كفرهم ، أو كانوا عونًا لهم على المؤمنين .

والإنكار : مُوَجَّهٌ إلى مَنْ كانوا يدافعون عنهم من المسلمين ، وليس إلى جميع المخاطبين .

والمعنى : لِمَ تختلفون فى القول بكفر هؤلاء المنافقين ، وتفترقون فى هذا الأمر فرقتين ، وقد ردهم الله إلى الكفر ، كما كانوا بسبب ما اقترفوه من الاحتيال على رسول الله صلى الله عليه وسلم وخديعته . أو معاونة المشركين فى إيذاء المسلمين بمكة – حيث بيتوا الشر وأضمروا الردة ؟ !

ظهر ذلك جليا ، حينما رجعوا إلى مكة ولحقوا بالمشركين وأظهروا الكفر . أو حين أظهروا الإسلام بمكة بلسانهم ، وكانوا – فى واقع الأمر – عونا للمشركين على المسلمين .

ليس لكم أن تختلفوا فيه . . . بل كان يجب عليكم - أيها المؤمنون - أن تتفقوا على القطع بكفرهم ؛ لظهور أدلة هذا الكفر ، وذلك النفاق .

لقد يسّر الله لهؤلاء المنافقين طريق الإيمان الصادق . ولكنهم تنكبوا الصراط المستقيم ، وحادوا عن النهج السليم ، واختاروا الضلالة على الهدى ، فسلبهم الله معونته وتوفيقه ، وردهم إلى الكفر بسبب ماعملوا ، فكانوا فى عداد الكافرين .

(أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ) ؟ !

أنكر هذا النص القرآنى على هؤلاء المدافعين : أن يجعلوا - فى عداد المؤمنين - مَن اختاروا لأنفسهم طريقَ الكفر ، فلم ييسر الله لهم طريقا إلى الإيمان ، وتركهم فى ظلمات لايبصرون .

وحيث توجه الإنكار إلى إرادة هؤلاء المدافعين ، فانتفاء قدرتهم على تحقيق الهداية لأولئك المنافقين ، آكَدُ وألْزَمُ .

وفى قوله تعالى :

(وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً) : تقرير لنفى ذلك وتأكيد له .

أى ومَن سلب الله عنه معونته على الإيمان . وتيسيرَ الوصولِ إليه . فلن يستطيع أىُّ واحد من الناس أن يجدَ له طريقا مّا إلى الهدى والرشاد . قال تعالى :

« . . . وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ »[1] .

٨٩ - (وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ . . .) الآية .

هذا القول الكريم ، يبين للناس غُلُوَّ هؤلاء المنافقين فى الكفر ، وتماديَهم فى الضلال . إذ لم يقفوا عند رجوعهم إلى الكفر الذى ردَّهم الله إليه ، بسبب سوء أعمالهم - كما بينته الآية السابقة - بل أحبوا أن تكفروا - أنتم - كفرا مثل كفرهم ، وتمنَّوا لكم إن تَضِلوا ضلالا مثل ضلالهم ، فتكونوا - أنتم وهم فى الكفر والضلال - سواءً ، على

(١) الرعد ، من الآية : ٣٣

عقيدة واحدة . فكيف تختلفون فى القول بكفرهم ، وتفترقون فى الحكم بِرِدَّتِهم ، ويحاول بعضكم التماس المعاذيرلهم ؟ !

بعد أن بين الله - تعالى - للمؤمنين كفر هؤلاء المنافقين وشدة غلوهم فى ذلك الكفر ، شرح لهم كيفية التعامل معهم ، فقال :

(فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ) :

والمعنى : إذا كان شأن هؤلاء المنافقين ماقد عرفتم : ردة إلى الكفر ، ومحبة منهم لإضلال غيرهم ، فلا يجعلْ أىٌّ واحد منكم لنفسه منهم نصيرا ، حتى يَهْجُرُوا شعار الكفر إلى شعار الإيمان، ثم يتركوا دار الكفر إلى دار الإسلام ، لا لغرض من أغراض الدنيا ، وإنما طاعةً لأمر الله ، وفى سبيل الله ، ويقطعوا مابينهم وبين الكفار من صِلات ، وينحازوا إلى صفوف المسلمين بقلوبهم ، وواقع سلوكهم ؛ فإن هؤلاء ليسوا معذورين بالخطإ أو الغفلة ، وإنما هم عامدون قاصدون ؛ فلا يصح أن يختلف المسلمون فى أمرهم .

(فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ) :

أى : فإن أعرضوا عن الإيمان الصادق ، والهجرة الصحيحة ، والتمسك بالدين ، ولزموا مواضعهم ولم يهجروا دار الكفر ، وسائر مانهى الله عنه - فذلك هو الدليل المادى على أنهم لايريدون إلا الكيد والشر والبقاء على الكفر . فَأْسِرُوهم إن قدرتم عليهم ، واقتلوهم إذا تمكنتم منهم ، فى أى مكان تجدونهم فيه : دفعًا لشرهم ، وردًّا لكيدهم .

(وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا) :

أى : ولاتجعلوا منهم - فى هذه الحالة - وليًّا يتولى شيئا من مهام أموركم ، ولانصيرا تستنصرون به على أعدائكم . واقطعوا مابينكم وبينهم من صلات . إذ العلاقات مع الخبيثين مداخل هادئة لتعشيش الكيد وتفريخه .

وهذا الحكم ليس عاما فى كل المنافقين . فلقد كان منهم من يعيشون بين ظهرانى المسلمين . وإنما هو خاص بهذه الفئة التى بدا منها التعبير العملى عن الخيانة والكيد والخديعة ، وبكل من يكون على شاكلتها .

٩٠ ـ (إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ . . .) الآية .

فى الآية السابقة ، أمر الله ـ تعالى ـ بقتل هؤلاء الكفار الذين بدت منهم العداوة والخيانة والبغضاء .

وفى هذه الآية الكريمة ، استثناء طائفتين من القتل :

الطائفة الأولى : بيَّنها القرآن الكريم فى قوله :

(إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ) :

وهم الذين يتصلون بقوم ، بينكم أيها المسلمون وبينهم عهد وميثاق . فإنهم لايُقْتَلُون ولا يؤْسَرُون . .

والمعنى : أن من دخلوا فى عهد قوم ـ بحلف أوجوار ـ بينكم وبينهم عهد وميثاق ، كانوا أيضا ، داخلين فى عهدكم أيها المسلمون . فلهم حق الأمن من القتل أو الأسر ؛ لأن هذا العمل منهم ـ فى ظاهره ـ يدل على ميلهم إلى عدم الخيانة والكيد ، وعلى تمسكهم بالعهد الذى بينكم وبين مَن يحالفونهم .

وهذا ، مادام الميثاق الذى بين المسلمين وبين هؤلاء القوم قائما : لم يُنْقَض بوجه من الوجوه .

وهكذا ، نرى الإسلام ـ فى وفائه وسماحته ـ يحترم العهود والمواثيق ، ولو كان فيها حيف بالمسلمين كنا قبلناه وقت المعاهدة ، كما حدث فى صلح الحديبية .

والطائفة الثانية : هى التى يقول الله ـ تعالى ـ فى بيانها : (أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ) :

أى : هم الذين أتوْا إليكم : تضيق صدورهم وتنقبض نفوسهم ، ويتحرجون من قتالكم أيها المسلمون ، ومن قتال قومهم ، فلايريدون قتالكم ، ولايريدون قتال قومهم الذين يعادونكم ... فاختاروا موقف الحياد .

فهؤلاء ليس للمسلمين تسلُّط عليهم ، وليس لهم سبيل إلى التحكم فيهم ؛ لأن الله كف المسلمين عن قتالهم بما ألقى فى قلوبهم من الميل إلى الموادعة .

(وَلَوْ شَآءَ اللهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ) :

أى : ولولا ذلك الذى ألقاه الله فى نفوسهم من الميل إلى الموادعة والرغبة فى الحياد ، لكانوا قوةً تضاف إلى قوة الأعداء ، ويكون لها تأثيرها فى إلحاق الأذى بكم أيها المسلمون ، ومساعدة الأعداء عليكم ، ولكن الله ـ بفضله ورحمته ـ صرفهم إلى اختيار موقف الحياد والموادعة : رحمة بالمؤمنين ، وتخفيفا لضغط الكفار عليهم ، وتقوية لجانبهم عند لقاء علوهم .

والمقصود من هذا : بيان أن الله مَنَّ على المسلمين بما تفضّل به عليهم : من كفّ بأس هؤلاء عنهم ، باختيارهم الحياد والمسالمة .

(فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً) :

أى : ومادام هؤلاء الذين جاءوكم متحرجين من قتالكم وقتال قومهم ، قد اختاروا العُزْلةَ وعدم القتال ، وسارعوا إلى السِّلْمِ ، فليس لكم عليهم ـ أيها المسلمون ـ أىُّ سبيل أو أدنى تسلط .

ذلك لأن الإسلام يرحب ـ دائما ـ بكل بادرة تدعو إلى السلام ، مادام غير المسلمين لا يعتدون .

وما شُرِع القتالُ فى الإسلام ، إلا لضرورة تأمين الحق ، وصيانةِ العقيدة ، وتعميم الخير .

(سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُولَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾).

المفردات :

(أُرْكِسُوا) : انقلبوا .

(ثَقِفْتُمُوهُمْ) : وجدتموهم .

(سُلْطَانًا مُّبِينًا) : حجةً ظاهرة .

التفسير

٩١- (سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ . . .) الآية .

ينبّه الله - سبحانه - المسلمين فى هذه الآية الكريمة ، إلى طائفة أخرى من المنافقين يلْقَوْنَ المسلمين بوجه ، ويلقون كفارَ قومِهِم بوجهٍ آخر .. يقصدون بذلك أن يظفَرُوا بالأمن من الجانبين . وهذا الفريق من المنافقين لايترك قتال المسلمين تحرُّجا ، ولكن يتركه مراوغة لتحقيق مآربه .

(سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ) :

أى ستجدون - أيها المسلمون - جماعةً أُخرى من المنافقين يسلكون طريقا ملتوية ، - هى طريق المواجهة - إذا جاءوكم أسلموا وعاهدوكم ، يريدون بذلك أن يظفَروا منكم بالأَمن ؛ ليحققوا مصالحهم لديكم .. فإذا رجعوا إلى قومهم ، كفروا ونقضوا عهودهم معكم ، وقصْدهم أن يفوزوا كذلك بالأَمن من قومهم ؛ ليقضُوا بذلك حاجاتِهِمْ ، ويصلوا إلى غاياتِهم عند قومهم أيضا .

(كُلَّمَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا) :

أى : كلما دعاهم قومهم إلى قتال المسلمين والكيد لهم ؛ انقلبوا فى فتنة القتال والكيد مع قومهم عليكم ، معلنين – بذلك – عما أضمروه فى قلوبهم ، كاشفين عن حقيقة أمرهم .

(فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ) :

أى : فإن لم يتجنب هؤلاء قتالكم ، ويطلبوا الصُّلْحَ معكم ، ويَمُدُّوا يَدَ السلام والأمان إليكم ، ويكُفُّوا شرهم وأَذَاهُم عنكم ، ويقفوا موقف الحياد ويعلنوه – فخذوهم بالقوة أسرى لديكم ، واقتلوهم فى أى مكان تدركونهم وتظفرون بهم عنده ؛ لأن هذا الصنف من المنافقين خطر ، يجب القضاء عليه ، إذ ليس هناك مايدعوكم إلى أن تقفوا منهم موقف الأمان والاطمئنان ، بعد أن أعلنوا عداءهم لكم ، وأظهروا ماتُكِنُّه صدورهم نحوكم .

(وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا) :

أى وهؤلاء المنافقون : قد جعل الله لكم الحجة الواضحة على جواز أَخْذهم وقتْلهم ؛ بسبب ظهور عداوتهم لكم ، وانكشاف حالهم فى الكفر والغدر بكم ، والخيانة والكيد لكم .

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾) .

المفردات :

(فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ) : فعِتْقُ رقبة .

(يَصَّدَّقُوا) : يتصدقوا بالدية ؛ بالتنازل عنها .

(مِيثَاقٌ) : عهد .

(خَالِدًا فِيهَا) : ماكثًا فيها زمنا طويلا .

التفسير

٩٢ - (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً ...) الآية .

بعد أن بينت الآيات السابقة أسس المعاملة بين المسلمين وغيرهم ، وقد اتضح منها أن القتال شرع فى الإسلام لدفع الظلم ، ورد العدوان فى مختلف صوره ، وتعميم الخير الذى جاء به الإسلام لإسعاد بنى البشر جميعا ، وأن الأصل هو احترام دم الإنسان ، - بعد هذا البيان - جاءت هاتان الآيتان تقرران حكم وقوع القتل بين المؤمنين : بعضهم مع بعض .

روى عروة بن الزبير : أن حذيفة بن اليمان ، كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد فأخطأ المسلمون ، وظنوا أن أباه واليمان ، واحدٌ من الكفار ، فأخذوه وضربوه بأسيافهم ، وحذيفة يقول : إنه أبى ... فلم يفهموا قوله إلا بعد أن قتلوه . فقال حذيفة : يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين . فلما سمع الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك ، ازداد وقع حذيفة عنده . فنزل قوله تعالى :

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً) [1] :

أى : وماصح وما استقام لمؤمن صادق الإيمان فيما أتاه من ربه فى شريعة الإسلام ، أن يقتل إنسانا مؤمنا بغير حق ، إلا خطأً .

لأن إيمان المؤمن زَاجِرٌ له عن ذلك ، وربما وقع لأنه احتراز عن الخطإ ، مما لايكاد يدخل تحت الطاقة البشرية ، فيكون الواجبُ مابُيِّنَ فى قوله تعالى :

(وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا) :

أى : ومن وقع منه القتل الخطأُ ، فالواجب عليه فى هذه الحالة ، أن يعتق نفسًا مؤمنةً ، وأن يؤدى إلى ورثة القتيلِ ديةً : يقتسمونها كما يقتسمون الميراث .

---

(١) رواه البخارى .

والدية : عوضٌ عن دم القتيل . وهى مائة من الإبل أو قيمتها بالدراهم أو الدنانير . وقد قدّرها عمر - رضي الله عنه - بألف دينار على من يتعاملون بالذهب ، واثنى عشر ألف درهم على من يتعاملون بالفضة .

رَوَى أبو داود عن عمر رضى الله عنه : على أهل الإبل مائة بَدَنة ، وعلى أهل البقر مائتا بقرة ، وعلى أهل الشاء ألف شاة ، وعلى أهل الحلل مائتا حلة . وتتحمل عشيرة القاتل عنه دفع الدية ، فإن لم تكن له عاقلة ، وجبت على بيت المال ، فإن لم يكن فيه ، وجبت فى مال القاتل . . ولاتسقط هذه الدية . إلا فى حالة تنازل أهل القتيل عنها .

وهذا التنازل نوع من المعروف . وكل معروف صدقة ؛ ولذا قال تعالى :
(إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا) : أى تجب الدية إلا أن يَعْفُوَ أَهلُ القتيل بالتنازل عنها ، وسُمِّىَ هذا التنازلُ صدقةً . حثًّا لن يستحقون الدية على التنازل عن الديات ، وتنبيها على فضل العفو .

هذا إذا كان المقتول خطأً مؤمنًا : من قوم مؤمنين .

(فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ) :

أى : فإن كان المقتول خطأً من قوم كفار معادين للمؤمنين - وهو مؤمن - فالواجب فى هذه الحالة : عتق رقبة مؤمنة ، وفكاكها من قيد الرق ، وإطلاق حريتها : كفارة عن هذا القتل الخطإ . ولا دية . . . لأنها تعود على أعداء المسلمين المحاربين . ولايجوز أن يدفع المسلمون أموالهم إلى عدوهم ليتقوى عليهم بسببها ويحاربهم بها . وفى تحرير النفس المؤمنة تعويض للمسلمين عن ذلك القتيل ؛ لأن الرق غُلٌّ فى عنق الرقيق : يمنعه من العمل النافع له وللمجتمع ، من حيث إنه لايملك نفسه ، فكان فى حكم الميت . وفى إطلاق حريته بالعتق إحياء له .

(وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ) :
أى: وإن كان المقتول خطأً ، من قوم كفار بينكم - أيها المسلمون - وبينهم عهد وميثاق، وليسوا أعداء لكم ، فالواجب - فى هذه الحالة - المبادرةُ بأداء دية تسلم إلى أهل القتيل : تعويضا عن دمه ، كما يجب - كذلك - عتق نفس مؤمنة ؛ لأن دماء هؤلاء قد عُصِمت ، بحكم مابينهم وبين المسلمين من ذمة وميثاق .

وفى هذا القسم من أقسام القتل الخطإ ، لم يوصف المقتول بالإيمان أو الكفر ، مما يشعر بـأن وجود عهد وذمة بين المسلمين ، يسوِّى بين الجميع فى الدية والفدية .

وبذلك يرتفع الإسلام إلى أعلى مستوًى من رعاية حقوق المعاهدين والذميين. وهو تشريعٌ فى رعاية العهد وحرمة الدم ، لا يسَامَى أبدًا .

وحرمة الدم الإنسانى ، واضحة فى إيجاب عتق الرقيق فى جميع حالات القتل ، عَدَا العداوة والتحفز والكيد ، الأمر الذى يهدر الدم معه ، وإذا أهدر الدم فلا حرمة له .

وعتق الرقيق واجب إذا ملكه ، أوملك مايوصله إليه .

(فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ) :

أى: فمن لم يجد الرقيق بـأن لم يملكه ، ولا يملك ما يوصله إليه ، بـأن عجز عن ثمنه ، أو عجز عن شرائه مع اليسار بثمنه ، فالواجب على القاتل ـ فى هذه الحالة ـ الانتقال إلى البدل : وهو صيام شهرين متتابعين : لايقع بين أيامهما إفطار بغير عذر يبيح الفطر .

(تَوْبَةً مِّنَ اللهِ) :

أى : شرع الله هذا الصيام ، رجاء قبول توبة القاتل ؛ لأنه ـ بـأداء هذا الصوم ـ يقدِّم دليلا ـ عمليا ـ على صدق توبته ورجوعه إلى ما أمر الله به من احترام الدماء ، وتطهير نفسه بحبسها عن الشهوات شهرين متتابعين : يتوجه المرءُ فيهما إلى الله ، صادقا مخلصا فى توبته من الذنوب والآثام .

(وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا) :

أى : وكان الله ـ ولايزال ـ عظيم العلم بما انطوت عليه النفوس ، وأضمرته القلوب ، فى جميع الأحوال : بالغ الحكمة فى كل ماشرعه من الأحكام .

ومما تجدر الإشارة إليه : أن العلماء اختلفوا فيمن عجز عن الصيام :

فقال بعضهم : يجب عليه إطعام ستين مسكينا ، كما فى كفارة الظهار . وإنما لم يذكر التكفير بالإطعام هنا ؛ لأن هذا مقام تخويف وتهديد وتحذير ، فلا يناسب أن يذكر فيه الإطعام ؛ لما فيه من التسهيل والترخيص .

وقال آخرون : لايعدل إلى الإطعام ؛ لأنه لو كان واجبا ، لما أخر بيانه عن وقت الحاجة .

٩٣ـ (وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا) :

فى الآية السابقة بيان حكم القتل الخطإ بأقسامه الثلاثة .

وفى هذه الآية الكريمة بيان حكم القتل العمد فى الآخرة .

(وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا) :

أى : ومن يقتل مؤمنا قاصدا قتله ، فجزاؤه الذى يستحقه على اقتراف تلك الجريمة الشنيعة ، دخولُ جهنم ماكثا فيها مكثا طويلا ، إلى أن يشاء الله إخراجه من النار فيخرجه منها ، إذ ليس المراد من الخلود هنا دوام البقاء فى جهنم أبدا ، فإن الخلود فيها أبدا ، جزاء الكافرين .

(وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ) :

أى وانتقم الله منه ، وأبعده سبحانه عن رحمته .

(وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا) :

أى : وقد هيأ الله فى جهنم لمن تَعَمَّدَ قَتْلَ المؤمنِ ، عذابًا رهيبا ، لايدرك الإنسان غايته ؛ لشدة بشاعته .

وفى هذه الآية تهديد شديد ، ووعيد أكيد ، لمن يجترئون على سفك دماء المسلمين بغير حق .

وقد تأيد هذا الوعيد ، بأخبار كثيرة ، رويت عن النبى صلى الله عليه وسلم .

منها : ما أخرجه الإمام أحمد والنسائى ، عن البراء بن عازب : أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « لَزَوَالُ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، أَهْوَنُ عِندَ اللهِ ـ تعالى ـ مِنْ قَتْلِ مُؤْمِنٍ .. وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ سَماواتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ اشْتَرَكُوا فِي دَمِ مُؤْمِنٍ ، لَأَدْخَلَهُمُ اللهُ تَعالى ، النَّار » .

ولا يخفى ما فى هذا من الوعيد والتهديد ، على قتل النفس التى حَرَّمَ الله قتلها .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿٩٤﴾) .

المفردات :

(ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ) : سافرتم للغزو .

(فَتَبَيَّنُوا) : فاطلبوا بيان الأمر والكشف عنه وتَثَبَّتُوا .

(أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ) : حيَّاكم بتحية الإسلام .

(تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) : تطلبون متاعها الزائل ، ونعيمها الفانى : من مال وغيره .

التفسير

٩٤ـ (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا . . .) الآية .

بعد أن بينت الآيتان السابقتان حكم القتل بقسميه ، وأن أقصى ما يُتصور صدورُه عن المؤمن ، إنما هو القتل الخطأ ـ جاءت هذه الآية ، تحذر مما يقود إليه من التهاون وقلة المبالاة فى الأُمور .

روى البخارى ، والترمذى ، والحاكم ، وغيرهم ، عن ابن عباس قال : مَرَّ رجلٌ من بنى سليم بنفر من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو يسوق غَنَمًا له ، فسلَّم عليهم ، فقالوا : ماسلَّمَ علينا إلا ليتعوَّذ مِنَّا ، فعمَدوا إليه فقتلوه ، وأتَوا بغنمه النبىَّ ، صلى الله عليه وسلم ، فنزلت هذه الآية .

وهناك روايات أخرى بهذا المعنى .

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا . . . .) الآية .

أى إذا سرتم فى الأرض مسرعين للجهاد فى سبيل الله، فتبينوا الأمر، وابحثوا عن الحقيقة فى كل ماتأتون وتذرون، وتثبتوا من حال من تقاتلونهم .

(وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا) :

أى : ولاتقولوا ـ بغير تثبت وتأمل لمن حياكم بتحية الإسلام ـ لست مؤمنا، وأنك إنما قلت ذلك : طلبا للنجاة بنفسك ومالك، ولست مخلصا فى إسلامك .

(تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) :

أى : تقصدون بقولكم هذا : طلب ماله وأخذه، وهو ـ وإن كثر ـ متاع قليل زائل . وكذلك كل مافى الدنيا .

(فَعِندَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ) :

أى : لاتبتغوا المال بما قلتموه لمن حياكم بتحية الإسلام، ولا تلتفتوا إلى العرَض الزائل ؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ عنده الثواب الجزيل، والأجر العظيم . وخير الله عميم، ومغانمه كثيرة : يمُنُّ عليكم بها، فيغنيكم عن ارتكاب ما ارتكبتم، إن كنتم تريدون خيرا ومغنما .

(كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ) :

أى : وقد كنتم من قبل ـ فى بدء إسلامكم ـ لايظهر منكم للناس غَيْرُ ماظهر من هذا الذى يأمركم الله بقبول ما ألقاه إليكم، من تحية الإسلام ونحوها .

(فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ) :

بأن اقبِل منكم هذا الظاهر، وعُصِمَت به دماؤكم وأموالكم، ولم يأمر بالتفتيش عما فى قلوبكم، حتى شاع إسلامكُم بين الناس، وأكرمَكُم الله به .

(فَتَبَيَّنُوا) :

أى : إذا كان الأمر كذلك، فاطلبوا بيان الحال، وتَدَبَّرُوا الأمر، وقِيسوا حال هذا الذى أَلْقَى إليكم تحية الإسلام بحالكم من قبل، وافعلوا معه ما فُعِلَ بكم فى أول أمركم، من قبول ظاهر الأمر، من غير تنقيب عن السرائر . . . وتأملوا . . أَهَلْ كان يرضيكم أن يقع بكم مثلُ الذى تريدون أن توقعوه بِمَنْ أَلْقَى إليكم السلام ؟

لاريب أن جوابكم يكون : لا . . . وأن ظاهر الحال كافٍ فى عصمة الدم والمال .

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) :

فيعلم ما تخبئه النفوس وتضمره القلوب ، وبواعِثَهَا على العمل ، وغاياتِها التى لاتنكشف للناس .

ولاينبغى للمسلمين : أن يجعلوا عَرَض الحياة الدنيا غايتَهم من الجهاد ، إذا خرجوا يجاهدون فى سبيل الله .

(لَا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٩٦﴾) .

المفردات :

(الْقَاعِدُونَ) : المتخلفون عن الجهاد .

(أُولِى الضَّرَرِ) : أصحاب الأمراض والعاهات .

التفسير

٩٥ـ (لَا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ . . .) الآية .

بعد أن أمر الله المؤمنين بالجهاد وحرضهم عليه ، وذكر من أحكامه تحذيرَ المؤمنِ مِن قَتْلِ أخيه المؤمن ، وبيّن أحكامَ قتلِهِ ــ أتبعه بيانَ حكمٍ آخر : هو بيان فضل المجاهد على غيره ؛ ليهتز له القاعد عنه ، رغبةً فى الحصول على فضله العظيم .

أخرج البخارى ، عن زيد بن ثابت ، قال: « أَمْلَى عَلَيَّ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (لَايَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ) قال: فجاءه ابن أم مكتوم وهو يمليها علىَّ ، فقال : يارسول الله : لو أستطيع الجهاد لجاهدت - وكان رجلا أعمى - فأنزل الله تبارك وتعالى ، على رسوله صلى الله عليه وسلم - وفخذه على فخذى ، فثقلت عَلَيَّ ، حتى خِفت أن ترض فخذى - ثم سُرِّى عنه . فأنزل الله عز وجل - (غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ) » .

وفى رواية البراء بن عازب . فأنزل الله - عز وجل - (لَايَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ) .

والمعنى : (لَايَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ) .

أى : لايستوى المتخلفون من المؤمنين الأصحاء ، الذين قعدوا عن الخروج للجهاد ، بدون عذر من مرض أو غير ذلك : من فقد السلاح ، وما يُحْمَلون عليه - لايستوى هؤلاء والذين خرجوا للجهاد فى سبيل الله : بأموالهم وأنفسهم ، فى الأجر والثواب ، وعلوِّ الدرجة عند الله تعالى .

وكيف يستوى من تخلَّف - بدون أعذار - مع الذين أنفقوا أموالهم فيما يُضعِف قوةَ الكافرين ، ويُذهب شوكَتَهُم ، ويوهِن كيدَهم ، وبذلوا فى القتال أرواحهم : راضين صابرين ؛ لتكون كلمةُ الله هى العليا ، وكلمةُ الذين كفروا السفلى ؟ !

ولما بين الله تعالى ، أن المجاهِدِين والقاعِدين لايستويان.. ولما كان عدم المساواة يحتمل الزيادة ويحتمل النقصان - دفع النصُّ القرآنى احتمالَ النقصان ، بقوله تعالى :

(فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً) :

فالمراد بهذا : تفضيلُ مابين الفريقين من التفاضل ، حيث بيّن الله بذلك أن بَذْلَ الأموالِ والأنفس فى سبيل الله ، لإعلاء كلمة الحق ، ابتغاء مرضاة الله ، سببٌ فى تفضيل المجاهدين من المؤمنين على الذين قعدوا عن الجهاد ، وتخلفوا عن البذل والإنفاق بغير عذر ، درجةً عظيمةً ، لايعلم قدرها إلا الله .

(وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى) :

أى وكلا من فريقَى المجاهدين والقاعدين من المؤمنين ، وعده الله المثوبة الحسنى ، وهى الجنة . لتحقُّقِ الإيمانِ الصادق فيهما .

ومحل هذا ، إذا لم يكن النفير عاما ، وكان التخلف لايضر الجبهة المقاتلة من المسلمين ، بأن كان فيمن خرجوا للقتال كفايةٌ للقاء العدو لإنزال الهزيمة به .

وذلك مالم توضع نظم تجعل التجنيد إجباريا .

أما مع وجود هذه النظم ، كالذى يجرى عليه العمل فى الدول الإسلامية اليوم ، فإنه حينئذ ، لايحل لأحد أن يتخلف عن دوره ، وإلا كان متخلفا عن الزحف لقتال الأعداء .

والمتخلف عن الزحف: مرتكب أشد الكبائر ، معاقَبٌ عند الله أشد العقاب . وللحاكم أن يعزره بما يردعُ سواه من التعازير المشروعة .

(وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا) : كان تفضيل المجاهدين بهذا الأجر العظيم - زيادةً على القاعدين من غير أولى الضرر - إكرامًا من الله لهم ، لِمُسَارَعَتِهِم إلى الجهاد ، وبذْلهم أموالَهم وأنفسَهم فى سبيل الله : راضين مغتبطين .

وفيه من تأكيد أجر المقاتلين مالا يخفى .

وقد بين الله سبحانه - هذا الأجر العظيم ، بقوله تعالى :

٩٦ - (دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً . . .) الآية .

أى منازلَ عظيمةً لايُحيط الوصفُ بفخامتها وجلال قدرها من عند الله . . تفضَّل الله على المجاهدين بها ، لِمَّا صدقوا فى الجهاد . ومغفرةً لهم من الذنوب ، ورحمةً يحيطهم الله بها ، ويحفظهم بشمولها ؛ لأن المسلم - دائما - فى حاجة شديدة إلى مغفرة عظيمة من الله ، ينجو بها ، ورحمةٍ واسعة يَسْبَحُ فى رحابها .

(وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا) :

أى وكان الله - ولايزال على الدوام - عظيمَ الغفران لذنوب عباده ، واسعَ الرحمة بكل شىء .

فلا تزهوا أيها المجاهدون بما بذلتم من أنفس وأموال فى سبيل الله . ولا تنسَوا أن الفضل كلّه من الله .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾) .

المفردات :

(مُسْتَضْعَفِينَ) : عاجزين عن القيام بما وجب عليهم .

(وَالْوِلْدَانِ) : الصغار أو المراهقين أو الأرقاء .

(لَايَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً) : لايجدون سببا موصلا إلى الغرض .

التفسير

٩٧ - (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ . . .) الآية .

هذه الآيات بيان لحال الذين قعدوا عن الهجرة ، وآثروا البقاء فى دار الكفر . جاءت إثر بيان حال الذين تخلفوا عن الجهاد بغير عذر ، وقعدوا عن القتال فى سبيل الله .

عن عكرمة مولى ابن عباس . قال : « أخبرنى ابنُ عباس : أن ناسًا من المسلمين كانوا مع المشركين يُكثِّرون سوادَ المشركين على رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتى السهم يُرمى فيصيب أحدَهم فيقتله ، أو يُضْرَبُ فَيُقْتَل . فأنزل الله : (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ . . .) الآية » . أخرجه البخارى .

(إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ) : أى إن الذين أسلموا ، وآثروا البقاء بين ظهرانى المشركين فى دار الكفر ، وتحملوا الذل والهوان والقهر - وهم

قادرون على التخلص مما هم فيه — من كبت وإذلال — بالهجرة إلى بلد يأمنون فيه على دينهم وأموالهم وأنفسهم — إنَّ هؤلاء تقبض الملائكة — أى ملك الموت وأعوانه — أرواحهم بإذن الله، عند انتهاء آجالهم، فى حال ظلمهم أنفسَهُم، باختيارهم الاستكانة والهوانَ، مع قدرتهم على دفع الظلم بترك مساكنهم .

(قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ) :

أى تقول لهم الملائكة — تقريعا وتوبيخا حين تقبض أرواحهم — : فى أى شىء كنتم من أمر دينكم ؟ هذا الدين الذى يأمر المسلمَ أن يكون — دائما — مع الجماعة : يعيش مرفوع الرأس فى عزة وكرامة، ولا يرضى له أن يكون خفيض الجناح ؛ فى خسة ومهانة .

(قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى الْأَرْضِ) :

أى قالوا جوابا عن هذا السؤال الذى يفيض بالتبكيت والإيلام . إذ معناه : أنكم لم تكونوا فى شىء من أمر دينكم، حين أقمتم بدار الكفر، وأنتم قادرون على الهجرة منها .. قالوا — معتذرين فى وقت لاينفع فيه الاعتذار — : كنا نعيش مقهورين تحت أيدى الكفار بأرض مكة بسبب ضعفنا .

(قَالُوٓا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا) :

أى تقول الملائكة — فى ردهم لهذا الاعتذار وعدم قبوله منهم، وانكارا لتحملهم إذلال الكفار إياهم — : إنكم كنتم قادرين على الهجرة إلى مكان تستطيعون إقامة دينكم فيه، واللحاق بإخوانكم المهاجرين والانضمام إلى صفوفهم، ليزدادوا بكم قوة ومنعة، فبقيتم بين الكفار، لاعجزًا عن مفارقتهم، بل كان فى وسعكم ترك ديارهم، ولكنكم لم تفعلوا . فكان جزاؤكم ما بينه الله فى قوله : (فَأُولَٰٓئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا) : أى فجزاء هؤلاء الذين تخلفوا عن الهجرة : أن يقيموا فى جهنم ويستقروا فيها : هى مأواهم ومصيرهم، وبئس هذا المأوى، وذلك المصير .

٩٨ — (إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَآءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا) :

بعد أن بينت الآية السابقة وعيد مَن كانوا يستطيعون الهجرة وتخلفوا عنها ، جاءت هذه الآية الكريمة ، تستثنى من هذا الوعيد : الذين لايستطيعون ذلك . فقالت : (إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَآءِ وَالْوِلْدَانِ) : أى لكن الضعفاء من الرجال الذين لايقدرون فعلا على المقاومة ، ولا على دفع الظلم والفساد ـ وكذلك النساء والصغار ـ ممن (لَايَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَايَهْتَدُونَ سَبِيلًا) :

أى لايجدون وسيلة تخلصهم مما هم فيه من القهر والذل . ولايعرفون طريقا يستطيعون سلوكه للنجاة مما يلاقون فى دار الكفر من ذل وهوان .

٩٩ ـ (فَأُولَـٰئِكَ عَسَى اللهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُورًا) :

أى فهؤلاء المستضعفون ، لاشىء عليهم ، ولاتثريب فى عدم هجرتهم . ولهم أن يطمعوا فى عفو الله ، ويتطلعوا إلى رحمته ؛ لأنه كثير العفو ، واسع المغفرة .

(وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٠)) .

المفردات :

(مُرَاغَمًا) : متحولا يتحول إليه ، ومكانا يتنقل فيه .

(وَسَعَةً) : السعة : البسطة فى العيش ، والزيادة فى الرزق .

(فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ) : أى ثبت ثوابه عنده .

التفسير

١٠٠ ـ (وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِى الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً . . .) الآية .

كانت الآيات السابقة فى تحذير المسلمين من القعود عن الهجرة . من مكة عند القدرة عليها ، وبعث الرجاء فى نفوس المستضعفين بأن الله سيعفو عنهم .

وهذه الآية جاءت بعدها ؛ للترغيب فى تلك الهجرة : ببيان ثوابها ومنزلتها عند الله تعالى . وكونها طريقا للنصر . وإذلال الأعداء ، وبابًا واسعا للرزق . وذلك جريًا على عادة القرآنِ الكريم : من الجمع بين الوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب .

سبب النزول :

لما نزلت الآيات السابقة فى التحذير من القُعُود عن الهجرة ، خرج ضمرة بن جندب مهاجرًا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمات فى الطريق قبل أن يصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزلت هذه الآية : (وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ اللهِ . . .) الآية .

أورده ابن كثير ، عن ابن عباس .

(وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِى الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً) :

أى : ومن يعمد إلى مثل تلك الهجرة - فى سبيل إعلاء كلمة الله ، والمحافظة على دينه - يجد فى الأرض متسعًا لهجرته ، ورحابًا فسيحة ، يستطيع التنقل فيها ، والتحول إليها ، والاستمتاع بخيراتها . واتخاذ الموقع المناسب لضرب الأعداء والنجاة من شرهم .

وفى ذلك مافيه من الإهانة لهم ، وإرغام أنوفهم . كما يجد - إلى جانب ذلك - سعة فى الرزق ، وبسطة فى العيش ... فلا عذر لأحد من الأقوياء فى القعود عن الهجرة والبقاء فى دار الكفر : مكتومَ الأنفاس ، متعرضا لأذى الكفار قال تعالى : « يَاعِبَادِىَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِى وَاسِعَةٌ فَإِيَّاىَ فَاعْبُدُونِ »[1] .

وليست الهجرة - بصفة عامة - للهرب من العدو ، وإنما هى ضرب من الجهاد ، للقضاء على سيطرة الأعداء ، وتحولٌ من موقع إلى موقع آخر ، يمكن منه ضرب العدو ، وإلحاق الأذى والذل به ، والتمكن من إقامة شعائر الدين فى حرية وطلاقة .

فهى فى الأصل : الانتقال من مكان إلى مكان . والمراد بها : الهجرة من أرض الكفر إلى أى مكان يأمن فيه الإنسان على نفسه وماله ودينه .

---

(١) العنكبوت ، الآية : ٥٦

وقد هاجر بعض المسلمين – فى أول الإسلام – إلى الحبشة .

ثم كانت الهجرة بعد ذلك من مكة إلى المدينة . وكانت واجبةً قبل فتح مكة . وهى التى نزلت فيها آيات الترغيب والترهيب .

ولما تم فتح مكة ، واستقر الأمر فيها للمسلمين ، وأعز الله فيها الإسلام ، لم تعد هناك حاجة إلى الهجرة من مكة .

ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : « لاهجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية »[1] .

وتشمل الهجرة بالمعنى العام : الهجرة فى طلب العلم ، والهجرة فى طلب الرزق ، والهجرة فى نشر الدعوة الإسلامية فى البلاد التى لم تصلها أو التى هى فى حاجة إليها . وكلها مما رغب الله فيه .

وقد تطلق الهجرة على هجر الذنوب والمعاصى ، كما فى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « والمهاجر من هجر مانهى الله عنه »[2] .

هذا ، وقد تكفل الله تعالى ، فى هذه الآية الكريمة ، بثواب الهجرة كاملا لمن خرج من بيته بنيّة الهجرة : لايريد بذلك إلاوجه الله واللحاق برسول الله ، ثم حلَّ به الموت قبل أن يصل إلى مقصده ، وإن أدركه أمام باب داره التى خرج منها . فقال جل شأنه :

(وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ) : أى لإعلاء كلمة الله ، فهى ضرب من الجهاد .

(ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ) : أى يلحقه ، وينزل به قبل أن يبلغ مقصده :

(فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ) : أى ثبت ثوابه عنده ، وكان فى ضمانه تعالى بمقتضى وعده وتفضله .

---

(١) رواه البخارى فى الحج والجهاد . (٢) رواه البخارى وغيره .

(وَكَانَ اللهُ غَفُورًا) : أى كان - ولايزال - عظيم المغفرة لما فرط من الذنوب ، التى من جملتها : القعود عن الهجرة من غير عذر إلى وقت الخروج إليها .

(رَحِيمًا) : كثير الرحمة بعباده حيث قبل توبتهم ، وغفر ذنوبهم .

فهذه الآية الكريمة : تطمئن المهاجر على رزقه فى مهجره ، حتى لايتقاعس عن الهجرة ، فترفع عنه جميع الأعباء ، وتفتح له سُبُلَ السعادة فى الدنيا ، وتعده بعظيم الثواب فى الآخرة ، حتى لو حال الموت بينه وبين مايتمناه : من إتمام الهجرة فى سبيل الله ، بعد أن شرع فيها .

(وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا (١٠١)) .

المفردات :

(ضَرَبْتُمْ فِى الْأَرْضِ) : سافرتم .

(جُنَاحٌ) : حَرَج وإثم .

(أن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ) : أن تخففوها من رباعية إلى ثنائية .

(يَفْتِنَكُم) : يتعرض لكم بما تكرهون من الإغارة عليكم أثناء الصلاة .

التفسير

١٠١ - (وإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى الْأَرْضِ . . .) الآية .

بعد أن رغبت الآية السابقة فى الهجرة - وهى مبنية على السفر والخوف من العدو - جاءت هذه الآية تبين كيفية الصلاة فى السفر ، وفى حال الخوف من العدو : من جواز قصرها ، دفعا للمشقة ، وتفضلا من الله على عباده .

والكلام عن الصلاة فى هذا الموطن؛ للدلالة على أنها وسائل الأمن عند الخوف ، وعلى عظم شأنها ، وبيان أنها لاتسقط بحال من الأحوال .

والمعنى : وإذا سافرتم فى الأرض – أيها المسلمون – :

(فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ) : حرج وإثم .

(أن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ) : فتصلوا الرباعية – وهى الظهر والعصر والعشاء – ركعتين . . أما الصبح فلا تقبل القصر ؛ لأنها قصيرة بطبيعتها ، وكذلك المغرب لاتقبل القصر ؛ لأنها وتر النهار .

وظاهر الآية : إباحة القصر لمطلق السفر ، طال أم قصر . . ولكن الفقهاء اختلفوا فى تحديد مسافة القصر ومدته ، كما اشترط بعضهم أن يكون سفرا مباحا . . وتفصيل ذلك فى موضعه من كتب الفقه .

وظاهر قوله تعالى :

(إنْ خِفْتُمْ أن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا) : اشتراط الخوف فى السفر فى جواز القصر . ولكن السنّة النبوية ، بينت أنه يجوز القصر فى السفر مع الأمن ، كما يجوز فيه عند الخوف .

وفى ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم جوابا لمن سأله عن القصر حالة الأمن : «صَدَقَةٌ تَصَدَّقَ اللهُ بِها عَلَيكُم فَاقْبَلُوا صَدَقَتَهُ»[1] وقد بيّن الله سبب الترخيص – فى القصر فى السفر – عند الخوف من العدو بقوله :

(إنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا) : أى كانوا لكم أعداء ظاهرى العداوة ، مجاهرين بها .فتنبهوا لعداوتهم واحذروها ، وكونوا متيقظين لهم فى الصلاة وغيرها .

---

(١) كتاب سبل السلام (باب القصر) أول حديث فيه.

(وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾) .

المفردات :

(طَآئِفَةٌ) : جماعة .

(وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ) : وليكونوا متيقظين للعدو ، محترسين منه .

(فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ) : فيهجمون عليكم .

(مَيْلَةً وَاحِدَةً) : هجمة واحدة يقضون بها عليكم : فلا يحتاجون بعدها إلى هجمة أُخرى .

التفسير

١٠٢ ـ (وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ مَّعَكَ . . .) الآية .

لما بيّن الله حكم القصر فى السفر عند الخوف ، عقّبه ببيان كيفية صلاة الخوف .

سبب النزول :

روى الدارقطنى ، عن أبى عياش الزرقى ، قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعسفان ، فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد ، وهم بيننا وبين القبلة ،

فصلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر . فقالوا : لقد كانوا على حال لو أصبنا غرتهم ، ثم قالوا : يأتى عليهم صلاة هى أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم ، قال : فنزل جبريل عليه السلام – بهذه الآية بين الظهر والعصر : (وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ)[1]

ومعنى (وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ ، فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَآئِكُمْ) : وإذا أردت أن تصلى بهم إماما ، فلتصل طائفة منهم معك ، بعد أن تجعلهم طائفتين ، ولتقف الطائفة الأخرى تجاه العدو لمراقبته وحراسة المسلمين منه . (وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ) : أى ولتأخذ الطائفة التى تصلى معك أسلحتهم ، ليتقوا بها العدو عند المفاجأة ، (فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَآئِكُمْ): أى فإذا فرغت الطائفة التى تصلى معك من سجود الركعة الأولى ، فلينصرفوا للحراسة خلفكم .

(وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ) :

أى : ولتأت الطائفة الأخرى التى كانت فى مواجهة العدو للحراسة والمراقبة ، والتى لم تصلّ بعد ، فليصلوا معك الركعة الثانية ، وهى الأولى لهم .

(وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ) :

أى : يجب أن يكونوا دائما متيقظين لمخادعات العدو ، وليأخذوا أسلحتهم معهم ليتقوه بها إن بادأهم ؛ لأن الأعداء يتمنون أن ينالوا منكم غرة فى صلاتكم ، فيحملوا عليكم حملة واحدة : منتهزين فرصة انشغالكم بالصلاة . كما قال تعالى :

(وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً): والأمتعة مايتمتع به المحارب من لوازمه فى السفر .

والأمر هنا : للوجوب ، لقوله تعالى بعده :

(وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ):

---

(١) رواه أحمد، وأصحاب السنن ، واللفظ لأحمد.

أى : لا إثم عليكم فى أنْ تتركوا أسلحتكم عندما يكون بكم تَأَذٍّ من المطر أو المرض .
وهذه الرخصة لاتعطَى إلا فى حال العذر الذى بينه الله فى الآية فى قوله تعالى :

(وَخُذُوا حِذْرَكُمْ) : أى كونوا على حذر دائما ، وبخاصة فى تلك الحالة التى وضعتم فيها أسلحتكم .

(إنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا) : يهينهم ويخزيهم ويذلهم ، يتحقق بعضه على أيديكم بالنصر عليهم . إذا اتبعتم النصيحة ، ونهضتم بالتكاليف ، وكنتم دائما على صلة بالله ، وفى موقف اليقظة والاستعداد بما تستطيعون من قوة ، ويتحقق بعضه الآخر بالعذاب الذى يلاقونه يوم القيامة من الله بسبب كفرهم ومحاربتهم أولياءه . فاهتموا بأموركم ولا تهملوا مباشرة الأسباب .

هذا نموذج من نماذج تأدية الصلاة فى الميدان حين التربص والتهيؤ .

وقد دلت الآية على أهمية الصلاة وضرورتها ، وما للجماعة فيها من ميزة ومنزلة ، حتى فى أشد حالات الخوف .

فالصلاة هى المدد الروحى الحافز للعزائم على النصر ، إذ هى صلة بالله رب العالمين ، القادر على كل شىء . وهو مالك الأسباب جميعها للنصر وغيره . « وَمَا النَّصْرُ إلاَّ مِنْ عِندِ اللهِ »[1] .

فعلى المسلمين أن يحرصوا على أداء الصلوات استدرارًا لِعَوْنِ الله .

وفى الحروب الحديثة عليهم تأدية الصلاة بالكيفية التى تناسب وضعهم من العدو ، بحيث لايعرض أمنهم للخطر .

وقد بين الشرع طريقتها فى كل حال .

ومنها : أنه إذا التحم الجيشان ، فللجندى أن يصلى مستقبل القبلة أو غير مستقبلها ، وعلى أية كيفية ممكنة ولو بالإيماء .

وفى ذلك يقول الله تعالى : « فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا »[2] .

---

(١) آل عمران ، من الآية : ١٢٦ (٢) البقرة ، من الآية : ٢٣٩

(فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾) .

التفسير

١٠٣ - (فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ . . .) الآية .

أى : فإذا أديتموها على هذا النحو .

(فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ) : يأمر الله - تعالى - بكثرة الذكر عقيب صلاة الخوف - وإن كان ذلك مشروعا فيه بعد غيرها أيضا - ولكن ههنا آكد ، لما وقع فيها من التخفيف فى أركانها ، ومن الرخصة فى الحركات الكثيرة التى لاتباح فى غيرها - وكما يذكرونه بألسنتهم يذكرونه بقلوبهم .

(فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ) : أى سكنت قلوبكم من الخوف ، وأمنتم بعدما وضعت الحرب أوزارها .

(فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ) : أى أدوها بأركانها وشروطها كاملة فى مواقيتها .

(إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا) : أى أقيموها كذلك ؛ لأنها كانت فى حكم الله ، ولازالت مكتوبة مفروضة محددة الأوقات : لايجوز إخراجها عن أوقاتها فى أمن .

(وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾) .

التفسير

١٠٤ - (وَلَا تَهِنُوا فِى ابْتِغَآءِ الْقَوْمِ . . .) الآية .

أى : لاتضعفوا ولا تتوانَوْا فى طلب الكفار أهل الحرب . لقتالهم ، لأنكم (إن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَالَا يَرْجُونَ) : فليست الآلام مختصةً بكم . بل هى أمر مشترك بينكم وبينهم . وتزيدون عليهم : أنكم ترجون وتطمعون من الله تعالى . فيما لايخطر لهم ببال . من نصر دينه الذى أمركم بالجهاد فى سبيله . ومن الثواب الجزيل . والنعيم المقيم فى الآخرة . فأنتم تنصرون الله وهو معكم على عدوكم . ومن كان الله معه فهو من المنتصرين .

(وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا) : عظيم العلم بكل شىء ، فيعلم مافيه مصلحتكم فى دنياكم وأخراكم : عظيم الحكمة فيما يأمركم به وينهاكم عنه . فجدوا فى الامتثال لأمره ؛ فإن عواقب الامتثال لحميدة .

(إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾) .

المفردات :

(خَصِيمًا) : مجادلا ، ومدافعا .

(يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ) : يخونونها بالظلم والشر ؛ لأن وبَالَ ذلك يعود عليها .

(يُبَيِّتُونَ) : يدبّرون خفية .

التفسير

١٠٥ - (إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَآ أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا) :

كانت الآيات السابقة . متعلقةً بقتال الأعداء ومجاهدة الكفار ؛ وما يتعلق بذلك من أحكام . فأتبعها الله تعالى هذه الآيات الدالة على التزام الحق - حتى مع الأعداء - لئلا يُتوهم أن عداوة الكفار تبيح الخروج عن دائرة الحق .

وفى ذلك من الدلالة على سموّ مبادئ الإسلام وعدالته المطلقة مافيه .

سبب النزول :

روى ابن مردويه بسنده إلى ابن عباس رضى الله عنهما : أن نفرا من الأنصار غَزَوْا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأنزل الله :

(إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ . . .)[1] الآية .

فالله يذكر نبيه عليه الصلاة والسلام ، وينبهه إلى مهمته الأصلية . وهى أن يحكم بين الناس بما أرشده الله إليه . وذلك بأن يسوى بينهم على اختلاف نزعاتهم وعقائدهم . كما قال تعالى : « وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٓ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ . . . »[2] .

المعنى : يقول الله لهذا النبى الكريم : إنا أنزلنا إليك القرآن الكريم ناطقا بالحق ، داعيا إليه وإلى التمسك به ، لتحكم بين الناس على اختلاف عقائدهم ، بما عرفك الله وأوحى به إليك . ولاتكن مجادلا عن الخائنين ، فينتصروا على البرءاء .

---

(١) ابن كثير ١ / ٥٥١ (٢) المائدة من الآية : ٨

١٠٦ـ (وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً) :

واستغفر الله للمذنبين من أمتك ، فلعل الله أن يغفر لهم ـ فإنه واسع المغفرة ، كثير الرحمة يقبل التوبة عن عباده ، ويعفو عن السيئات .

١٠٧ـ (وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ . . .) الآية .

أى : تدافع عن الذين يخونون أنفسهم ؛ بارتكابهم المعاصى والآثام ، وادعائهم للبراءة منها ؛ كذبًا وزورا .

والمقصود بهم هنا : بنو أبيرق ، الذين نزلت فيهم الآية[1] ، ومَنْ على شاكلتهم .

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا) :

أى : لا يرضى عمن يكثرون من الخيانة والإثم . بارتكاب المعاصى وانتهاك محارم الله ، واتهام غيرهم بها بهتانا وزورا .

١٠٨ـ (يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ . . .) الآية .

المعنى : يستترون من الناس ، مخافة أن يظهروا أمامهم بالإثم ويُعْرَفوا به ، ويلامُوا عليه . ولا يستحيُون من الله ، حين يبيتون مالا يرضى من القول : من اتهام البرىء ، والحلف الكاذب ، وشهادة الزور . وذلك حين عزموا على اتهام من لا يدين بالإسلام ، وتبرئة المسلم ، ودبروا ذلك ، مع أنه تعالى معهم بعلمه : يعرف أسرارهم ، ويجزيهم عليها ، فهو أحق بأن يُسْتَحْيَا منه .

والتعبير عن عدم استحيائهم من الله بالاستخفاء منه ، جرى على أسلوب المشاكلة للعبارة السابقة المتعلقة بالبشر . وهو أسلوب بلاغى معروف .

(وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا) :

أى : وكان الله ـ بجميع أعمالهم ـ عليما شامل العلم . فلا تخفى عليه خلجات نفوسهم ، وخفايا أسرارهم . وسوف يجازيهم على أعمالهم .

---

(١) رواه الترمذى وغيره .

١٠٩ ـ (هَاأَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . . .) الآية .

خطاب للمدافعين عن طعمة بن أبيرق ومن شاركه فى جريمته . (جَادَلْتُمْ) : دافعتم (عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) : محاولين تبرئتهم مما اتهموا به من خيانة ، حتى لاتطبَّق عليهم عقوبةٌ ، ولا يُلْصَق بهم عار ، واتهمتم بريئا لم يجن شيئا .

(فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) : ليدفع عنهم ، يوم لايكتمون الله حديثا ، وتشهد عليهم ألسنتُهم وأيديهم وأرجلُهم ـ وجميع جوارحهم ـ بما عملوا فى الدنيا .

(أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا) : بل من يكون وكيلا عليهم. يتحمل تبعاتِ جرائمهم .

والمعنى : لاأحد يقوم بأمرهم إذا أخذهم الله بعذابه .

والمراد : بيان أنهم إن استطاعوا خداع الحكام فى الدنيا ، فإنهم لن يستطيعوا أن يخدعوا الله ، ولا أن يُفْلِتوا من عقابه يوم القيامة .

(وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾) .

المفردات :

(بُهْتَانًا) : البهتان ، أفحش الكذب .

(خَطِيئَةً) : صغيرة .

(إِثْمًا) : أى كبيرة .

التفسير

١١٠ - (وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا) :

خلال الحديث عن أصول العدالة والمسئولية الفردية، يشير القرآن الكريم ، إلى المبدإ الإسلامى الذى يساير الحق والمنطق . وهو : أن خطيئة البشر ليست لعنة أبدية . وإنما هى كبوةٌ يمكن بعدها الاعتدال على طريق الاستقامة ، بطلب المغفرة ممن يملكها وهو الله - جل جلاله - ولا يملكها غيره ، مهما كان وضعه بين البشر ، ولو كان نبيا مرسلا ؛ لأنه بحكم بشريته - لايملك أمر نفسه مع الله ، فمن باب أولى لايملك لغيره مع الله شيئا ، وفاقد الشيء لايعطيه .

(وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا) : أى أمرا قبيحا يسوء به غيره كما فعل طعمة باليهودى[1] .

(أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ) : بما يفعله من الذنوب التى يغضب بها الله ، ويستحق بسببها عقابه ، ولم يحاول أن يقى نفسه ذلك فيظلمها باقترافه .

(ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ) : بالتوبة الصادقة ، والرجوع إلى طاعته سبحانه وتعالى .

(يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا) : لما استغفره منه ؛ كائنا ماكان الإثم المرتكب .

(رَحِيمًا) : متفضلا عليه بقبول التوبة ، واستفتاح صفحة نقية لأعماله . وباب التوبة مفتوح ، وماعلى المذنب إلا أن يتوجه إلى ربه وحده بالتوبة ، دون وساطة أوقربان .

فالتوبة فى الإسلام ، اتجاه مباشر إلى الله وحده . فإنه هو الغفور الرحيم .

---

(١) رواه البخارى والحافظ ابن مردويه.

١١١ - (وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ . . .) الآية .

ومن يقترف ذنبا : فإنما يعود جزاؤه على نفسه ، لايتعداه . . . فليحترز عن تعريضها للعقوبة والوبال .

(وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا) : بكل شيء ، ومنه اكتساب الآثام .

(حَكِيمًا) : فيما شرع من أحكام ، وقرر من مبادئ . ومنها مبدأ المسئولية الفردية ، والتبعة الشخصية .

١١٢ - (وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا) :

أى : ومن يقترف صغيرة أو كبيرة من المعاصى ، ثم يتهم بها بريئًا فقد احتمل - بما فعله - إثم هذا الكذب الذى افتراه على غيره وَبَهَتَهُ به ، وهو منه برىء .

١١٣ - (وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ . . .) الآية .

فى هذه الآية الكريمة ، يمتن الله على رسوله - صلى الله عليه وسلم - بأنه تفضل عليه ، فأخبره بما كان من هؤلاء من التآمر على الحق ؛ لكيلا يفلت الجانى الحقيقى من العقاب .

والمعنى : ولولا فضل الله عليك ورحمته ، بإعلامك - عن طريق الوحى - بما دبروه ، لهمت طائفة - من أولئك الذين اختانوا أنفسهم - أن يضلوك عن الحق : بتصويره على غير وجهه ، وهم - بعملهم هذا - لايضلون إلا أنفسهم ، إذ يبعدونها عن المنهج القويم من قول الحق ولو على النفس . . .

وما يعود ضرر ذلك إلا على أنفسهم ، بتوريطها فى الذنوب التى ارتكبوها . ومايضرونك بشىء : فالإثم على من عصى الله . والقاضى إنما يحكم بالظاهر . والله يتولى السرائر . فلو حكم بغير الحقيقة - وفق ماظهر له من الأدلة - فلا إثم عليه ، بل على المدعى والشهود الكاذبين .

روى البخارى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال لخصمين اختصما لديه : « إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ، وإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَىَّ . . . . »[1] .

(١) يراجع البخارى فى كتاب الأحكام .

وأنزل الله عليك القرآن الجامع بين الحق والحكمة ، أو أنزل عليك القرآن والسنة ، وعلمك مالم تعلمه من العلوم والمعارف الربانية .

(وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا) : لاتحويه عبارة ولاتحيط به إشارة .

ومن ذلك النبوة والرسالة ، وإرشادك إلى أخطاء المخطئين .

(لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾) .

المفردات :

(نَجْوَاهُمْ) : النجوى؛ المسارَّة بالحديث بين اثنين فأكثر . قاله الزجاج . وعرفها بعضهم : بالحديث الذى ينفرد به اثنان فأكثر ، سِرًّا أو جَهْرًا . وعلى كلٍّ ، فضمير (نجواهم) للناس عامة ؛ لأن الحكم عام .

(أَوْمَعْرُوفٍ) : هو ماعُرِف حسنُه شرعا أو عرفا . فينتظم أصنافَ البرِّ والخير .

(ابْتِغَآءَ مَرْضَاتِ اللهِ) : طلبًا لرضاه .

(يُشَاقِقِ الرَّسُولَ) : يخالفه فيما أَمَرَ به ، أو نهى عنه .

(نُوَلِّهِ مَاتَوَلَّى) : حقيقة معنى (نُوَلِّهِ) : نجعله واليا . يقال : تولاه . بمعنى تقلده واضطلع به ، وولاه غيره . جعله واليا ، ومضطلعا بالأمر .

والمعنى المقصود : هوأن توفيق الله تعالى – يتخلى عنه .

التفسير

١١٤ - (لَاخَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ . . .) الآية .

لما بين الله تعالى - قبل هذه الآية - أنه أنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم ، الكتاب والحكمة ، وعلَّمه مالم يكن يعلم : أتبعه ذكرَ بعضِ ما أنزله عليه من الكتاب والحكمة مما يَدْعَمُ أواصر المحبة بين الناس ، ويقضى على أسباب النزاع بينهم . كما أن فيه ردًّا على مَن كان يحرض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على أن يقضىَ لصالحِ من سَرَق الدرع وخبأها عند اليهودى ، فيبرئه ويقضى على اليهودى ! !

والمعنى : لاخير فى أحاديث الناس فيما بينهم ، إلا فى حديث مَنْ أمر بصدقةٍ - واجبةً كانت أو متطوَّعًا بها ، أو أمر بما عُرِف حسنُه شرعا أو عرفا ، ولم يعارض قاعدةً شرعية ، وتقبلهُ العقولُ الخالصة من الهوى بالرضاء ، أو أمر بإصلاح بين الناس ، حتى يحُلَّ الوئام محل الخصام .

فهذه الجهات الثلاث ، هى التى تكون النجوى - أى الحديث الجانبى فيها - خيرا مشروعا مثابا عليه .

أما الأحاديث الجانبية التى يتآمر فيها المتآمرون على الإضرار بعباد الله ، أو يتناجى فيها المتناجون بالمعاصى والهذيان ، فلا خير فيها ولاثواب عليها ، بل يعاقب عليها ، لأنها كانت فى معصية الله تعالى .

فإنما يثاب الإنسان على المعروف ، إذا ترك الامتنان والإعجاب به ، ولايتم المعروف - كما قال ابن عباس - رضى الله عنهما : - « إلا بثلاث : تعجيلِه ، وتصغيرِه ، وسترِه . فإذا عجَّلته هنأْته[1] ، وإذا صغَّرته عظمته ، وإذا سترته أتممته » .

وقد دعت الآية الكريمة إلى فضيلة الإصلاح بين الناس ، وجعلتها خيرا مثابا عليه ، لما لها من الأثر العظيم فيهم ، حيث تُحِلُّ الوئامَ محلَّ الخصام ، والراحةَ النفسية محل القلق ، والتفكيرَ فى الخير مكان التفكير فى الشر ، فيسودُ الأمن والسلام .

---

(١) أى جعلته هنيئا لآخذه مسعفا بمطلوبه .

وقد أباح الإسلام الكذب الأبيض في سبيل الإصلاح ، مع أن الكذب - بصفة عامة - حرام ؛ لأن هذا كذب غير ضار بأحد . وهو مؤدٍّ إلى مصلحة مؤكدة ، كأن تقول لكِلا الخصمين عن صاحبه : سمعته يثني عليك ويصفك بطيب النية ، وحسن الطوية والمروءة ، ونحو ذلك مما يلين قلب الخصم نحو أخيه . في حين أنك لم تسمع ذلك منه .

وفي ذلك يروى حميد بن عبد الرحمن بن عوف عن أمه - أم كلثوم بنت عقبة - أنها أخبرته أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ليس الكذاب الذي يصلحُ بين الناس ، فينمي خيرا أو يقول خيرا - وقالت : لم أسمعه يرخص في شيء مما يقوله الناس إلا في ثلاث : في الحرب ، والإصلاح بين الناس ، وحديث الرجل امرأته ، وحديث المرأة زوجها »[1] .

(وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَآءَ مَرْضَاتِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا) :

أي : ومن يتناجَ ويتحدثْ مع غيره - في خَلوة - بالصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس ، ويرشده إليها وينصحه بها - فسوف يعطيه الله على ذلك ثوابا جزيلا : يناسب عظمة المنعم .

وإذا كان هذا ثواب التناجي بها ، والإرشاد إليها ، فثواب فعلها أعظم .

أما أن يأمر بها الإنسان ولا يفعلها ، فذلك جرمه عظيم ، ووعيده شديد ، قال تعالى : « يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَالَا تَفْعَلُونَ . كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللهِ أَن تَقُولُوا مَالَا تَفْعَلُونَ »[2] .

١١٥ - (وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَاتَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَاتَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا) :

المعنى : ومن يخالف الرسول فيما أمر به عن الله تعالى أو نَهى عنه ، ويتبعْ غير طريق المؤمنين في عقيدته أو عمله ، بأن يكفر أو يترك الواجباتِ ، أو يفعل المنهياتِ - مِن بعد ما ظهر له ما يهديه من أدلة اليقين وأحكام الدين - نتركْهُ وماتولاه وانصرف إليه ،

(١) رواه أصحاب الصحاح سوى ابن ماجه ، واللفظ للإمام أحمد .

(٢) سورة الصف ، الآيتان : ٢ ، ٣

وقام به من الكفر والمعاصى . . فلا نلطف به لصرف قواه إليه ، وعدم مراجعته نفسه فيه ، وندخله جهنم فيخلد فيها إن كان كافرا ، ويعاقب فيها على قدر معصيته إن كان عاصيا . . وقَبُحَتْ جهنم مصيرا .

فلا ينبغى لعاقل أن يقترف من المعاصى مايجعلها مصيرا له ومآلا .

الاحكام

استدل الإمام الشافعى – رضى الله عنه – بهذه الآية ، على أن الإجماع من أهل الحق حجة .

فعن المزنى أنه قال : « كنت عند الشافعى يوما ، فجاءه شيخ عليه لباس صوف وبيده عصا ، فلما رآه ذا مهابة ، استوى جالسا ، وكان مستندا إلى الأسطوانة[١] وسوّى ثيابه : فقال الشيخ : ما الحجة فى دين الله تعالى ؟ قال الشافعى : كتابه . قال : وماذا ؟ قال سنة نبيه صلى الله عليه وسلم . قال : وماذا ؟ قال : اتفاق الأمة . قال : من أين هذا الأخير ؟ . أهو فى كتاب الله تعالى ؟ فتدبر الشافعى ساعة ساكتا ، فقال له الشيخ أجّلتك ثلاثة أيام بلياليهن ، فإن جئت بآية ، وإلا فاعتزل الناس . . . فمكث ثلاثة أيام لايخرج . وخرج فى اليوم الثالث بين الظهر والعصر ، وقد تغير لونه ، فجاءه الشيخ وسلم عليه وجلس ، وقال : حاجتى : فقال : نعم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . بسم الله الرحمن الرحيم . قال الله تعالى : (وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَاتَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَاتَوَلَّى . . .) الآية . فدلت الآية على أن اتباع سبيل المؤمنين فيما يذهبون إليه من الأحكام فرض ، لورود الوعيد فيمن لم يتبع سبيلهم . قال الشيخ : صدقت وقام وانصرف[٢] » .

والآية لاتفيد الخلود فى النار لمن يرتكب المعاصى ، بل تفيد عقوبتهم بالصيرورة إلى النار ، وذلك لايقتضى التأبيد ، خلافا لمن زعم ذلك من الخوارج . حيث زعموا أن مرتكب

---

(١) السارية أو العمود .

(٢) روى عنه : أنه قرأ القرآن ثلاث مرات يتفقد هذا الحكم حتى ظفر به .

الكبيرة كافر خالد فى النار ، ويحسم دعواهم قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ لَايَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَادُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ . . .) .

روى الترمذى عن على بن أبى طالب ــ رضى الله عنه ــ أنه قال : ماق القرآن آية أحبُّ إلىّ من هذه الآية : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مادُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ) وفيما يلى نص تفسيرها .

(إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾) .

المفردات :

(مَادُونَ ذَٰلِكَ) : ماسوى الشرك من المعاصى .

(ضَلَالًا بَعِيدًا) : أى بُعدًا عن الحق عظيما .

(إِن يَدْعُونَ) : ماينادون ، أو مايعبدون .

(إِلَّا إِنَاثًا) : أى معبودات كالإناث فى الضعف ، وعدم القدرة على الإسعاف بالمطلوب .

وفيها معانٍ أخرى ، ستأتى فى الشرح بمشيئة الله .

(شَيْطَانًا مَّرِيدًا) : الشيطان هنا : إبليس - لعنه الله - والمريد بمعنى المتمرد على الطاعة . أو المتمرد للشر . من قولهم : شجرة مرداء . وهى التى سقط ورقها .

(لَعَنَهُ اللهُ) : طرده عن رحمته .

(لَأَتَّخِذَنَّ) : الاتخاذ ؛ أخذ الشيء على وجه الاختصاص .

(نَصِيبًا مَّفْرُوضًا) : حظا مقسوما . وسيأتى بيانه فى الشرح .

(وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ) : أى لأعللنهم بالأمانى الكاذبة .

(فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ) : الأنعام ؛ الإبل والبقر والغنم والمعز . وغلب استعمالها فى الإبل خاصة . وتبتيك الأنعام : تقطيع آذانها أو شقها . وكانوا يفعلون ذلك فى الجاهلية . وسيأتى بيانه .

(فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ) : صورة أو صفة ، كفقإ عين الفحل . وسيأتى بيانه ، وكخصاء العبيد ؛ وإتيان الذكور بدل الإناث .

(وَلِيًّا مِن دُونِ اللهِ) : أى معبودا وناصرا ، متجاوزا الله ، وتاركا له .

(خُسْرَانًا مُّبِينًا) : أى خسرانا بينا واضحا .

(إِلَّا غُرُورًا) : إلا إيهاما وغشا وخداعا .

(مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ) : مستقرهم ومرجعهم .

(مَحِيصًا) : معدلا ومهربا .

التفسير

١١٦ - (إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ . . .) الآية .

سبب النزول :

أخرج الثعلبى عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن شيخا من العرب ، جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : إنى شيخ منهمك فى الذنوب ، إلا أنى لم أشرك بالله تعالى - منذ عرفته وآمنت به ، ولم أتخذ من دونه وليا ، ولم أوقع معصية جراءة ، وما توهمت - طرفة عين - أنى أعجز الله تعالى هربا ، وإنى لنادم تائب ... فما ترى حالى عند الله تعالى - ؟ فنزلت ؛

المعنى : إن الله لايغفر أن يُشْرِك أحدٌ به غيرَه فى العبادة . سواءٌ أكان هذا الشريك من عوالم السماء، أم من عوالم الأرض . فكلها مخلوقاته : تخضع له فيما أراد، ولاتُعْبَد معه، ولكنه تعالى يغفر مادون الشرك من السيئات المختلفة، لمن يشاء من عباده المؤمنين، حسبما تقتضيه حكمته فى العفو .

والتوبة أرجى فى الغفران مِنْ تَرْكِها ... والحسناتُ يُذهبن السيئات .

والمقصود من الشرك بالله : الكفر به مطلقا . فيشمل نسبة الوالد أو الصاحبة إليه سبحانه وتعالى، وإنكار وجوده . كأُولئك الذين يؤمنون بأن الطبيعة هى التى أوجدتهم : قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُصْرَفُون ! !

وإنما ذكر الشرك فى الآية، لأنه كان الاعتقادَ السائد فى الجزيرة العربية : التى نشأت فيها الدعوة الإسلامية .

وقد جاء تعميم هذا الحكم لكل كافر، فى نحو قوله : « وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ »[1] وقوله : « وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا »[2] وقوله : « وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا »[3] .

(وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا) :

ومن يشرك بالله شيئا من مخلوقاته، أو شيئا من الشرك، أو يكفرْ به بأى وجه، فقد بَعُد عن الحق، وعن العقل بُعدًا سحيقا، على الرغم من وضوح الأدلة الصارفة له عن شركه وكفره .

ثم شرع يقبح هذا الإشراك فقال :

١١٧ـ (إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّآ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا) :

المراد من الإناث : الموتى، كما رواه ابن أبى طلحة، والضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما .

---

(١) إبراهيم، من الآية : ٢ (٢) الإسراء، من الآية : ٨

(٣) الفرقان، من الآية : ٢٦

ويؤَيده ، مارواه ابن جرير ، وابن أبي حاتم عنه : أنه قال: الإناث كل شيء ليس فيه روح ، مثل الخشبة اليابسة . والحجر اليابس . فمثل ذلك فى حكم الموتى .

وبرأى ابن عباس . قال الحسن رضى الله عنه .

ورأى آخرون: أن إطلاق الإناث على معبودات المشركين، لضعفها وعدم نصرتها لهم ، كما هو شأن الإناث ؛ لأن العرب كانت تطلق الأنثى : على ما ضعُفَت منزلته ، أو قلتْ فائدته . وكانت نساؤهم لديهم من هذا القبيل .

وقال آخرون : إن إطلاق الأنثى على الوثن . . . لأن ذلك كان تعبير العرب عنه .

فقد رُوِىَ أن كل حى من أحياء العرب كان لهم صنم يعبدونه . وكانوا يقولون : أنثى بنى فلان . لأنهم كانوا يزينونها بالحلى ، كما تزين النساء .

والرأيان الأولان أجدر بالقبول ؛ فإن المقصود ، هو ذم هذه الأوثان من جهة ضعفها عن جلب المنافع أو دفع المضار ، لامن جهة الأنوثة .

والمعنى : مايعبدون - أو ماينادون لحوائجهم - إلا آلهة تشبه الأموات أو الإناث ؛ فى ضعفها وعدم استجابتها لحاجة عابدها أو داعيها . ومايعبدون أو ماينادون فى الواقع إلا شيطانا شريرا ، عاتيا متمردا ، خارجا عن الطاعة . وهو إبليس فهو الذى زَيَّنَ لهم دعاءها وعبادتها فأطاعوه ، فكانت طاعتهم له عبادة .

١١٨ - (لَعَنَهُ اللهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا) :

المعنى : طرده الله عن جنته وعن رحمته ، لتمرده . واستكباره عن طاعة ربه . حين أمره بالسجود لآدم ، إعظاما لخلق الله إياه . ثم وسوس له بمختلِفِ ألوانِ الإغراء . حتى عَصَى الله ، فأكل من الشجرة التى حرَّمها عليه . ولذلك أخرج الله إبليس من الجنة مذموما مدحورا ، محروما من رحمة الله فى عاجله وآجله .

وبعد أن أنزل الله به لعنته وطرده ، قال يخاطب الله تعالى : (لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا) يريد : توكيد استيلائه - بالوسوسة - على إرادة أبناء آدم عدوه ، حتى يسخرها فى سبيل الغَوَاية والفساد عقيدة وعملا ، حتى كأنهم نصيبٌ مفروض

مقسوم له : يفعل فيه مايشاءُ . . وكأَن هذا اللعين ظن أمرهم سيصير إلى ذلك ، بسبب استجابة أبيهم آدم لإغوائه فى لحظة ضعف . فهم من طينة أبيهم .

ومما يؤسف له ، أن هذا اللعين ، صدَّق عليهم ظَنَّه ، كما قال تعالى : « وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ »[1] .

١١٩ - (وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ . . .) الآية .

المعنى : يؤكد الشيطان اللعين ، توكيدا بعد توكيد ، أنه سيُضِل عباد الله عن الحق ، وأنه سيُمَنِّيهم بالأَمانى الباطلة ، كعدم البعث ، وعدم الحساب والعقاب . ومايوسوس به إليهم من الكفر والمعاصى ، كإيهامهم أن الديانات باطلة . وماجاءت به من الوعيد والجزاء باطل ، وأنها من صنع الذين جاءُوا بها .

ويؤكد الشيطان أنه سيأمرهم بتبكيت آذان الأَنعام فيطيعون أمره ... وتبكيتُ آذانها : تقطيعُها أو شَقُّها . وقد حققوا ظنه . فقد أمرهم بذلك ففعلوا . إذ كانوا يقطعونها أو يشقونها زاعمين - كما وسوس لهم - أن ذلك يرضى أوثانهم .

فقد كانوا فى الجاهلية يقطعون آذان الناقة إذا ولدت خمسة أبطن خامسها ذكر ، ويحرمون ركوبها والحمل عليها ، وسائر وجوه الانتفاع بها .

(وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ) :

أى : ولآمرنهم بتغيير خلق الله فَيستجيبون ويغيرونه ، كما فى خَصْيهم للعبيد ، وكالوشم ، وترجل النساء ، وتخنس الرجال ، وإتيان الذكور كما تؤْتى الإناث ، وفقء عين الفحل من الإبل ، إذا أدرك نتاجَ نتاجه ، أى إذا عاش إلى أن رأى ولد ولده . ويقال له حينئذ : الحامى . ونحو ذلك من تغيير خلق الله .

وقد اختلف العلماءُ فى خصاء البهائم ، فرخص فيه جماعة إذا قصدت فيه المنفعة .

وجمهور العلماء على جواز الأُضحية من الأَنعام المخصية ، فإن الخصاء يطيب اللحم .

ورخص عمر بن عبد العزيز، فى خصاء الخيل ... وخَصَى عروة بن الزبير بَغْلاً له .

---

(١) سبأ ، الآية : ٢٠

وإنما جاز ذلك ؛ لأنه لم يُقصد به التقرب إلى الأصنام ، بل قصد به تطييب اللحم فيما يؤكل ، وتقوية الذكر إذا انقطع أمله عن الأنثى .

وكرهه بعضهم .

وقال الأوزاعي : كانوا يكرهون خصاء كل شيء له نسل . واختاره ابن المنذر . وقال : فيه حديثان ؛ أحدهما : عن ابن عمر « أن النبي صلى الله عليه وسلم – نهى عن خصاء الغنم والبقر والإبل والخيل » . والآخر : « نهى عن صبر الحيوان[1] وخصاء البهائم » .

قال القرطبي : والذي في الموطإ من هذا الباب ، ماذكره عن نافع ، عن ابن عمر : « أنه كان يكره الإخصاء[2] . ويقول : فيه تمام الخَلْقِ » .

قال أبوعمر : يعني في ترك الإخصاء تمام الخلق . وروى :(نماء الخَلْقِ) ثم ذكر القرطبي حديثا عن نافع عن ابن عمر قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لاتخصوا ماينمي خلق الله[3] » .

وأما خصاء الآدمي فحرام ؛ لأنه يقطع قوته ونسله ، الذي به بقاء الجنس البشري . قال تعالى : « يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً »[4] . ولأن فيه مُثْلَةً . والنبي صلى الله عليه وسلم نهى عنها .

وخُصَّ من تغيير خلق الله أمورٌ مأذونٌ فيها من السنَّة : كالختان ووسم البهائم لحاجة . والوَسْمُ : هو كَيُّ البهائم بمكواة يسمونها الميسم .

جاء في صحيح مسلم عن أنس قال : « رأيت في يد رسول الله صلى الله عليه وسلم الميسَم وهو يَسِمُ إبل الصدقة والفيء ، وغير ذلك . حتى يَعْرِفَ كلُّ مال فيؤَدىَ فيه حقه ، ولايتجاوزَ به إلى غيره » .

كما استثنى منه الخضاب بالحناء . إلى غير ذلك مما هو مبسوط في الموسوعات .

ويرى بعض العلماء : أن المراد من : تغيير خلق الله ، هو تحويله عن وجهه الذي خلقه الله لأجله ، فالشمس والقمر والنجوم والنار والأحجار ، خلقت للاعتبار بآياتها والانتفاع بفوائدها ، فغيَّرها الكفار ، فجعلوها آلهة معبودة .

---

(١) القتل صبرا : هو أن يحبس ويرمى حتى يموت. (٢) لعله الخصاء لأن فعله ثلاثي. (٣) رواه الدارقطني وغيره . (٤) أول سورة النساء.

والأنعامُ خُلِقَتْ لِتُركب وتُؤكَل. فجرّموها على أنفسهم . . وكل ذلك باتباع الشيطان .

(وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا) :

ومن يجعل الشيطان صاحبا يتبعه وينقاد له ، متجاوزا أوامر الله تعالى ، بإيثار مايدعو إليه الشيطان على ما يأمر به الله ، والاغترار بوعوده ، فقد خسر خسرانا بينا واضحا .

وأى خسران أظهر وأبين ، من خسران مَنْ صادَق عدو الله وعدوه وعادى مولاه المنعم ، واستخف بغضبه وعذابه ؟ .

١٢٠ – (يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا) :

المعنى : يعد الشيطان عباد الله على معصيته أحلى الوعود المكذوبة ، ويمنيهم بأحلى الأمانى الباطلة . ومايعدهم الشيطان ولايمنيهم إلا غرورا وإيهاما ، وغشا وخداعا ، فوعوده كاذبة ، وأمانيه فارغة .

وتلك الوعود يلقيها الشيطان إما بالخواطر النفسية المخالفة لشرائع الله ، أو بلسان أوليائه .

١٢١ – (أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا) :

المعنى : أولئك الذين يتخذون الشيطان وليا من دون الله ، ويصدقون وعوده وأمانيه وغروره ، مآلهم ومستقرهم جهنم ، ولايجدون عنها معدلا ومهربا ينجيهم من عذابها .

(وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا (١٢٢)).

المفردات :

(خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا) : مقيمين فى الجنة دائما لا يبرحونها .

(قِيلًا) : أى قولا .

التفسير

١٢٢ ـ (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ . . .) الآية .

لَمَّا بيَّن الله تعالى فى الآيات السابقة سوء مصير مَن يتخذ الشيطان وليا من دون الله ، أتبعه بيانَ حسنِ مصيرِ مَنْ يتخذ الله وليا .

وبضدها تتميز الأشياء .

والمعنى :

(وَالَّذِينَ آمَنُوا) : بالله ورسوله، وبما جاء به عن ربه .

(وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) التى جاء بها القرآن العظيم ، أو بيَّنها الرسولُ الكريم .

(سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) : ينعمون فيها بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

(خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا) : لا يبرحونها ولا يتحولون عنها ، وخلودهم فيها بلا موت ، ونعيمهم فيها بلا فوت .

(وَعْدَ اللهِ حَقًّا) : لا خلف فيه . « وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولًا[1] » وذلك على العكس من وعود الشيطان الكاذبة ، وأمانيه الفارغة ، فكلها غرور وأباطيل ، وغش وخداع . فهو لا يملك من ملك الله فتيلا ، ولا يستطيع أن يحقق من وعوده نقيرا ولا قطميرا ، فلا ينبغى لعاقل أن يغتر بوساوسه ، حتى لا يندم حين لا ينفع الندم .

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا) :

ومن أصدق من الله قولا ووعدا ؟ ! فهو الذى إذا قال صدق ، وإذا وعد وفى ، فعنده خزائن السموات والأرض . يقول للشئ كن فيكون . فليس أصدق منه ـ سبحانه وتعالى ـ قولا .

---

(١) الأحزاب ، من الآية : ٣٧

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾).

المفردات :

(بِأَمَانِيِّكُمْ): الأمانى؛ جمع أُمنية . وخلاصة ماقاله الراغب فى معناها : أنها هى الصورة الحاصلة فى النفس ؛ المترتبةُ على التمنى . أما التمنى : فهو الرغبة الشديدة فى شىء يقدره الشخص فى نفسه .

(وَلِيًّا) : أحدا يَلِى أمر الدفاع عنه بالقول .

(وَلَا نَصِيرًا) : ينصره ويمنعه بالقوة من العقاب .

(نَقِيرًا) : النقير هو النقرة فى ظهر النواة . وهو مثل يضرب للقلة والحقارة .

(أَسْلَمَ وَجْهَهُ) : الوجه هنا ، مجاز عن الذات أى : أخلص ذاته ونفسه لله .

(حَنِيفًا) : مائلا عن الأديان الباطلة .

(وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا) : الخليل – كما قال الزجاج – : هو من ليس فى محبته خلل . . اهـ . فمعنى اتخاذ الله إبراهيم خليلا : أنه تعالى ، أحبه حبًّا تامًّا لانقص فيه ، واصطفاه اصطفاء كاملا .

(مُحِيطًا) : عليما شامل العلم .

التفسير

١٢٣ - (لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ . . .) الآية .

لما بيّن الله سوء مصير من اغتر بوعود الشيطان وأمانيه الكاذبة ، وعقبه بذكر حسن مصير المؤمنين الصالحين : أتبع ذلك بيان أن الأمر - بعد الموت - لايكون بالتمنى من هؤلاء وأولئك ، بل يكون بالعمل الصالح ، فإن الآخرة هى دار الجزاء . . . والجزاء من جنس العمل. فمن يعمل سوءا يجز به سوءا . ومن يعمل خيرا يجز به خيرا. ولايظلم ربك أحدا .

سبب النزول :

أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم ، عن السدى ، قال : التقى ناس من المسلمين واليهود والنصارى ؛ فقال اليهود للمسلمين : نحن خير منكم ، ديننا قبل دينكم ، وكتابنا قبل كتابكم ، ونبينا قبل نبيكم ، ونحن على دين إبراهيم ، ولن يدخل الجنة إلا من كان هودا وقالت النصارى : مثل ذلك . فقال المسلمون : كتابنا بعد كتابكم ، ونبينا صلى الله عليه وسلم - بعد نبيكم ، وديننا بعد دينكم ، وقد أمرتم أن تتبعونا وتتركوا أمركم ، فنحن خير منكم ؛ ونحن على دين إبراهيم وإسماعيل وإسحق . ولن يدخل الجنة إلا من كان على ديننا فأنزل الله (لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ . . .) الآية .

وقال القرطبي : من أحسن ماقيل فى سبب نزولها ، مارواه الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، عن ابن عباس . قال : قال اليهود والنصارى لن يدخل الجنة إلا من كان منا ، وقالت قريش : ليس نبعث فأنزل الله : (لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ . . .) الآية .

وليس هناك مايمنع نزول الآية للسببين : فحكمهما عام : للمسلمين وأهل الكتاب والمشركين ومن فى حكمهم من سائر الكافرين ، كما سيتضح فى الكلام على المعنى .

والمعنى : ليس الفوز بدخول الجنة والتقلب فى نعيمها الذى وعده الله الصالحين ، حاصلا بأمانيكم - أيها المسلمون - ولا بأمانى أهل الكتاب ، فإن الأمانى - وحدها - لاتحقق هذه الغاية العظيمة . وإنما يحققها - مع الإيمان - العمل الصالح . أما العمل النافع وحده فلايحققها ؛ لخلوه من قصد وجه الله تعالى ، وهذا يستلزم الإيمان . كما أن عدم البعث ليس بأمانى من

أنكروا البعث ، فإنه حاصل ، وسيجزى بعده الناس على أعمالهم : « فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ »[1] ولذا قال الله بعده :

(مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا) :

من يعمل عملا سيئا ، سواءٌ أكان من كسب القلوب كالكفر والحقد والحسد ، وسوء الظن بالمسلمين ، أم كان من كسب الجوارح كالقتل والسرقة وأكل مال اليتيم ، والتطفيف فى الكيل والميزان - يعاقبه الله عليه بما يسوءه ، ولايجد له أحدا ينقذه منه - من وَلِىٍّ يدافع عنه بالقول والشفاعة ، أو نصير ينصره بالقوة . . . فالكل مقهور لله الواحد القهار .

ولما نزلت هذه الآية ، كان لها أثر شديد فى نفوس المؤمنين .

يصوره ما أخرجه الترمذى وغيره ، عن أبى بكر رضى الله عنه - أنه قال للرسول - صلى الله عليه وسلم - بعد أن سمعها : « بِأَبِى أَنتَ وَأُمِّى يَارَسُولَ اللهِ ، وَأَيُّنَا لَم يَعْمَلْ سُوءًا ، وَإِنَّا لَمَجْزِيُّونَ بِكُلِّ سُوءٍ عَمِلْنَاهُ » وما أخرجه الإمام مسلم وغيره عن أبى هريرة قال : « لما نزلت هذه الآية ، شق ذلك على المسلمين ، وبلغت منهم ما شاء الله تعالى - فشكوْا ذلك إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: سَدِّدُوا وقَارِبُوا ، فَإِنَّ كُلَّ مَا أَصَابَ المُسْلِمَ كَفَّارَةٌ ، حتى الشوكةَ يُشاكُهَا ، والنَّكْبَةَ يُنكبُهَا » .

ومن هذا الحديث ، نفهم أن الله تعالى ، يكفر الخطايا بالبلايا - صغرت أم كبرت - والأحاديث الواردة فى هذا كثيرة .

ولهذا أجمع العلماء ، على أن مصائبَ الدنيا وهمومَها - وإن قلت مشقتها - تكفَّرُ بها الخطايا ، إذا صبر صاحبها .

والأكثرون على أنها تُرفَع بها الدرجات ، وتكَفَّر بها السيئات .

وهو الصحيح المعول عليه .

ومما صح فى ذلك ، عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « مَامِن مُسْلِمٍ يُشَاكُ شَوْكَةً فما فوقَها إلا كُتِبتْ له بها دَرَجَةٌ ، ومُحِيتْ عَنْه بِها سَيِّئَةٌ » . أورده الآلوسى .

(١) الزلزلة : الآيتان الأخيرتان.

١٢٤ - (وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا) :

المعنى : ومن يعمل شيئا من الأعمال الصالحات - من الذكور أو الإناث - فى حال إيمانه فأولئك المؤمنون الصالحون يدخلون الجنة ، جزاء إيمانهم وعملهم الصالح ، ولاينقصون شيئا من الثواب على أى عمل ، ولو كان مشبها للنقير فى القلة .

وكما أنه لاينقص من ثواب المطيع ، لايزاد فى عقاب العاصى . فعدالة الله واحدة . بل العاصى أولى بذلك ؛ لأن الأذى بزيادة العقاب ، أشد من انقاص الثواب . فإذا لم يرض الله - سبحانه - بنقص الثواب ، فإنه لايرضى بزيادة العقاب بالأولى - فهو الرحمن الرحيم العادل الكريم .

وإنما فصلت الآية فقالت : (مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى) : مع شمول (وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ) : لهما جميعا ؛ لئلا يتوهم متوهم خصوص هذا الحكم بالذكور ، وإن كان هذا الوهم ضعيف البنيان ؛ ولأن فيه اعتبارًا للمرأة التى كانوا ينتقصون حقها فى الجاهلية . والنقير كما تقدم فى المفردات : نقرة فى ظهر النواة . يضرب بها المثل فى أدنى الأمور وأصغرها .

١٢٥ - (وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ . . .) الآية .

الاستفهام فى قوله : (وَمَنْ أَحْسَنُ) بمعنى : النفى الإنكارى .

والمعنى : لايوجد أحسن - فى الدين - ممن أخلص نفسه وذاته لله ، فلم يعرف لها ربًّا سواه ، ولم يتوجه بوجهه لغيره سبحانه ، ولم يخضع فى سجوده إلا له عز وجل : يفعل ذلك كله وهو محسن فى عمله ، بألا يترك واجبا ، ولا يفعل محرما .

(وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا) :

المراد من اتباع ملة ابراهيم : اتباع ملة الإسلام ، فإنما هو ملة إبراهيم - عليه السلام - فى العقائد وأصول الأحكام . فمن اتبعها فهو متبع للإسلام الذى جاءت به ملة إبراهيم . ومن اتبع سواها فليس له من اتباع ملة إبراهيم نصيب ، فقد حاد عنها أهل الكتاب بما بدلوا وغيروا من أصول شريعته الموجودة فى شرائع الأنبياء والمرسلين : قبله وبعده ، كما حاد عنها المشركون.

وأشدُّ ماحاد عنه أهل الكتاب ، تنزيه الله عن الصاحبة والولد والشريك . فقد جعلوا له صاحبة وولدا ، وأشركوه معه فى التقديس ، كما أشرك به المشركون أنصابهم وسائر آلهتهم فأى فارق بينهم وبين المشركين فى ذلك ؟ ! وكفروا بعصمة الرسل ، وألصقوا بهم أحقرَ التُّهَم ، وحرَّموا ما أحل الله ، وأحلوا ما حرم ، وغيروا وبدلوا فى كتبهم . ماشاء لهم هواهم . .

وإذا كان أمرهم وأمر المشركين كذلك ، فلا تغنيهم - جميعا - دعواهم أنهم على ملة إبراهيم ، فإن ملته - عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام - لاتقرهم على هذه المآثم وسواها ، فهو حنيف ، أى مائل عن الباطل ، مقرٌّ للحق الذى جاء به النبى - صلى الله عليه وسلم - تصحيحا للعقائد وأصول الأحكام الشرعية ، وإعادةً بها إلى دين إبراهيم الذى حرفه هؤلاء وأولئك .

وإنما قلنا : إن العقائد وأصول الأحكام مشتركة بين شرائع المرسلين دون فروع الأحكام ؛ لأن هذه الفروع ، لابد من اختلافها فى الصورة والعدد والمواقيت وغير ذلك ، مما يناسب الأمة والعصر الذى بعثوا إليها فيه .

وفى ذلك يقول الله - تعالى - : « لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا »[1]

(وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا) :

أى أحب الله إبراهيم حبا كاملا ، لاخلل فيه ينقصه عن الكمال .

ويجوز أن يكون المعنى : أنه تعالى خصه بكرامة تشبه كرامة الخليل لخليله .

والسبب فى اتخاذ إبراهيم خليلا ، ما أظهره من الفقر والحاجة إلى الله تعالى - فى شدته ورخائه ، وانقطاعه إليه ، وعدم التفاته إلى سواه فى محنته . فقد آثر عقيدته - فى ربه - على نجاته من النار ، التى أراد قومه إلقاءه فيها ، بسبب توحيده . وعادى - من أجل ذلك - أباه ، وهَمَّ بذبح ولده الوحيد ، امتثالا لأمر مولاه .

وليس فى الآية مايفيد قصر الخُلَّة على إبراهيم عليه السلام - فقد اتخذ الله نبينا محمدا - صلى الله عليه وسلم - خليلا أيضا .

---

(١) المائدة ، من الآية : ٤٨

ومما يدل على ذلك، مارواه مسلم عن عبد الله بن مسعود: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: « لَوْ كُنتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلاً لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً. وَلَكِنَّهُ أَخِي وَصَاحِبِي، وَقَدِ اتَّخَذَ اللهُ صَاحِبَكُمْ خَلِيلاً » والمراد بصاحبهم، هو نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم.

وقد بلغ نبينا فى الخلة أعلى درجاتها، حتى كان سيد ولد آدم يوم القيامة.

وفى ذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم -: « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَافَخْرَ. وَبِيَدِى لِوَاءُ الْحَمْدِ وَلَا فَخْرَ. وَمَا مِنْ نَبِىٍّ يَوْمَئِذٍ -آدَمَ فَمَنْ سِوَاهُ- إِلَّا تَحْتَ لِوَائِى. وَأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ. وَلَافَخْرَ »[1].

١٢٦ - (وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا) :

هذه جملة مستأنفة؛ لبيان أن اتخاذه - عز وجل - لإبراهيم خليلا، ليس لاحتياجه إلى خلته فى شأن من شئونه، بل ذلك لتكريمه وتشريفه.

والمعنى: ولله ملك السموات والأرض وما فيهن: له كل ذلك خلقا وملكا، وتدبيرا وتصرفا، ليس له فى ذلك كله شريك أو معين.. وكان الله بكل شئ موجود - أو سيوجد فى هذا العالم - محيطا إحاطة علم وتدبير. لاتغيب عن علمه ذرة فى ذاتها وأحوالها وما ينبغى لها وما ليس فى مصلحتها. ومن كان كذلك، لايغيب عن علمه مسيء ولا محسن، فيجزى كلاًّ بما كسبت يداه.

---

(١) أخرجه أحمد والترمذى وابن ماجه.

(وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾) .

المفردات :

(الْكِتَابِ) : القرآن .

(يَتَامَى النِّسَآءِ) : اللاتي لا حول لهن .

(وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ) : تطمعون في ما لهن من الميراث والصداق ، فتتزوجونهن لذلك ، أو تمنعونهن من الزواج ويعضلونهن لذلك .

(وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ) : الأطفال اليتامى .

(بِالْقِسْطِ) : بالعدل .

التفسير

١٢٧ - (وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَآءِ ...) الآية .

الربط : فى هذه الآية - وماتلاها - رجوع إلى ما افتتحت به السورة من أمر النساء واليتامى .

وكان المسلمون قد بقيت لهم أحكام، سبق لهم السؤال عنها ، فلم يجبهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - انتظارا للوحى .

روى أشهب عن مالك رضى الله عنهما ، قال : كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يُسْأَلُ فلا يجيب، حتى ينزلَ عليه الوَحْيُ ، وذلك فى كتاب الله : (وَيَسْتَفْتُونَكَ فى النِّسَآءِ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ...) ، «...وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ[1] ... » و«يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ[2] ... » ، «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ[3] ... » ا هـ.

(١) البقرة ، من الآية : ٢٢٠ (٢) البقرة ، من الآية : ٢١٩ (٣) طه ، من الآية : ١٠٥

سبب النزول :

أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، عن ابن جبير ، قال : كان لايرث إلا الرجل الذى قد بلغ أن يقوم فى المال ويعمل فيه ، ولايرث الصغير ولا المرأة شيئا ، فلما نزلت المواريث فى سورة النساء ، شق ذلك على الناس ، وقالوا : أيرث الصغير الذى لايقوم فى المال، والمرأة التى هى كذلك ، فيرثان كما يرث الرجل ؟ ! فَرَجَوْا أن يأْتِيَ فى ذلك حَدَثٌ من السماء. فانتظروا ، فلما رأوا أنه لايأْتى حدث قالوا : لئن تم هذا ، إنه لواجب ماعنه بُدٌّ . ثم قالوا : سَلُوا . . فسألوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأنزل الله تعالى هذه الآية .

ورُوِى غير ذلك فى سبب النزول .ورجح هذا شيخ الإسلام أبو السعود ، كما قاله الآلوسى.

ونحن نقول : إن سبب النزول لايقتضى أنهم لم يسألوا إلا عما جاء فيه ، بل سألوا عن غيره أيضا ، ولهذا تضمنت الفتوى جواب سؤالهم الوارد فى سبب النزول ، كما تضمنت عدة أحكام ، ستأْتى فى الآيات التالية ، تتعلق بأمر النساء .

(وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَآءِ) :

المعنى : ويستفتيك المسلمون - يامحمد - فى أحكام الإناث ، فيطلبون منك بيان ما يُشْكِلُ عليهم من أحكامهن ، مما يجب لهن أو عليهن .

(قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ) :

المعنى : قل الله يفتيكم فى حكمهن ويبينه لكم . وكذا مايتلى فى أمرهن ، مما سبق نزوله قبل هذه الآية ، فهو أيضا يفتيكم ، ويبين لكم الحكم الشرعى الذى تسألون عنه .

والمقصود من الآية الكريمة : أن الله سيفتيكم - مستقبلا - فيما لم ينزل حكمه من شأن النساء ، وأن ماسبق نزوله فيهن ويتلى عليكم ، تظل الفتيا أيضا فى أمرهن ، فيكتمل بالفتاوى - السابقة واللاحقة - أحكامهن المشروعة .

وقد أشار المولى سبحانه بقوله :

(وَمَايُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَآءِ ...) الآية : إلى ماسبق فى صدر هذه السورة عنهن وعن المستضعفين من الولدان ، ابتداء من قوله : « وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ... » الآية . إلى آخر آيتى المواريث .

(فِي يَتَامَى النِّسَآءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ) :

أى :ويفتيكم أيضاً فيما يتلى عليكم فى شأن يتامى الإناث ، اللاتى لا تؤتونهن أيها الأولياء ما كُتِبَ لهن من الميراث والصداق ، وقد رغبتم فى الزواج بهن ، طمعا فى الميراث والصداق . فقد أوجب عليكم فيما نزل بشأنهن أول السورة ـ أن تقسطوا فى شأنهن ، بألا تطمعوا فى أموالهن الموروثة ، وأن تعطوهن من الصداق أعلى سنتهن ، وتعدلوا بينهن وبين ضرائهن : فى القسم والنفقة وحسن العشرة . . .

أو يكون المعنى : وإن أنتم رغبتم عن الزواج بهن ، فلا تعضلوهن عن الزواج بغيركم ؛ طمعاً فى أموالهن[1] .

(وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ) :

أى : ويفتيكم فيما يتلى عليكم فى شأن المستضعفين من الأولاد والصغار اليتامى : ذكورا وإناثاً . فقد أوجب عليكم ـ فيما سبق ـ أن تحافظوا على أموالهم ، ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ، وأفهمكم أن أكل أموالهم ذنب كبير ، وأوجب عليكم أن تؤدوا أموالهم إليهم عند بلوغهم رشدهم ، دون مماطلة .

وبالجملة ، فقد أوجب عليكم ـ هنا ، وفيما مر فى صدر هذه السورة ـ أن تقوموا لليتامى بالقسط والعدل ، فى أمرهم كله . فلا تحاولوا أن تعودوا لما كنتم عليه فى الجاهلية ، من توريث الرجال الذين يدافعون عن القبيلة وحرمان الصغار والنساء ، فذلك جَوْرٌ لايوافق عليه الإسلام ولايقره[2] .

(وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا) :

أى : وماتفعلوا ـ أيها الأولياء ـ من خير فى حقوق من تقدم ذكرهم ، فإن الله كان به عليما قبل أن يخلقكم ، كما هو عليم به عند فعلكم له ، فيجزيكم عليه خير الجزاء .

وإنما اقتصرت الآية على مايفعلونه من الخير ، مع أنه يعلم مايفعلونه من شر أيضا ، ويجازى عليه بمثله ؛ للإيذان بأن الشر لاينبغى أن يقع منهم ، وتحريضا على فعل الخير والاستدامة عليه .

---

(١) راجع ما كتبناه فى تفسير الآية (٣) فى سورة النساء .

(٢) راجع ما كتبناه عن ذلك فى شرح الآيات الواردة فى شئون اليتامى والمواريث العامة للذكور والإناث صغارا كانوا أم كبارا ابتداء من الآية رقم (٢) إلى نهاية الآية رقم (١٢) من سورة النساء .

وتكرار هذه الوصية باليتامى والنساء الضعاف - مع ماسبق فى أول السورة - لاجتثاث ما عسى أن يكون عالقا بالرجال من أطماع فى أموال الضعاف من يتامى النساء والولدان .

(وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾) .

المفردات :

(خَافَتْ) : علمت أو توقعت .

(بَعْلِهَا) : زوجها .

(نُشُوزًا) : أى ترفعا[1]

(أَوْ إِعْرَاضًا) : أى ميلا وعدم اهتمام .

(فَلَا جُنَاحَ) : فلا حرج ولا إثم .

(وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ) : أى جُعِلَ الشح حاضرا فى الأنفس ملازما لها ، والشح : البخل الشديد .

(كَالْمُعَلَّقَةِ) : المرأة المعلقة ، هى التى ليست مطلقة ولاصاحبة زوج ، كما قال ابن عباس رضى الله عنه . أو هى المسجونة . كما قال قتادة رضى الله عنه .

(يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِن سَعَتِهِ) : أى يُغْنِ الله كليهما من غناه الواسع .

---

(١) وفعله : نشز ينشز ، بوزن : يمكر ، ويعرف .

التفسير

١٢٨ - (وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا . . .) الآية .

الربط :

لاتزال الآيات متصلة بشئون النساء .

سبب النزول :

أخرج الحاكم فى مستدركه ، عن عروة بن الزبير ، عن أبيه ، عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت له[1] : يابن أختى[2] ، كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لايفضل بعضنا على بعض فى مكثه عندنا . وكان قلَّ يومٌ إلا وهو يطوف علينا فيَدْنُوَنَّ من كل امرأة من غير مسيس ، حتى يبلغ إلى من هو يومها ، فيبيت عندها . ولقد قالت سودة بنت زمعة - حين أَسَنَّت - وفَرِقَت أن يفارقها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : يارسول الله ، يومى هذا لعائشة ، فقبل ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قالت عائشة : ففى ذلك أنزل الله (وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَت مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا . . .) الآية .

ومثل ذلك رواه أبوداود رضى الله عنه .

والمعنى : النشوز والإعراض يصح أن يوصف كل من الزوجين بهما .

وقد سبق الحديث عن نشوز المرأة فى الآية (٣٤) من هذه السورة .

أما هذه الآية ، فقد تحدثت عن نشوز الزوج وإعراضه . . والمقصود من نشوزه ، ترفعه عن صحبتها والإبقاء عليها . والمقصود من إعراضه عنها : عدم اهتمامه بها ، وهو أخف - فى التباعد عنها - من النشوز .

ولكل منهما أسبابه ، كتقدم الزوجة فى السن ، وعقمها ، وذبول جمالها ، وتغير طباعها ، وإهمالها لمنزلها ، وتقصيرها فى رعاية أولادها ، وامتداد يدها إلى مال زوجها ، وخروجها من المنزل بغير إذنه تباعا ، رغم تحذيره لها من ذلك . إلى غير ذلك من الأسباب التى تأتى من خاصيتها .

---

(١) أى قالت لعروة بن الزبير . (٢) فهو ابن اختها أسماء.

وقد يكون نشوز الزوج وإعراضه عن زوجته بأسباب من غير جهتها ، كتأثير ضرة عليه فى كراهيتها ، أو ظهور امرأة أخرى لم تكن من قبل فى جوهما ، فلما تزوجها غيرت مجرى حياتهما ، وجرت معها الأمور على غير ماتُشْتَهَى من نشوز أو إعراض .

وكما أن لكل من النشوز والإعراض أسبابًا ، فإن لكل منهما علامات وأمارات .

فأمارات النشوز كثيرة ، منها : الغلظة والجفاء ، والضرب ، والسب ، والتهديد بالطلاق ، وأن يمنعها نفسه ونفقته ومودته . ونحو ذلك .

وأمارات الإعراض عديدة : كأن يقلل من محادثتها ومؤانستها ، ويتساهل فى تحقيق رغباتها .

والإعراض يسبق النشوز عادة ، فإذا استمر ، أدى إلى النشوز ، وإذا استمر النشوز ، انتهى إلى الطلاق ، كما هو معروف فى عادات الناس .

والمراد من خوفها من نشوز الزوج أو إعراضه : علمها بذلك ، بما بدا لها من أمارات يقينية أو توقعها إياه ، بمابدا لها من أمارات ظنية .

ولمّا كانت الآية نزلت فى شأن امرأة تخاف نشوز زوجها أو إعراضه عنها ، فذلك يقتضى أنها حريصة على بقائها معه ، ويخيفها مابدا لها منه أن ينتهى بها إلى عاقبة لا ترضاها لنفسها ، فلذا لم يمنعها الشارع من أن تتساهل فى بعض حقوقها ؛ ليتحقق لها ماأرادته من بقائها معه . فإنه سبحانه وتعالى لا يحب أن تُحْرَم زوجةٌ من بقائها مع زوجها الذى أحبته ، وأن تفجع بفراقه ، وذلك بقوله تعالى :

(فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً) :

أى : فلا إثم على الزوجة فيما تفعله لإصلاح مابينها وبين زوجها ، من إعفائه من صداقها أو نفقتها أو بعضهما ، أو من مسكن أو كسوة ، أو فيما تعطيه من مالها ، أو فيما تتنزل له عنه من نصيبها فى القسم ، ليعطيه لإحدى ضراتها : لكى يبقى عليها ، ولا إثم على الزوج فى قبول ذلك منها ، فإن ذلك لايعتبر رشوة مؤثمة لكليهما : حتى يتحرجا منه . بل يعتبر سبيلا إلى عودة المودة ، واستمرار الزوجية بينهما . وذلك

أسمى - فى نظر الدين - من تلك الماديات اليسيرة ، التى تعينت سبيلا لعودة المودة بينهما .

قال ابن عباس : «فما اصطلحا عليه من شىء فهو جائز»[1] .

(وَالصُّلْحُ خَيْرٌ) :

أى : والصلح بينهما ، خير من الجفاء والإعراض ، فقد ينتهيان - لو لم يكن الصلح - إلى عاقبة بغيضة لديهما ، أو لدى أحدهما .

وفيما يلى تفسيرات مأثورة تزيد الآية وضوحا ، وتؤكد الغرض المقصود منها فى نفس القارىء :

روى البخارى عن عائشة رضى الله عنها ، فى تفسير الآية أنها قالت : «الرجلُ تكون عنده المرأة ليس بمستكثر منها ، يريد أن يفارقها فتقول : أجعلكَ من شأنى فى حل» .

وروى الشيخان عنها أنها قالت : «هو الرجل يكون له المرأتان : إحداهما قد كبرت أو هى دميمة ، وهو لايستكثر منها فتقول : لاتطلقنى وأنت فى حل من شأنى» .

وروى ابن أبى حاتم ، عن أبى عَرْعَرَة ، قال : «جاء رجل إلى على بن أبى طالب - رضى الله عنه - فسأله عن قول الله - عز وجل - : (وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضاً) قال على - كرم الله وجهه - : يكون الرجل عنده المرأة فتنبو عيناه عنها ، من دمامتها أو كِبَرِها ، أو سوء خُلُقِها أو قَذَرِها ، فتكره فراقه ، فإن وضعت له شيئا من مهرها حل له ، وإن جعلت له من أيامها فلا حرَج» .

وبمثل هذا ، فسرها ابن عباس ومجاهد والشعبى وابن جبير وكثير من السلف والأئمة ، رضوان الله عليهم أجمعين .

(وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ) :

لما رغب الله فى الصلح بقوله : (وَالصُّلْحُ خَيْرٌ) عقبه بقوله : (وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ) : لبيان العذر فى المماكسة والمشاقة . وهو أن النفس من طبعها الشح والحرص .

---

(١) ورواه عنه أبو داود والطيالسى .

والمعنى : وجُعِل البُخل والحرص على النفع الذاتى ، حاضرًا فى الأنفس ملازماً لها : لايغيب عنها ؛ لأنه من طبعها ، فلذا لاتكاد الزوجة تُفَرِّط فى حقوقها عند الزوج . ولا يكاد الزوج يجود بالإنفاق وحسن المعاشرة لمن لايريدها .

وإذا كان ذلك هو مافطر عليه الناس ، فينبغى -لكل من الزوجين - أن يقدر حرص الآخر على مصلحته ، فلايهدرها تماما ، فترضِى الزوجةُ حرصَ الزوج ، بالبذل والتضحية ، ويرضى الزوج حرص الزوجة ، فلا يقسو عليها فى مطالبه .

ثم ندب الله الأزواج إلى الإحسان والتقوى ، فقال جل شأنه :

(وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) :

أى : وإن تحسنوا عشرتكم - أيها الأزواج - مع النساء ، وتتقوا النشوز والإعراض عن الزوجات ، وعدم إكراههن على ترك شىء من حقوقهن أو بذل مايعز عليهن ، وذلك بالتسامح واللين ، وغض الطرف عما يدعو إلى الجفاء والإعراض - فإن الله كان - ولايزال - بما تعملون من الإحسان والتقوى خبيرا ، فيجازيكم ويحسن ثوابكم .

١٢٩ - (وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ . . .) الآية .

المعنى : ليس فى استطاعتكم ومقدرتكم إقامة العدل التام بين الضرات ، بحيث لايقع منكم أى ميل لإحداهن أكثر من الأخرى ، ولو حرصتم على ذلك وبالغتم فيه ، فإن فُرِض أنكم عدلتم فى القسم والنفقة ، فقد لاتعدلون فى النظر والإقبال والمؤانسة والحب ، وغير ذلك. وتلك مسألة جِبِلِّيَّةٌ ، لا سلطان للأزواج عليها ، مهما كان مقامهم من الدين .

وأحيانا يكون للمرأة أثر فى جذب الرجل إليها أكثر من ضرتها ؛ لبشاشتها ونظافتها ، ومزيد إخلاصها .

ومع هذا ، ينبغى للإنسان ألا ينساق وراء الأسباب الداعية إلى الميل ، بقدر طاقته وهنا ، يعفى عما خرج عن الطوق .

أخرج أحمد والترمذى وأبو داود ، عن عائشة - رضى الله عنها - أنها قالت: «كان النبى - صلى الله عليه وسلم - يقسم بين نسائه فَيَعْدِلُ ، ثم يقول : « اللَّهُمَّ هَذَا قَسْمِى فِيمَا

أَمْلِكُ ، فَلَا تَلُمْنِى فِيمَا تَمْلِكُ وَلَا أَمْلِكُ » يقصد النبى بما يملكه الله : الحب والميل القلبى ، فإنهما تحت سلطان الله وحده ، ولاسلطان للبشر عليهما .

(فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ) :

المراد بالميل هنا عدم العدل فى القسم والنفقة ، بسبب تفاوت الحب . أى فلا تجوروا كل الجور على من لاتحبون من النساء ، بأن تمنعوها حقها فى القسم والنفقة، وفى السكن والكسوة ، من غير رضاها ، واعدلوا بقدر ما استطعتم ، فإن عجزكم عن كمال العدل ، لايمنع تكليفكم بما تستطيعون منه ، بقدر طاقتكم .

(فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ) :

أى : فلا تميلوا كل الميل عن العدل بين الضرات ، فتحرموا بعضهن حقهن المقدور لكم ، فتتركوها - بذلك - كالمرأة المعلقة ، لاهى مطلقة فترضى بطلاقها ، وتسكن بانفرادها عن الزوج ، أو تتزوج من تشاء . ولاهى ذات زوج يعطيها حقها كالزوجات ، فأشبهت بذلك الشىء المعلق بآخر : فلا هو على الأرض فيستقر ، ولاهو محمول على ماعُلِّق به فلا يتأرجح .

وفسر قتادة . المعلقة : بالمسجونة .

والآية مشعرة بتوبيخ الذين لايعدلون بين نسائهم ، بقدر استطاعتهم .

ومن ألوان العدل التى كان السلف الصالح يحرص عليها ، مارواه غير واحد ، عن جابر رضى الله عنه أنه قال : « كانت لى امرأتان ، فَلَقَدْ كُنْتُ أَعدِلُ بَيْنَهُمَا حَتَّى أَعُدَّ القُبَلَ » .

وعن مجاهد قال : كانوا يستحيون ألّا يسووا بين الضرائر فى الطيب ، يتطيب لهذه كما يتطيب لهذه ! ! ! .

وعن ابن سيرين فى الذى له امرأتان : يُكْرَهُ أن يتوضأ فى بيت إحداهما دون الأخرى .

وبالجملة ، فالعدل واجب ، فى القسم والنفقة والسكنى والكسوة وكل ما هو ضرورى كالعلاج ، وهو سنةٌ فيما عداها .

والعدل فيما هو واجب ، هو الذى ورد فى تركه الوعيد ، فى قوله صلى الله عليه وسلم : «مَنْ كَانَتْ لَهُ امْرَأَتَانِ ، فَمَالَ إِلَى إِحْدَاهُمَا ، جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَأَحَدُ شِقَّيْهِ سَاقِطٌ »[1]

(وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا) :

هذه دعوة كريمة من الله تعالى ، للأزواج المقصرين فى حق نسائهم ؛ ليعالجوا تقصيرهم فى شأنهن .

والمعنى : وإن تصلحوا ما أفسدتم من شئون زوجاتكم ، وتتقوا الميل عن العدل بينهن فيما تستقبلون من الزمان ، فإن الله كان - ولايزال - عظيم الغفران ، فيغفر لكم مافرط منكم فيما مضى بإحسانكم كما قال تعالى: «... إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ... »[2] . كما كان - ولايزال - عظيم الرحمة .

فلذا ، تفضل عليكم بقبول متابكم ، وإسباغ رحمته عليكم .

١٣٠ - (وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ . . .) الآية .

المعنى : وإن لم يتصالحا ، واتسعت شقة الخلاف بينهما - حتى وقعت الفرقة - بالطلاق - فإن الله يغنى كلا من الزوجين المفترقين ، من غناه الواسع .

ولاشك أن تشريع الطلاق ، تظهر حكمته جلية واضحة فى هذه الحالة . فإنه إذا لم يكن فى مقدور الزوجين أن يعيشا فى حب وسلام . وكانت الحياة بينهما مشحونة بالمتاعب ، فإن العاقبة ستكون سيئة بالنسبة إليهما ، وإلى أولادهما الذين يشهدون المعارك القاسية - من آن لآخر - بين والديهم .

فالفراق - حينئذ - يكون ضروريا . . . كاستعمال مبضع الجراح لاتقاء أخطار الفساد فى الجسم .

وهذه الجملة تعتبر تسلية للزوجين عما أصابهما من الفراق ، وإشعارًا لهما ، بأن الله تعالى سيسلك بكليهما مسلكا يغنيه عن الآخر . فهو الكفيل براحة عباده ؛ لكيلا يشتد حزنهما على فراقهما بعد عشرة .

(١) أخرجه أحمد ، وأبو داود والترمذى ، والنسائى عن أبى هريرة .

(٢) هود ، من الآية : ١١٤

كما أنها تشعر بلوم مَنْ يتسبب فى عرقلة الصلح منهما ، حيث أفهمت المتشدد : أن للطرف الآخر مايغنيه – من عند الله – عن صاحبه .

(وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا) :

أى : وكان الله – ولايزال – واسع الغنى ، كافيا لخلقه ، حكيما مُتْقِنًا لأحكامه وأفعاله .

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾) .

المفردات :

(وَلَقَدْ وَصَّيْنَا) : ولقد أمرنا أمرا مؤكدًا .

(الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ) : المراد بهم ؛ أهل الكتب السماوية السابقون جميعا : اليهود ، والنصارى ، وغيرهم .

(حَمِيدًا) : مستحقا للحمد ، وإن لم يحمده الحامدون .

(وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا) : وكفى به قيما وكفيلا ؛ تُوكَل إليه الأُمور .

التفسير

١٣١ - (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ . . .) الآية .

لمّا بين الله - تعالى - أن الزوجين - إن تفرقا - يغن كلا من سعته ، أتبع ذلك مايؤكد به هذا الوعد الكريم ، فقرر سبب تحقيقه وهو : أنهَ - سبحانه - له ما فى السموات وما فى الأرض ، فإن من كانت بيده مقاليدهما ، تحققت مواعيده لقدرته الواسعة ، وحكمة تدبيره .

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) :

ولله ما فى السموات وما فى الأرض : خلقا وملكا وتصرفا . فلا يتعذر عليه إغناء الزوجين بعد فرقتهما ، ولا إيناسُهما بعد وحشتهما .

(وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ) :

ولقد أمرْنا كلَّ مَن أُوتِىَ الكتابَ من قبلكم ، من أتباع الأنبياء السابقين - كما أمرناكم - بتقوى الله تعالى ، فهى سر النجاح وصلاح الأمر كله . مَن أخذَ بها استغنى وكف عن المآثم ، ورغب فى الخير ، وعمل لمصلحته ومصلحة أسرته وأمته .

(وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) :

وقلنا لهم ولكم : إنْ تكفروا فإن لله ما فى السموات وما فى الأرض . ومن كان كذلك ، فلن يضره كفركم ومعاصيكم ، كما لاينفعه إيمانكم وتقواكم . وما أمركم بالتقوى ونهاكم عن الكفر والمعاصى إلا لمصلحتكم ؛ رحمةً بكم ، لالحاجته إلى عبادتكم .

(وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا) :

وكان الله - قبل أن تكونوا ، ولايزال بعد ما كنتم - غنيا غير محتاج إلى سواه ، مستحقا للحمد وإن لم يحمده الحامدون .

١٣٢ - (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا) :

هذه الآية الكريمة ، مؤكدة لما قبلها ، بإفادتها ما أفادته من أنه تعالى ، يملك مقاليد السموات والأرض ، مقررة أن أمر هذا الكون موكول إليه تعالى ، ممهدة لما بعدها .

والمعنى : ولله مافى السموات والأرض : من أجزائهما وما استقر فيهما . ومَن كان كذلك ، فكل مافيهما محتاج إليه تعالى ، وهو غنى عنه بغناه الذاتى ، وكفى بالله قَيِّماً على أمور السموات والأرض ، موكولا إليه شئونهما خلقا وتدبيرا ، فلا يليق بعاقلٍ ألا يفعل ما أوصاه به من التقوى ، فيلقى بزمام نفسه إلى شهواته وغرائزه الضارة ، وينصرف بذلك عن المراشد .

١٣٣ - ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ . . . ﴾ الآية .

المعنى : إن يشأْ إذهابكم - أيها الناس - والإتيانَ بآخرين أفضلَ منكم ، فإنه يفعل . . . ولا رادَّ لمشيئته . كما قال تعالى : « . . . وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ »(١) .

﴿ وَكَانَ اللهُ عَلَى ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴾ :

فإن مالك السموات والأرض ، لايعجزه تحقيق مشيئته . ومن كان أمره نافذًا فى خليقته ، فحقه أن يُتَّقَى ويُحْذَرَ ، ويُشْكَرَ ولا يُكْفَرَ .

فإذا كان قد أبقاكم على ما أنتم عليه من عصيان ، فما ذاك إلا لاستغنائه عن طاعتكم وعدم تعلق مشيئته بإفنائكم من رحمته بكم ، لعلكم تثوبون إلى رشدكم ، وتعودون إلى طاعة رَبِّكم ، لتنالوا ثوابه ، وتتقوا عذابه ، فمصارع الضالين قبلكم ماثلة أمامكم.

١٣٤ - ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . . . ﴾ الآية .

بعد أن بين الله - فى الآية السابقة - قدرته على أخذ العصاة بظلمهم ببيان ، قدرته على إفناء جميع الخلق ، وإحلال غيرهم محلهم ، أوضح - فى هذه الآية - السبيل الأمثل للطاعة . وهو أداؤُها ابتغاء مرضاة الله ، دون أن يراد بها الذكر الحسن ، وثناء الناس ، وجرّ المغانم . حتى ينالوا - بالإخلاص - ثواب الدنيا والآخرة .

والمعنى : من كان يريد - بطاعته - ثواب الدنيا ، كالجندى يريد بجهاده الثناء على شجاعته ، والرقىّ فى الرتب العسكرية ، وجرّ المغانم ، وكالمزكى : يريد بزكاته الثناء عليه

(١) محمد ، من الآية : ٣٨

بالكرم ، واكتسابَ مودةِ الناس ، وحبَّ المساكين ورضاهم ، وكالحاج يقصد بحجه التجارةَ أو الحصولَ على لقب « الحاج » بين الناس ، فليعلم هذا المقصر المبهور بزخارف الدنيا الزائلة : أن الله عنده ثواب الدنيا والآخرة. فما له يطلب ثوابَ الدنيا وهو قليل فانٍ ، ويحرم نفسه من ثواب الآخرة وهو جزيل باق .. قال تعالى : « ... وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِى الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ »[1] . فليطلب العبد بطاعته ثوابهما معا ، ويقول : « ... رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذابَ النَّارِ »[2] أو ليطلب ثواب أشرفهما وأبقاهما !

قال تعالى : « مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِى حَرْثِهِ . . . »[3] .

(وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا بَصِيرًا) :

أى : وكان الله – ولايزال – عظيم العلم بجميع المسموعات والمبصرات . وفى جملتها أقوال عباده وأعمالهم ونياتهم . فيجازى كلاً على حسب حاله .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾) .

---

(١) الشورى ، من الآية : ٢٠ (٢) البقرة ، من الآية : ٢٠١ (٣) الشورى ، من الآية : ٢٠

المفردات :

(قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ) : قائمين بالعدل مع المواظبة عليه ، والمبالغة فيه .

(وَإِن تَلْوُوا) : وإن تميلوا ألسنتكم بالشهادة ، بالإتيان بها على غير وجهها .

(أَوْ تُعْرِضُوا) : أى تتركوا إقامتها أو تقيموها على غير وجهها .

التفسير

١٣٥ - (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ . . . .) الآية .

هذه الآية - والتى بعدها - فيهما امتداد للحديث عن العدل ، الذى سبق طرف منه فى الآيات السابقة . وبين الإيمان والعدل رباط وثيق ؛ لأن الإيمان الصحيح ، يقتضى إقامة العدل والقسط بين الناس .

والمعنى : يأيها الذين آمنوا ، كونوا مواظبين على العدل فى جميع الأمور ، مجتهدين فى إقامته كل الاجتهاد ؛ لايصرفكم عنه صارف . وكونوا شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين . وذلك بأن تقيموا شهاداتكم بالحق خالصة لوجه الله ، لا لغرض من الأغراض الدنيوية ، مهما يكن أجره ، ولو عادت الشهادة بالضرر عليكم ، أو على الوالدين والأقربين . فإن الحق أحق أن يتبع ، وأولى بالمراعاة من كل عاطفة وغرض .

(إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا) :

أى : إن يكن المشهود عليه غنيا يُرْجَى نفعُه . أو فقيرا يثير فقرُه الرحمة ، فلا تتأثروا بذلك كله فى شهاداتكمْ . فالله أولى بالأغنياء والفقراء ، وأحق منكم برعاية مايناسب كلا منهما . ولولا أن أداء الشهادة على وجهها فيه مصلحة لهما ، لما شرعه الله . فراعوا أمره - تعالى - فإنه أعلم بمصالح العباد منكم .

(فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَن تَعْدِلُوا) :

أى : فلا تتبعوا فى شهاداتكم - على هذا أو ذاك - هواكم : كارهين إقامة العدل فى شهاداتكم من أجل الرغبة فى مصلحتهما ؛ لأن اتباع الهوى والميل ، ضلال لايليق بالمؤمنين . وإقامة العدل حق وهدى : يجب على المؤمنين - وجوبا مؤكدا - أن يتصفوا به .

(وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) :

أى : وإن تميلوا ألسنتكم عن الشهادة — بالإتيان بها على غير وجهها الذى تستحقه ، أو تعرضوا عنها ، وتتركوا إقامتها وتهربوا من أدائها — فإن الله كان بما تعملون من معاداتكم للحق بأى وجه مما سبق — عليما فيجازيكم على ما اقترفتم .

هذا ، وكما تحرم الشهادة للغنى أو الفقير على غير وجهها ، تحرم أيضا الشهادة إذا كانت لغرض آخر كرعاية الجار ، أو الطمع فى جاهٍ أو منصبٍ عند حاكم ، أو انتصار لطائفة أو مذهب أو نحو ذلك . وماجاء فى الآية ، إنما هو من باب ضرب المثل .

وقد التزم المسلمون الأولون، مراعاة العدل التام ، فلم يفرقوا بين من كان على دينهم ومن خالفهم — اتباعًا لأهوائهم .

ومن هذا قول عبد الله بن رواحة لما بعثه النبى — صلى الله عليه وسلم — يخرص على أهل خيبر ثمارهم وزروعهم ، فأرادوا أن يرشوه ليرفق بهم . فقال : والله ، لقد جئتكم من عند أحب الخلق إلىّ . والإثمُ أبغضُ إلىّ من اعدادكم من القردة والخنازير. وما يحملنى حبى إياه ولا بغضى لكم ، على ألّا أعدلَ فيكم . فقالوا : بهذا قامت السموات والأرض .

١٣٦ — (يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِى أَنزَلَ مِن قَبْلُ . . .) الآية .

المعنى : الخطاب للمؤمنين كافة . والمراد من قوله : (آمِنُوا) : استمروا ، أو اثبتوا على إيمانكم بالله ورسوله ، والكتاب الذى نزل الله على رسوله وهو القرآن ، والكتب السماوية التى أنزلها الله من قبل ، على من سبق من الأنبياء والمرسلين . وهى التوراة والإنجيل والزبور . والإيمان بها — بطريق الإجمال — واجب شرعا .

أما ما يتداول بين أهل الكتاب المعاصرين ، من أسفار عنها ، اسمها « العهد القديم » « والعهد الجديد » ، فقد دخلها — من التغيير والتبديل ، والإضافة والحذف — ما أخرجها عن نسبتها إلى الله تعالى وعن تسميتها توراة وإنجيلا . فلا تدخل فيما أُمرنا بالإيمان به ، وإنما نؤمن بأصولها الأُولى الصحيحة ، التى أنزلها الله . وكما نؤمن بتلك الأُصول نؤمن بأنها نسخت بالقرآن الكريم .

قال تعالى : « وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ . . . »[1] .

وبهذا صار القرآن المرجع الديني التشريعي الوحيد ، للبشرية أجمعين .

(وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا) :

ومن يكفر بالله تبارك وتعالى ، واتصافه بكل كمال وتنزهه عن كل نقص ، ويكفر بملائكته الذين هم عباد مكرمون : لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون ، ويكفرْ بكتبه المنزلة على رسله لهداية خلقه ، ويكفر باليوم الآخر الذى يبعث فيه الخلائق للجزاء ـ من يفعل ذلك ـ فقد بَعُدَ عن الحق بعدا سحيقا ، يستحق عليه العذاب الشديد ،لإهداره آدميته .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾) .

المفردات :

(ازْدَادُوا كُفْرًا) : عادُوا واستمرواْ فيه .

(بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ) : أنذرهمْ .

---

(١) المائدة ، من الآية : ٤٨

(أَيَبْتَغُونَ) : أيطلبون .

(الْعِزَّةَ) : الغلبة والقوة .

(يَخُوضُوا) : يدخلوا .

التفسير

١٣٧ - (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا ...) الآية .

هذه الآية ، بينت حال بعض الكافرين ، وهم المنافقون الذين ترددوا بين الإيمان الظاهر أمام المؤمنين ، وبين الكفر ، حينما يلتقون بالكافرين أمام المؤمنين .

والمعنى : إن المنافقين الذين أظهروا الإيمان أمام المؤمنين رياء ، ثم كفروا أمام أوليائهم الكافرين ، ثم عادوا إلى إظهار الإيمان حين لقائهم بالمؤمنين ، ثم كفروا عند عودتهم إلى الكافرين ، ثم ازدادوا فى دخيلة أنفسهم كفرا وجحودا ، واستمروا عليه . - إن هؤلاء :

(لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا) :

أى : هؤلاء المنافقون المذكورون ، قد حكم الله بأنهم محرومون من أن يغفر الله لهم كفرهم ومعاصيهم ، ومحرومون من أن يهديهم الله إلى الحق ؛ لإصرارهم على الكفر والنفاق .

وقيل إن المراد من هؤلاء : قوم تكرر منهم الارتداد ، وأصروا على الكفر وتمادوا فى الغىّ والضلال .

١٣٨ - (بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) :

بعد أن أوصد الله فى وجه هؤلاء المنافقين أبواب الرحمة والهداية ، نتيجة تكرر الكفر منهم ، أمر الله رسوله أن ينذرهم بأنه أَعَدَّ لَهُم فى الآخرة عذابا شديد الإيلام ، وعبر عن الإنذار بالتبشير ، تهكما بهم وسخرية منهم ، وإيـآسًا لهم من المبشرات كلها ، وأنها - بفرض وقوعها كما هى هنا - فليس لها رصيد إلا العذاب الأليم ؛ لتلاعبهم بالعقيدة وسخريتهم بها .

١٣٩ - (الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ . . .) الآية .

أفادت هذه الآية أن هؤلاء المنافقين : يتخذون الكافرين أولياء ونصراء لهم من دون المؤمنين ، حينما يخلون بهم ، ويبتعدون عن المؤمنين، ويقولون للكافرين إذا خلوا بهم : « إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ »[1] أى : مستهزئون بالمؤمنين فى إظهارنا الموافقة لهم فى الإيمان .

ولقد أنكر الله عليهم ذلك المسلك بقوله عن غايتهم :

(أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ) :

أى يطلبون بموالاتهم القوة والغلبة مع أنهم لايستطيعون منحهم إياها .

(فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا) :

لا يمنحها إلا أولياءه . فمن استعز بالله أعزه . ومن استعز بغيره أذله . وصدق الله تعالى - إذ يقول : « وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ »[2] .

١٤٠ - (وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ . . .) الآية .

جاءت هذه الآية، لتشديد النكير على المنافقين ، فى موالاتهم للكافرين ، والرضا بما يقولون فى حق الإسلام والمسلمين .

والمعنى : أيبتغى هؤلاء المنافقون العزة بموالاتهم الكافرين ومشاركتهم الاستهزاء بكتاب الله أو الرضى به ؟ ! والحال أنه قد نزل عليكم - يامعشر المؤمنين - أنكم إذا رأيتم أولئك الكافرين يستهزئون بكتاب الله تعالى ، وسمعتم منهم ذلك - فاتركوا مجالسهم حتى يخوضوا فى حديث غيره .

فلو كان هؤلاء المنافقون مؤمنين - كما زعموا - لما رضوا بسماع هذا الاستهزاء من الكافرين ، ولا جالسوهم .

---

(١) البقرة ، من الآية : ١٤٠ (٢) المنافقون ، من الآية : ٨

والحق : أنهم ما جالسوهم إلا ليشاركوهم فى الكفر والاستهزاء .

ولذا قال الله عقب ذلك :

(إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ) : أى : مثلهم فى الكفر . ولستم بمؤمنين كما تزعمون . فإن المرء بجليسه . ولذلك أشركهم الله مع الكافرين فى الوعيد، فقال تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا) :

فيعذبون فيها على اختلاف أعمالهم .

ولاشك أن عذاب النفاق أشد من عذاب الكفر ، كما قال تعالى : « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا »[1] ؛ لأنهم جمعوا بين الكفر والكيد للإسلام .

(ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾).

المفردات :

(يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ) : ينتظرون وقوع أمر بكم .

(فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ) : نصر منه .

---

(١) النساء ، الآية : ١٤٥

(أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ) : ألم نحطكم بعوننا ومساعدتنا .

(يُخَادِعُونَ اللَّهَ) : يفعلون مع الله ما يفعل المخادع . وهو إظهار مالا يبطن .

(يُرَاءُونَ النَّاسَ) : يظهرون للناس غير ما انطوت عليه صدورهم .

(مُذَبْذَبِينَ) : مترددين بين المؤمنين والكافرين .

التفسير

١٤١ - (الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ . . .) الآية .

هذه الآية - وما بعدها - تبين لنا ، بعض سمات المنافقين وصفاتهم ، التى كانوا عليها . وأول صفة ذكرت لهم ، هى التربص والانتظار ؛ لاستغلال المواقف استغلالا دنيئا لمصلحتهم . وهو ما بيّنه الله بقوله :

(فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ) :

أى : فإن كان لكم نصر على أعدائكم - بمعونة الله - تزلّفوا لكم ، وراحوا يطالبون بالمغانم قائلين : (أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ) : بالعون حتى نُصرتم على الأعداء ؟

(وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ) : من الغلبة فى الحرب على المؤمنين .

(قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ) :

أى : قال المنافقون للكافرين : ألم نُحِطْكُمْ بعوننا ومساعدتنا ، واطلاعكم على أسرار المؤمنين حتى صارت لكم الغلبة عليهم .

(وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ) :

أى : ندفع عنكم صولة المؤمنين بتثبيطنا إياهم ، وتباطئنا فى معاونتهم ، وإشاعة الأخبار التى توهن قلوبهم ، وتضعف عزائمهم . فاعرفوا حقنا عليكم ، وهاتوا نصيبنا مما غنمتم .

(فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) :

فهو مطلع على دخائل الجميع محقين ومبطلين ، فيثيب أولياءه المؤمنين المخلصين ، ويعاقب أعداءه المنافقين يوم الجزاء .

(وَلَن يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا) :

فى الدنيا والآخرة . فلن يُغْلَب المؤمنون الصادقون فى الدنيا غلبة حقيقية . وإذا وقعت لهم هزيمة — فى بعض الأوقات — فهى للابتلاء والاختبار . وغالبا ماتكون نتيجةَ انحراف عن سلوك الطريق المستقيم . إذ ليس بين المؤمنين وبين النصر على أعدائهم إلا أن يعودوا إلى الله ، ويستكملوا حقيقة الإيمان : بالانقياد لكتاب الله والتمسك بشريعته . . . « إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ . . . »[1] .

١٤٢ — (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ . . .) الآية .

هذه صفة ثانية من صفات المنافقين وسماتهم . ومعنى (يُخَادِعُونَ اللهَ) : أنهم يفعلون مع الله فعل المخادع ، فيظهرون الإيمان للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، ولكنهم يضمرون الكفر .

(وَهُوَ خَادِعُهُمْ) : وهو يعاملهم بما يناسب خداعهم ، فيتركهم فى خداع الدنيا لغرورهم بها ، وحرصهم على بريقها وزخرفها ، ولكنه يُعِدُّ لهم فى الدار الآخرة ، الدرك الأسفلَ من النار .

(وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى) :

هذه صفة ثالثة من صفاتهم ، وهى إذا قاموا إلى الصلاة قاموا متباطئين متثاقلين ، لا نشاط عندهم ، ولا رغبة لهم فى أدائها ؛ لأنهم لا يعتقدون ثوابا على فعلها ، ولا عقابا على تركها . وما قيامهم للصلاة مع المصلين ، إلا مظهرٌ من مظاهر خداعهم ، بدليل قوله تعالى بعد ذلك :

(يُرَاءُونَ النَّاسَ) :

أى : يراءون الناس بقيامهم مع المسلمين فى الصلاة ، ليحسبهم المؤمنون من فريقهم وأنصارهم ، وهم لا يقصدون إلا أن يرى المسلمون أنهم معهم ، بل منهم . إمعانا فى الخداع ! !

(وَلَا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلًا) :

أى : ولا يذكرونه — سبحانه — إلا زمانا قليلا ، أو ذكرا قليلا ؛ لأن المنافق لا يفعل ذلك إلا بحضور من يرائيه فحسب . وهذا أقل أحواله ، أو يراد بالقلة : العدم ؛ لأن ذكرهم غير

---

[1] (١) سورة الرعد ، من الآية : ١١

مقبُول ، فلا فائدة فيه ، ومالم يُقبَل معدوم ، وإن كان كثيرا فى نفسه .

وعلى هذا يكون المعنى : لايذكرون الله أبدا .

١٤٣ ـ (مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ . . .) الآية .

أى : مترددين حائرين بين الإيمان والكفر ، ولا مستقر لهم على أحدهما .

(لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ) :

أى : ليسوا منسوبين إلى المؤمنين فى الحقيقة ، لإضمارهم الكفر . ولا إلى الكافرين لإظهارهم الإيمان ، والموصوفون بذلك ، ضالون عن سنن الهدى .

(وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ) : لعدم استعداده للهداية والتوفيق :

(فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا) :

أى : فلن تجد لهدايته طريقا موصلا إلى الحق والصواب .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾) .

المفـردات :

(سُلْطَانًا مُّبِينًا) : حجة ظاهرة .

(أَوْلِيَآءَ) : نُصراء .

(الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ) : الطبقة السفلى .

(وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ) : اتخذوه ملجأً وملاذا .

(وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا) : أى كان – ولايزال – مثيبا على الشكر .

التفسير

١٤٤ – (يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ...) الآية .

بعد أن بين الله صفات المنافقين ، الناطقة بأنهم كفار فى حقيقة أمرهم ، نهى الله المؤمنين أن يتخذوا الكافرين – جميعا – أولياء ، فإنهم لايضمرون الخير لهم . فقال : يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكفار أولياء وأحباء ونصراء من دون المؤمنين ؛ لأنهم لايؤمَنُ جانبهم : (أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا) :

أى : أترغبون – بموالاة الكفار – أن تكون لله عليكم حجة واضحة فى عذابه إياكم ؛ إذْ أنكم اتخذتم أعداءه أولياء لكم . وهم يبغون لكم الهزيمة ، ولدينكم الزوال . كما قال تعالى : « يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَآءَكُم مِّنَ الْحَقِّ . . . »[1] الآية ! !

وهذا لايمنع من عقد معاهدات السلام معهم إذا كان فى ذلك مصلحة الإسلام والمسلمين .

١٤٥ – (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ . . .) الآية .

هذه الآية ، عادت بالحديث إلى المنافقين ، لشدة خطرهم على الإسلام ، وبينت أنهم فى الطبقة السفلى من النار .

فإن النارَ دركاتٌ ، كما أن الجنةَ درجاتٌ .

---

(١) الممتحنة ، من الآية : ١

وفى ذلك إشارة إلى شدة عذاب المنافقين . وإنما كانوا أشد عذابا من الكفار الظاهرين ؛ لأنهم ضموا إلى الكفر المشترك بين الطائفتين ـ استهزاء بالإسلام ، وخداعا لأهله . .

(وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا) :

أى : لن تجد لهم من ينصرهم بإخراجهم من هذا العذاب ، أو بأن يخفف عنهم منه شيئا.

١٤٦ ـ (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا . . .) الآية .

أى : إلا الذين تابوا عن النفاق فى الدنيا قبل أن يموتوا ، وأصلحوا مَا فَسَدَ من نياتهم وضمائرهم .

(وَاعْتَصَمُوا بِاللهِ) :

أى : تمسكوا بكتابه ، ووثقوا بربهم ، وجعلوه ملجأ ومعاذا لهم .

(وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلهِ) :

أى : جعلوا طاعتهم خالصة لوجه الله لا رياء فيها ولا نفاقا ، بل رغبة فى رضاه .

(فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ) :

أى : فأولئك الموصوفون بماذكر ـ مع المؤمنين المخلصين، الذين لم ينافقوا منذ إيمانهم .

والمراد : أنهم معدودون منهم فى الدنيا والآخرة .

(وَسَوْفَ يُؤْتِ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا) :

أى : يؤتيهم فى الآخرة أجرا عظيما ، فيساهمونهم فيه ، ويشاركونهم إياه .

وفى هذه الآية الكريمة ، مايدل على ضَعَةِ المنافقين ، ورفعة شأن التائبين المصلحين ، المعتصمين بالله ، المخلصين دينهم له سبحانه .

١٤٧ ـ (مَايَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ . . .) الآية .

هذا خطاب للمنافقين ، سيق لبيان أن مدار تعذيبهم هو داء النفاق ، المشتمل على عدم شكر الخالق ، وعدم الإيمان به .

والمعنى : أى شىء يعود على الله سبحانه بعذابكم ، إن كنتم شاكرين ، وهو لايعذب لجلب نفع له ، أو دفع ضر عنه ، أو لإدراك ثأر ، أو للتشفى ؟ ! فهو منزه عن ذلك كله ، فإن شكرتم نعمَ الله عليكم ، وآمنتم مخلصين لله ، جازاكم على ذلك خير الجزاء ، وغفر لكم ووفَّاكم أجورَكم .

(وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا) :

أى مثيبا على الشكر .

(عَلِيمًا) :

لا يعزب عن علمه شىء . وبذلك يصل ثوابه كاملا للشاكرين .



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

الحزب الثانى عشر

الطبعة الأولى ١٣٩٦ هـ — ١٩٧٦ م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٧٦

(وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾).

المفردات :

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ) : واقرأ على اليهود والنصارى . أو على أمتك يا محمد .

(نَبَأَ ابْنَىْ آدَمَ) : خبَرهما .

(قُرْبَانًا) : القربان ؛ ما يُتقرَّب به إلى الله من ذبيحة أو صدقة أو نحوهما .

(بَسَطْتَ) : مَدَدْت .

(تَبُوءَ) : ترجع .

(بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ) : بذنبى وذنبك .

التفسير

٢٧ - (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَىْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ . . .) الآية .

قِصَّةُ ولدَى آدم ، جاءت فى أثناء الحديث عن اليهود ؛ لتذكيرهم - وخاصة أنهم أهل بغى - ولتذكير غيرهم من الأُمم ، بأن من قتل نفسًا - بغير نفس أو إفساد - فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها - بصلاح أو إصلاح - فكأنما أحيا الناس جميعًا ، لعلهم يثوبون إلى الرشاد ، ويكفون عن الفساد .

وقد بدأها القرآن الكريم ، بخطاب النبي صلى الله عليه وسلم . فقال :

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَىْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ) :

والمعنى : واتل يا محمد على اليهود – أو على أمتك – خبر ابنىْ آدم تلاوة مقترنةً بالحق والصدق ، حين قَدَّم كل منهما إلى الله قرباناً ، ولم يكونا على درجة واحدة من الإخلاص فيما تقربا به ، فتقبَّل اللهُ قربان المخلص ، ولم يتقبل قربان غيره . فامتلأ قلبه غيظًا وحسدًا وحقدًا على أخيه التَّقِى الذى قُبِل قربانُه ، مع أنه لا ذنب للتقى فى رفض الله قربان الشقى لأن المذنب هو الشقى بعدم إخلاصه لله تعالى .

(قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) :

قال الشقى لأخيه التقى : لأقتلنك . يريد بذلك أن يتخلص منه ، حتى لا يراه بعدما تقبل الله قربانه . فإن غريزة الفساد ، لا تطيق الصلاح .

فأجابه أخوه الصالح بقوله : (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) يريد بذلك أنه لا ذنب له فى عدم قبول قربانه ، وأن الذنب آت من قبله هو ؛ لأنه لما لم يتق الله ، لم يقبل الله قربانه ، فإنه تعالى ، لا يتقبل إلا من أهل التقوى . فلو اتقاه لقبل منه قربانه ... فلا وجه لتحميله تبعة رفض قربانه وإقسامه على قتله .

وكما ذكرنا ؛ طبيعة الشقى تسوغ له ألَّا يرى إلا الأشقياء . كما أن طبيعة التقى ، تحبب إليه ألا يوجد إلا الأتقياء . فقال لأخيه :

٢٨ – (لَئِن بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّى أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ) :

يقول الأخ الصالح الذى تُقبِّل قربانُه لأخيه الذى لم يُتقبلْ منه ، وتورط فى الإقسام على قتله : تالله لئن مَددتَ إلى يدك لتقتلنى ، ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك؛ لأنِّى أخاف عقوبة الله رب العالمين إن أنا قتلتك ! !

يريد بِمَا قاله : أن يوقظ ضمير أخيه ، ليخاف عقاب الله تعالى ، فيعدل عما أقسم عليه ، من قتله بدافع الحقد الذى لا مبرر له .

٢٩ - (إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ الظَّالِمِينَ) :
إنى أريد باستسلامى لك ، وعدم قتلك - ابتداءً أو دفاعًا - أن ترجع بإثم قتلك لى ، وإثمك الذى لأجله لم يتقبَّلْ قربانك ، إذا أصررت على قتلى ولم تخف رب العالمين ، فتكون بذلك من أصحاب النار الملازمين لها ، وهذا عقاب الظالمين المعتدين .

يريد بذلك ، أن يوقظ ضميره ، وأن يعلم المصير الذى ينتظر القاتلين . وأنه لا ينبغى لأخ أن يقاتل أخاه ، ولكن له أن يدافع عن نفسه دون قتل أخيه إذا استطاع إلى ذلك سبيلا .

والإسلام يقرر ردَّ العدوان بمثله . ويمنع قتال المسلم لأخيه المسلم ، ما لم يكن مضطرا للدفاع عن نفسه ولم يجد له نجاة إلا بقتل من اعتدى عليه . قال تعالى :

« ... فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ... »[1] .

قال الجصاص : فالصحيح من المذهب - أى مذهب المالكية - أنه يلزم الرجل دفع الفساد عن نفسه وغيره ، وإن أدى ذلك إلى القتل .

وقال ابن عباس فى تفسير قوله تعالى : (لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ ...) الآية .
إن المعنى : لئن بسطت إلىَّ يدك - على سبيل الظلم والابتداء - لتقتلنى ، ما أنا بباسط يدى إليك ، على وجه الظلم والابتداء .

وعلى هذا التفسير ، تكون الآية داعية إلى الاستسلام للقاتل ، حتى تكون منسوخةً بنصوص الدفاع عن النفس ، كما ذهب إليه بعضهم . بل الغرض منها : أنه لن يكون بادئا بالقتل ، حتى لا يكون ظالما ، لأنه يخاف الله رب العالمين .

قال الآلوسى : ولعل مراده بالذات ، إنما هو عدم ملابسته للإثم ، لا ملابسة أخيه للإثم ، إذ إرادة الإثم من آخر ، غير جائزة .

---

(١) الحجرات ، من الآية : ٩

والصحيح الذى عليه الجمهور : أن هذه القصة لولدين لآدم عليه السلام من صلبه — وهذا هو الذى يقتضيه ظاهر النص — وليست لرجلين من بنى إسرائيل كما قال الحسن البصرى ، لأن بنى إسرائيل كانوا يَعْرِفون كيف يُدْفَنُ الموتى . ولم يكونوا بحاجة إلى أن يتعرفوا ذلك بالاقتداء بالغراب .

وخلاصة ما قيل فى قصتهما : أن حواء أم البشرية ، كانت تلد — فى كل بطن — ذكرا وأنثى ، وكان آدم — عليه السلام — يزوج ذكر بطن لأنثى بطن الآخر . بالعكس . ويجعل الافتراق بالبطون ، بمنزلة الافتراق بالنسب ، للضرورة . وكانت التوأم لا تحل — فى شريعته — لتوءمها .

وحدث أن حواء ولدت ولدا أسمته قابيل ، وكانت توءمُهُ أنثى جميلةً . ثم ولدت ذكرا آخر أسمته هابيل ، وكانت توءمه أنثى غير جميلة . فلما بلغوا مبلغ الزواج ، أراد آدم أن يجرى عليهم شريعته ، بأن يزوج قابيل لتوءم هابيل ، ويزوج هابيل لتوءم قابيل . فرفض قابيل ذلك ، وقال أنا أحق بتوأمى من هابيل. ولم يكترث بزجر أبيه إياه ، فدعاهما آدم إلى أن يُقَرِّبَا قربَانًا إلى الله ، وذكر لهما أن من قُبل قربانُه فهو صاحب الحق فى التزوج بالأخت الجميلة ، وإنما قال ذلك ، لعلمه أن الله تعالى ، لن يقبل من قابيل ، لأن زواجه من توءمه ليس مما شرعه الله لهم .

وكان قابيل صاحب زرع ، وكان هابيل صاحب ماشية ، فقدم كلاهما قربانًا مما عنده فقبل الله قربان هابيل دون قابيل . وتأكد بذلك حقه فى الزواج من توءم قابيل . فحقد قابيل على هابيل ، وحلف ليقتلنه .

وكان من أمره وأمر أخيه ما قص الله تعالى .

وهذه خلاصة ما ذكرته كتب التفسير ، وإن لم نجد لها سندا فى كتب السنة .

(فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾).

المفردات :

(فَطَوَّعَتْ) : فسهّلت ويسرت .

(يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ) : أى يحفر فى الأرض .

(سَوْءَةَ أَخِيهِ) : السوءة فى الأصل ؛ العورة . والمراد بها هنا : جسد أخيه الذى قتله .

(يَاوَيْلَتَا) : كلمة جزع وتحسُّر ، والويلة والويل بمعنى الهلكة . كأنه ينادى هلاكه ليَحُل به لينقذه مما حل به من الدواهى .

(مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ) : أى بسبب ذلك .

(بِالْبَيِّنَاتِ) : بالحجج الواضحات .

(لَمُسْرِفُونَ) : لمجاوزون الحد فى الطغيان .

التفسير

٣٠ـ ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ :

أى فسهلت لقابيل نفسه أن يقتُلَ أخاه الصالح ، الذى لا ذنب له فى عدم قبول قربانه ، فقتله ، بعد أن بذل له من النصح والإرشاد ، والترغيب والترهيب . فما أورثه ذلك إلا الإصرار على الغَى والانهماك فى الفساد ، فأصبح ـ بجريمته النكراء التى لا مبرر لها ـ من الخاسرين ؛ الذين خسروا أنفسهم فأفسدوا فطرتها . وخسروا أقرب الناس إليهم وأعونهم على بأساء الحياة . وخسروا حسن السمعة فى الدنيا . وخسروا النجاة من العقاب فى الآخرة . وبذلك خسر الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين .

٣١ـ ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ . . . ﴾ الآية .

لم يكن الدفن معروفاً للبشرية ؛ قبل هذه الحادثة الأُولى ، التى راح ضحيتها ـ لأَول مرة ـ إنسان كان مملوءا حيوية ونشاطا ، فأصبح جثة هامدة يتسرب إليها العفن ، ويسرع إليها النتن ، ويؤذى ريحها الأُنوف . ويضيق النفوس ، والجانى ـ أمام جريمته وآثارها ـ حيران لا يدرى كيف يتصرف .

﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ﴾ :

وحينئذ : أرسل الله غرابا ، وجعله يحفر أمامه فى الأَرض ـ بمنقاره ورجليه ـ حفرة ثم ألقى فيها غرابا آخر ميتا وواراه بالتراب . فعرف قابيل بذلك كيف يوارى سوءة أخيه .

﴿ قَالَ يَاوَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي ﴾ :

أى فنادى ـ متحسرا جزعا ـ : ياويلتا أعجزت عن أن أكون مثل هذا الغراب : فأوارى جثة أخى ، كما وارى الغراب جثة أخيه !!

﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ :

على قتله ، بعد ما رأى وعاش فى آثار جريمته .

٣٢ـ ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا . . . ﴾ الآية .

أى من أجل فظاعة القتل ظلما ، وسوء آثاره فى الدنيا والآخرة ، قضينا على بنى إسرائيل فى كتابهم : أنَّ من قتل نفسا بغير قصاص فى نفس ، أو بغير فساد فى الأَرض

يوجب إهدار الدم كالشرك ، فكأنما قتل الناس جميعًا ، لأن الواحد صورة للجماعة ، فالجرأة على قتله ، استهانة بحق المجتمع كله . وجرأة عليه كله . ومن أحيا نفسا ليس عليها قصاص ولا حدٌّ ـ بأن حال دون قتلها ظلما بالنصيحة أو القوة . أو أنقذها من التهلكة بنحو غرق أو حرق ـ فكأنما أحيا الناس جميعا .

وفائدة هذا التشبيه : الترهيب والردع من قتل نفس واحدة ، بتصويره بصورة قتل جميع الناس ، والترغيب والتحضيض على إحيائها ، بتصويره بصورة إحياء جميع الناس.

وتخصيص بنى إسرائيل بالذكر ـ مع أن الأمر كذلك بالنسبة إلى غيرهم ـ لأن الحسد كان منشأً هذه الجريمة ، وهو غالب عليهم . ولأنهم كانوا يستهينون بجريمة القتل ، حتى لم يتورعوا عنها فى أنبيائهم ، فنبههم الله ـ فى كتابهم ـ إلى فظاعة هذه الجريمة حتى يحذروها .

ولقد اهتدى علماء القانون ، إلى ما قرره القرآن الكريم ، من أن العدوان على الفرد يعتبر عدوانا على المجتمع .

ولذا ، لو تنازل المجنى عليه ـ أو ورثته عن حقوقهم قِبلَ الجانى ـ فمن حق النائب العام الذى يمثل المجتمع ، عدم التنازل ، حفاظًا على حق المجتمع ، وصونا لحرُماته .

(وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ) :

ولقد جاءتهم رسل الله ـ واحدا بعد آخر ـ بالآيات الواضحات ، الناطقة بتقرير ما كتبناه عليهم ، ثم إن كثيرا منهم ـ بعد ما كتبناه عليهم وأكدناه بإرسال الرسل ـ لمسرفون فى قتل الناس غير مبالين به .

فمن قرأ تاريخهم ، هاله ما ارتكبوه : من المذابح والتحريق والتمثيل بالبشر . . وكتبهم ناطقة بذلك مما يندى له الجبين . ولا يزالون ـ حتى اليوم ـ على عنتهم فى الإسراف فى سفك الدماء .

وهذه أرض فلسطين ـ وما جاورها من البلاد العربية ـ تشهد أفظع المذابح والإبادة للعرب بأيدى الإسرائيليين الدنسة .

(إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾) .

المفردات :

(يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ) : المحارب ؛ من يحمل السلاح على الناس فى البر أو البحر أو الجو ، دون إثارة منهم له . والمغتال كالمحارب . ويشمل القراصنة فى البر والبحر والجو ، كقطاع الطرق ...

(وَيَسْعَوْنَ فِى الْأَرْضِ فَسَادًا) : أى تمردا على ما شرعه الله من الأمن والطمأنينة للإنسانية كلها .

(أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ) : المقصود بالأرض ؛ الأرض التى يكتسبون فيها نفوذا حراما . يُنفَوْن منها إلى حيث لا نفوذ لهم ، ولو سجنا . شَلاًّ للجريمة .

التفسير

٣٣ - (إِنَّمَا جَزَآءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِى الْأَرْضِ فَسَادًا ...) الآية .

الربط :

لمَّا بين الله - قبل هذه الآية - أن قتل النفس الواحدة له خطورتُه عند الله تعالى ، وأنه يعتبر - عنده - كقتل الناس جميعا ، أتبع ذلك هذه الآية الكريمة ، التى تضمنت من التشريع ، ما يردَع المعتدىَ الأثيم ، ويكفه عن ترويع الناس والإفساد فيا بينهم . فقال تعالى :

(إِنَّمَا جَزَآءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا أَوْ يُصَلَّبُوٓا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ) :

والآية نزلت فى قطاع الطريق . كما قاله كثير من المفسرين والفقهاء ، وأصحاب الرأى . . . نقل ذلك الطبرسى وغيره .

والمقصود من محاربتهم اللهَ ورسولَهُ ، قطعُهُم الطريقَ على الناس ، وإفسادُهم فى الأرض وترويع الآمنين .

وجعْل عملهم هذا حرباً لله ورسوله ، إنما هو لتمردهم على ما شرعه الله سبحانه وتعالى ، من وجوب الكف عن إيذاء الناس ، وتوفير أسباب الأمن والسلام لهم .

المعنى : أفادت الآية ، أن الذين يَسْعَوْن فى الأرض فسادًا ، بقطعهم الطريق على الناس؛ يسلبونهم أموالهم أو أعراضهم ، أو يقتلونهم ، أو يقطعون أطرافهم - يعاقبون بتقتيلهم أو تصليبهم[1] ، أو قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، أو نفيهم من الأرض .

وبيان ذلك فى مسائل :

١ - أن وصف المحارب لله ولرسوله ، يطلق على من حمل السلاح على الناس فى مدينة أو قرية ، أو فى طريق أو صحراء ، وكابرهم عن أنفسهم وأموالهم ، دون إثارة منهم له ، أو ثأر أو عداوة .

٢ - أن المغتال كالمحارب . وهو أن يحتال فى قتل إنسان ، ليأخذ ماله ، وإن لم يشهر السلاح . بأن دخل عليه بيته ، أو صحبه فى سفر فأطعمه سُمًّا فقتله ، فيُقتَل حدًّا لا قَوَدًا أى يقتل قصاصًا .

٣ - اختلف العلماء فى حكم المحارب . فمنهم من قال : يعاقب بقدر ما فعل . فمن أخاف السبيل وأخذ المال - قُطعَت يدُه ورجلهُ من خلاف . وإن أخذ المال وقَتَل، قُطعَت يدُهُ ورجلُهُ ، ثم صُلِبَ وقُتِلَ . فإذا قَتَلَ ولم يَأْخُذِ المالَ ، قُتِلَ . وإن لم يَأْخُذِ المالَ ولم يَقْتُل ، نُفِيَ . وبهذا قال النخعى ، وعطاء وغيرهم .

---

(١) مادة التفعيل لما فيه من الزيادة على القصاص ، من أنه لا يسقط بالعفو ، لكونه حق الشرع ، والمراد من التصليب : التصليب مع القتل .

وقال أبو يوسف : إذا أَخَذَ المالَ وقَتَلَ ، صُلِبَ وقُتِلَ على الخشبة .

قال الليث : بالحربة : مصلوباً .

وقال أبو حنيفة : إذا قَتَلَ قُتِلَ . وإذا أَخَذَ المالَ ولم يَقْتُل ، قُطِعَتْ يَدُهُ ورجلُه من خلاف . وإذا أَخَذَ المالَ وقَتَلَ : فالسلطان مخيرٌ فيه : إن شاء قَطَع يدَهَ ورجلَه ، وإن شاء لم يَقْطَعْ وقَتَلَه وَصَلَبَه .

وقال الشافعي : إذا أخَذ المالَ ، قُطِعتْ يدُه اليُمنَى، وحسِمت[1] ، ثم قُطِعَتْ رجْلُهُ اليسرى وحُسِمَت . وخُلِّيَ سبيلُه ، لأن هذه الجناية زادت على السرقة بالحرابة .

وإذا قَتَلَ قُتِلَ ، وإذا أخذَ المالَ وقَتَلَ ، قُتِلَ وصُلِبَ .

وروى عنه أنه قال : يُصَلَّبُ ثلاثَةَ أيام ، وأنه يكره أن يُقْتَلَ مصلُوباً ، بل يصلبُ بعد القتل ؛ لنهى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن الْمُثْلَة ... وبمثل قوله قال أحمد .

وقال أبو ثور : الإمام مخير على ظاهر الآية . وكذا قال مالك وابن عباس ، وسعيد ابن المسيب ، وعمر بن عبد العزيز ، ومجاهد ، والضحاك ، والنخعى كلهم قال :

الإمام مخير فى الحكم على المحاربين ، يحكم عليهم بأى الأحكام التى أوجبها الله تعالى ، من القتل والصلب ، أو القطع ، أو النفى . أخذاً بظاهر الآية .

وروى عن ابن عباس ، أنه قال : إن كان فى القرآن « أَوْ » فصاحبه بالخيار . وهذا هو الأظهر ، وهو ما نرجحه.

٤ – النفى من الأرض ، اختلف فى معناه :

فعن الشافعى : أنهم يُخْرَجون من بلد إلى بلد ، ويطْلبون لتقام عليهم الحدود . وبه قال الليث بن سعد ، والزهرى .

وقال مالك : ينْفى من البلد الذى أحدث فيه الحرابة إلى غيره ، ويحبس فيه كالزانى .

---

(١) الحسم : الكى لمنع سيلان الدم .

وقال الكوفيون : نفيهم ؛ سجنهم . . . فيُنْفَى من سعة الدنيا إلى ضيقها .

حكى مكحول عن عمر قال : أحبسه حتى أعلم منه التوبة . ولا أنفيه من بلد إلى بلد فيؤذيهُم .

قال القرطبي : والظاهر أن الأرض فى الآية هى أرض النازلة – أى مكان الجريمة – ثم قال :

ينبغى للإمام – إذا كان هذا المحارب مخوف الجانب : يظن أن يعود إلى حرابة ، أو إفساد – أن يسجنه فى البلد الذى يغرب إليه . وإن كان غير مخوف الجانب ، سرِّح .

قال ابن عطية : وهذا صريح مذهب مالك ؛ أن يغرب ويسجن حيث يغرب . وهذا على الأغلب فى أنه مخوف . ورجحه الطبرى ؛ لأن نفيه من أرض النازلة هو نص الآية ، وسجنه بعد ، بحسب الخوف منه .

فإن تاب وفهمت توبته ، سرِّح .

٥ – لا يراعى فى المال الذى يأخذه المحارب نصاب ، كما يراعى فى السارق .

وقيل : يراعى أن يكون ربع دينار . وهو نصاب القطع .

قال ابن العربى : قال الشافعى ، وأصحاب الرأى : لا يقطع من قطاع الطريق ، إلا مَنْ أخذ قدر ما تقطع فيه يدُ السارق .

وقال مالك : يُحْكم عليه بحكم المحارب . وهو الصحيح ، لأن الله تعالى – وقّت على لسان نبيه القطع فى السرقة ، فى ربع دينار . ولم يوقت فى الحرابة شيئًا ، بل ذكر جزاء المحارب ، فاقتضى ذلك توفية الجزاء – على المحاربة – عن حقه .

ثم إن هذا قياس أصل على أصل . وهو مختلفٌ فيه . وقياس أدنى على أعلى . وذلك عكس القياس وكيف يقاس المحارب على السارق ، وهو يطلب خطف المال ، فإن شعر به فرّ ، حتى إن السارق إذا دخل بالسلاح يطلب المال ، فإن منع منه ، أو صِيح عليه وحارب عليه ، فهو محارب : يُحْكم عليه بحكم المحارب .

قال القاضى ابن العربى : كنت فى أيام حكمى بين الناس : إذا جاءنى أحد بسارق – وقد دخل الدار بسكين يحبسه على قلب صاحب الدار وهو نائم ، وأصحابه يأخذون مال

الرجل – حكمت فيهم بحكم المحاربين . . فافهموا هذا من أصل الدين ، وارتفعوا إلى يفاع العلم عن حضيض الجاهلين . إ هـ .

نقول : وهذا ما يسميه علماء القانون : « سرقة بالإكراه » .

وفى المسألة أحكام عظيمة ، وتفاصيل نفيسة ينبغى لأهل القضاء أن يعرفوها ليطبقوها على الذين يعيثون فى الليل والنهار فسادا .

فليتعرفها هؤلاء القضاة من مظانها فى كتب التفسير المطولة . المعنية بأحكام القرآن ، وفى كتب الفقه .

ولينفذوها فى أولئك المحاربين لله ورسوله ، قطعًا لدابرهم .

ثم ختم الله الآية بقوله :

(ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِى الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ) :

أى : ذلك الذى مرّ من جزاء المحاربين ، خزىٌ وذل وفضيحة لهم فى الدنيا . . ولهم فى الآخرة عذاب عظيم .

وإنما بولغ فى جزاء قطاع الطريق ؛ لأنهم يَسُدُّون سبيل الكسب والتجارة على الناس ، ويُلْزِمُونهم البيوت ، ويقطعون الأرزاق عن عباد الله ، ويروّعونهم فى مآمنهم ، فلذا ، شُرِعَ لهم أشدُّ العقاب ، قطعًا لدابرهم .

٣٤ – (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوٓا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

أفادت هذه الآية : أن توبةَ المحاربين – بعد القدرة عليهم – لا تنفعهم ، بل لابد من أن تقام عليهم الحدود التى وجبت فى الآية السابقة .

أما إن تابوا قبل القدرة عليهم وإمساكهم ، فإن حق الله يسقط عنهم ، بقوله تعالى : (فَاعْلَمُوٓا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

أما حقوق الآدميين من قصاص وغيره ، فلا تَسْقُطُ بالتوبة ، فإن شاءوا عَفَوْا ، وإن شاءوا استوفَوْا منهم حقوقهم ، قصاصا عادلًا .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾ .

المفردات :

(وَابْتَغُوا) : واطلبوا .

(الْوَسِيلَةَ) : هى ما يتوسل به ، ويتقرب إلى الله من فعل الطاعات ، وترك المعاصى .

التفسير

٣٥ - (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ . . .) الآية .

لما ذُكِرَ جزاءُ المحاربين لله ورسوله ، وعِظَمُ جنايتهم ، وفُتِحَ لهم بابُ المتاب والغفران ، عقب ذلك بأمر المؤمنين - عامة - بتقوى الله ، والجهاد فى سبيله ، تأمينا للإنسانية ، وإسعادا لحياتها . ويدخل فى أمر المؤمنين بتقوى الله المحاربون لله ورسوله ، فعليهم أن يتقوا الله ويجاهدوا أنفسهم فى سبيل رضاه .

والمعنى : يأيها الذين آمنوا ، اجعلوا أنفسكم فى وقاية من عذاب الله ، واطلبوا إليه الوسيلة التى تتوسلون بها إلى ثوابه والوقاية من عذابه ، وهى فعل الطاعات وترك المعاصى . ويدخل فى الطاعات : التوبة من الذنوب ، والاستغفار ، والجهاد فى سبيل الله ، ودفع الفساد . كما يدخل فى المعاصى : قطع الطريق والإفساد فى الأرض اللذان تقدم الحديث عنهما ، فى قوله تعالى : « إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ . . . »[1] .

(١) المائدة ، من الآية : ٣٣

أما التقوى ، فهي اتقاء المحارم .

وأما ابتغاء الوسيلة إلى الله ، فليس بالاستعانة بالصالحين.. فقد قال فيه الشيخ الآلوسي ما نصه : واستدلَّ بعض الناس بهذه الآية على مشروعية الاستغاثة بالصالحين ، وجعلهم وسيلة بين الله تعالى وبين العباد ، والقسم بهم بأن يقال : اللهم إنا نقسم عليك بفلان أن تعطينا كذا . . ومنهم من يقول للغائب أو الميت من عباد الله الصالحين ؛ يافلان ، ادع الله تعالى أن يرزقني كذا و كذا ، ويزعمون أن ذلك من باب ابتغاء الوسيلة : ويروون عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : « إِذَا أَعْيَتْكُمُ الأُمورُ ، فَعلَيْكُم بِأَهْلِ القُبُورِ » أو « فَاسْتَعِينُوا بِأَهْلِ القُبُورِ » .

و كل ذلك بعيد عن الحق بمراحل .

وتحقيق الكلام في هذا المقام : أن الاستعانة بمخلوق وجعلَهُ وسيلةً – بمعنى طلب الدعاء منه – لاشك في جوازه إن كان المطلوب منه التوسل حيا ، ولا يتوقف على أفضليته عن الطالب ، بل قد يطلب الفاضل من المفضول .

فقد صح أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال لعمر – لما استأذنه في العمرة : « لاتنسنا يا أخي من دعائك » وأمره أن يطلب من أويس القرني – رحمه الله – أن يستغفر له ، وأمر أمته صلى الله عليه وسلم – بطلب الوسيلة له »[1] وبأن يصلوا عليه .

وأما إذا كان المطلوب منه التوسل ميتا أو غائبا ، فلا يستريب أي عالم في أنه غير جائز ، وأنه من البدع التي لم يفعلها أحد من السلف الصالح رضوان الله عليهم .

ثم يستطرد الآلوسي رحمه الله فيقول :

« نعم ؛ السلام على أهل القبور مشروع ، ومخاطبتهم جائزة .

فقد صح أنه – صلى الله عليه وسلم – كان يُعلِّم أصحابَه إذا زاروا القبور أن يقولوا : « السلامُ عَلَيْكُم أَهْلَ الديارِ مِنَ المؤْمِنِينَ ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بكُم لاَحِقُونَ . يَرْحَمُ اللهُ المُستقدِمِينَ مِنْكُم وَالمسْتَأْخِرِينَ . نَسْأَلُ اللهَ لَنَا وَلَكُمُ العَافِيةَ . اللهُمَّ لا تَحْرِمْنَا أَجْرَهُم ، وَلَا تَفْتِنَّا بَعْدَهُم ، واغْفِرْ لَنَا وَلَهُم » .

---

(١) بأن يقولوا : اللهم أعطه الوسيلة ، وهي منزلة كريمة في الجنة ، فعند مسلم وغيره أنها : « منزلة في الجنة لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا ، فاسألوا لي الوسيلة » .

ولم يرد عن أحد من الصحابة رضى الله عنهم ـ وهم أحرص الخلق على كل خير ـ أنه طلب من ميت شيئا .

بل صح عن ابن عمر رضى الله عنهما ، أنه كان يقول : إذا دخل الحجرة النبوية : « السلام عليك يارسول الله . السلام عليك يا أبا بكر. السلام عليك يَا أبَتِ » ثم ينصرف ولا يزيد على ذلك ، ولا يطلب من سيد العالمين صلى الله عليه وسلم أو من ضَجِيعَيْه المُكَرَّمَيْن ـ رضى الله عنهما ـ شيئا .

ثم قال ـ رحمه الله ـ : نَعَمْ ، الدعاء فى هاتيك الحضرة المكرمة ، والروضة المعظمة ، أمر مشروع . فقد كانت الصحابة تدعو هناك : مستقبلين القبلة ، ولم يرد عنهم استقبال القبر الشريف عند الدعاء .

ثم قال ـ بعد كلام طويل فى هذا الموضوع وغيره ـ مستدلا على أن التوسل لا يكون إلا بالأحياء ما نصه :

« فنى صحيح البخارى ، عن أنس : أن عمر ـ رضى الله عنه ـ كان إذا قَحَطوا استسقى بالعباس ـ رضى الله عنه ـ فقال : « اللهم إنا كنا نتوسل إليك بِنَبِيِّكَ ـ صلى الله تعالى عليه وسلم ـ فَتَسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعمّ نبينا فاسقنا فَيُسْقَوْن » .

فإنه لو كان التوسل به عليه الصلاة والسلام ـ بعد انتقاله من هذه الدار ـ جائزا ، لما عدلوا إلى غيره ، بل كانوا يقولون : اللهم إنا نتوسل إليك بنبينا فاسقنا .

وحاشاهم أن يعدلوا عن التوسل بسيد الناس ، إلى التوسل بعمه العباس، وهم يجدون أدنى مساغ لذلك .

فعُدُولُهم هذا ـ مع أنهم السابقون الأولون ، وهم أعلم منا بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وبحقوق الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام .وما يشرع من الدعاء وما لا يشرع وهم فى وقت ضرورة ومخمصة ـ أى مجاعة ـ يطلبون تفريج الكربات ، وتيسير العسير ، وإنزال الغيث بكل طريق ـ دليلٌ واضح على أن المشروع ما سلكوه دون غيره » .

وقد أطال الآلوسى فى هذا الموضوع وما اتصل به ، فكتب خمس صفحات تقريبا . . فارجع إليه إن شئت [1] .

---

(١) تفسير الآلوسى ، للآية الكريمة « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ».

(وَجَاهِدُوا فِى سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) :

أى : وجاهدوا أعداءكم وأنفسكم ، بما أمكنكم فى سبيل مرضاة الله ، لعلكم تفوزون بالأمن من الأعداء ، والحفاظ على الإسلام وبلاد المسلمين ؛ وحسن ثواب الآخرة .

٣٦ـ (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) :

هذا كلام مستأنف ، مسوق لبيان أن الذين أمرنا الله بجهادهم . هم الكافرون المعذبون بكفرهم يوم القيامة .

والمعنى : إن الذين كفروا ، لو أن لهم ما فى الأرض ـ جميعا ـ من أموالها ، وزروعها ، وكنوزها ، ونفائسها ، ومنافعها ، ومثله معه ـ ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة الذى استحقوه بكفرهم ، ما تقبله الله منهم ، لعظم جريمتهم . ولهم عذاب شديد الإيلام ، ولو أنهم فطنوا ـ فى الدنيا ـ لافتدوا أنفسهم من هذا العذاب بشىء سهل يسير هو الإيمان والعمل الصالح . قبل أن يفاجئهم الموت ، ويشهدوا يومًا فيه : « ... لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ . إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ [1] » .

٣٧ـ (يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ) :

أفادت الآية السابقة : أن الكفار لو أرادوا الافتداء من النار كيلا يدخلوها ، فلا يقبل منهم .

وأفادت هذه الآية : أنهم ـ بعد دخولها ـ لا يستطيعون الخروج منها بحال .

والإرادة فى الآية : بمعنى التمنى . كما قال الجبائى . أى يتمنى الكافرون الخروج من النار ـ بعد أن اصطلوا بسعيرها ـ وما هم بخارجين منها . بل يبقون فيها . ولهم عذاب دائم لا ينتهى أبدا .

وهذه الآية خاصة بالكافرين ، كما يفيده نصها .

أما المسلمون المذنبون ، الذين أدخلوا النار بسبب معاصيهم ، فيخرجون منها ويدخلون الجنة .

(١) الشعراء ، الآيتان : ٨٨ ، ٨٩

فقد أخرج مسلم ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، عن جابر بن عبد الله ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ قَوْمٌ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ » .

وأخرج ابن جرير ، عن عكرمة : أن نافع بن الأزرق ، قال لابن عباس رضى الله عنهما : « تزعمُ أن قومًا يخرجون من النار ؟ وقد قال الله تعالى : (وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا) فقال ابن عباس رضى الله عنهما : « وَيْحَكَ ، اقرأ ما فوقها ، يعنى : اقرأ أولَ الآية — هذه فى الكفار » .

(وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾) .

المفردات :

(نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ) : أى عقابًا من الله ، ينكل به السارق . أى يردع عن معاودة السرقة ، ويُحَذَّر به هو وغيره من فعلها .

قال صاحب القاموس : النَّكال : ما نكلت به غيرك كائنًا ما كان .

وقال أيضًا : ونكَّل به تنكيلا : صنع به صنيعًا يُحَذِّر غيره .

(وَاللَّهُ عَزِيزٌ) : أى غالب ، فلا يفوته المعتدون .

(حَكِيمٌ) : فى شرع هذا الحد ؛ لما فيه من الردع .

التفسير

٣٨ - (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا[١] جَزَآءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللهِ ...) الآية .

هذا شروع فى بيان حكم السارق ، بعد بيان حكم قاطع الطريق . وما بينهما يتصل بحكم قاطع الطريق - كما مر بيانه فى الربط . كما أنه يتصل بحكم السرقة ، ويعرف ذلك بأدنى تأمل .

وقد بين الله فى هذه الآية : أن السارق ، عقابه قطع يده ؛ ذكرا كان أو أنثى . نكالا من الله للسارق وغيره .

والنكال : ما نكلت به غيرك ، أى ما حذرته به .

ولا شك أن قطع يد السارق ، فيه تحذير للسارق نفسه من العودة إلى السرقة ، وتحذير لغيره من أن يفعل مثل ما فعل ، حتى لا يجزى مثل جزائه .

وقد شدد الله فى عقوبة السرقة على هذا النحو ، لما تسببه من الانزعاج والأمراض النفسية ، والحرمان من أموال رتب صاحبها عليها مصالحه وأغراضه .

فإذا قُطِعت يدُ السارق ، كف عن العودة إلى هذه الجريمة غالبًا ، وسلِم الناس من آثارها ، وارتدع بها من يفكر فى السرقة ، والتمس - كلاهما - سبيلا إلى الرزق الحلال .

---

(١) قال الخليل بن أحمد ، والفراء : كل شىء من خلق الإنسان إذا أضيف إلى اثنين جمع ، تقول هشمت رؤوسهما ، وأشبعت بطونهما ، و « إن تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا » ولهذا قال : « فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا » ولم يقل يداهما . وهذا هو الأفصح حتى لا تكرر التثنية مرتين وهى ثقيلة . ويعتمد على الإضافة فى بيان المعنى المراد وهو التثنية . ولو قيل : فاقطعوا يديهما لصح ، ولكن الأول أفصح . والمراد : فاقطعوا يدا من الذكر وأخرى من الأنثى . فهاتان هما اليدان المطلوب قطعهما : على معنى أن الذكر تقطع يده إذا سرق ، والأنثى تقطع يدها إذا سرقت . وستجد بيان ذلك فى الشرح .

والسارق : هو الذى يأخذ مال غيره خفية من حرز مثله ولا شبهة له فيه ، دون طعن بسلاح أو تهديد به ، فإن طعن بسلاح ، أو هدد به ـ وهو مايعرف الآن بالسطو المسلح ـ فحكمه حكم قاطع الطريق ، الذى يسعى فى الأرض فسادا . وقد مر بيانه فى تفسير قوله تعالى : « إِنَّمَا جَزَآءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ . . . » [1] .

ولا يعاقب السارق هذا العقاب ، إلا إذا كان بالغًا عاقلا ، غير مالك للمسروق منه ، ولا ولاية له عليه . . فلا تقطع يد صبى ولا مجنون ، ولا سيد أخذ مال عبده ؛ لأن العبد وماله لسيده . ولا يدُ عبد سرق مال سيده بإجماع الصحابة .

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فى غلام لعبد الله بن عمرو الحضرمى سرق مرآة لامرأته ثمنها ستون درهمًا : « غلامكم ، سرق متاعكم » ولم تقطع يده .

ولا يقطع الوالدان بسرقة مال ولدهما لقوله صلى الله عليه وسلم : « أَنتَ ومالُكَ لِأَبِيكَ » [2] ، ويقطع هو فى سرقة مال أبويه ؛ لأنه لا شبهة له فيه . كذا قيل .

والراجح : أنه لا يقطع ؛ لأن الابن ينبسط فى مال أبيه كالعادة .

وإذا كان العبد لا يقطع فى سرقة مال سيده ، فالابن أولى .

وإذا استكمل هذه الشروط ، فلا تقطع يده ، إلا إذا سرق ما قيمته ربع دينار . لقوله صلى الله عليه وسلم : « تُقْطَعُ يَدُ السَّارِقِ فِى رُبْعِ دِينَارٍ فَصَاعِدًا » [3] .

وبهذا أخذ عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلى ، والشافعى ، والليث وغيرهم .

ومن العلماء من قال : تقطع يده فى عشرة دراهم ، ومنهم من قال : فى خمسة دراهم . ومنهم من قال : تقطع فى القليل والكثير .

والقول الأول : أصح ؛ لاستناده إلى الحديث الصحيح ، الذى ذكرناه .

وأما مارواه البخارى ، ومسلم ، وغيرهما ، عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَعَنَ اللهُ السَّارِقَ : يَسْرِقُ الْبَيْضَةَ فَتُقْطَعُ يَدُهُ ، وَيَسْرِقُ الْحَبْلَ فَتُقْطَعُ يَدُهُ » .

---

(١) المائدة ، من الآية : ٣٣ (٢) رواه ابن ماجه والطبرانى . (٣) رواه الشيخان عن عائشة .

فإن الغرض منه : التحذير بالقليل - فضلا عن الكثير - كما جاء فى معرض الترغيب بالقليل فى بناء المساجد فى قوله صلى الله عليه وسلم : «مَنْ بَنَى لِلَّهِ مَسْجِداً وَلَوْ مِثْلَ مَفْحَصِ قَطاةٍ ، بَنَى اللهُ لَهُ بَيْتًا فِى الْجَنَّةِ» .

فإن المساجد لا تكون كمفحص القطاة ؛ وهو المكان الذى تفرخ فيه من الأرض .

ومنهم من أوّل هذا الحديث بأنه : إذا سرق القليل ، اجترأ على سرقة الكثير الذى تقطع فيه اليد ، وهو ربع دينار فأكثر ! !

ولا يقطع إلا إذا أخذ المسروق من حرز مثله . وهو ما أُعِدَّ - عادة لحفظ أموال الناس . وهو فى كل شىء بحسبه .

قال ابن المنذر : ليس فى هذا الباب خبر ثابت لا مقال فيه لأهل العلم .. وإنما ذلك كالإجماع من أهل العلم . إ هـ .

فالبيت حرز للفراش والثياب والمتاع الذى فيه .

والقبر والمسجد حرز لما فيهما .

والخزانة فى مكاتب الناس - أو الحكومة - حرز لما فيها .

وظهور الدواب حرز لما تحمل .

وأفنية الحوانيت حرز لما فيها ... وهكذا ...

وإذا اشترك جماعة فى السرقة ، قطعت يد كل منهم ، إن بلغت حصته مما سرقوا ربع دينار .

ولا يقطع إذا سرق مال نفسه من غاصبه أو مستأجره أو نحو ذلك . كسرقته مالا يشترك فيه مع غيره ، أو سرق مالا له فيه شبهة ، كسرقة من يستحق النفقة ممن يجب أن يُنفِق عليه ، كالأب من ولده وبالعكس .

وفى سرقة الزوجة من زوجها ما يقابل النفقة رأيان :

ومن قال بالقطع فيها : فرّق بينها وبين نفقة الأقارب ، بأن نفقة الأقارب لأجل إحياء النفس . . وأما نفقة الزوجة فهى معاوضة كالإجارة .

ومن نفى القطع استدل بسماح الرسول صلى الله عليه وسلم لهند زوجة أبى سفيان أن تأخذ من ماله – أى مال زوجها – ما يكفيها وولدها بالمعروف . وذلك حين شَكَتْ له شُحَّ أبى سفيان . كما ورد فى الصحيحين .

ولا يقطع من سرق لجوع شديد أصابه . وقد ثبت أن عمر رضى الله عنه ، رَفع حَدَّ السرقة عام المجاعة .

وعلى الحاكم أن يتثبت بعناية من واقعة السرقة وظروفها ودواعيها ، وأن يعدل عن القطع عند وجود شبهة ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « ادْرَءُوا الحُدُودَ عَنِ المُسْلِمِينَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ، فَإِنْ وَجَدْتُم لِلمُسْلِمِ مَخْرَجًا فَخَلُّوا سَبِيلَهُ ، فَإِنَّ الإِمَامَ لأَنْ يُخْطِئ فِى العَفْوِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يخطىء فِى العُقُوبَة »[1] .

وتقطع يد السارق اليمنى من الكوع عند المفصل ، الذى بين الساعد والكف .

فإن سرق ثانيا ، قطعت رجله اليسرى . فإن سرق ثالثا ، قطعت يده اليسرى ، فإن سرق رابعا ، قطعت رجله اليمنى ، فإن سرق بعد ذلك عُزِّر بما يراه الحاكم رَادعًا مانعًا .

وتثبت السرقة بالبينة ، وبالإقرار .

ثم ختم الله الآية بقوله :

(وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) :

أى : والله غالب ، فلا يفوته المعتدون ، حكيم فى شرع هذا الحد ، للقضاء على هذه الجريمة النكراء . تأمينا لحياة الناس .

---

(١) رواه ابن أبى شيبة ، والترمذى ، والحاكم فى المستدرك ، والبيهقى فى السنن عن عائشة .

٣٩ ـ (فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

أى فمن تاب من سرقته ـ من بعد أن ظلم بها من سرق منه ، وأصلح أمره ـ فإن الله يقبل توبته ، لأن الله عظيم الغفران والرحمة .

وإصلاح أمره يكون : بالتفصّى عن التَّبِعَات ، وردِّ ما سرقه إن أمكن ، أو باستسماح صاحب المال .. فإن لم يعرف صاحبه ، أنفقه فى سبيل الله .

وقيل : المراد بالإصلاح أن يستقيم على التوبة .

ولكن لا يسقط حد السرقة بالتوبة ، إن كان قد رفع أمر السارق إلى القضاء . فإن كانت توبته قبل أن يرفع أمره إلى القضاء ، فلا قطع ، كما قال به عطاء ، وجماعة من الفقهاء . استنادا إلى قوله تعالى : « إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ »[١] فإنه وإن نزل فى قطاع الطريق ، فحكمه عام فى جميع الحدود ، عند هؤلاء العلماء .

وقد بسط العلماء القول فى أحكام السرقة ، والاختلاس ، والغصب ، وغير ذلك . فليرجع إليها من أراد ، فى موسوعات كتب التفسير والفقه .

٤٠ ـ (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) :

هذه الآية ، مسوقة لتقرير حق الله تعالى فى أن يشرع ما تقدم من عقاب قاطع الطريق ، والسارق ، والعفو عن التائب منهما .

والخطاب لكل من يصلح له .

والمعنى : ألم تعلم أن الله تعالى ، له السلطان الكامل على السموات والأرض وما فيهما .

ومن كان كذلك ، فإن له كامل الحق ، فى أن يعذب من شاء من المعتدين ، ويغفر لمن شاء من التائبين ، والله على كل شىء قدير : عظيمُ القدرة ، فلا يمنعه عن تشريعه الحكيم مانع ، ولا يدفعه عن جزائه لهم فى الدنيا والآخرة دافع .

---

(١) المائدة ، آية : ٣٤

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤١)) .

المفردات :

(يُسَارِعُونَ فِى الْكُفْرِ) : يجدّون فيه .

(وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا) : أى من اليهود .

(يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ) : يسيئون تأويله .

(فِتْنَتَهُ) : إضلاله لسوء اختياره .

(خِزْىٌ) : هَوَانٌ ومذلة .

التفسير

٤١ - (يَٰٓأَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِى الْكُفْرِ ...) الآية .

سبب نزول هذه الآية : على ما رواه مسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أُتِيَ بيهودىٍّ ويهودية قد زنيا ، فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاء يهود . فقال : ما تجدون فى التوراة على مَنْ زنى ؟ ، قالوا : نسوّد وجوههما

ونحملهما . ونُخالف بين وجوههما . ويطاف بهما . قال فأْتُوا بالتوراة إن كنتم صادقين . فجاءُوا بها فقرءُوها ، حتى إذا مرُّوا بآية الرجم ، وضع الفتى الذى يقرأ يده على آية الرجم وقرأ ما بين يديه وما وراءها . فقال له عبد الله بن سلام - وهو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم - مُرْه فليرفع يديه ، فرفعهما فإذا تحتهما آية الرجم ، فأمر بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فَرُجِمَا .

وروى أحمد عن البراء بن عازب قال : مُرَّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم أى جيء إليه بيهودى محمم[1] مجلود . فدعاهم . فقال : أهكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم ؟ فقالوا : نعم . فدعا رجلا من علمائهم . فقال : أنشدك[2] بالذى أنزل التوراة على موسى : أهكذا تجدون الزانى فى كتابكم ؟ فقال : لا والله . ولولا أنك نشدتنى لم أُخْبِرك . نجد حد الزانى فى كتابنا الرجم ... ولكنه كثر فى أشرافنا ، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه ، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد ، فقلنا : تعالَوْا حتى نجعل شيئا نقيمه على الشريف والوضيع . فاجتمعنا على : التحميم والجلد . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « اللهمَّ إنى أولُ مَنْ أحيا أمْرك ، إذْ أماتوه . قال : فأمر به فرجم »[3] . فأنزل الله عز وجل : (يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِى الْكُفْرِ . . .) الآية .

فخوطب صلى الله عليه وسلم ، بعنوان الرسالة ، للتشريف ، والإيذان بأن عدم الحزن من مقتضيات الرسالة ... ويشير بقوله تعالى :

(يُسَارِعُونَ فِى الْكُفْرِ) :

إلى أنهم مستقرون فى الكفر لا يبرحونه .

والمراد : نَهْىُ الرسول صلى الله عليه وسلم ، عن التأثر بذلك ، أو المبالاة بهم ، وتسليته عما حدث منهم ، على أبلغ وجه .

أى لا تحزن ، ولا تبال بتهافتهم فى الكفر والإسراع فيه .

---

(١) مطلى وجهه بالسواد . (٢) أى أسألك بالله .

(٣) لأنهم احتكموا إليه بالتوراة ، والتوراة صريحة فى الرجم ، كما أظهرته المناقشة معهم .

(مِنَ الَّذِينَ قَالُوٓا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا) :

هذا بيان للمسارعين فى الكفر ، وأنهم فريقان : منافقون ، ويهود .

فالمنافقون : هم الذين تفوّهوا بكلمة الإيمان ، من غير أن تلتفت إليها قلوبهم ، ولم يتأثر بها باطنهم ... والفريق الثانى : هم اليهود ... والفريقان :

(سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ) :

هذا الوصف يعود إلى الفريقين ، أو إلى اليهود خاصة . أى الذين يسارعون فى الكفر هم سماعون للكذب ، أى كثيرو السماع للكذب من أحبارهم ورؤسائهم ، الذين يلقون إليهم أكاذيب اخترعوها ، وأباطيل افْتَرَوْها .

(سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ) :

أى : كما أنهم سماعون للكذب من أحبارهم ورؤسائهم ، فهم - أيضا - سماعون منك لأجل قوم آخرين هم رؤساؤهم . فقد بعث بهم الرؤساء إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليعرفوا ما عنده من حكم الزانى المحصن . وقالوا لهم : اذهبوا إلى محمد . فإن أفتاكم بعقوبة غير الرجم ، قبلناها ، وكانت حجتنا عند الله . وقلنا هى : فتيا نبى من أنبيائك . وإن أفتى بالرجم ، فلا تتبعوه ولا تستمعوا لكلامه .

(يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ) :

صفة أخرى (لِقَوْمٍ) أى أنهم يميلون بالتوراة ، وَيُؤَوِّلُونَ الكلامَ الواردَ فيها على غير تأويله .

(يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا) :

أى يقولون لأتباعهم السامعين لهم - عند إلقائهم إليهم الأقاويل الباطلة - :

(إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ): أى إن أفتاكم محمد بما تريدون - وهو الجلد - فخذوه ، واعملوا بموجبه .

(وإن لَّمْ تُؤْتَوهُ) :

بل أوتيتم غيره وهو الرجم ، (فَاحْذَرُوا) قبوله ، وإياكم أن تعملوا به .

ولا شك أن هذا ضلال منهم . ولذلك جاء بعدها قوله تعالى :

(وَمَن يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئًا) :

أى : من يُرد الله به الضلالة والبعد عن طريق الحق ، فلن تستطيع دفعه عن ذلك ، لأنك لا تملك له من الله شيئا فى دفع الفتنة عنه .

(أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ) :

أى هؤلاء المذكورون ـ من المنافقين واليهود ـ هم الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم من الكفر والضلالة ، لأنهم منهمكون فيهما ، مُصِرُّون عليهما ، معرضون عن طريق الهداية والرشاد .

(لَهُمْ فِى الدُّنْيَا خِزْىٌ) :

أى لهؤلاء ـ وأولئك ـ فى الدنيا خزى ؛ بكَشْفِ حال المنافقين ، وهَتْكِ أسرارهم ، وبيَانِ كذب اليهود ، وإذلالِهم بضرب الجزية عليهم .

(وَلَهُمْ فِى الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ) : بدخولهم النار ، والخلود فيها .

(سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢)) .

المفردات :

(أَكَّالُونَ) : كثيرو الأكل .

(لِلسُّحْتِ) : السحت : الحرام . كالربا ونحوه .

(بِالْقِسْطِ) : بالعدل .

التفسير

٤٢ - (سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ...) الآية .

كرر تَسمُّعَهم للكذب والباطل ، تأكيدًا لاتصافهم بهذه الرذيلة الشنيعة ، وتمهيدا لما بعده ، من وصمهم برذيلة أخرى ،وهى أكلهم أموالَ الناس بالباطل .. كأكلهم الربا ، وأخذهم الرشوة ؛ لِيُحِلُّوا لأنفسهم ما حرم الله عليها .

وعبر عن المال الحرام بالسحت ؛ لأنه يسحت البركة فى المال ، ويذهب به .

(فَإِن جَآءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ) :

أى فإن جاءك اليهود - متحاكمين إليك بعد ما سمعت من تفاصيل أحوالهم - فأنت بالخيار بين أن تحكم بينهم ، لأنهم اتخذوك حكما ، أو تعرضَ عنهم ، لأنهم لايقصدون بتحاكمهم إليك اتباع الحق .

ومثل هؤلاء : لا يُهْتم بهم ، ولا يُلتفتُ إليهم .

ومن هذه الآية ، استدل العلماء : على أن الإمام مخير فى الحكم بين أهل الذمة ، أو الإعراض عنهم .

(وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا) :

أى وإن اخترتَ عدم الحكم بينهم ، وأعرضت عن ذلك ، فلن يقدروا على الإضرار بك ؛ لأن الله عاصمُكَ من الناس .

(وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ) :

أى وإن اخترت الحكم بينهم ، فالواجب أن يكون الحكم بينهم بالعدل ، كما أراك الله ، قال تعالى : « وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ »[1] .

(إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) :

أى : يرضى عن العادلين فيما وَلَّاهم من أحكام ، ويحفظهم من كل ما يضرهم .

(١) المائدة ، من الآية : ٤٩

(وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُولَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾).

التفسير

٤٣ - (وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ . . .) الآية .

هذا تعجيب من تحكيمهم من لا يؤمنون به ولا بكتابه ، مع أن الحُكْم منصوص عليه فى كتابهم الذى يدعون الإيمان به وهو التوراة . إذ كانت - مع تحريفها - مشتملة على حكم تلك المسألة ، التى جاءوا يتحاكمون فيها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى : حكم الزانى المحصن .

(ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ) :

أى يعرضون من بعد حكمك الموافق لما فى كتابهم .

(وَمَآ أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ) :

أى وما أولئكَ المتّصفون - بما ذكر - بالمؤمنين بما فى كتابهم ؛ لإعراضهم عنه وعن حكمك الموافق له .

وفى الآية دليل على أن التولِّىَ عن حكم الله ، يخرج صاحبه من الإيمان .

(إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾) .

المفردات :

(وَالرَّبَّانِيُّونَ) : جمع ربانى ؛ وهو المنسوب إلى الرب . والمراد : الزهّاد والعُبّاد .

(وَالْأَحْبَارُ) : جمع حبر ؛ وهو : العالم ، أو رؤساء العلماء عند اليهود .

(اسْتُحْفِظُوا) : كلفوا من الله بالمحافظة عليه .

(شُهَدَآء) : أى رقباء يحمونه من التغيير والتبديل .

التفسير

٤٤ ـ (إِنَّآ أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ . . .) الآية .

هذا كلام مستأنف ، سيق لبيان علوّ شأن التوراة ، وأنها كانت مرعية فيا بين أنبياء بنى إسرائيل ، وعُبّادهم وعلمائهم .

(فِيهَا هُدًى وَنُورٌ) :

أى فيها هداية للناس إلى سبيل الله ، ونور يكشف لهم أحكام الله ـ سبحانه وتعالى ـ حلالا كانت أو حرامًا .

(يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا) :

أى يحكم بها أنبياء بنى إسرائيل ، من موسى إلى عيسى ابن مريم عليهم السلام ، وهم الذين انقادوا وخضعوا لأوامر الله الواردة فيها : بإجراء أحكامها على اليهود .

(وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَآءَ) :

أى ويحكم بها الزهاد ، والعلماء من اليهود ، الذين التزموا طريقة النبيين ، وجانبوا كتب اليهود المحرفة . وحكم هؤلاء وأولئك بالتوراة ، بسبب التزامهم المحافظة على كتاب الله المنزل إليهم . وكانوا - جميعا - رقباء على كتاب الله - التوراة - يحمونه من محاولات التغيير والتبديل ، بأى وجه من الوجوه .

(فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ) :

هذا خطاب لرؤساء اليهود ، فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم .

والمعنى : إذا كان شأن التوراة - مع النبيين والأحبار السابقين - كما ذكر ، فلا تخافوا ، ياعلماء اليهود ، أحدا من الناس ، كائنا من كان . وعليكم أن تُطَبِّقوها كما أنزل الله ، وخافُون ، فلا تُخِلُّوا بمراعاتها .

(وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا) :

أى : لا تستبدلوا بآياتى المنزلة فيها ثمنا قليلا . وذلك بتغييرها وتبديلها ، فى مقابل رشوة تأخذونها ، أوجاه تحرصون عليه ، أو أى حظٍّ من حظوظ الدنيا وزُخْرُفِها .

(وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ) :

هذه الآية وما يأتى من قوله تعالى : (فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) ، وقوله تعالى : (فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) نزلت كلها فى الكفار ، وعلى هذا رأى أكثر المفسرين .

فأما المسلم ، فلا يكفر وإن ارتكب كبيرة .

وقيل فى الآية إضمار ، تقديره : ومن لم يحكم بما أنزل الله رادًّا للقرآن ، وجحدا لقول الرسول صلى الله عليه وسلم فهو كافر . قاله ابن عباس ، ومجاهد . . . فالآية عامة على هذا .

وقال ابن مسعود والحسن : هى عامة فى كل من لم يحكم بما أنزل الله من المسلمين واليهود والكفار ، معتقدا ذلك ، مستحلا له .

وأما مَن فعل ذلك وهو معتقد أنه مرتكب محرما ، فهو من فُسَّاق المسلمين وعُصَاتِهم [1] .

---

(١) القرطبى : ٦/ ١٩٠ باختصار .

(وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾) .

المفـردات :

(قِصَاصٌ) : القصاص ؛ عقاب الجانى بمثل ما جنى .

(تَصَدَّقَ) : أى عفا عن الجانى .

(كَفَّارَةٌ لَّهُ) : مَحْوٌ للذنوبه وآثامه .

التفسير

٤٥ ـ (وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ . . .) الآية .

فى هذا توبيخ وتقريع لليهود : لأن عندهم فى نص التوراة : أن النفس بالنفس . وهم يخالفون حكم ذلك ، عمدا وعنادا . ويفرقون بين الخاصة والعامة فى القصاص ، كما خالفوا حكم التوراة فى رجم الزانى المحصن ، على ما أشارت إليه الآية السابقة .

والمعنى : وفرضنا على اليهود فى التوراة ؛ أن النفسَ القاتلة ، تُقْتَلُ بالنفس المقتولة . وأن العين تُفْقَأُ بالعين . وأن الأنفَ يُجْدَع بالأنف . وأن الأُذنَ تُقطع بالأُذن . وأن السنَّ تُقْلَعُ بالسن . والجروح ذاتُ قصاص[1] وذلك إذا كانت المساواة ممكنة .

(١) ورد مثل هذه الأحكام فى سفر الخروج ، الإصحاح ٢١ : ٢٣ – ٢٥ وفى سفر اللاويين : إلخ صحاح ٢٤ : ١٧/٢٠

فإذا تعذرت المساواة كما إذا فقأ أعمى عينَ مبصر ، أو كان فيها خطر على حياة المقتص منه – كما إذا فقأ أعورُ عينَ مبصر – ففى ذلك دية الجراح .

وفى ذلك تفصيل : محله كتب الفقه .

(فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ) :

أى فمن عفا عن القصاص من الجانى بقبول الدية – أو مع التنازل عنها – فعفوه كفارة لذنوبه ، ومَحْوٌ لسيئاته .

وعبر عن العفو بالتصدق ، للترغيب فيه ، وإظهار جزيل ثوابه .

والقصاص المذكور فى الآية ، إنما يكون حال العدوان العمد .

أما الخطأُ – أو شِبْهه – ففيه الدية .

وهذا الحكم المذكور فى التوراة ، جاءت به الشريعة الإسلامية .

ففى حديث أنس بن مالك عند البخارى ومسلم وأحمد واللفظ له : أن الرُّبَيِّع : عمةُ أنس ، كَسَرت ثنيةَ جارية . فطلبوا إلى القوم العفو ، فَأَبَوْا . . . فأَتَوْا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال : القصاص . فقال أخوها أنس بن النضر : يا رسول الله تكسر ثنية فلانة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كتاب الله ، القصاص . قال : فقال : لا ، والذى بعثك بالحق ، لا تكسر ثنية فلانة . قال : فرضِىَ القوم ، فعفَوْا وتركوا القصاص . فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ مَن لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ » .

(وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ اللهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) :

لأنهم لم يراعوا المساواة – فيما أمر الله به – فى القصاص .

(وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾) .

المفردات :

(وَقَفَّيْنَا) : أتبعنا .

(مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ) : لما تقدَّمه .

التفسير

٤٦ - (وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ . . .) الآية .

شروع فى بيان أحكام الإنجيل ، إثر بيان أحكام التوراة .

المعنى : وأرسلنا عيسى ابن مريم إلى بنى إسرائيل ؛ بعد أنبيائهم اللذين أشارت إليهم الآية السابقة .

(مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ) :

أى مؤيدا للأحكام السابقة التى وردت فى التوراة .

(وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ) :

أى وأعطيناه الإنجيل .

(فِيهِ هُدًى وَنُورٌ) :

أى فيه هُدًى إلى الحق ، ونور يستضاءُ به فى إزالة الشبهات ، وحلِّ المشكلات .

(وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ) :

أى : ومؤيدا لها غير مخالف لما فيها إلا فى القليل . كما قال تعالى - على لسان المسيح عليه السلام - لبنى إسرائيل : « ... وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ... »[1] .

وتكرار (مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ) : لتأكيد توافق الكتابين الكريمين : التوراة والإنجيل ، لأن مصدرهما واحد . . . هو الله عز وجل . . .

(وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ) :

أى وجعلنا الإنجيل الذى أنزله الله على عيسى هدى يُهتدى به ، وزاجرا عن ارتكاب المحارم والمآثم لمن اتقى الله ، وخاف عقابه .

أما تكرار (هُدًى) : فهى فى الأُولى جزءٌ من اثنين : الهدى ، والنور .

وفى الثانية تُتَمِّمُ - مع الموعظة - فضيلةَ التقوى ؛ لبيان ميزة الهدى فى الحالتين .

٤٧ - (وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ . . .) الآية .

أمر من الله للمسيحيين ، بأَنْ ينفذوا الأَحكام الواردة فى الإنجيل ، الذى أَنزله الله على عيسى - عليه السلام .

وهذا الأَمر ممتد إلى البعثة المحمدية ؛ لأن البشارة وردت بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فى الإنجيل .

فهم مأْمورون بأَن يعملوا بما فيه . ومن جملة مافيه : دلائلُ رسالته صلى الله عليه وسلم ، ووجوبُ اتباعه فيما يجىءُ به .

(وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) :

أى ومن لم يحكم بما أنزل الله فى الإنجيل ، ولم يتبع ماورد فيه من البشارة بمحمد ، والإيمان برسالته ، فأُولئك هم المتمرِّدون الخارجون عن حكمه .

وقد تقدم الكلام على ذلك عند الآية (٤٤) .

وفى هذا مايدل على خروجهم على الإنجيل ، وأنهم به كافرون .

---

(١) آل عمران ، من الآية : ٥٠

(وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨)) .

المفردات :

(مُهَيْمِنًا عَلَيْهِ) : مسيطرا .

(شِرْعَةً) : شريعة .

(وَمِنْهَاجًا) : طريقا واضحا فى تطبيق هذه الشريعة .

(لِيَبْلُوَكُمْ) : ليختبركم .

(فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ) : أى فليسبق كل منكم الآخر إلى فعل الخيرات .

التفسير

٤٨ - (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ ...) الآية .

بعد أن تكلم الله - سبحانه - عن التوراة وما فيها من هدى ونور ، وعن الإنجيل وتصديقه للتوراة ، وما احتواه من الهدى والنور والموعظة - كل ذلك قبل أن يلحقهما التغيير والتبديل - ذَكَر بعد ذلك ، القرآن المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم - فبين أنه حق لا سبيل إلى تحريفه : « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ... »[1] فقال : (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ . . .) الآية .

---

(١) فصلت ، من الآية : ٤٢

والمعنى : وأنزلنا إليك يا محمد ، القرآن : قائما بالحق ، الذى لا ريب فيه ، مصدقا لما تقدمه من الكتب السماوية ، التى نزلت على الأنبياء قبله . فلا يختلف عنها - ولا تختلف عنه - فيما جاء من أصول العقائد والشرائع .

(وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ) :

أى مسيطرا ورقيبا على سائر الكتب السماوية التى تقدمته قبل تحريفها ، وَمُنَبِّهًا إلى ما وقع فيها من تحريف . ومقتضى الهيمنة أنَّ صاحبها هو - لا سواه - المصدر التشريعى للإنسانية .

(فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ) :

أى فاحكم بين أهل الكتاب بالحق ، الذى أنزله الله إليك فى كتابه الكريم . فإنه المرجع السماوى الصحيح ، المحفوظ من التحريف . وكل ما لا يوافقه فى التوراة والإنجيل دخيل ، يحرم العمل به وتصديقه . ويكفر مَن يعتقده تنزيلا من عند الله تعالى .

(وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ الْحَقِّ) :

أى لا تعدل عما جاءك من الحق ، متبعا أهواءهم الزائفة الناشئة عن التحريف والتبديل .

(لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً) :

أى لكل أمة منكم - يا بنى آدم - جعلنا شريعة تناسب أحوالها وأزمانها .

(وَمِنْهَاجًا) : أى طريقا واضحا تسير عليه فى تنفيذ أحكام شريعتهم .

فالقرآن الكريم ، شريعة زمانه . إلى يوم القيامة .

قال ابن كثير : هذا إخبار عن الأمم المختلفة الأديان ، باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام ، من الشرائع المختلفة فى الأحكام المتفقة فى التوحيد ، كما ثبت فى صحيح البخارى ، عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ . وَالأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ . أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى ، وَدِينُهُم وَاحِدٌ » .

أى : فى التوحيد الذى أرسل به كل رسول أرسله ، وضمنه كل كتاب أنزله ، قال تعالى : « وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ »[1] .

(وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً) :

أى جماعة متفقة على شريعة واحدة فى جميع الأزمنة ـ من غير اختلاف بينكم فى شىء من الأحكام الدينية .

(وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ) :

أى ولكن أنزل إليكم شرائع ، ومناهج مختلفة ؛ ليعاملكم معاملة من يختبركم فيما آتاكم من الشرائع ، ومدى امتثالكم لأحكامها . هل تعملون بها مذعنين لها ـ معتقدين أن فى اختلافها نفعًا لكم فى معاشكم ومعادكم ؟ وهل تستجيبون لدعوة خاتَمِ أنبيائه : الذى جاءكم بالشريعة ، التى خُتِمَتْ بها الشرائع ـ لتكون شريعة الناس كافة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ؟

(فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ) :

أى فليسبق كل منكم غيره إلى فعل الخيرات . وهى تتجلى ـ فى أسمى معانيها ـ فى شريعة الإسلام التى جاء بها القرآن .

(إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا) :

أى إلى الله ـ لا إلى غيره ـ مصيركم ومعادكم أيها الناس .

(فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) :

أى فيخبركم بما كنتم فيه تختلفون فى الدنيا ، من أمور الدين ؛ ويجازيكم ويفصل بين المحق منكم والمبطل ، والعامل والمفرط .

---

(١) الأنبياء ، الآية : ٢٥

(وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾) .

التفسير

٤٩ ـ (وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ . . .) الآية .

روى ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن هذه الآية نزلت في كعب بن أسد ، وعبد الله بن صوريا ، وشاس بن قيس وغيرهم . فقد قالوا فيا بينهم : اذهبوا إلى محمد ، لعلنا نفتنه عن دينه ، فأتوه ، فقالوا : يا محمد ، إنك قد عرفت أننا أحبار يهود وأشرافهم وسادتهم. وإنا ـ إن اتبعناك ـ اتبعَنا يهود ، ولم يخالفونا. وإنّ بيننا وبين قومنا خصومة ، فنحاكمهم إليك ، فتقضى لنا عليهم ، ونؤمن لك ونصدقك . . . فأبى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فأنزل الله الآية .

(وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ . . .) :

جملة (وَأَنِ احْكُم . . .) معطوفة على لفظ الكتاب ، فى قوله : (وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ . . .) .

والمعنى : وأنزلنا إليك الكتاب ، وأمرناك بالحكم بينهم بما أنزل الله إليك فى كتابه ـ أى القرآن الكريم .

(وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ) : التى يسيرون عليها ، ويتبعون طريقها ، فإنها أهواء زائفة باطلة .

(وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ) :

أى واحذرهم مخافة أن يصرفوك عن شىء مما أنزل الله إليك ، ولو كان أقلّ قليل .

أو احذر فتنتهم لك ، وَصَرْفَهُم لك عن بعض المُنزَّلِ إليك .

وإعادة (مَآ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ) : لتأكيد التحذير ، بتهويل الخطب إذا تمكنوا من صرفه عن ذلك .

(فَإِن تَوَلَّوْا) : أى أعرضوا عن قبول الحكم المنزل ، وأرادوا غيره ، مما يتفق مع أهوائهم .

(فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ) : ألا وهو ذنب التولِّى والإعراضِ عن حكم الله ، والرغبةِ فى خلافه .

وفى قوله : (بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ) : إشارة إلى أن ذنوبهم كثيرة ، وأن التولى والإعراض بعضها .

(وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ) :

أى لخارجون عن طاعة الله ، منحرفون عن حكمه ، متمردون فى الكفر .

(أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾) .

التفسير

٥٠ـ (أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ . . .) الآية .

هذا إنكار وتعجيب من حالهم ، وتوبيخ لهم .

أى : أيتولَّون عن حكمك فيبغون حكم الجاهلية ؟ !

والمراد بالجاهلية : متابعة الهوى والمداهنة فى الأحكام ؛ لأن الجاهل لا يُصدِر حُكمَه عن كتاب ، ولا يرجع إلى وحى . أو المراد : أهل الجاهلية ممن كانوا قبل الإسلام ، يخضعون للهوى فى أحكامهم . أى أيطلبون حكم من كانوا فى عصر الجهل والضلال .

(وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ) :

أى ومن أحسن من الله قضاء لقوم يؤمنون بالله ، ويجزمون بأن حكمه هو أحسن الأحكام وأعدلها للإنسانية كلها .

وفى هذا إنكار لأن يكون أحدٌ، حكمهُ أحسنَ من حكم الله، أو مساويا له ؛ لقصور العقول البشرية .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾) .

المفردات :

(أَوْلِيَآءَ) : أحبابا ، أو أصدقاء ، أو نصراء .

(فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ) : شكٌّ ونفاق .

(أَن تُصِيبَنَا) : أن تدركنا وتستأصلنا . من أصاب الشيء : أدركه واستأصله .

(دَآئِرَةٌ) : الدائرة ؛ الهزيمة ، أو الداهية . يقال : دارت عليهم الدوائر . أى نزلت بهم الدواهى .

(نَادِمِينَ) : نَدِم على ما فعل ؛ أَسِف وتَحسَّر .

(حَبِطَتْ) : بطلت أعمالهم ، ولم تقبل .

(خَاسِرِينَ) : أى لم ينالوا ثمرة أعمالهم ؛ لبطلانها وعدم قبولها .

التفسير

٥١ - (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰٓ أَوْلِيَآءَ . . .) الآية .

روى ابن جرير : أن هذه الآية - ومابعدها - نزلت فى عبد الله بن أُبىّ - حينما تشبَّث بمحالفة اليهود . وقال : إنى رجل أخاف الدوائر ، لا أبرأ من موالاة موالىَّ .

والآية خطاب من الله تعالى لجميع المؤمنين ، يحذرهم فيه من مصافاة اليهود والنصارى مصافاة الأحباب ، ومعاشرتهم معاشرة الأصدقاء والنصراء .

(لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰٓ أَوْلِيَآءَ) :

أى لا يتخذ أحد منكم أحدا منهم وليًّا يعتمد عليه ، ويستنصر به ، ويتودد إليه ويخالطه مخالطة الأصفياء .

وجاء الوصف بالإيمان ؛ ليسارع المؤمنون إلى الابتعاد عما نُهوا عنه ؛ لأن الوصف به - فى مقابل ذكر الفريقين الآخرين بوصف اليهود والنصارى - من أقوى الزواجر عن مودتهما ومحبتهما .

(بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ) :

أى بعض كل فريق من هذين الفريقين ، نصراء بعض آخر ، ثم إن الفريقين - جميعا مجمعون على مخالفتكم وعداوتكم ، فكيف تكون بينكم وبينهم موالاة ؟!

وفى الإتيان بهذه الجملة ، تأكيد لوجوب الابتعاد عن مودتهم ، وتعليل للنهى عن موالاتهم ، كما يتأيد النهى بآيات أخرى منها قوله تعالى : « لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِى شَىْءٍ . . . »[1] .

(١) آل عمران ، من الآية : ٢٨

وليس المراد من الآية الكريمة : أن يكون بعض اليهود أولياء لبعض النصارى ؛ لانتفاء الموالاة بين الفريقين أصلا ، قال تعالى : « وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ ... »[1] إلا فى عداوتهم للمسلمين ، فهم فيها أولياء بعضهم للبعض . ولهذا أكد القرآن على نبذ الولاية لهم ؛ وتأكيد الولاية للإسلام بقوله : (وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ) :

أى ومن يتودد إلى اليهود والنصارى ، ويستنصر بهم ، فإنه من جملتهم ، وليس من جماعة المؤمنين ؛ لأنه قد خالف الله ورسوله مثل ما خالفوا هم ، ووجبت معاداته كما وجبت معاداتهم ، واستحق عذاب النار كما استحقوه ؛ لأنه أضعف الإسلام بهذه الولاية ، قال تعالى : « وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ »[2] .

وقد استفيد من الحكم : أن من يتودد إلى اليهود والنصارى يكون منهم ، من قوله تعالى : (بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) : لأن انحصار الموالاة ـ بين اليهود والنصارى فى عداوتهم للإسلام ـ يترتب عليه : أن يكون من يواليهم منهم ، لا من المؤمنين .

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) :

أى إن الله لا يوفق إلى قبول الحق ، أولئك الذين ظلموا أنفسهم باختيار الضلالة على الهدى ، وظلموا غيرهم بإيذائهم ومضاررتهم ، وتدبير الكيد لهم ، فلا يهدى إلى الإيمان من ظلم نفسه من المسلمين بموالاة غير المؤمنين ، واتباع غير طريق المسلمين .

وفى ختام الآية بهذا : زجر شديد للمؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى ؛ وأنه ظلم للإسلام ، لا يهدى الله صاحبه .

٥٢ ـ (فَتَرَى الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ . . .) الآية .

خطاب للرسول عليه السلام ولكل من تتوفر له وسائل الإبصار أو العلم بأحوالهم . خطاب ، بيّن فيه حال الذين يوالون اليهود والنصارى ، وأشار فيه إلى سبب هذه

(١) البقرة ، من الآية : ١١٣ (٢) هود ، الآية : ١١٣

الموالاة منهم ، وأنه هو ما استقر فى قلوبهم من النفاق والحقد على محمد صلى الله عليه وسلم – والشكُّ فى صدقه ، فلا إيمان يملأ قلوبهم ، ولايقين – برسالته – تعمر به نفوسهم . ولذا ، تراهم مسارعين إلى تحقيق مودتهم لليهود والنصارى ومعاونتهم فى حرص شديد ، وعناية فائقة . كما أفاده التعبير بقوله : (يُسَارِعُونَ فِيهِمْ) دون التعبير بلفظ : يُسَارِعُونَ إِلَيْهِمْ : إذ معناه ؛ أنهم مستقرون فى مودتهم .

وإذا كانوا مستقرين فى موالاتهم ، فالمسارعة فيما بينهم – إنما تكون فى الانتقال من مرتبة من مراتب الموالاة ، إلى مرتبة أخرى أكثر أو أكبر .

(يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ) :

أى يقولون – معتذرين عن تلك الموالاة – بأننا إنما نفعل ذلك ؛ خوفا من أن يدور الدهر علينا : إما بقحط أوجدب ، فلا يعطوننا طعامًا ولا مالًا . وإما بانقلاب الأمر . . . فتصبح – بتلك الوسيلة الحمقاء – الدولة للكفار ، والغلبة لليهود والنصارى على المسلمين ، فيدور الأمر كما كان قبل ذلك ، فلا يتم لمحمد صلى الله عليه وسلم – شأن ، ولا يدوم له نصر . فرد الله على هؤلاء المنافقين فيما اعتذروا به بقوله تعالى :

(فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ) :

وهو وعد من الله تعالى لرسوله وللمؤمنين بأن يحقق لهم الغلبةَ على أعدائهم والقضاء عليهم .

والمراد بالفتح الذى يأتى به الله تعالى : نصرُه سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم – على من خالفه ، وإعزازُ الإسلام ، وإظهارُ المسلمين على أعدائهم ، أو هو فتح مكة ، أو فتح قرى اليهود كخيبر ، وفدك ، أو فتح بلاد المشركين للمسلمين – وكل ذلك قد كان .

(أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ) :

أى أو أن يأتى الله بأمر من عنده ، وهو القضاء على اليهود ، وقطع دابرهم ، واستئصال شأفتهم ، بقارعة تصيبهم .

أو هو الخصب والسعة للمسلمين ، بعد الذى كانوا فيه من ضيق العيش وشدة الحياة .

أو هو الجزية التى تفرض على اليهود والنصارى ، كدليل على استسلامهم وخضوعهم لنظام الإسلام - وقد خافهم من قبل مرضى القلوب من المنافقين ، ونافقوا الرسول من أجلهم .

أو هو إظهار أمر المنافقين ، والإخبار بأسمائهم والأمر بقتلهم .

والحق : أن كل ذلك قد حققه الله للذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وأيقنوا بصدق رسالته .

وكلمة (فَعَسَى) : من الله تعالى ، وعدٌ واجب التحقق . لكن لا بإيجاب أحواله عليه تعالى ، بل جريا على سنن العظماء الأكرمين ؛ لأن الكريم إذا أطمع فى خير ، فَعَلَه ، فما بالكم بأعظم العظماء ، وأكرم الأكرمين ! !

(فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ) :

أى : فيصبح هؤلاء المنافقون - بعد أن جاء فتح الله ونصره لرسوله - على ما حدثوا به أنفسهم وكتموه فى صدورهم ، من الكفر والشك فى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، آسفين متحسرين بعد أن تبين لهم أنهم كانوا - فيما فعلوه - مخطئين .

وترتيب الندم على ما أسرُّوه من الكفر - دون ما أظهروه من الموالاة - لأن ما أبطنوه ، كان السببَ الذى حملهم على إظهار الموالاة وأغراهم بها ، فكان الندم على ما أبطنوه ، طريق أسفهم على ما أظهروه .

٥٣ - (وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَآءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ . . .) الآية .

أى : ويقول الذين آمنوا - مخاطبين اليهود على سبيل التقريع والتوبيخ - بعدما هزموا ودارت الدائرة عليهم مشيرين إلى المنافقين بهذا الاستفهام : استهزاءً بهم وإنكارا لصنيعهم واستبعادا له .

(أَهَٰؤُلَآءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ) :

أهؤلاء هم الذين حلفوا لكم بالله : مغلظين الأيمان ، مجتهدين فيها ؛ إنهم ليكونون معكم بالعون والنصر على محمد إذا قاتلتموه ؟

(حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ) :

أى بَطُلت أعمال هؤلاء ، وفسدت وذهبت سدى ، فكانت عاقبة أمرهم : خُسْرا فى الدنيا؛ إذ لم تقم للكافرين دولة فينتفعوا بثمار مساعدتهم ،وأجر موالاتهم . وخُسْرا فى الآخرة ؛ إذ حُرِموا ثوابَ الإيمان بالله ، والإخلاصَ فى طاعته .

وفيه من التقريع لليهود ، والاستهزاء بالمنافقين مالايخفى .

ونظير هذا قوله تعالى: « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ »[1] .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾) .

المفردات :

(يَرْتَدَّ) : يرجع عما هو عليه .

(أَذِلَّةٍ) : جمع ذليل ؛ لين .رحيم .متواضع لا بمعنى مهين .أى : رحماء متواضعين .

(أَعِزَّةٍ) : أقوياء أشداء .

(لَوْمَةَ) : المرة من اللوم ، ولامه كدَّره بالكلام ؛ لإتيانه مالا ينبغى .

(١) سورة الحشر ، الآيتان : ١١ ، ١٢

٥٤ - (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ . . .) الآية .

لما نهى القرآن الكريم عن موالاة اليهود والنصارى - فيما تقدم من آياته - وبيَّن أن مَن يتولَّهم ، فإنه يكون منهم - وذلك يقتضى الارتداد - وأوضح عاقبة الموالين من المنافقين ، جاءت هذه الآية : تبين حال المرتدين مطلقا .

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ) :

يأيها الذين آمنوا ، مَن يرجع منكم عن دين الإسلام إلى الكفر ، وإنكار ماجاء به الإسلام مِن تكاليفَ :

(فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ) : بأُناس آخرين .

(يُحِبُّهُمْ) : يَرضى عنهم ، إذْ هداهم إلى خَيْرَيِ الدنيا والآخرة .

(وَيُحِبُّونَهُ) : ويحرصون على طاعته ، وينصرون دينه ويبتعدون عن معاصيه .

(أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ) :

أى : هؤُلاء الأقوام يكونون متواضعين للمؤمنين ، متذللين لهم ، متعاطفين معهم ، حافِّين عليهم ، رحماءُ فيما بينهم : أشداءُ على الكفار ، أقوياءُ فى جهادهم . قال تعالى : « . . . أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ . . . »[1] .

(يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ) :

أى يجاهد هؤُلاء القوم - بإخلاص نية وصدق عزيمة - فى سبيل نصرة الحق ، وإعزاز الإسلام وأهله ، حتى تكون كلمةُ الله هى العليا . ولا يخافون أية ملامة من أى لائم ؛ لقوة تَدَيُّنِهم ، ورسوخ يقينهم ؛ لأنهم لا يوالون أحدا إلا الله بخلاف المنافقين فإنهم كانوا يوالون اليهود حرصا على أنفسهم ، ومخافة أن تدور الدائرة على النبى وأصحابه ومن ثَمَّ ، لا ينتصر بهم ، ولا يصلحون للدفاع عن الدعوة .

(١) الفتح ، من الآية : ٢٩

(ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ) :

أى ما تقدم من الأوصاف العظيمة ، والفضائل الجليلة ، من محبة الله لهم ، ومحبتهم لله تعالى ، وحنوهم على المؤمنين . والشدة على الكفار ، والجهاد فى سبيل الله ـ دون خشية أحد ـ إنما هو لطفُ الله وإحسانهُ : يتفضل ـ وحده ـ بمنحه من يشاءُ من عباده . وذلك بتوفيقه للعمل على تحصيله ، والحرص على التحلِّى به .

(وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) :

كاملُ القدرة ، كثير الإفضال ، كامل العلم ، محيط بكل شىء . فلا يعجزه أن يأْتِيَ بمن يُحِبُّهُمْ ويحبونه ، ولا يفوته العلم بمن هو أهلٌ لذلك الفضل .

وقد تحدثت الآية عمن يرتدون قبل أن تقع ردتهم ، فكان ذلك إخبارا عن مغيبات ، وكان معجزة للرسول ، وإعجازا للقرآن .

وقد ارتد من العرب فى أواخر عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ـ ثلاث فرق :

١ ـ بنو مدلج : تحت رياسة الأسود العنسى ؛ تنبأَ باليمن ، ثم قتله فيروز الديلمى ، فى الليلة التى قُبض الرسولُ صلى الله عليه وسلم ـ من غدها .

٢ ـ بنو حنيفة : أصحاب مسيلمة الكذاب ، الذى تنبأَ فحاربه أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ وقتله الوحشى ؛ قاتل حمزة ، وكان يقول : قتلت فى جاهليتى خيرَ الناس ، وقتلت فى إسلامى شرَّ الناس .

٣ ـ بنو أسد : قوم طلحة بن خويلد ، الذى ادعى النبوة ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالدا رضى الله عنه لقتاله ، فهرب بعد القتال إلى الشام ثم أسلم ، وحَسُنَ إسلامه .

وفى خلافة أبى بكر الصديق ارتدت بعض القبائل العربية . وبعضها امتنع عن دفع الزكاة واعتبرها جرما .

فرأى أبوبكر رضى الله عنه قتال المرتدين والممتنعين عن دفع الزكاة ، وشرح الله صدور المسلمين لهذا ، وجهز الجيوش ، واستطاع القضاء على هذه الفتنة ، وضَمَّ المسلمين بعد أن كادوا يتفرقون .

(إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾) .

المفردات :

(حِزْبَ اللهِ) : الحزب فى اللغة ؛ القوم اللذين يجتمعون لأمر حَزَبَهم . وحِزْبُ الرجل : أصحابُه الذين يكونون معه على رأيه . وأظهرُ ما قاله المفسرون فى بيان معناه : أنهم الذين يطيعون اللهَ فيما أَمَرَ ونَهَى ، فينصرهم الله .

التفسير

٥٥ - (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ) :

بعد أن نهى القرآن الكريم المؤمنين عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء ، لأن بعضهم أولياءُ بعض ، فلا يتصور أن يخلصوا فى مودة المؤمنين ، وبيّن أن من يصافيهم يكون منهم ، وأن مودتهم تؤدى إلى الارتداد . ثم بيّن حكمَ المرتدين مطلقا ... بعد ذلك ، جاءت هذه الآية ، تبين أن الولىَّ حقا الجدير بأن يستنصر به هو الله تعالى وحده . وكذلك رسولُه صلى الله عليه وسلم والمؤمنون . فإن الاستعانة بهم ، استعانةٌ بالله تعالى .

جاءت الآية بذلك - تحريضًا للمؤمنين على الاستنصار بالله ورسوله والمؤمنين ، وتحذيرا من موالاة مَنْ تَجُرُّهُ مصافاته لغير المسلمين ، إلى الردة عن دين الله .

(إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا) :

أى : إنما وليكم الجدير بالولاء ، هو الله وحده ، وكذلك رسوله والمؤمنون .

(الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ) :

أى الذين يحافظون على أداء الصلاة فى أوقاتها ، وإعطاء الزكاة لمستحقيها ، وهم خاشعون خاضعون ، منقادون لله فى كل ما أمر به ، ونهى عنه ، فيؤدون الصلاة تامة ، مستوفية الأركان والشروط : فى إخلاص نية وصدق عزيمة . ويعطون الزكاة لأصحابها ، من أفضل أموالهم ، دون أن يُتْبِعوها مَنًّا ولا أذًى .

وإنما قال : (وَلِيُّكُم) بالإفراد ولم يقل أولياؤكم - مع أنهم فى الآية جمع : الله ، ورسوله ، والذين آمنوا - لبيان أن الولاية حقًّا - وفى الأصل - لله تعالى وحده ، والاستعانة بالرسول صلى الله عليه وسلم ، وبالمؤمنين الصادقين ، بطريق تبعيتها للاستعانة بالله تعالى .

والآية عامة فى حق جميع المؤمنين .

فكل من كان مؤمنا ، فهو نصير لجميع المؤمنين .

ونظيره قوله تعالى : « وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ . . . »[1] :

وعلى هذا فقوله : (الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ) : وصف لجميع المؤمنين .

والمراد تمييزهم من المنافقين ؛ لأنهم كانوا يدّعون الإيمان ، ولايداومون على الصلاة والزكاة ، قال تعالى : « . . . وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ »[2] .

وخص الصلاة والزكاة - دون سائر العبادات - لأهميتهما من بين العبادات ؛ لأن الصلاة حق الله على عباده ، والزكاة حق الفقراء على الأغنياء .

---

(١) التوبة ، من الآية : ٧١ (٢) التوبة ، من الآية : ٥٤

٥٦ ـ (وَمَن يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ) :

أى وكل مسلم يوالى الله بالطاعة ، وامتثال أمره ، واجتناب نهيه ، ويتخذ منه نصيرا ومعينا .

وكذلك كل مسلم يتخذ الرسول إماما يَهتدى بهديه ، ويسترشد بإرشاده ، ويستنصر به وبالمؤمنين ويصافيهم ، ويخلص الحب لهم - فإن هؤلاء المسلمين ، هم الغالبون على أعدائهم ؛ لأنهم حزب الله : الذين يطيعون أمره ، ويجتنبون نهيه ، فكان لهم النصر على أعدائهم .

وذكر (الله) باسمه الظاهر - دون الضمير ، فلم يقل : فإنهم هم الغالبون كما يقتضيه الظاهر - تشريفًا لِمَنْ وَالَى اللهَ ورسولَه ، ولإثبات الغلبة لأولياء الله بالدليل . إذ معناه : ومن يوالِ هؤلاء - بالطاعة والمصافاة والاستنصار - فإنهم حزب الله ، وحزب الله هم الغالبون .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾) .

المفردات :

(هُزُوًا) : هَزَأ بفلان ؛ سَخِر منه ، واستخف به . واتخذه هزوا أى : جعله موضع سخرية منه .

التفسير

٥٧ - (يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ . . .) الآية .

خطاب من الله - تعالى - لجميع المؤمنين : يحذرهم فيه من موالاة مَن ليسوا على الحق مطلقا ، سواء من كان منهم صاحب دين غَيَّره وصرفه عن الصواب - تبعا لهواه كأهل الكتاب ، وَمَن لم يكن منهم له دين . . كالمشركين ، فيقول عز وجل :

(يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ . . .) الآية .

أى : لا تجعلوا - أيها المؤمنون - أولئك الذين تلاعبوا بدينكم من أهل الكتاب والكفار واستهزءوا به ، وسخروا منه : بإظهار الإسلام بألسنتهم مع الإصرار على الكفر بقلوبهم أولياء أبدا .

وصدَّر أهل الكتاب فى الذكر ، لزيادة التشنيع عليهم ، لأنهم أعرف بالتديُّن السليم ممن سواهم ، ممن كفروا ولادين لهم . إذ مقتضى وصفهم بأنهم أهل كتاب أنزله الله عليهم أن يبتعدوا عن التلاعب بالدين الذى جاء به القرآن المصدق لكتابهم . فضلا عن أن البشارة بالإسلام ، واردة عندهم .

(وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) :

أى : وخافوا - أيها المؤمنون - عقاب الله ، وحصّنوا أنفسكم من الوقوع فيه ، بالابتعاد عن المعاصى واجتناب المحرمات ، إن كنتم مؤمنين بالله حقا . فإن الإيمان الصادق ، يقى صاحبَه من عذاب الله ، ومن الجنوح إلى الولاء المحرم الآثم .

ويدخل فى هذا التوقِّى ، النهى عن موالاة الكفار الآخرين من باب أولى .

٥٨ - ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ :

بعد أن بينت الآية السابقة ، استهزاءهم بالدين مطلقا ، جاءت هذه الآية : تتحدث عن استهزائهم ببعض ماشرعه الله فى هذا الدين من أحكام - واختارت الصلاة لأنها أكثر أركان الإسلام مظهرا - إظهاراً لغاية شقاوتهم ، وفظاعة جرمهم .

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ :

أى : وإذا أذَّن المؤذِّن منكم - أيها المؤمنون - لإعلام الناس بدخول وقت الصلاة ، ليقبلوا على أدائها . استهزءوا بهذه العبادة التى تشمل الأذان والصلاة جميعا .

وكانت لهم فى الاستهزاء والسخرية ، أساليبُ متنوعة .

منها كما رُوِىَ - أنهم كانوا حين يقوم المسلمون للصلاة يقولون : صَلُّوا ... لا صلُّوا ... قاموا . . . لا قاموا .

ومنها : أنهم كانوا يقولون : يامحمد ، لقد ابتدعتَ شيئًا لم يُسْمَعْ به فيما مضى . فإن كنت نبيًّا ، فقد خالفت - فيما أحدثت - جميع الأنبياء . . فمن أين لك صياحٌ كصياح العير ؟ !

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ :

أى ذلك الذى تقدم - من الاستهزاء بصلاة المؤمنين والأذان لها - إنما وقع بسبب أنهم سفهاء لايعقلون ، لأن السفه يؤدى إلى الجهل بمحاسن الحق ، والاستهزاء به . ولو كان عندهم أدنى إدراك ، أو أقل تعقل ، لَمَا أقدموا على هذه السفاهات ، ولما ارتكبوا تلك الحماقات ، ولَعَلِموا أن الصلاة - كما قال بعض الحكماء - أشرف الحركات . فهى خضوع لله ، ومَنجاةٌ ، فضلا عن ربطها الوثيق للجماعات الإسلامية ، وإشعار المسلمين بولائهم لله ورسوله وعامتهم .

هذا إلى جانب ما فى الصلاة ، من تقوية روحية وبدنية ، وتنظيمات عسكرية . وليس فيها شىء مما يدعو إلى السخرية

(قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾) .

المفردات :

(تَنقِمُونَ) : تعيبون علينا وتنكرون منا .

(الطَّاغُوتَ) : رأس الضلال . وقيل : الشيطان ، أو كل معبود من دون الله .

(مَثُوبَةً) : المثوبة والثواب ؛ الجزاء على الأعمال خيرها ، وشرها . وكثر استعماله فى الخير .

التفسير

٥٩ - (قُلْ يَآ أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ ...) الآية .

بعد أن نهى الله المؤمنين عن موالاة الذين استهزءوا بدين الإسلام ، وتلاعبوا به ، جاءت هذه الآية تقول لهم : ما الذى تعيبونه على الإسلام وأهله ، وتكرهونه منه : مما يسوغ لكم اتخاذه هزوًا ولعبا ؟ ، إنكم - فى واقع الأمر - لاتجدون شيئا يعاب به .

رُوِى عن ابن عباس - رضى الله عنه - أن نفرا من اليهود أتَوْا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فسألوه عمن يؤمن به من الرسل - عليهم الصلاة والسلام - فقال أومن بالله ، وما أُنزل علينا ، وما أُنزِل على إبراهيم وإسماعيل ، وإسحاق ويعقوب والأسباط . فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته . وقالوا : والله ، ما نعلم أهلَ دينٍ أقلَّ حظا فى الدنيا والآخرة منكم ، ولا دينًا شرًّا من دينكم - فأنزل الله تعالى هذه الآية وما بعدها .

(قُلْ يَآ أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ) :

أمرٌ من الله تعالى لرسوله ، أن يقول لأهل الكتاب ، الذين استهزءوا بالدين وكفروا به ، خطاباً لهم على سبيل التعجيب :

(هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا) :

أى : ما تنكرون منا وتعيبون علينا ، إلا إيماننا بالله وبما أُنزل إلينا من القرآن المجيد ، وإيماننا بما أُنزِل من قبل إنزال القرآن الكريم : من التوراة والإنجيل المنزلين عليكم ، وسائر الكتب السماوية وكذلك إيماننا بأنكم قوم فاسقون متمردون على الحق ، خارجون عن الطريق المستقيم للصالح الإنسانى ، مكذبون بنبوة محمد الذى بشرت به كتبكم وجاء لخلاصكم .

وكان هذا القول على سبيل التعجيب ، لأن هذه الأمور التى أنكروها ، ليست بما يعاب وينكر ، بل يجب أن تكون بما يُعلَم ويُحفظ ، لأن الإيمان بالله ، هو الأصل الذى عليه تُبنَى جميع الطاعات .. والإيمان بجميع الأنبياء ، هو الحق والصدق الذى أمر الله به . وقد اتبعناه . والتزام الصالح الإنسانى ، الذى لا يضل عنه إلا فاسق فاجر .

وأما ماعليه هؤلاء المستهزءون ، من التمرد والخروج عن الإيمان ، والكفر ببعض الرسل والإيمان ببعض ، فباطلٌ . وليس من الحق فى شىء . وهو الجدير بأن يُعَاب وينكر . لأن كفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم – وهو الذى جاء مصدقا لمن تقدمه من الرسل – كفرٌ منهم برسلهم وبمكارم الأخلاق .

وخاطبهم بقوله : (يَآأَهْلَ الْكِتَابِ) توبيخًا لهم وتقريعًا ، إذ مقتضى هذا الوصف أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به ، وألّا يستهزءوا به ويسخروا من الدين الذى ارتضاه الله تعالى – شريعة للناس جميعا. محققة للصراط المستقيم ،والسعادة البشرية.

٦٠ – (قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللهِ مَن لَّعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ...) الآية .

بعد أن أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم ، أن يبين لأهل الكتاب : أن الأساس الذى بنوا عليه إنكارهم للدين الذى جاء به ، كان يقتضى إيمانَهم به وكفرهم بما هم عليه

من الضلال ، جاءت هذه الآية الكريمة ، تأمره عليه الصلاة والسلام : أن يبين لهؤلاء اليهود : أن الجدير بالإنكار حقا : ما هم عليه من الضلال الذى ألحقوه بشريعتهم .

(قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ) :

أى قل يامحمد : ألا أخبركم - أيها اليهود - بمن هم شرٌّ وأسوأ حالا فى العقوبة الثابتة المقررة لهم عند الله تعالى - وأشدُّ نكالا يوم القيامة من المسلمين - فى زعمكم الباطل أيها اليهود - هم أولئك الذين طَرَدَهُمُ الله من رحمته ، وأبْعَدَهم عن رضوانه ، وحلّ عليهم سُخْطه ، . هم :

(مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ) :

أى : وجعل منهم من يشبه القردة فى التقليد الأعمى ، والخنازير فى الانغماس فى كل ما هو قذر . . .

وكذلك جعل منهم الذين عبدوا الكهنة ورؤساء الضلال : الذين قادوهم إلى الكفر بما أنزل الله تعالى - من الهدى لإخراج الناس من الظلمات إلى النور .

(أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ) :

أى : هؤلاء الموغلون فى الاتصاف بتلك القبائح والخبائث ؛ التى أوقعتهم فى سوء المصير . . . هم فى شر المكانة ، وأحط المقام ؛ فى الدنيا والآخرة ، وأكثر انحرافا وبعْدًا عن الطريق المستقيم .

وقد مهد بالاستفهام الذى خاطبهم به - لِمَا أراد إلقاءه إليهم - لشدِّ انتباههم ، وإيقاظ أذهانهم ، لبيان أن المخبر به شأنًا خطيرًا ؛ يستحق أن يتلقاه السامع ؛ بالحفظ والتدبر والرعاية .

وليس فى الدين الإسلامى - ولا فى أهله - أدنى شىء من شر أو ضر ، بل كله خير محض فى نفسه . وأتباعه خيّرون ما تمسكوا باتباعه..وإنما اعتبرت الشرية فى قوله تعالى : (بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ) من باب المجاراة لهؤلاء المبطلين فيما اعتقدوه - لا فيما هو الواقع - لإلزامهم بأن ما هم عليه من الفساد ، شرٌّ من كل محتمل . . ولو فى زعمكم أيها اليهود الأشرار . على فرض أن فى الإسلام وأهله شرًّا كما تزعمون ؟ !.

(وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾) .

المفـردات :

(الْإِثْمِ) : الذنب وكل المعاصى ، ويطلق على الكذب .

(وَالْعُدْوَانِ) : مجاوزة الحد فى الظلم .

(السُّحْتَ) : الحرام .

(لَوْلَا) : هلاَّ . وهى هنا : للتحضيض .

(الرَّبَّانِيُّونَ): العلماء العارفون بالله ، ويكونون فى اليهود وغيرهم .

(الْأَحْبَارُ) : علماء اليهود ، وقيل : هما فى اليهود ؛ لأن الحديث لازال متصلا ببيان شأنهم .

التفسير

٦١- (وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ...) الآية .

لازال الحديث متصلا فى بيان جرائم اليهود منهم عامة ، والمنافقين منهم خاصة .

فقد جاءت هذه الآيات الثلاث ، تحكى فى الآية الأُولى منها : بعض طرقهم فى المكر والخداع .

كما تبين الآية الثانية : تسابقَ الكثيرين منهم إلى ارتكاب المحرمات : وانخفاضهم إلى الحضيض الخُلُقى .

وتنفى الآية الثالثة على علمائهم ، عدمَ إرشاد عامّتهم إلى الصواب . مبينة أن الساكت على الشر هو وفاعلُه سواء فى استحقاق العذاب .

أسباب النزول :

كان جماعة من اليهود يدخلون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ ويُظهرون له الإيمان ؛ نفاقًا ؛ لخداعه والمكر به ، فإذا خرجوا من لدنه ـ عليه السلام ـ خرجوا بالكفر كما دخلوا ، دون أن يتأثروا بما سمعوه من هَدى الرسول وإرشاده . فأنزل الله هذه الآية ، لإظهار نفاقهم .

والمعنى : وإذا جاءكم ـ أيها الرسول ومن معك من المؤمنين ـ هؤلاء اليهود ، أظهروا لكم الإيمان بألسنتهم ؛ نفاقًا لخداعكم . والحال أنهم خرجوا ـ من مجلسكم ـ وهم أشد تمسكًا بالكفر الذى ملأ قلوبهم حال دخولهم عليكم : متصفين به ، لم يتأثروا بما سمعوه من نصح الرسول ، وهديه وإرشاده .

(وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ) :

أى والله أعلم بما كتموه من الكفر ، وبما أضمروه من الحرص الشديد على عداوة المسلمين وبغضهم ، والجد فى المكر بهم ، وتدبير الكيد لهم ، وإلحاق أبلغ الضرر بهم .

وفيه من الوعيد الشديد لهم ـ بأشد أنواع العقاب ـ ما لا يخفى . وفى هذا الموقف النفاقى ، قال تعالى : « وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِى أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ »(1) .

٦٢ ـ (وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ...) الآية .

هذا خطاب لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولكل من تتوافر له وسائل الإبصار أو العلم بأحوالهم ، بيّن الله تعالى فيه ، حال كثير من هؤلاء اليهود المنافقين . وهبوطهم الإنسانى .

---

(1) سورة آل عمران ، آية : ٧٢

أى وترى يا محمد ، كثيرا من هؤلاء اليهود مسارعين إلى ارتكاب الإثم – أى الكذب أو ارتكاب جميع المعاصى والمحرمات ، وبخاصة نوعين من أشد المحرمات قبحًا . هما : العدوان ... وأكل السحت .

أما العدوان : فهو مجاوزة الحد فى الظلم . ومصدره الأنانية الكافرة .

وأما السحت: فهو أكل الحرام . وأظهرهُ الربا وأخذ الرشوة . ومصدره الأثرة الفاجرة .

وخُصَّا بالذكر – بعد دخولهما فى جميع المعاصى – للمبالغة فى إظهار قبحهما . وخطورتهما على المجتمع البشرى .

(لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

أى : إن استمرارهم على ارتكاب تلك المعاصى زاد أعمالهم قبحًا ، وزادهم أهلية للذم والتوبيخ . قال تعالى : (وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ) : ولم يقل وتراهم ؛ لأن قليلا منهم كانت فيهم إنسانية فيستحيون ، فيتركون المعاصى .

وأكثر ما يستعمل لفظ المسارعة ، فى الخير . قال تعالى: «نُسَارِعُ لَهُمْ فِى الْخَيْرَاتِ...»[1] وقال تعالى: «يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ...»[2] فاستعماله هنا ، يدل على أنهم كانوا يرتكبون المعاصى – وكأنهم على حق فيما يفعلون . كما أفاد التعبير بلفظ (فى) ، دون (إلى) أنهم كانوا حريصين أشد الحرص على إتيان المحرمات .

إذ المعنى : أنهم مستقرون فى المعاصى ، منغمسون فيها .

وكذلك أفاد التعبير بلفظ (يُسَارِعُونَ) أنهم كانوا يتسابقون : مسرعين إلى الكفر وارتكاب هذه الآثام .

٦٣ – (لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ ...) الآية .

بعد أن بينت الآية السابقة : أن كثيرا من اليهود ، كانوا يتسابقون إلى ارتكاب المعاصى والآثام . جاءت هذه الآية : تنعى على علمائهم ، عدم النهى عن ارتكاب المعاصى والآثام .

(١) المؤمنون ، من الآية : ٥٦ (٢) المؤمنون ، من الآية : ٦١

(لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ) :

أى : هلّا قام أولئك العلماء بالنهى عن التسابق إلى ارتكاب المعاصى والانغماس فى الشهوات ؟ !

والمراد من هذا الأُسلوب ، تحريض العلماء على القيام بهذا النهى ، وتوبيخهم على تركه ، وتعطيل وظيفة العلم .

وهذا يتضمن – بالنسبة لعلمائهم المقصرين – نعيًا على تقصيرهم فى النهى والإبلاغ .

(لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) :

أى : إن استمرار العلماء على ترك النهى عن المنكر ، أقبح ما صنعوه ، وأجدره بالذم واللوم والإنكار .

ويحتمل أن العموم فى (كَانُوا) فيعم اليهود جميعا .

فعلى الأَول المراد أن الله سبحانه ، أنكر على علماء أهل الكتاب ، واستبعد منهم – عدمَ قيامهم بنَهْيِ المتسابقين إلى ارتكاب المعاصى والمحرمات .

وقد دل ذلك على أن تارك النهى عن المنكر – ومرتكبه – فى الذم سواءٌ .

بل إن الذم على ترك النهى عن المعاصى ، أشد وأقوى ؛ لأن الله تعالى ، قال فى ذم من يأْتون المعاصى : (لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) . وقال فى ذم العلماء الذين لا ينهون عن المنكر : (لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) .

والصنع أقوى من العمل ؛ لأن الصنع عملُ الإنسان ، بعد التدرب عليه ، والتروى فى إتقانه ، والتحرى فى إجادته ، حتى يصير مستقرا فى النفس ، راسخا فيها .

وأيضا كان الذم على ترك النهى عن المنكر أشدَّ ؛ لأن العالم يقوم بالنهى عن المنكر حِسْبةً ابتغاء رضوان الله . فكان تركه أقبحَ من إتيان المعصية ، لميل النفس إلى فعلها ، تحقيقا للذة الفانية ، ولا كذلك الساكت على المعاصى ، التارك لإنكارها . فكان – لذلك – جديرا بأبلغ الذم وأشد التوبيخ .

عن ابن عباس – رضى الله عنه – هذه أشد آية فى القرآن ، أى : على تارك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وعن الضحاك : ما فى القرآن آية أخوفَ عندى من هذه الآية ، أى بالنسبة لمن يتركون النهى عن المنكر .

وروى الترمذى فى صحيحه بسنده عنه صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الظَّالِمَ وَلَم يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ ، أَوْشَكَ أَن يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ مِن عِندِهِ » .

قال تعالى : « لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِيٓ إِسْرَآءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ . كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ »[1] .

(وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾).

المفردات :

(يَدُ اللهِ) : اليد فى كلام العرب تكون ؛ للجارحة ، وللنعمة ، وللقوة ، وللقدرة ، وللصلة ، وللتأييد ، وللنصرة .

(مَغْلُولَةٌ) : الغُل ؛ قيد من الجلد ، أو الحديد يوضع فى اليد أو العنق . ومرادهم بذلك : أنها مقبوضة بخيلة بالعطاء .

(مَبْسُوطَتَانِ) : البسط ؛ المد بالعطاء . والمراد منه هنا ؛ الجود والإعطاء .

(أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ) : أوقد النار ؛ أشعلها . والمراد هنا ؛ أثاروا الفتن ، ودبروا المكائد التى تؤدى إلى وقوع الحرب بين الناس .

---

(١) المائدة ، الآيتان : ٧٨ ، ٧٩

التفسير

٦٤ - (وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ . . .) الآية .

لا زال الحديثُ متصلا فى بيان جرائم اليهود، وما استوجبوه من الإهانة والذل فى الدنيا، والعذاب فى الآخرة .

فقد جاءت هذه الآية ، تتحدث عن نوع آخر من أشنع جرائمهم .

قال ابن عباس وعكرمة والضحاك : « إنَّ اللهَ وسَّعَ عَلَى اليَهُودِ فى الدُّنْيَا ، حَتى كَانُوا أكْثَرَ النَّاسِ مَالًا . فَلَمَّا عَصَوُا اللهَ ، وَكَفَرُوا بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَذَّبُوه ، ضَيَّقَ اللهُ عَلَيْهِمْ فِى زَمَنِهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلم ، فقال فنحاص بن عازوراء ومن معه — من يهود — يَدُ اللهِ مغلولةٌ . فأنزل اللهُ هذه الآية » :

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ) :

مغلولة أى : مقبوضة بالعطاء . كناية عن البخل والإمساك .

أى : إن اللهَ بخيلٌ علينا بما عنده من المال والعطاء والرزق . أو المراد بهذا : أنه فقير ، لا يجد ما يعطيه لنا ، ليتفق مع ماحكاه القرآن عنهم فى قوله تعالى : « . . .إنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أغْنِيَآءُ . . . »[1] وقد عاقب اللهُ هؤلاء اليهود بعقاب من جنس عملهم ، جزاءً وفاقا حين قال عنهم :

(غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا) :

والمراد إلصاقهم بالبخل والنكد ، والمسكنة والعجز ، والطرد من رحمة الله تعالى فى الدنيا والآخرة . والبعدِ عن رضوانه . بسبب قولهم : (يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ) .

وكما يراد منه الدعاء عليهم بالبخل والعجز ، يجوز أن يكون المراد به الدعاء عليهم : أن تُقَيَّدَ أيديهم فى الدنيا حقيقة . بأخذهم أسارى ، ويوم القيامة يسحبون فى النار على وجوههم بأغلالهم .

---

(١) آل عمران ، من الآية : ١٨١

وقد حقق الله قضاءه فيهم . فكانوا أبخل الناس فى الدنيا . وأحرصهم على المال . وباءوا فى الآخرة بالخلود فى النار .

(بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ) :

أى : ليس الأمر كما يزعم هؤلاء اليهود . بل هو سبحانه . فى غاية ما يكون من الجود والغنى . . نِعَمُهُ الظاهرة والباطنة منتشرة بين الناس جميعا : تغمرهم بفيضها ، وتمتد عليهم فى الدنيا والآخرة بظلالها . لا تغيض ولا تنفد .

وقد أشير بتثنية اليد إلى تقرير غاية جوده وغناه . فإن أقصى ما تصل إليه همة الجواد السخى ، أن يُعْطِىَ ما يعطيه ، بكلتا يديه .

وفى قوله تعالى : (يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ) تأكيد لكمال جوده وغناه . وتقرير لهما ... إذ معناه أنه تعالى يرزق كما يريد : إن شاء وسّع فى العطاء ، وإن شاء ضيقه . فعطاؤه تابع لمشيئته المبنية على الحِكَمِ التى شاء الله أن يقوم عليها نظام الدنيا والآخرة .

وليس ضيق العيش لنقص فى خزائنه . ولا لإمساك الخير والبخل به عن عباده . وإنما هو لحكمة يعلمها ولا نعلمها . قال تعالى : « وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِى الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ »[1] وقال تعالى : « قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ »[2] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يَمِينُ اللهِ مَلْأَى لَا يَغِيضُهَا سَحَّاءُ اللَّيلِ وَالنَّهَارِ . أَرَأَيْتُمْ مَا أَنفَقَ مُذْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ !! فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِى يَمِينِهِ – قال – وَعَرْشُهُ عَلَى الماءِ ، وَبِيَدِهِ الْأُخْرَى الْقَبْضُ . . . يَرْفَعُ وَيَخْفِضُ »[3] .

(وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا) :

المراد بالكثير : علماء اليهود ورؤساؤهم . وهم طغاة كافرون . ولكنهم يزدادون شدة فى الكفر ، وغلوا فى الإنكار والطغيان ، كلما سمعوا آية أنزلها الله إليك .

---

(١) الشورى ، الآية : ٢٧ (٢) آل عمران ، الآية : ٢٦ (٣) أخرجه الإمام مسلم .

أو المراد بالزيادة أنهم يضمون – إلى كفرهم وطغيانهم القديمين – كفرا جديدا ، وطغيانا جديدا ؛ لأنهم كلما سمعوا آية أنزلها الله إليك ، كفروا بها . . قال تعالى : « وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ »[1] .

(وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ) :

أى : أوقعنا بين طوائف اليهود ، الخصومةَ الشديدة بقوة ، ومكَّنَّا فى قلوبهم ، بُغْض بعضهم بعضا . بسبب جرائمهم . فلا تتوافقُ قلوبهم ، ولا تتطابقُ أقوالهم أبدا إلى يوم القيامة .

ولقد كانوا كذلك طوال تاريخهم . منذ أن أرسل الله إليهم الرسل ، ودأبوا على قتل الأنبياء بغير حق ، إلى أن أرسل الله خاتَمَ الأنبياء محمدا صلى الله عليه وسلم ، بالنور والهدى فكذبوه ، واستمروا على اقتراف جرائمهم ، وازدادوا فيها . قال تعالى : « بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ... »[2] .

إذ يستفاد من هذه الجملة الكريمة . دفع ما عساه يخطر بالبال ، من أثر شدتهم فى الكفر وغلوهم فى الطغيان ، من أنهم قد يجتمعون على أمر يؤدى إلى الإضرار بالمسلمين ، – فدفع هذا الخاطر – ببيان أنهم لا يجتمعون على كلمة أبدا .

ثم بين سبحانه ، أنَّ دأبهم على إشـعال نار الحروب والفتن بين الناس ، وتدبير المكر السيىء لا يعود عليهم إلا بالخيبة والهزيمة ، بقوله تعالى :

(كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ) :

أى : كلما همُّوا بحرب الرسول ودبروا لإيذائه وركبوا كل صعب وسَهْلٍ فى سبيل ذلك ردَّهم الله وقهرهم بإلحاق الهزيمة بهم .

أو أوقع الله بينهم نزاعا فرَّقهم . فكف الله به عنه شرهم .

أو كلما حاربوا أحدا أو جماعة غُلِبُوا وهُزِمُوا !!

وقد كان أمرهم كذلك على مدى التاريخ .

(١) التوبة ، الآيتان : ١٢٤ ، ١٢٥

(٢) الحشر ، من الآية : ١٤

(وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) :

ولقد كان شأنهم أنهم يجتهدون فى تدبير الكيد ، وإثارة الفتن ، وهتك المحارم ، قصدا إلى نشر الفساد فى الأرض . والله لا يرضى عن كل من يعيثون فى الأرض فسادا : فلا يرضى عن عبث اليهود وجرائمهم . فلا يجازيهم إلا شرًّا .

ومنذ القدم واليهود كلما جمعوا جموعهم ، وأعدوا عُدتهم لإيذاء الناس ، أو إشعال نار الفتنة على عباد الله شتَّت الله شملهم ، وخيَّب رجاءهم ، ودمَّر كيدهم .

والتاريخ أكبر شاهد على صدق ذلك ، وإلا كانوا أهلكوا العالم .

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾) .

المفردات :

(أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ) : نفذوا ما فيهما من الأحكام التى شرعها الله لخير الإنسانية ، والتزموا بالمحافظة على أدائها .

(لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ) : المراد لوسَّع الله عليهم أرزاقهم .

(مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ) : الاقتصاد فى اللغة ؛ الاعتدال من غير غُلُوّ ولا تقصير ؛ أى من اليهود طائفة معتدلة ، وهم الذين آمنوا إيمانا حقيقيا بمحمد صلى الله عليه وسلم .

(وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ) : كثير من اليهود ظلُّوا على الكفر وأفرطوا فى العداوة والبغضاء فبئس ما عملوا .

التفسير

٦٥ - ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ :

أى : ولو أن أصحاب الكتاب - مع ما اقترفوه من أنواع الجنايات قولا وفعلا - آمنوا بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ،وبما جاء به ، وحفظوا أنفسهم من عقاب الله بترك الكفر ، وسائر المنكرات التى حكاها القرآن عنهم ، وأقبلوا على طاعة الله تعالى بصدق وإخلاص ، ولم يأتوا بالإيمان نفاقًا لغرض من أغراض الدنيا - لو آمنوا على هذا النحو - لرفع الله عنهم عقابَ ما ارتكبوه من الجرائم ، وإن بلغت غاية القبح ومنتهى الكثرة والشناعة . ولأكرمَهُم بإدخالهم جناتِ النعيم دخولا مؤكدا ، على كثرة ما سبق من معاصيهم .

إذ الإسلام يزيل آثار كل ما سبقه من الذنوب والآثام وإن كثرت وجاوزت كل الحدود .

وتلك هى السعادة العظمى فى الدار الآخرة .

وذِكْرُهم بأنهم أصحاب كتاب ، لزيادة التشنيع عليهم . إذ مقتضى ذلك : أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم - هذا الرسول الذى عرَفوه بوصفه فى كتبهم .

٦٦ - ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ . . ﴾ الآية .

ولـمَّا بينت الآية السابقة : أنهم لو آمنوا لفازوا بسعادة الآخرة ، جاءت هذه الآية تبين أنهم لو وفوا بعهود الله ، وأذاعوا صفة محمد صلى الله عليه وسلم - وأقاموا ما لا يتعارض مع القرآن من أحكام التوراة والإنجيل ، وآمنوا بسائر الكتب المنزلة إليهم من عند الله - لفازوا بسعادة الدنيا ، وغمرتهم جنّاتُها وعمتهم طيباتُها .

والمعنى : ولو أن أصحاب الكتاب عملوا بما فى التوراة والإنجيل من الوفاء بعهود الله وأقروا بإشتمالهما على صفة محمد صلى الله عليه وسلم ودلائل بعثته ، والتزموا بأحكامهما وحدودهما الصحيحة المتفقة مع القرآن المجيد ، ولم يحرفوا الكلم عن مواضعه ، والتزموا كذلك

بالقرآن الكريم المصدق لكتبهم ، المنزل إليهم – لأنه منزل إلى الناس جميعا – وليس كما يزعمون من أنه لم يُنْزَل إلى بنى إسرائيل ، وآمنوا أيضا بسائر الكتب المنزلة على بنى إسرائيل .

(لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ) :

أى : لو أقام أهلُ الكتاب التوراةَ والإنجيل ، وسائرَ ما أنزلَ الله إليهم ، على النحو الذى تقدم ، لوسَّع الله عليهم أرزاقهم ، ولأفاض عليهم من بركات السماء والأرض ، ولفازوا بسعادة الدنيا وغمرتهم طيباتها ، وجاءهم الخير من كل مكان : فوق فوزهم بتحقيق وعد الله لهم بسعادة الآخرة .

ثم بيّن سبحانه ، أن أهل الكتاب لم يكونوا جميعا مُصِرِّين على الكفر وعدم الإيمان ، بل منهم طائفة آمنت ، وكثير منهم ظل على إساءته وعناده بقوله :

(مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ) :

أى : من أهل الكتاب طائفة معتدلة : لم تغل ولم تقصر ، وهم الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به ، وبسائر الكتب التى أنزلها الله على رسله ، فكانوا بذلك على النهج السليم ، والطريق المستقيم دون إفراط أو تفريط .

وكما كان من أهل الكتاب أمة وسط : استقامت على منهج الحق . والْهُدَى ، كان كثير منهم ما أسوأ عَمَلَهُم ! إذ أفرطوا فى عنادهم وعداوتهم ، وظلوا على كفرهم ، وأكثروا من فعل السيئات ، ولَجُّوا فى طغيانهم يعمهون ، وأعرضوا عن الإيمان ، مع ما يحققه لأهله من السعادة فى الدنيا والآخرة .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾) .

المفردات :

(يَعْصِمُكَ) : يحفظك وينجيك .

التفسير

٦٧ - (يَٰٓأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ . .) الآية .

خاطب اللهُ نبيَّه محمدا صلى الله عليه وسلم ، بعنوان الرسالة فى هذه السورة الكريمة مرتين :

دعاه فى الأولى منهما ، إلى عدم الحزن على مسارعة الكفار فى إنكار رسالته . وذكر له أمثلة عديدة ، مما فُطِروا عليه من مكابرة وعناد ، وإمعان فى الضلال . سواء أكانوا من أهل الكتاب أم المنافقين أم المشركين .

ودعاه بها فى هذه الآية مناديا إياه بهذا النداء الكريم ، إلى تبليغ جميع ما أنزله الله عليه من آياته البينات ، ولم يُعَيِّن مَنْ يبلغهم ؛ لبيان عموم رسالته ، للبشر أجمعين .

وإضافة لفظ الرب إلى الضمير العائد على الرسول ؛ تكريمٌ له وإشعارٌ بأن رسالته صادقة ، واجبة الأداء ، وإيذانٌ له بأن ربَّه سيحفظه ويرعاه .

(وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ) :

وإن لم تُبلِّغ الرسالة - بأن كتمتها أو بعضها أو أخَّرْتَه أو بدَّلْتَه - فما تكون قد بلغت ، وتكون غيرَ أهل لحمل الأمانة .

وحاشاه صلوات الله وسلامه عليه ، أن يقصّر فى حق الله تعالى ، فقد أدبه ربُّه فأحسن تأديبه ، وهذّبه فأحسن تهذيبه قال تعالى : « اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ . . . »[1] .

والمراد هنا : بيان أنه صلى الله عليه وسلم ، أدّى رسالته كاملة ، فلا مجال لزيادة فيها أو نقصان .

جاء فى الصحيحين : أن سائلا سأل الإمام عليًّا رضى الله عنه : هل عندكم شىء من الوحى إلا ما كان فى كتاب الله ؟ فقال : « لَا وَالَّذِى فَلَقَ الْحَبَّةَ ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ ، إِلَّا فَهْمًا يُعْطِيهِ اللهُ رَجُلًا فِى الْقُرْآنِ وَمَا فِى هَذِهِ الصَّحِيفَةِ »[2] .

وروى البخارى والترمذى : « مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا كَتَمَ شَيْئًا مِمَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ ، فَقَدْ كَذَبَ » .

وروى الشيخان أن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت : [لو كان النبى صلى الله عليه وسلم كاتمًا شيئًا من الوَحْىِ ، لكتم هذه الآية : «وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ... »[3] لما فيها من عتاب شديد للنبى صلى الله عليه وسلم] .

وكما أن هذه الآية تُبيِّن أن الرسول لم يكتم شيئا من الوحى عن أحد من الناس ، فإن قوله تعالى : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ »[4] يدل على أن الله تكفّل بحفظ كتابه الكريم ؛ الذى أمر الرسول بتبليغه فبلغه .

قال الزهرى — فيما رواه البخارى — « مِنَ اللهِ الرِّسَالَةُ . وَعَلَى الرَّسُولِ الْبَلَاغُ . وَعَلَيْنَا التَّسْلِيمُ . وَقَدْ شَهِدَتْ أُمَّتُه لَه بِتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ فِى حجة الوداع » وقدأدى هذه الشهادة أربعون ألفا حضروا معه حجة الوداع .

---

(١) الأنعام ، من الآية : ١٢٤

(٢) مافى الصحيفة هو : دية القتل ، وفكاك الأسير ، وألا يقتل مسلم بكافر . وهو تشريع عام جاءت به السنة الشريفة .

(٣) الأحزاب ، من الآية : ٣٧

(٤) الحجر ، الآية : ٩

(وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) :

إن القرآن الكريم ، فضح أكاذيب المنافقين ، وسفَّه أحلام المشركين ، وأظهر انحراف اليهود والنصارى عن الصراط القويم ، مما حمل الجميع على مقاومة الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو إعلان الحرب عليه ، أو محاولة اغتياله . وهو لايبالى بما يلقاه فى سبيل الله ، ولكن الله سبحانه ، زاده اطمئنانا بأنه سيمكّنه من أداء رسالته كاملة ، وأنه سيحفظه ويرعاه ، حتى يلقى الله .

رَوَى الترمذى والحاكم والبيهقى وغيرهم : أنه كان للنبى صلى الله عليه وسلم ، حَرَسٌ يحرسونه فلما نزل قوله تعالى : « وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ » أخرج رأسه من القُبَّه ، فقال لحرّاسه : « يَاأيها النَّاس انصرِفُوا فَقَدْ عَصَمَنِى اللهُ » .

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) :

أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يبلّغ رسالته ، وطمأنه بأن الله سيحفظه ويرعاه ، فلا عليه بعد هذا من أعدائه الكفار ، وإن الهدى هدى الله . والله لا يهدى من ظلموا أنفسهم بالتزامهم الإمعان فى الكفر ، واللجاج فى العناد ، والإصرار على الإلحاد .

(قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾) .

المفـردات :

(حَتَّىٰ تُقِيمُوا) : حتى تؤدوا أداء كاملا على أحسن وجه .

(طُغْيَانًا) : الطغيان : تجاوز الحد فى الضلال .

(فَلَا تَأْسَ) : فلا تحزن .

التفسير

٦٨ - (قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ...) الآية .

أمر الله رسوله أن يخبر اليهود والنصارى : بأنهم ليسوا على شيء من العقيدة الصحيحة حتى - أى إلى أن - يلتزموا بما أنزل الله فى كتبه من التوراة والإنجيل وبما ورد فيهما من البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم . وحتى يؤمنوا بالقرآن الكريم الذى جاء مصدقا لما بين يديه من الكتاب ، ومهيمنا عليه .

وحتى يلتزموا الإيمان بجميع الرسل ، وعدم التفريق بينهم . والله تعالى يقول : « إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا . أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا »[1] .

ومن المعروف : أن اليهود والنصارى حرّفوا التوراة والإنجيل : ولم يعملوا بما بقى بين أيديهم منها ، فارتكبوا المنكرات ، واتبعوا الشهوات .

والآية - وإن كانت واردة فى أهل الكتاب - فإن فيها تحذيرا عامًّا لكل من لا يقيم حدود الله .

(وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا) :

كان الأولى باليهود والنصارى ؛ أن يؤمنوا بما أنزله الله إليك ؛ لأن الحق فيه واضح بيّن ، مؤيَّدٌ بالإعجاز ؛ ولأن البشارة بك واردة فى كتبهم . ولكنهم أمعنوا فى الضلال والإضلال ، وجاوزوا الحدّ فى الكفر والعناد . وبدلا من أن يزدادوا إيمانا بما أنزله الله إليك ، ازدادوا إمْعانا فى الضلال والجحود ، ولَجَاجا فى الكفر والعناد ؛ إلا قليلا منهم استجابوا للحق ، فآمنوا بما أنزله الله عليك من الآيات البينات . وبقى الكثيرون على ضلالهم القديم .

---

(١) النساء ، الآيتان : ١٥٠ ، ١٥١

(فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) :

فلا تحزن على من تمكّن الكفرُ فيهم ، وصَيْرُورته وصفا لازما لهم . وحسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين .

ولم يقل : فلا تأس عليهم . بل ذكر لفظ (الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) : لإبراز علّة ضلالهم ، وأنهم لهذا غير جديرين بالحزن عليهم .

وفى هذا ما يدل على عظمة الحنان النبوى بالبشرية كلها ، لخوفه عليها من الكفر والانحراف .

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾) .

المفردات :

(الصَّابِئُونَ) : المائلون من عقيدة إلى عقيدة ، والمراد : أتباع بعض الرسالات السماوية السابقة .

التفسير

٦٩ - (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ ...) الآية .

إن أتباع الديانات السماوية :

من المؤمنين برسالة محمد صلى الله عليه وسلم .

ومن اليهود المتمسكين برسالة موسى عليه السلام ، قبل المسيحية ممن لم يحرفوا كتب أنبيائهم .

ومن الصابئين الذين تمسكوا بملة إبراهيم عليه السلام ـ قبل نسخها .

ومن المسيحيين الذين تمسكوا بالمسيحية ولم يحرفوها قبل بعثة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ هؤلاء جميعا إذا آمنوا بالله تعالى . إيمانا صحيحا غير ملتبس بالشرك واستمسكوا بهذا الإيمان ، واتبعوا أنبياءهم وما جاء على ألسنتهم من التبشير بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وآمنوا به عند مبعثه ، وآمنوا بالبعث والنشور ، وبالجنة والنار وما فيهما من جزاء ، وعملوا الأعمال الصالحة التى يقتضيها الإيمان بالله واليوم الآخر ، طبقا لما ورد فى الكتب المنزلة السليمة من التصحيف والتحريف ـ إن هؤلاء جميعا ـ يظفرون بالثواب الجزيل على ما قدموه من إيمان وعمل صالح ، ولا خوف عليهم من عقاب ، ولا يعتريهم حزن من سوء الجزاء . فلا يخافون بَخْسًا ولا رهقا ، ولا يحزنهم الفزع الأكبر [1] .

ورفَع : (الصَّابِئُونَ) إبرازا : لأنهم ـ أيضا ـ ناجون ، شأنهم شأن المؤمنين والنصارى واليهود ، ودفعا لما يسبق إلى الأذهان من أنهم عبدة أوثان .

(لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾).

المفردات :

(مِيثَاقَ) : الميثاق ؛ العهد القوى .

(فِتْنَةٌ) : الفتنة ؛ الاختبار بالنار . ومعناها ـ هنا ـ العذاب .

---

(١) راجع تفسير الآية : ٦٢ من سورة البقرة .

التفسير

٧٠ - (لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا ...) الآية .

أكد الله سبحانه - قصة أخذ العهد الوثيق على بنى إسرائيل بعبادته وحده ، وأداء جميع أوامره ، واجتناب جميع نواهيه ، وأن ينفذوا هذا بقوة ، قال تعالى :

« ... خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ »[1] .

وقد أشار القرآن الكريم - عدة مرات - إلى هذا الميثاق ونقضهم له[2] .

وقد وردت إشارة كاملة إلى هذا الميثاق فى «سفر تثنية الاشتراع» وهو أحد أسفار التوراة الباقية بأيديهم[3] ، وكلها مع ما أشار إليه القرآن الكريم .

ولم يكتف الله - سبحانه وتعالى - بأخذ الميثاق عليهم بل أرسل إليهم رسلا عديدين يذكّرونهم به ، ويَدْعونهم إليه ويُنْذِرونهم بالعقاب الأليم ، الذى ينتظرهم إذا هم عادوا إلى نقضه ، بحيث لم يبق لهم عذرٌ فى مخالفته بعد أن أخذه الله عليهم ، ونبّهتهم الرسل العديدون إليه .

(كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ) :

ولكنهم لم يكتفوا بنقض الميثاق ، بل كانوا يجابهون رسلهم بالتكذيب والجحود ، إذا دعَوْهم إلى ما يخالف أهواءهم وشهواتهم ، ولم يقتصروا على التكذيب ، بل قتلوا بعض هؤلاء الأنبياء .

والتقدير : كلما جاءهم رسول بما يخالف أهواءهم ، استكبروا ولجُّوا فى العناد ، فكذبوا فريقا من الأنبياء ، وقتلوا فريقا منهم . كما قال تعالى لهم : «...أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ »[4] .

---

(١) سورة الأعراف ، من الآية : ١٧١ .
(٢) راجع تفسير الآيات : ٨٣ - ٨٧ من سورة البقرة . والآيتين ١٢ ، ١٣ من سورة المائدة .
(٣) الإصحاح : ٢٩ - ٣٢
(٤) سورة البقرة ، من الآية : ٨٧

والتعبير بالفعل المضارع (يَقْتُلُونَ) : لاستحضار فظاعته فى الذهن ، ولأن آثاره تمتد من الماضى السحيق إلى المستقبل البعيد .

٧١ـ (وَحَسِبُوٓا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ...) الآية .

أى : وظن اليهود ألا يكون عليهم ــ فى قتلهم أنبياءهم وتكذيبهم لهم ــ عذاب ، فعموا وصموا عن الحق ، فلم يتبصروا فى آياته الكونية ولم يسمعوا آياته التنزيلية ، وظلوا سادرين فى غيهم .

(ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ) :

أى : ثم قبل الله توبتهم لما رجعوا إليه . ثم رجعوا إلى ما كانوا فيه من غى ، فَعَمِى كثير منهم وصَمُّوا مرة أُخرى ، وأوغلوا فى الفساد .

(وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ) : فيعاقبهم بما صنعوا من الآثام والمعاصى .

(لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾) .

التفسير

٧٢ـ (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ...) الآية .

بعد أن تحدث الله عن اليهود ، ونَقْضِهم الميثاق ، وتكذيبهم وقتلهم الأنبياء ، ذَكَر مَن انحرف من النصارى عن التوحيد ، وادَّعى أن الله هو المسيح ابن مريم .

والمعنى : لقد كفر الذين زعموا من النصارى أن الله هو المسيح ابن مريم . مع أنه بشر والبشر لايصح أن يكون إلٰها .

ونسبة المسيح إلى مريم ؛ للإيذان بأنه ليس له حظ من الألوهية .

(وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابَنِى إِسْرَآئِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ) :

قالوا هذا – على الرغم من أن المسيح عليه السلام ، قال لهم : اعبدوا الله ربى وربكم . . وقدم ربوبية الله تعالى إليه على ربوبيته – عز وجل – إليهم ، للدلالة على أنه بشر مثلهم . ولهذا عطفهم عليه .

ونحن نُوقِن – بل نؤمن – بأن الأناجيل الباقية ، قد تطرّق إليها التحريف والتغيير والتبديل ، وزخرت بالمتناقضات ، ولكنها بقيت فيها – مع هذا – بقية ناطقة بالتوحيد تؤيد ما قررته هذه الآية والآيات الأُخرى الكثيرة الكريمة :

فمما فى الأناجيل ، ما قاله المسيح – عليه السلام – « وهذه هى الحياة الأبدية : أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك . ويسوع : المسيح الذى أرسلته »[1] .

وقوله : « وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذى سمعه من الله »[2] .

وقوله : « للرب إلٰهك نسجد وإياه وحده نعبد »[3] .

وقوله : « ليس لأعمل لمشيئتى بل مشيئة الذى أرسلنى »[4] .

والأمثلة عديدة لا يتسع لها المجال .

(إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ) :

دعاهم المسيح – عليه السلام – إلى أن يعبدوا الله وحده ؛ لأنه ربه وربهم ؛ كما تقدم .

وفى هذا الجزء من الآية ، أنذرهم بأن الله قضى – ولارادّ لقضائه – أن الله حرّم دخول الجنة على من أشرك فى عبادته أحدا من خلقه ، وأن مقرّ المشركين – جميعا – فى نار جهنم .

(١) يوحنا : ١٧ – ٣٠ (٢) يوحنا : ٨ – ٤٠
(٣) متى : ٤ – ١٠ (٤) يوحنا : ٦ – ٣٨

والجملة مؤكدة . ويعززها قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا »[1] .

(وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ) :

تعقيب من كلام الله سبحانه جاء تأييداً لدعوة عيسى - عليه السلام - ببيان أن من ظلموا أنفسهم فقابلوا نعمه - سبحانه وتعالى - المتوالية عليهم بالكفر ، لا ينقذهم أحد من عقابه ولا تنفعهم شفاعة الشافعين ، فإنهم سيلقون الله جميعا يوم « ... لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ »[2] .

(لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾) .

التفسير

٧٣- (لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ...) الآية .

نصت الآية على كُفْر مَن قال : إن الله ثالث ثلاثة .

والتثليث : هو العقيدة السائدة بين الطوائف المسيحية ، حيث يطلقون على الله - سبحانه - لقب الأب ، ويشركون معه الابن وهو عيسى - عليه السلام - وروح القدس .

أما الرد على دعواهم أن المسيح ابن الله ؛ لأنه ورد وصفه بهذا أربعا وأربعين مرة فى العهد الجديد - وهو يضم الأناجيل الأربعة والرسائل الملحقة بها - فهو أن هذا اللقب فيه ، لم ينحصر فى المسيح عليه السلام ، ولم يقتصر عليه ، بل أطلق :

(١) النساء ، الآية : ٤٨ (٢) البقرة ، من الآية : ١٢٣

على آدم ـ عليه السلام .

وعلى إسرائيل حيث أطلق عليه لفظ (ابن الله البكر) .

وعلى داود عليه السلام .

كما أطلق فيه على الملائكة وعلى المؤمنين جميعا .

فلم يكن مقصورًا على المسيح ـ عليه السلام .

ومع هذا ، فقد ورد أيضا فى العهد الجديد وصف المسيح ـ بما يقرب من ضعف هذا العدد ـ بأنه ابن الإنسان ثمانية وسبعين مرة [١] .

وطبيعى أن هذين الوصفين ، يهدمان البنوة بمعنى الألوهية .

وإذا انهدمت البنوة فقد انهدمت تبعا لها الأبوة .

أما روح القدس : فهو جبريل عليه السلام ، وهو من الملائكة المقربين ـ وهو بهذا من خَلْق الله ـ وكلامهم فيه مضطرب مختل .

وأما كلمة التثليث : فقد اعترف كبار علماء اللاهوت ـ فى قاموس الكتاب المقدس ـ أنها : « لم ترد فى الكتاب المقدس . ويُظنُّ أن أولَ من صاغها واخترعها واستعملها ، هو ترتليان ، فى القرن الثانى للميلاد . وقد خالفه كثيرون . ولكن مجمع نيقية أقر التثليث سنة ٣٢٥ ميلادية .

ثم استقر التثليث ـ بعد ذلك ـ عند الكنيسة المسيحية ، على يد أوغسطنيوس فى القرن الخامس » [٢] .

ومن هنا يتضح أن التثليث نبت بعد المسيح عليه السلام ، بأكثر من ثلاثة قرون وربع القرن ، وأنه دخيل على المسيحية الحقة الموحدة .

وبهذا استحق القائلون به الحكم عليهم بالكفر الصريح .

وقال كبار الباحثين : إن التثليث تسرَّبَ إلى المسيحية من العقائد الوثنية الهندية القديمة .

(وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ) :

والحق أنه لا يمكن ـ عقلا ـ أن يكون الإلٰه إلَّا واحدا .

---

(١) راجع قاموس الكتاب المقدس : ١٠٨ ، ١٠٩

(٢) قاموس الكتاب المقدس ٢٣٢ ، ٢٣٣

أما تعدد الآلهة ، فهو وصم لها بالقصور ؛ لأن قدرة كل منهم تكون ـ حينئذ ـ مقيدة بقدرة الآخرين ، والإله لا يكون محدود القدرة والسلطان .

ولو فرض اتفاق الآلهة على ما يخلقون ، فإن كان كلٌّ واحد منهم قادرا على ما يقدر عليه الآخر ، فما فائدة التعدد ؟

وإن كان كل منهم عاجزا ، فلا يصلحون ـ جميعا ـ للألوهية .

وإن كان البعض قادرا والبعض عاجزا ، فالقادر هو الإله وحده .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ :

معناه : أنه لا يمكن أن يكون الإله سوى إله واحد . كما ذكرنا فى الأدلة السابقة .

﴿ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ :

هذا تهديد للقائلين بالتثليث ، وإنذار لهم بأن عليهم أن يستجيبوا للوحى السماوى الصادق : الذى يؤيده العقلُ السليم ، والنظرُ الدقيق . وهو التوحيد . فإن لم يرجعوا إليه ، فإن الله سبحانه ، سيأخذهم بعذاب مؤلم ، جزاء كفرهم القبيح .

وجواب الشرط مؤكد بلام القسم ونون التوكيد وتنكير العذاب ، ووصفه بالإيلام ، لإيراد شدته وهوْله . ووعد القرآن الكريم بقوله : ﴿ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ ﴾ ، ولم يقل ليمسنهم ، بأن هذا الوعد بسبب كفرهم .

٧٤ ـ ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ . . . ﴾ الآية .

هذه دعوة من الله لهم إلى التوبة من جريمة الكفر ـ مع بشاعتها ـ رحمة بهم لإنقاذهم من العذاب الأليم .

﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ :

تعقيب لتأكيد مغفرة الله ورحمته لمن يلتمسها ويحققها فإنه سبحانه يقبل توبة التائبين ، ويغفر للمستتيبين النادمين ، ويرحم المذنبين المستغفرين ، فهو سبحانه عظيم الغفران واسع الرحمات .

(مَا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾) .

المفردات :

(صِدِّيقَةٌ) : دائمة الصدق فى النية والقول والعمل .

(أَنَّى يُؤْفَكُونَ) : كيف يصرفهم الضلال عن الحق الواضح .

التفسير

٧٥ - (مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ...) الآية .

فى الآيات السابقة حكَمَ الله سبحانه وتعالى ، بكفر من قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم ، وبكفر من قالوا : إن الله ثالث ثلاثة .

وهنا ، تقرر الآية الكريمة : أنه رسول من البشر ، كسائر من سبقه من الرسل . فليس إلٰها ، ولا ابنا للإلٰه .

ونسبته إلى مريم ، للإيذان بأنه وُلِدَ من غير أب ، فإن الولد ينسب إلى أبيه لا إلى أمه ؛ وللدلالة على بشريته وبشريتها ؛ لأن التوالد من صفات البشر .

وأما معجزاته فهى كمعجزات الأنبياء السابقين : أجراها الله على أيديهم ؛ لتأييدهم ... وليست من صنعهم .

وكل نبى له معجزة تناسب أمته ... .

فإذا كان عيسى قد أحيا الموتى بإذن الله ، فقد ألقى موسى العصا ، فانقلبت من جماد إلى حية تسعى بإذن الله .

وهذا أبلغ من إحياء الموتى ؛ لأن الحياة ، هنا أجريت على جماد لم تسبق له حياة حيوانية ، بخلاف إحياء ميت سبقت له الحياة .

على أن إحياء عيسى للموتى ، كان بقدر المعجزة ، فلم يتجاوزها إلى إحياء كل ميت ، كشأن الإله القادر . فكيف يكون إلٰها ؟ !

والأناجيل الباقية بين أيدينا ، تؤيد ما ذكره القرآن الكريم .

فقد جاء فيها : أن المسيح عليه السلام - قال مخاطبا ربه سبحانه : « أنت الإله الحقيقى وحدك ، ويسوع المسيح الذى أرسلته »[1] .

ففى هذا النص ، يعترف السيد المسيح ، بأن الله هو الإله وحده ، وأنه رسول من عنده . وهذا ينقض دعواهم أنه إله .

(وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ) :

ومريم - عليها السلام - أم المسيح ، صِدِّيقة من البشر .

والصِّدِّيق : هو الذى يلتزم الصدق ، ويؤيد فعلُهُ قولَهُ ونِيَّتَهُ ، وشأنه أن يلتزم الحقَّ دائما .

وهى من سلالة طاهرة ، ونشأت فى بيئة طيبة ، فى كفالة نبى الله زكريا عليه السلام ، وشبَّت على طاعة الله تعالى : « ... وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ »[2] .

(كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ) :

أى : أنهما كسائر البشر يأكلان الطعام ، لحفظ حياتهما ، ولو حُرِمَا الطعام ، لهلكا كسائر الكائنات الحية .

ومَنْ هذا شأنه ، لا يكون إلٰها ، وإن كان من المصطفَيْنَ الأخيار .

---

(١) إنجيل يوحنا : ١٧ - ٣

(٢) التحريم ، من الآية : ١٢

وقد جاء فى كتابهم : أنه كان يطلب الطعام من أتباعه . كما فى إنجيل لوقا[1] : «أعندكم ها هنا طعام ؟ فناولوه جزءًا من سمك ، وشيئا من شهد عسل . فأخذ وأكل قدامهم» .

وأكْلُ الطعام : يستدعى الحاجة إليه للانتفاع به .

والإِله غنى عما سواه .

(انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ) :

هذا خطاب لكل مستعد للنظر والتدبر .

أى : تأملْ واعجبْ من شأن هؤلاء الكفار الذين بَيَّنَ الله لهم آياته الواضحات ، المؤيدة بالدليل العقلى والبرهان الحسى ، ليؤمنوا به وحده ، ولينصرفوا عما هم فيه من ضلال مبين !!

ثم تدبَّرْ واعجَبْ من شأنهم ، حين تَبيَّن لهم الحقُّ فانصرفوا عنه ، وانقادوا لأهوائهم وشهواتهم ، فآثروا الضلال على الهدى ، والكفر على الإيمان .

٧٦ - (قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَالَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ...) الآية .

انصرف المسيحيون إلى عبادة المسيح دون الله سبحانه فأشركوا ، كما عبد المشركون : البشر والملائكة والأصنام . . . فكفروا .

فَأَمَرَ الله رسوله أن يخاطبهم متعجبا منكرا :

كيف تعبدون من لا يملك لكم ضرا فيضركم إذا انصرفتم عنه ، ولا يملك لكم نفعا فينفعكم إذا أقبلتم على عبادته ؟ . بل لا يملك لنفسه - هو - ضرًّا ولا نفعا .

على أن أساس العبادة ، الرغبة فى تحصيل نفع أو دفع ضر ، والضر والنفع من الله وحده .

«قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ اللهُ . . .»[2] .

(وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) :

أى : كيف تعبدون من لا يسمع نجواكم ، ولا يعلم أموركم الخفية ، ونياتكم الباطنة ، وتتركون عبادة الله المحيط علمه بالأمور والشئون ، وإن بالغتم فى كتمها وإخفائها ، فيجازيكم على أعمالكم ونياتكم أبلغ الجزاء ، لأنه - سبحانه - يعلم السر وأخفى ؟ !

(١) ٢٤ - ٤١ - ٤٣ (٢) الأعراف ، من الآية : ١٨٨

قال عزّ مِنْ قائل : « وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ... »[1]

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾) .

المفردات :

(لَا تَغْلُوا) : لا تبالغوا مبالغة شديدة .

(أَهْوَاءَ) : شهوات .

(سَوَاءِ السَّبِيلِ) : وسطه المستوى القويم .

التفسير

٧٧ـ (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ ...) الآية .

بيّن الله ـ فيما سبق ـ انحراف كل من اليهود والنصارى عن دينهم القويم . ثم دعاهم إلى التوبة والاستغفار ، ونبذ ما انحرفوا إليه من الشرك ، ودعاهم إلى اتباع شريعة الإسلام التي جاءت البشارة بها فى كتبهم ، وعلى ألسنة أنبيائهم .

ثم بيّن لهم هنا ، سبب الانحراف ، وهو الخروج عن حد القصد ، والمبالغة فى تقديس بعض أنبيائهم ، مبالغةً أخرجتهم عن نطاق البشر ، ورفعتهم إلى الألوهية . وأمر الله رسوله أن يقول لهم : يٰأهل الكتاب ، لا ينبغى لكم أن تبالغوا فى عقيدتكم ، مبالغة

(١) البقرة ، من الآية : ٢٨٤

تُجاوز الحد ، وتُخرج عن القصد ، تاركين الحق ، ومخالفين الصواب .. وبهذا تخرجون عن نطاق التوحيد ، إلى الإيغال فى الشرك والضلال .

(وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَآءِ السَّبِيلِ) :

أى : ولا ينبغى لكم أن تنقادوا لشهوات الأحبار والرهبان ، الذين قد ضلوا من قبل ، فشرعوا من الدين ما لم يأذن به الله ، فأضلوا كثيرا ممن اتبعوهم - دون روية أو تفكير - ثم لمَّا جاءهم الإسلام : يردّهم إلى الحق والصواب ، ويدعوهم إلى جادة الطريق القويم ، الذى لاعوج فيه ولا التواء ولا مغالاة - ضلوا عن الطريق السوى ، وهو طريق القرآن ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين ، وعلى كل من اتبع غير طريق الحق .

روى أحمد والنسائى وابن ماجه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِى الدِّين ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم بِالْغُلُوِّ فى الدِّين » .

٧٨ - (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِىٓ إِسْرَآءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ...) الآية .

بعد أن نهى الله عن الغلو فى العقيدة غلوًّا ينحرف به المرء عن الصواب .

جاءت هذه الآية دالةً على استحقاق اليهود اللعن والطرد من رحمة الله ، على لسان داود وعيسى بن مريم ، بسبب عصيانهم واعتدائهم المستمرَّيْن .

واقتصرت الآية على ذكر هذين النبيَّيْن ، مع أنهم لعنوا من غير هذين ؛ لأن داود عليه السلام قادهم إلى النصر ، ومهّد لهم الملك ، وعيسى عليه السلام آخر أنبيائهم . وقد لقى منهم أشدَّ أنواع الإيذاء . وقد حاولوا قتله فنجّاه اللهُ من كيدهم الأثيم . ولذا سماهم - عيسى - أولادَ الأفاعى[1] .

(ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ) :

أى : استحقوا الطرد من رحمة الله ، بسبب دعاء أنبيائهم عليهم ؛ لتمردهم وعصيانهم وغلوهم ، وبسبب استمرارهم فى البغى والعدوان ، حتى كذبوا بعض أنبيائهم ، وقتلوا بعضهم ، وبالغوا فى إيذاء الآخرين .

(١) انجيل متى : ١٢ - ٣٤ ، ٢٣ - ٣٣

والتعبير بقوله : (يَعْتَدُونَ) للدلالة على تجدد البَغْيِ والعدوان فيهم ، وهو المشاهد فيهم حتى الآن .

٧٩ ـ (كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ...) الآية .

أى : ومما استحقوا به اللعنة : أن المنكر فشا فيهم ، حتى أصبح مألوفا بينهم معروفا فيهم ، لا يلقى مقاومة ولا زَجْرا ولا إنكارا ، فلا ينهى بعضهم بعضا عنه .

روى الإمام أحمد والترمذى وأبو داود عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم . قال : « لَمَّا وَقَعَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي الْمَعَاصِي ، نَهَتْهُمْ علماؤهم فلم يَنتهُوا . فجالسوهم فِي مَجَالِسِهِمْ أَوْ فِي أَسْوَاقِهِمْ ـ وَوَاكَلُوهُمْ وَشَارَبُوهُمْ . فَضَرَبَ اللَّهُ قلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ ، وَلَعَنَهُم عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ . ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . وَكَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ مُتَّكِئا فَجَلَسَ فَقَالَ : لَا ، وَالَّذِى نَفْسِي بِيَدِهِ ، حَتَّى تَأْطِرُوهُمْ على الحق أطرا »[1] ، أى تعطفوهم عليه .

وفى رواية لأبي داود وابن ماجه والترمذى : « وَاللهِ لَتَأْمُرُنَّ بالمعرُوفِ وَلتنْهَوُنَّ عن المنكر ، وَلَتَأْخُذُنَّ على يَدِ الظالِمِ ، وَلَتَأْطِرنَّه على الحق أَطْرًا . أو لَيَضْرِبَنَّ اللهُ قُلُوبَ بعضِكم بِبَعضٍ ، ثم يَلْعَنُكم كما لَعَنَهُمْ » .

ومن هذا يتضح : أن الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، مفروض ، فى جميع الرسالات السماوية .

(لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) :

أى ما أقبح فعلهم وسكوتهم على المنكر !

وقد عقب الله بهذا على الوصف السابق ، لإظهار مدى قبح وشناعة ما كانوا يصنعون والتعبير بقوله : (يَفْعَلُونَ) للدلالة على استحضار الصورة القبيحة لما كانوا يفعلون ، وللدلالة على استمرارهم فى ذلك .

---

(١) أى : تحملوهم على الحق حملا .

(تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾) .

المفـردات :

(يَتَوَلَّوْنَ) : يوالون ويناصرون .

(سَخِطَ) : غضب غضبا شديدا .

(أَوْلِيَآء) : نصراء .

(فَاسِقُونَ) : خارجون عن شعائر الدين .

التفسير

٨٠ـ (تَرَى كَثِيراً مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ...) الآية .

أى : من جرائمهم التى نراها : أن كثيرا منهم ـ وهم أهل كتاب ورسالة سماوية ـ يناصرون الكافرين ، ويؤيدونهم ، ويتوددون إليهم .

والمقصود بالكفار هنا : المشركون ، وقد أعلن كعب بن الأشرف ـ وهو من زعمائهم ـ أن المشركين « أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً » .

وقيل : المراد بالذين كفروا ـ هنا ـ المنافقون وكان زعيم المنافقين بالمدينة : عبد الله ابن أبي ، يوالى اليهود ويوالونه . فلما غدروا بالمسلمين وغزاهم الرسول صلى الله عليه وسلم واستسلموا له ، جاء عبدالله بن أبىّ إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : يامحمد أحسن فى موالىّ : أربعمائة حاسر ـ أى بدون دروع ـ وثلاثمائة دارع قد منعونى من الأحمر

والأسود : تحصدهم فى غداة واحدة ؟! إنى والله ، امرؤ أخشى الدوائر . فقال صلى الله عليه وسلم : هُمْ لَكَ ، عَلَى أَن يَخْرُجُوا مِنَ المدِينَةِ وَلَا يُجَاوِرُونِى بِهَا .

والواقع أن اليهود بالمدينة ، كانوا يوالون مشركى قريش ومنافقى المدينة . وكانوا على صلات وثيقة بالروم . فهم يوالون كل مناهض للإسلام .

(لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ) :

أكد الله ذمّهُ لليهود ، بأنهم اختاروا لأنفسهم أسوأ ما يختاره إنسان لنفسه ، حيث قدموا من الأعمال التى يتوقعون أن تنفعهم فى الآخرة ، ما يستدعى غضب الله وسخطه عليهم ، بأن حاربوا الإسلام - وهو دين التوحيد الذى بشرت به توراتهم - وناصروا المشركين والمنافقين ؛ الذين يتجهون إلى غير الله بالعبادة والتوحيد .

(وَفِى الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ) :

أى : وسيكون جزاؤهم على هذا فى الآخرة الخلود فى النار ، ومقاساة عذابها الأليم .

٨١ - (وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ ...) الآية .

أى : لو كان هؤلاء اليهود ، يؤمنون بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم وكتابه الكريم ، أو بالله ورسوله موسى عليه السلام الذى يدّعون اتباعه وبما أنزل عليه من التوراة - لو كان لديهم هذا الإيمان - ما اتخذوا المنافقين ولا المشركين نصراء ، وهم يعرفون أنهم عبدة أصنام .

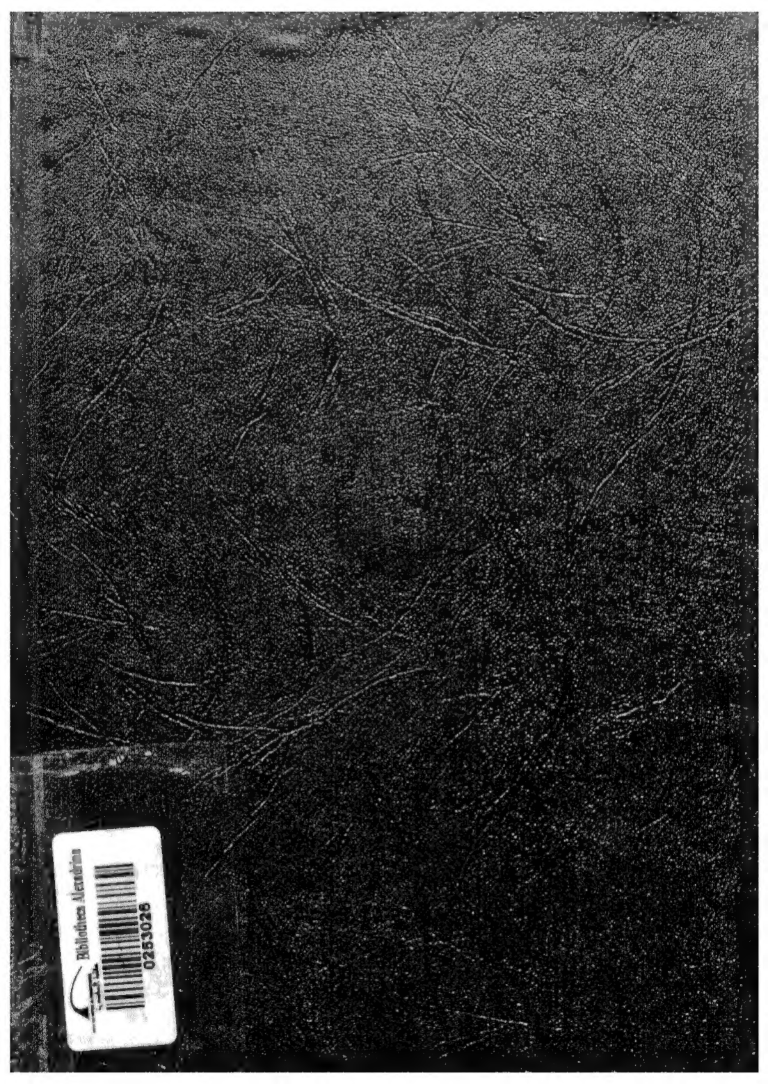
ويجوز أن يكون المراد : لو أن المشركين والمنافقين آمنوا بالله ورسوله ، وما أنزل الله عليه ، ما اتخذوا اليهود أصدقاء ونصراء .

(وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ) :

ولكن كثرتهم انحرفت بهم عن الحق ، وجنحت إلى الضلال ، فوالت الكفار ، وأعانتهم على المؤمنين ؛ لأن خروجهم عن الدين القويم ، ألّف بين هؤلاء الكافرين .

وإذا كانت الكثرة قد انحرفت عن الصواب ، فعلى القلة أن تقاومها ما استطاعت إلى ذلك سبيلا . وإلا فالجميع فى الحكم سواء .

وهكذا كل كثرة على صواب ، إلى يوم القيامة


Bibliotheca Alexandrina
0253026